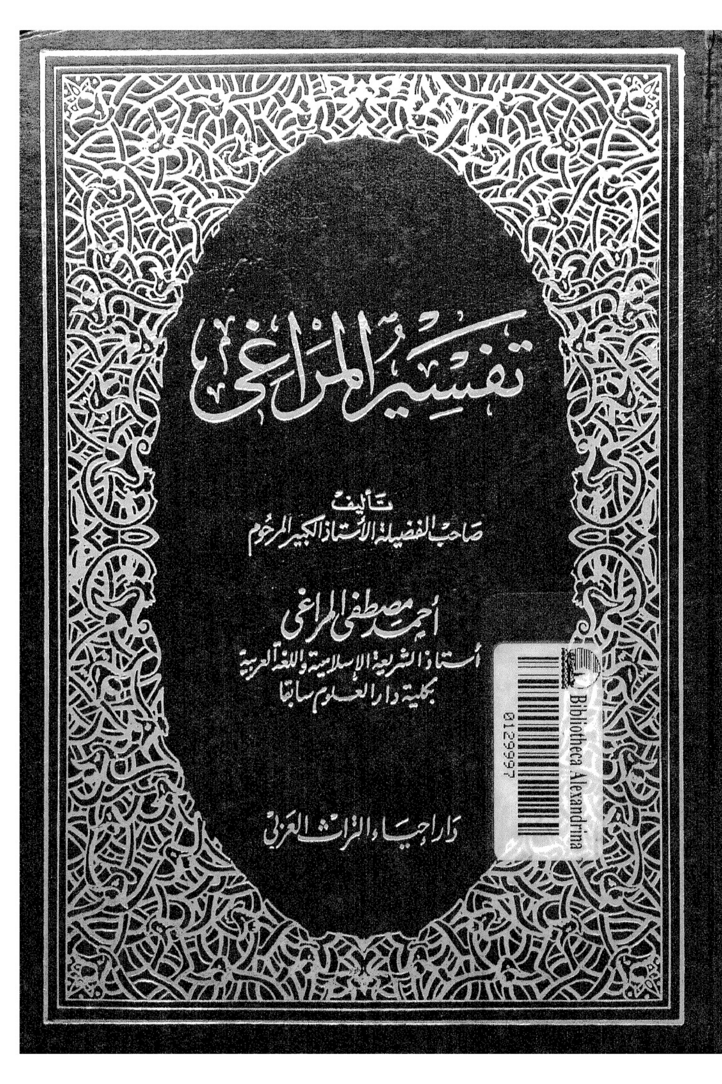

تفسير المراغي
تأليف
صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم
أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا
دار إحياء التراث العربي
Bibliotheca Alexandrina
0129997

تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية

بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الخامس والعشرون

دار إحياء التراث العربي

بيروت

الطبعة الثانية
١٩٨٥

الجزء الخامس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي
قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ
وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨) .

تفسير المفردات

الساعة : يوم القيامة ، الأكمام : واحدها كِمّ (بالكسر) : وعاء الثمرة ؛ وقد يطلق على كل ظرف لمال أو غيره ، آذناك : أى أعلمناك ؛ يقال آذنه يؤاذنه أى أعلمه كما قال :

آذنتنا ببينها أسماء ربّ ثاوٍ يُمَلّ منه الثواء

ضل عنهم : أى غاب وزال، ظنوا : أى أيقنوا وعلموا ، محيص: أى مهرب ؛ يقال حاص يحيص حيصا : إذا هرب .

المعنى الجملي

بعد أن هدد الكافرين بأن جزاء كل عامل سيصل إليه يوم القيامة كاملا غير منقوص ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر — أردف ذلك بيان أن هذا اليوم لا سبيل للخلق إلى معرفته ، فلا يعلمه إلا هو ، وأن علم الحوادث المقبلة فى أوقاتها المعينة مما استأثر الله به ، فلا يعلم أحد متى تخرج الثمر من الأكمام ، ولا متى تحمل المرأة ولا متى تضع . ثم ذكر أنه سبحانه يوم القيامة ينادى المشركين تهكما وتقريعا لهم : أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ فيجيبون : الآن لا نشهد لأحد منهم بالشركة فى الألوهية ، وقد غابوا عنهم فلا يرجون منهم نفعا ، ولا يفيدونهم خيرا ، وأيقنوا حينئذ أن لا مهرب لهم من العذاب .

روى أن المشركين قالوا يا محمد إن كنت نبيا فخبرنا متى تقوم الساعة فنزلت الآية:

الإيضاح

(إليه يرد علم الساعة) أى إذا سئل عنها أحد ردّ علمها إليه تعالى ، فإنه لا يعلم متى قيامها سواه ، وقد جاء فى الحديث «أن جبريل عليه السلام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل» .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا » وقوله : « لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ » .

وبعد أن ذكر أنه استأثر بعلم الساعة بين أنه اختص أيضا بعلم الغيب ومعرفة ما سيحدث فى مستأنف الأزمنة فقال :

(وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) أى وما تبرز الثمرة من وعائها الذى هى مغلّفة به ، وما تحمل أنثى ولا تضع ولدها إلا بعلم

من الله ، فهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

ونحو الآية قوله : « يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ » .

وفى هذا دليل على أن المنجمين لا يمكنهم الجزم بشىء مما يقولون البتة ، وإنما غايته ادعاء ظن ضعيف قد يصيب وربما لا يصيب ، وعلم الله هو المقطوع به الذى لا يشركه فيه أحد .

ثم ذكر بعض ما يحدث فى هذا اليوم فقال :

(ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد) أى واذكر أيها الرسول لقومك يوم ينادى سبحانه عباده المشركين على رءوس الأشهاد تهكما بهم واستهزاء بأمرهم — أين شركائى الذين عبدتموهم معى ؟ فيجيبون ويقولون : أعلمناك أنه ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكا ، ونفى الشهادة يراد به التبرؤ منهم ، لأن الكفار يوم القيامة ينكرون عبادة غير الله كما حكى الله عنهم أنهم قالوا : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » .

والخلاصة — إن قوله آذناك إخبار بإعلام سابق علمه الله من أحوالهم يوم القيامة، وأنهم لم يبقوا على الشرك ، وعلى تلك الشهادة ، كأنهم يقولون أنت أعلم به ، ثم يأخذون فى الجواب .

(وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل) أى وغابت عنهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها فى الدنيا ، فأخذ بها طريق غير طريقهم فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم شيئا من عذاب الله الذى حل بهم .

(وظنوا ما لهم من محيص) أى وأيقنوا حينئذ أنه لا ملجأ لهم من عذاب الله .

لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ، فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١).

تفسير المفردات

لايسأم : أى لايملّ ، والخير : المال والصحة والعزة والسلطان ونحوها ، والشر : الفقر والمرض ونحوها ، واليأس : انقطاع الرجاء من حصول الخير ، والقنوط : (بالفتح) من اتصف بالقُنوط (بالضم) وهو ظهور أثر اليأس على الإنسان من المذلة والانكسار ، والرحمة هنا : الصحة وسعة العيش ، والضراء : المرض وضيق العيش ونحوها ، هذا لى : أى هذا ما أستحقه لما لى من الفضل والعمل ، والحسنى : الكرامة ، والغليظ هنا : الكثير ، نأى بجانبه : أى تكبر واختال ، وعريض : أى كثير مستمر ؛ يقولون أطال فى الكلام ، وأعرض فى الدعاء : إذا أكثر .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه حال الكافرين فى الآخرة ، وذكر أنهم حينئذ يتبرءون من الشركاء بعد أن كانوا معترفين بهم فى الدنيا — أردف ذلك بيان أن الإنسان متبدّل الأحوال ، متغير الأطوار ، إن أحسّ بخير وقدرة انتفخت أوداجه وصعّر خديه ومشى الخيلاء ، وإن أصابته محنة وبلاء تطامن واستكان ويئس من الفرج ، وهذا دليل على شدة حرصه على الجمع ، وشدة جزعه من الفقد ، إلى مافيه من طيش يتولد عنه إعجابه واستكباره حين النعمة ، وتطامنه حين زوالها ، وذلك مما يومىء إشغله بالنعمة عن

المنعم فى حالى وجودها وفقدها ، أما فى حال وجودها فواضح ، وأما فى حال فقدها فلأن التضرع جزعا إنما كان على الفقد الدالّ على الشغل عن المنعم بالنعمة .

الايضاح

(لا يسأم الإنسان من دعاء الخير) أى لا يمل الإنسان من دعائه ربه ومسألته إياه أن يؤتيه صحة وعافية وسعة فى الرزق ، فهو مهما أوتى من المال فهو لا يقنع ، وقد جاء فى الأثر « منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال » وجاء أيضا « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى لهما ثالثا » .

(وإن مسه الشر فيئوس قنوط) أى وإن أصابه بؤس وضيق فى المال أو ابتلى بمرض أنهك قواه واضمحلّ به جسمه — يئس من فضل الله ورحمته ، وظهر عليه سيمى الذل والانكسار ، والخنوع والخضوع .

وخلاصة ذلك — إن الإنسان متبدل الأحوال ، متغير الأطوار ، إن أحس بخير بطر وتعظم ، وإن شعر ببؤس ذل وخضع ، فهو شديد الحرص على الجمع ، شديد الجزع على الفقد .

ثم ذكر حال هذا اليئوس القنوط فقال :

(١) (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولنّ هـذا لى) أى ولئن كشفنا ما أصابه من سقم فى نفسه أو شدة وجهد فى معيشته ، فوهبنا له العافية بعد السقم ، والغنى بعد الفقر — ليقولن هذا حقى قد وصل إلىّ ، لأنى أستوجبه بما حصل لى من ضروب الفضائل وأعمال البر والقرب من الله ، لا تفضل منه علىّ — أو لا يعلم أن هذه الفضائل لو وجدت فإنما هى بفضل الله وإحسانه ، وهو لا يستحق على الله شيئا ؟

(٢) (وما أظن الساعة قائمة) أى وما أظن الساعة ستقوم ، فلا رجعة ولا حساب

ولا عقاب على شيء من الآثام التي يقترفها الإنسان في دنياه ، ويجترمها مدى حياته الدنيوية .

وما نُتج هذا إلا من شدة رغبته في الدنيا ، وعظيم نفرته من الآخرة ، فهو حين ينظر إلى أحوال الدنيا يقول : إنها لى وأنا جدير بها ، لما لى من فضل به أستحققتها ، وحين ينظر إلى أحوال الآخرة يقول : وما أظن الساعة قائمة .

(٣) (ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) أى وإن الغالب على ظنى أن لا رجعة ولا بعث ولاقيامة ، ولئن كان البعث حقا فإن لى عنده لكرامة في الآخرة ، فإن حالها كحال الدنيا ، فما استحققته من النعيم فيها سيكون لى مثله في الآخرة .

وبعد أن حكى عنهم هذه الأقوال ذكر أنه سيظهر لهم أن الأمر بعكس ما يظنون ، وبضد ما يعتقدون فقال :

(فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ) أى فلنخبرن هؤلاء الكافرين يوم يرجعون إلينا بما عملوا من المعاصى ، واجترحوا من الآثام ، ومادسّوا به أنفسهم من الخطايا ، ثم لنجازينّهم عليها، فيستبين لهم أنهم جديرون بالإهانة والاحتقار لا بالكرامة والإحسان ، ولنذيقنهم عذابا غليظا لا يمكنهم الفكاك منه وهو عذاب جهنم التي لاموت فيها ولا يجدون عنها حولا .

وبعد أن حكى أقوال الذى أنعم عليه بعد وقوعه في الجهد الجهيد — حكى أفعاله فقال :

(وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه) أى وإذا نحن أنعمنا عليه فكشفنا عنه المرض ووهبنا له الصحة والعافية ورزقناه سعة العيش — أعرض عما دعوناه إليه من طاعتنا ، واستكبر عن الانقياد لأمرنا .

ثم ذكر أنه حين الضراء يكون على عكس هذا فيتضرع ويبتهل إلى ربه فقال :

(وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) أى وإذا أصابته شدة من فقر ومرض ونحوهما

أطال الدعاء والتضرع إلى الله ، لعله يكشف عنه تلك الغُمّة ، ويزيل عنه برحمته هاتيك المُلِمّة .

ونحو الآية قوله « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ » الآية .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ؟ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤) .

تفسير المفردات

أرأيتم : أى أخبرونى ، أضل : أى أكثر ضلالا وبُعدا عن الحق ، والشقاق : الخلاف ، والآفاق : النواحى من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها واحدها أفق (بضمتين وبضم فسكون) وشهيد : أى شاهد على كل ما يفعله خلقه ، لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ومرية : أى شك ، من لقاء ربهم : أى من البعث بعد الممات ، محيط : أى عالم بجميع الأشياء لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

المعنى الجملى

بعد أن أوعد سبحانه على الشرك وهدد ، وحذر وأنذر ، وذكر أن المشركين ينكرون الشرك يوم القيامة ويتبرءون من الشركاء، ويظهرون الذل والخضوع، لاستيلاء الخوف عليهم لما يرون من شديد الأهوال ، وأردف هذا ذكر طبيعة الإنسان وأنه

متبدل لايثبت على حال واحدة ، فإن أحس القوة تكبر وتعظم ، وإن شعر بالضعف أظهر المسكنة والمذلة — أعقب ذلك بلفت أنظار الطاعنين فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلى التأمل والتفكر فيما بين أيديهم من الدلائل ، ليرعووا عما هم فيه من الغى والضلال ، ويقروا بها لتظاهر الأدلة عليها ، وعلى أن القرآن منزل من عند الله حقا ، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور .

الإيضاح

(قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المكذبين بالقرآن الذى جئتهم به من عند ربك : أخبرونى أيها القوم إن كان هذا الذى أنتم به تكذبون — من عند ربى ثم كفرتم به ، أفلا تكونون مفارقين للحق بعيدين من الصواب ؟ .

وقد كانوا كلما سمعوا القرآن أعرضوا عنه وبالغوا فى النفرة منه ، حتى قالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ، فلفت أنظارهم إلى أنه يجب عليهم النظر والتأمل فيه ، فإن دل الدليل على صحته قبلوه ، وإن أرشد إلى فساده تركوه ، أما قبل ذلك فالإصرار على الإعراض والإنكار بعيدان عن الصواب وعما يحكم به العقل فما أضلكم وأكثر عنادكم ومشاقتكم للحق واتباعكم للهوى .

وخلاصة ذلك — قل لهم : من أشد ذهابا عن قصد السبيل ، وأسلك لغير طريق الصواب ، ممن هو فى فراق لأمر الله وخلاف له ، وبعد عنه ؟

وبعد أن ذكر أدلة التوحيد والنبوة أجاب عن شبهات المشركين وتمويهات الضالين فقال :

(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أى سنرى هؤلاء المشركين وقائعنا بالبلاد المحيطة بمكة وبمكة بما أجريناه على يدى نبينا وعلى يدى خلفائه وأصحابه من الفتوح الدالة على قوة الإسلام وأهله ، ووهن الباطل وحزبه حتى

يعلموا حقيقة ماأوحينابه إليك وأنه الحق الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن وعده صادق وأنه مظهر دينك على الأديان كلها .

والخلاصة — سنيسر لهم من الفتوح مالم يتيسر لأحد ممن قبلهم ، ونظهرهم على الجبابرة والأكاسرة ، ونجرى على أيديهم من الأمورالخارجة عن المعهود ، الخارقة للعادة ، فيستبين لهم أن هذا القرآن هو الحق ، ومن ثمّ نصرَ حامليه ، وأظهرهم على أعدائهم فى قليل من الزمان .

ثم وبخهم على إنكارهم تحقق هذه الإراءة وحصولها فقال :

(أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟) أى كفى بالله شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم ، وهو يشهد بأن محمدا صادق فيما أخبر به عنه كما قال : « لَـكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ » الآية ، وقوله : « قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللهُ » .

وقصارى ذلك — ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التى أوضحها سبحانه فى هذه السورة وفى كل سور القرآن ، وفيها البيان الكافى لإثبات وحدانية الله وتنزيهه عن كل نقص ، وإثبات النبوة والبعث .

وبعد أن أقام الأدلة ، وأوضح الحجج حتى لم يبق بعدها مقال لمتعنت ولاجاحد — بين سبب عنادهم واستكبارهم فقال :

(ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم) أى إنهم فى شك من البعث والجزاء ، واستبعادهم إحياء الموتى بعد تفرق أجزائهم ، وتبدد أعضائهم ، ومن ثم لايلتفتون إلى النظر فيما ينفعهم عند لقائه كالتفكر فى صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن القرآن حق لاشك فيه .

ثم دفع مريتهم وشكهم فى البعث وإعادة ما تفرق واختلط ، مما يتوهم منه عدم إمكان تمييزه فقال :

(ألا إنه بكل شىء محيط) أى إنه تعالى عليم بجمل الأشياء وتفاصيلها ، مقتدر عليها لا يفوته شىء منها ، فهو يعلم ما تفرق من أجزاء الأجسام ، ويقدر على إعادتها إلى أمكنتها ، ثم بعثها وحسابها ، لتستوفى جزاءها على ما قدمت من عمل .

مجمل ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

(١) وصف الكتاب الكريم .
(٢) إعراض المشركين عن تدبره .
(٣) جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين .
(٤) إقامة الأدلة على الوحدانية .
(٥) إنذار المشركين بأنه سيحل بهم ما حل بالأمم قبلهم .
(٦) شهادة الأعضاء عند الحشر على أربابها .
(٧) ما يفعله قرناء السوء من التضليل والصد عن سبيل الله .
(٨) ما كان يفعله المشركون حين سماع القرآن .
(٩) طلب المشركين إهانة من أضلوهم انتقاما منهم .
(١٠) ما يلقاه المؤمنون من الكرامة يوم العرض والحساب .
(١١) إعادة الأدلة على الوحدانية .
(١٢) القرآن هداية ورحمة .
(١٣) إحاطة علم الله وعظيم قدرته .
(١٤) من طبع الإنسان التكبر عند الرخاء والتضرع وقت الشدة .
(١٥) آيات الله فى الآفاق والأنفس الدالة على وحدانيته وقدرته .
(١٦) شك المشركين فى البعث والنشور ثم الرد عليهم .

سورة الشورى

هى مكية إلا الآيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ فمدنية .

وآيها ثلاث وخمسون ، نزلت بعد فصلت .

ومناسبتها لما قبلها — اشتمال كل منهما على ذكر القرآن ، ودفع مطاعن الكفار فيه ، وتسلية النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حٰمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) .

تفسير المفردات

حٰمٓ عسقٓ — تقدم أن قلنا إن الحروف المقطعة التى جاءت فى أوائل السور حروف تنبيه نحو ألا و يا ونحوها ، يؤتى بها لإيقاظ السامع وتنبيهه إلى ما سيلقى إليه من الأمور العظام المشتملة عليها هذه السورة ، و ينطق بأسمائها هكذا (حاميم . عين . سين . قاف .) يتفطرن : أى يتشققن ، يسبحون : أى ينزهون الله عما لا يليق به ، والأولياء : الشركاء والأنداد ، حفيظ : أى رقيب على أحوالهم وأعمالهم ، بوكيل :

أى بموكول إليك أمورهم حتى تؤاخذهم بها ولا وكل إليك هدايتهم ، وإنما عليك البلاغ فحسبُ .

المعنى الجملى

بين سبحانه أن ما جاء فى هذه السورة موافق لما فى تضاعيف الكتب المنزلة على سائر الرسل ، من الدعوة إلى التوحيد ، والإيمان باليوم الآخر ، والتزهيد فى جمع حطام الدنيا ، والترغيب فيما عند الله ، ثم ذكر أن ما فى السموات والأرض فهو ملكه وتحت قبضته ، وله التصرف فيه إيجادا وإعداما وتكوينا وإبطالا ، وأن السموات والأرض على عُظْمهما تكاد تتشقق فَرَقا من هيبته وجلاله سبحانه ، وأن الملائكة ينزهونه عما لا يليق به من صفات النقص ، ويطلبون المغفرة لعباده المؤمنين ، ثم أردف هذا تسلية رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه ليس بالرقيب على عبدة الأصنام والأوثان يستطيع أن يردهم إلى سواء السبيل ، بل ليس عليه إلا البلاغ وعلينا حسابهم ، فلا يبخع نفسه عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون .

الايضاح

(كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) أى بمثل ما فى هذه السورة ، من الدعوة إلى التوحيد ، والنبوة ، والإيمان باليوم الآخر ، وتجميل النفس بفاضل الأخلاق ، وإبعادها عن رذائل الخلال ، والعمل على سعادة المرء والمجتمع ، يوحى إليك الله العزيز فى ملكه ، الغالب بقهره ، الحكيم بصنعه ، المصيب فى قوله وفعله ، كما أوحى إلى الأنبياء بمثله من قبلك .

وسيأتى تفصيل هذا فى سورة «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» فقد ذكر فى أولها التوحيد ، وفى وسطها النبوة وفى آخرها المعاد . ثم قال : « إِنَّ هٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى » أى إن المقصود من إنزال جميع الكتب الإلهية ليس إلا هذه

المطالب الثلاثة العالية التي لا تتم السعادة إلا بها، ولا الفوز بالنعيم في الدارين إلا بسلوكها.

ثم بين سبحانه عظمته وكبرياءه وحكمته فقال:

(له مافى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم) أى إن مافى السموات والأرض تحت قبضته وفى ملكه وله التصرف فيه إيجادا وإعداما، وهو المتعالى فوقه، العظيم عن مماثلته، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير.

(تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) أى تكاد السموات يتشققن من هيبة من هو فوقهن بالألوهية والقهر، والعظمة والقدرة.

وبعد أن بين كمال عظمته باستيلاء هيبته على الجسمانيات، انتقل إلى ذكر الروحانيات فقال:

(والملائكة يسبحون بحمد ربهم) أى والملائكة ينزهون ربهم عن صفات النقص، ويسمُونه بسمات الجلال والكمال، شاكرين له على ما أنعم به عليهم من طاعته، وسخَّرهم لعبادته.

ونحو الآية قوله: « لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ».

(ويستغفرون لمن فى الأرض) أى يسألون ربهم المغفرة لذنوب من فى الأرض من أهل الإيمان به، ويلهمونهم سبل الخير الموصلة إلى السعادة، فمثلهم مثل الضوء يعطى الحياة بحرارته، ويعطى الهدى بنوره.

ونحو الآية قوله: « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ».

ثم بين سبحانه أن من شأنه المغفرة والرحمة لعباده فقال :

(ألا إن الله هو الغفور الرحيم) فما من مخلوق إلا له حظ من رحمته ، وهو سبحانه ذو مغفرة للناس على ظلمهم .

وفى الآية إيماء إلى قبول استغفار الملائكة ، وهو يزيد على ما طلبوه من المغفرة ، الرحمة بهم ، وتأخير عقوبة الكافرين والعصاة نوع من المغفرة والرحمة ، لعلهم يرعوون عن غوايتهم ، ويثوبون إلى رشدهم ، وينيبون إلى ربهم .

ثم أبان وظيفة الرسل فقال :

(والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) أى والمشركون الذين اتخذوا آلهة من الأصنام والأوثان يعبدونها — الله هو المراقب لأعمالهم، المحصى لأفعالهم وأقوالهم ، المجازى لهم يوم القيامة على ما كانوا يفعلون ، ولست أنت أيها الرسول بالحفيظ عليهم ، إنما أنت نذير تبلغهم ما أرسلت به إليهم ، إن عليك إلا البلاغ وعلينا الحساب ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإنك لست بمدرك ما تريد من هدايتهم إلا إذا شاء ربك .

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (٨) .

تفسير المفردات

الإنذار : التخويف : وأم القرى : مكة ، ويوم الجمع يوم القيامة : سمى بذلك لاجتماع الخلائق فيه كما قال تعالى : « يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ » والفريق : الجماعة ، والسعير : النار المستعرة الموقدة .

المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف أنه هو الرقيب على عباده، المحصى لأعمالهم، وأنه عليه السلام نذير فحسب، وليس عليه إلا البلاغ — ذكر هنا أنه أنزل كتابه بلغة العرب ليفهمه قومه من أهل مكة وما حولها كما قال: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» وينذرهم بأن يوم القيامة آت لاشك فيه، وأن الناس إذ ذاك فريقان: فريق يدخل الجنة بما قدم من صالح الأعمال، وفريق يدخل النار بما دسّى به نفسه من سيىء الفعال، ثم ذكر أن حكمته اقتضت أن يكون الإيمان بالتكليف اختيارا ولم يشأ أن يكون قسرا وجبرا، ولو شاء أن يكون كذلك لفعل، فمن أخبت لله وأناب وعمل صالحا أفلح وفاز بالسعادة، ومن عاث فى الأرض فسادا، واتجهت همته إلى ارتكاب الشرور والآثام خسر وباء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المهاد، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا.

الإيضاح

(وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أمّ القرى ومن حولها) أى ومثل ذلك الإيحاء البديع الواضح، أوحينا إليك قرآنا عربيا بلسان قومك، لاخفاء فيه عليك ولا عليهم، ليفهموا ما فيه من حجج الله وذكره ولتنذر به أهل مكة وما حولها من البلاد، كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه.

وقصارى ذلك — إنا كما أوحينا إليك أنك لست بالحفيظ عليهم ولا بالوكيل، أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أهل مكة وما حولها.

وخص هؤلاء بالذكر، لأنهم أول من أنذروا، ولأنهم أقرب الناس إليه، فلا دليل فيها على أنه أرسل إليهم خاصة، كيف وقد جاء فى آية أخرى «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ».

وهذا الإنذار يعم شئون الدنيا وشئون الآخرة . ثم خص من بينها أمور الآخرة بيانا لعظيم أهوالها وشديد نكالها فقال :

(وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه) أى ولتنذر الخلائق كافةً عقابَ الله يوم جمعهم للعرض والحساب ، وهو يوم لاشك فيه ، لتظاهر الأدلة على تحققه عقلا ونقلا، فالحكمة قاضية بجزاء المحسن على إحسانه ، ومعاقبة المسيء على إساءته ، ولما فيه من نصوص قاطعة على وجوده لاتحتمل تأويلا ولا تفسيرا .

ثم ذكر عاقبة العرض والحساب فقال :

(فريق فى الجنة وفريق فى السعير) أى إنهم بعد جمعهم وعرضهم للحساب يفرقون ، ففريق منهم يدخل الجنة لإيمانه بالله ورسوله وبما أحسن من عمل فى دنياه استحق به الكرامة عند ربه ، والنعيم المقيم فى جنته ، وفريق منهم فى نار الله الموقدة المسعورة على أهلها ، وهم الذين كفروا بالله وخالفوا ما جاءهم به رسوله ، فدسّوا أنفسهم بما أساءوا إليها من شرور وآثام ، وبما عبدوه من أوثان وأصنام .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ. وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » .

ثم سلّى رسوله على ما كان يناله من الغم والهم بتولى قومه عنه ، وعدم استجابة دعوته ، وأعلمه أن أمور عباده بيده ، وأنه الهادى إلى الحق من يشاء ، والمضل من أراد فقال :

(ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون مالهم من ولىّ ولا نصير) أى ولو شاء الله لجعل الجميع مؤمنين كما تريد وتحرص عليه ، ولكن حكمته اقتضت أن يكون بعضهم مؤمنين كما تحب ، وبعضهم كفارا وهم الذين اتخذوا من دون الله أولياء ؛ لأنه سبحانه شاء أن يكون الإيمان مبنيا على التكليف

والاختيار ، يدخل فيه المرء بمحض الرضا والتأمل فى الأدلة الموصّلة إلى الهدى ، وبذلك يتم الفوز والسعادة فى الدارين ، وينفرمنه من دنّس نفسه بإدران الشرك ، وركب رأسه وأطاع هواه فكان من الخاسرين .

ولو شاء لجعل الإيمان بالقسر والإلجاء فكان الناس جميعا أمة واحدة ، ولكن له الحجة البالغة ، والمثل الأعلى ، لم يشأ ذلك ، فلا تأس على عدم إيمان قومك ، ولاتذهب نفسك عليهم حسرات كما قال : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً » وقد جاء هذا المعنى فى غير آية سلف كثير منها كقوله : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى » وقوله : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » .

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) .

تفسير المفردات

الولى : الناصر والمعين ، أنيب : أى أرجع ، فاطرالسموات والأرض : أى مبدعهما لا على مثال سابق ، من أنفسكم : أى من جنسكم ، يذرؤكم : أى يكثركم يقال ذرأ الله

الخلق : بثهم وكثّرهم ، مقاليد : واحدها مقلاد أو مقليد أو إقليد ، وهو المفتاح ، يبسط أى يوسع ، يقدر : أى يقتّر و يضيق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم اتخذوا من دون الله أولياء ، وأن الله وكيل عليهم ، ولست أيها الرسول بالحفيظ عليهم — طلب إليه هنا أن يدع الاهتمام بأمرهم ، و يقطع الطمع فى إيمانهم ، مبينا أنهم اتخذوا من دون الله أولياء ، وهو سبحانه الولى حقا ، القادر على كل شىء ، فقد عدلوا عنه إلى ما لا نسبة بينه و بينهم بحال .

الايضاح

(أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولىّ وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير) أى إن هؤلاء المشركين من قومك ، قد اتخذوا أولياء ينصرونهم من دون الله ، وقد ضلوا ضلالا بعيدا ، فهؤلاء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فإن أرادوا وليًّا بحق يدفع عنهم الملمات ، و يجلب لهم الخيرات ، فالله هو القادر على ذلك ، وهو المحيى الموتى ، و يحشرهم يوم القيامة ، فجدير بمثله أن يتّخذ وليًّا ، لا من يستطيع دفع الضر عن نفسه ولا جلب الخير لها .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » .

و بعد أن منع رسوله أن يحمل الكفار على الإيمان قسرا — منع المؤمنين أن يتنازعوا معهم فى شأن من شؤون الدين فقال :

(وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله) أى وما اختلف فيه العباد من أمر الدين فحكمه ومرجعه إلى الله ، يحكم فيه يوم القيامة بحكمه ، و يفصل بين المختصمين ، وحينئذ يظهر المحق من المبطل ، و يتميز أهل الجنة وأهل النار .

وقد يكون المعنى — إن حكمه مردود إلى كتاب الله ، فقد اشتمل على الحكم بين عباده فيما فيه يختلفون ، فالآية عامة فى كل اختلاف يتعلق بأمر الدين وأنه مردود إلى كتاب الله .

ونحو الآية قوله : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ » .

وقد حكم سبحانه فى كتابه ، بأن الدين هو الإسلام ، وأن القرآن حق ، وأن المؤمنين فى الجنة والكافرين فى النار ، ولكن لما كان الكفار لا يذعنون بأن ذلك حق إلا فى الدار الآخرة وعدهم بذلك يوم القيامة .

ثم أمره أن يقول لهم :

(ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب) أى ذلكم الموصوف بهذه الصفات ، من الإحياء والإماتة ، والحكم بين المختلفين ، هو ربى وحده ، لا آلهتكم التى تدعون من دونه ، عليه توكلت فى دفع كيد الأعداء وفى جميع شئونى ، وإليه أرجع فى كل المهمات ، وإليه أتوب من الذنوب .

وفى هذا تعريض لهم بأن ماهم عليه من اتخاذ غير الله وليّا لا يجديهم نفعا ، ولا يدفع عنهم ضرا ، فالأجدر بهم أن يقلعوا عنه ، إذ من شأن العاقل ألا يفعل إلا ما يفيده فى دين أو دنيا .

ثم بين الأسباب التى تحمله على أن يلتجئ إليه وتجعله الحقيق بذلك فقال :

(فاطر السموات والأرض) أى إنه الجدير بأن يُعْتَمد عليه ، ويستعان به ، لأنه خالق العوالم جميعها ، علويها وسفليها ، على عظمتها التى ترونها ، لا آلهتكم التى لا تستطيع أن تخلق شيئا .

ثم بين بعض ما خلقه وأنعم به فقال :

(جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه) أى ومن حكمته لبقاء العمران فى هذه الحياة إلى الأجل الذى حدده فى علمه — أن خلق لكم

من جنسكم زوجات ، لتتوالدوا ، ويكثر النسل ، و يستمر بقاء هذا النوع ، وجعل للأنعام مثل هذا ، و بذا تنتظم شئون الحياة لهذا الخليفة الذى جعله الله فى الأرض ، وتقضى مآر به الدنيوية من مأكول ومشروب ، وتستمر تغذيته على أتم النظم، وأكمل الوجوه، فيشكر ربه على ما أولى ، ويعبده على ما أنعم ، فيفوز بالسعادة فى الحياة الآخرة كما فاز بها فى الدنيا .

وقوله « فيه » أى فى هذا التدبير وهو التزويج ، فهو سبحانه جعل الناس والأنعام أزواجا ليكون بين ذكورهم و إناثهم التوالد والتناسل ، فيكون هذا التدبير كالمنبع والمعدن لهذا التكثير فى النسل .

و بعد أن ذكر بعض صنعه الدال على عظمته أرشد إلى بعض صفاته العظيمة فقال:

(١) (ليس كمثله شىء) أى ليس كخالق الأزواج شىء يزاوجه ، لأنه الفرد الصمد، وقد يكون المعنى ليس مثله شىء فى شئونه التى يدبرها بمقتضى قدرته الشاملة ، وعلمه الواسع ، وحكمته الكاملة ، ومن ثم جعل هذا التدبير المحكم لإحاطة علمه بكل شىء .

(٢) (وهو السميع البصير) أى وهو السميع لما ينطق به خلقه من قول ، البصير بأعمالهم لايخفى عليه شىء مما كسبت أيديهم من خير أو شر .

(٣) (له مقاليد السموات والأرض) أى له تعالى مفاتيح خزائن السموات والأرض ، فبيده مقاليد الخير والشر ، فما يفتح من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك منها فلا مرسل له من بعده ، وقد بين هذا بقوله :

(يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر) أى يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه و يقتّر على من يريد ، بحسب السنن والنواميس التى وضعها بين عباده فى هذه الحياة .

ثم ذكر سبب هذا البسط والتقتير فقال :

(إنه بكل شىء عليم) أى إنه تعالى عليم بكل ما يفعله من توسعة على من يوسع

عليه ، وتقتير على من يقتر عليه، ومن الذى يُصْلِحه البسط فى الرزق ، ومن الذى يفسده ، ومن الذى يصلحه التقتير ، ومن الذى يفسده ، لايخفى عليه شىء من ذلك ، فيفعل كل ذلك على مقتضى حكمته الكاملة، وقدرته الواسعة ، وعلمه المحيط .

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) .

تفسير المفردات

أقيموا الدين : أى حافظوا عليه ، ولا تخلّوا بشىء من مقوّماته ، والمراد بالدين دين الإسلام ، وهوتوحيد الله وطاعته ، والإيمان برسله ، واليوم الآخر ، وسائر ما يكون به العبد مؤمنا ، ولا تتفرقوا فيه : أى ولا تختلفوا فيه ، فتأتوا ببعض وتتركوا بعضا ، كبر : أى عظم وشق عليهم ، يجتبى : أى يصطفى ، ينيب : أى يرجع ، والبغى : الظلم ومجاوزة الحد فى كل شىء ، لقضى بينهم : أى باستئصال المبطلين حين تفرقوا .

المعنى الجملى

بعد أن عظم وحيه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأبان ماله من كبير الخطر حين نسبه إليه تعالى ، وأنه صادر من عزيز حكيم لايوحى إلا بما فيه مصلحة البشر ومنفعتهم

فى دينهم ودنياهم — ذكر هنا تفصيل هذا الوحى ، وأرشد إلى أنه هو الدين الذى وصى به أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة ؛ وأردف ذلك أن المشركين يشقّ عليهم دعوتهم إلى التوحيد وترك الأنداد والأوثان ، وأن الله يهدى من يشاء من عباده لهدى دينه ، وأنهم ما خالفوا الحق إلا بعد إبلاغه إليهم ، وقيام الحجة عليهم ، وأنه ما حملهم على ذلك إلا البغى والعدوان والحسد ، وأنه لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار المشركين بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة فى الدنيا ، وأن من اعتنقوا الأديان من بعد الأجيال الأولى ليسوا على يقين من أمرهم و إيمانهم ، و إنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان ، وهم فى حيرة من أمرهم ، وشك مريب وشقاق بعيد .

الإيضاح

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) أى شرع لكم من الدين ماشرع لنوح ومَن بعده من أرباب الشرائع وأولى العزم من الرسل ، وأمرهم به أمرا مؤكدا ؛ وتخصيص هؤلاء الأنبياء بالذكر ، لعلوّ شأنهم وعظيم شهرتهم ، ولاستمالة قلوب الكفار إلى أتباعه ، لاتفاق كلمة أكثرهم على نبوّتهم ، واختصاص اليهود بموسى عليه السلام ، والنصارى بعيسى عليه السلام — و إلا فكل نبى مأمور بما أمروا به من إقامة دين الإسلام وهو التوحيد ، وأصول الشرائع والأحكام مما لايختلف باختلاف الأعصار كالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة واكتساب مكارم الأخلاق وفاضل الصفات .

وفى الآية إيماء إلى أن ما شرعه لهم صادر عن كامل العلم والحكمة ، وأنه دين قديم أجمع عليه الرسل ، وما أوحاه إليه هو إما ما ذكر فى صدر السورة ، وفى قوله : (وكذلك أوحينا) الآية .

و إما ما يعمهما وغيرهما مما وقع فى سائر المواضع التى من جملتها قوله تعالى : « ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً » وقوله: « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ » .

ثم فصل ما شرعه بقوله :

(أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) أى اجعلوا هذا الدين وهو دين التوحيد والإخلاص لله قائما دائما مستمرا ، واحفظوه من أن يقع فيه زيغ أو اضطراب ، ولا تتفرقوا فيه ، بأن تأتوا ببعض وتتركوا بعضا ، أو بأن يأتى بعض منكم بهذه الأصول التى شرعت لكم و يتركها بعض آخر .

والنهى إنما هو عن التفرق فى أصول الشرائع ، أما التفاصيل فلم يتحد فيها الأنبياء كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً » .

والخلاصة — إننا شرعنا لكم ما شرعنا للأنبياء قبلكم ، دينا واحدا فى الأصول وهى التوحيد والصلاة والزكاة والصيام والحج ، والتقرب بصالح الأعمال ، كالصدق والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحرمنا عليكم الزنا ، و إيذاء الخلق ، والاعتداء على الحيوان ـ فكل هذا قد اتحد فيه الرسل و إن اختلفوا فى تفاصيله .

(كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) أى شق على المشركين دعوتهم إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام والأوثان ، وتقريعهم على ذلك ، لأنهم توارثوا ذلك كابرا عن كابر ونقلوه عن الآباء والأجداد كما حكى سبحانه عنهم بقوله : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » .

و بعد أن أرشد المؤمنين إلى التمسك بالدين ـ ذكر أنه إنما هداهم إلى ذلك ، لأنه اصطفاهم من بين خلقه فقال :

(الله يجتبى إليه من يشاء و يهدى إليه من ينيب) أى الله يصطفى من يشاء من عباده ، و يقربهم إليه تقريب الكرامة ، و يوفق للعمل بطاعته واتباع ما بعث به

نبيه عليه من الحق - من راجع التوبة من معاصيه ، وهذا كما روى فى الخبر « من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » أى من أقبل إلىّ بطاعته أقبلت إليه بهدايتى وإرشادى ، بأن أشرح له صدره ، وأسهّل له أمره .

ثم أجاب عن سؤال قد يخطر بالبال ، لماذا صار الناس متفرقين فى الدين مع أنهم أمروا بالأخذ به وعدم التفرق فيه فقال :

(وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) أى وما تفرقت الأمم إلا من بعد ما علموا أن الفرقة ضلالة ، وقد فعلوا ذلك بغيا وطلبا للرياسة ، وللحميّةِ حميةِ الجاهلية التى جعلت كل طائفة تذهب مذهبا وتدعو إليه وتقبح ماسواه ، طلبا للأحدوثة بين الناس والسيطرة عليهم .

والخلاصة — إن الأمم قديمها وحديثها أمروا باتفاق الكلمة وإقامة الدين وبلّغهم أنبياؤهم ذلك ، وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بذلك ، بغيا وحسدا ، وعنادا ، وحبا للرياسة ، فدعت كل طائفة إلى مذهب ، وأنكرت ما عداه .

ثم ذكر أن هؤلاء كانوا يستحقون العذاب المعجل على سوء أفعالهم ، ولكن حكمته تعالى اقتضت تأخيره ليوم معلوم فقال :

(ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) أى ولولا الكلمة السابقة من ربك بإنظار حسابهم وتأخيره إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة فى الدنيا سريعا بما دسّوا به أنفسهم من كبير الآثام وقبيح المعاصى .

ثم ذكر أن تفرقهم فى الدين باق فى أعقابهم مضافا إليه الشك فى كتابهم مع انتسابهم إليه فقال :

(وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب) أى وإن أهل الكتاب الذين كانوا فى عهده صلى الله عليه وسلم وورِثوا التوراة والإنجيل عن السابقين لهم فى شك من كتابهم ، إذ لم يؤمنوا به حق الإيمان ، فهم مقلدون أسلافهم بلا حجة ولا برهان ، وهم فى حيرة من أمرهم ، وشك أقضّ مضاجعهم ، وأوقعهم فى اضطراب وقلق .

وقصارى ذلك — إنهم تفرقوا بعد العلم الذى حصل من النبي المبعوث إليهم المصدِّق لكتابهم ، لأنهم شكوا فى كتابكم فلم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه من أمر ونهى .

فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥).

تفسير المفردات

ادع : أى إلى الائتلاف والاتفاق ، واستقم : أى اثبت على الدعاء كما أوحى إليك، آمنت بما أنزل الله من كتاب : أى صدقت بجميع الكتب المنزلة ، لاحجة : أى لا احتجاج ولا خصومة :

المعنى الجملى

بعد أن أمرهم سبحانه فيما سلف بالوحدة فى الدين وعدم التفرق فيه ، وذكر أنهم قد تفرقوا فيه من بعد ما جاءهم العلم ، بغيا وحسدا ، وعنادا واستكبارا ـ أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الاتفاق على الملة الحنيفية والثبات عليها والدعوة إليها وألا يتبع أهواءهم الباطلة ، ثم أمره بالإيمان بجميع الكتب السماوية ، وبالعدل بين الناس والمساواة بينهم وبين نفسه ، فلا يأمرهم بما لا يعمله ، أو يخالفهم فيما نهاهم عنه ؛

ثم أردف ذلك ببيان أن إلههم جميعا واحد ، وأن كل امرئ مسئول عن عمله ، وأن الله يجمع الناس يوم القيامة و يجازيهم بأعمالهم .

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على عشرة أوامر ونواه ، كل منها مستقل بذاته ودالّ على حكم برأسه ، ولا نظيرلها فى ذلك سوى آية الكرسى فهى عشرة فصول أيضا .

الايضاح

(فلذلك فادع) أى فلأجل ذلك التفرق ، ولما حدث بسببه من تشعب الكفر فى الأمم السالفة شُعبا — ادع إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية ملة إبراهيم .

(واستقم كما أمرت) أى واثبت أنت ومن اتبعك على عبادة الله كما أمركم .

(ولا تتبع أهواءهم) أى ولا تتبع أيها الرسول أهواء الذين شكّوا فى الحق الذى شرعه الله لكم ، من الذين أورثوا الكتاب من قبلكم فتشكّوا فيه كما شكّوا .

(وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) أى وقل : صدّقت بجميع الكتب المنزلة على الأنبياء من التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم ، لا أكذّب بشىء منها .

وفى هذا تعريض بأهل الكتاب ، إذ صدقوا ببعض وكفروا ببعض ، وتأليف لقلوبهم ، إذ آمن بما آمنوا به .

(وأمرت لأعدل بينكم) أى وأمرنى الله بما أمرنى به ، لأعدل بينكم فى الأحكام إذا ترافعتم إلىّ ، ولا أحيف عليكم بزيادة على ما شرعه أو نقصان منه ، ولأبلّغ ما أمرنى بتبليغه إليكم كما هو .

(الله ربنا وربكم) أى الله هو المعبود بحق لا إله غيره ، فنحن نقرّ بذلك اختيارا ، وأنتم وإن لم تفعلوه فله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وجبرا .

(لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أى لنا أعمالنا لا يتخطانا جزاؤها ، ثوابا كان أو عقابا ، ولكم أعمالكم لا ننتفع بحسناتكم ولا تضرنا سيئاتكم .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

(لا حجة بيننا وبينكم) أى لا خصومة بيننا ولا احتجاج ، فإن الحق قد وضح، وليس للمحاجة مجال ، فما المخالف إلا معاند أو مكابر ، وسيأتى الوقت الذى يستبين فيه الحق ، ويتضح سبيل الرشاد ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(الله يجمع بيننا) أى الله يجمع بيننا يوم القيامة ، فيقضى بيننا بالحق فيما اختلفنا فيه .

ونحو الآية قوله : « قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ » .

(وإليه المصير) أى وإليه المرجع والمعاد بعد مماتنا يوم الحساب ، فيجازى كل نفس بما كسبت « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

وهذه الأوامر والنواهى وإن وجهت فى الظاهر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فهى له ولأمته كما هى القاعدة : أمْرُ النبى صلى الله عليه وسلم أمر لأمته إلا إذا ورد دليل على التخصيص .

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ، أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨) .

تفسير المفردات

يحاجون فى الله : أى يخاصمون فى دينه ، استجيب له : أى استجاب الناس لدينه ودخلوا فيه لوضوح حجته ، داحضة : أى زائفة باطلة ، والميزان : العدل بين الناس ، يدريك : يعلمك ، الساعة : القيامة ، مشفقون : خائفون منها حذرون من مجيئها ، الحق : أى الأمر المحقق الكائن لامحالة ، يمارون : أى يجادلون ؛ وأصله من مَرَيْت الناقة : أى مسحت ضَرْعها للحلب ، إذ كل من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فيما سلف أن لامحاجة بين المشركين والمؤمنين لوضوح الحجة، بين هنا أن الذين يخاصمون فى دين الله من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا فيه أفواجا، حجتهم فى الصرف عنه زائفةٌ لاينبغى النظر إليها ، وعليهم غضب من ربهم لمكابرتهم للحق بعد ظهوره ، ولهم عذاب شديد يوم القيامة .

روى أن اليهود قالوا للمؤمنين : إنكم تقولون إن الأخذ بالمتفق عليه أولى من الأخذ بالمختلف فيه ، ونبوة موسى وتوراته مسلّمة بيننا وبينكم ، ونبوة محمد ليست كذلك ، وإذا فالأخذ باليهودية أولى ، فدحض سبحانه هذه الحجة بأن الإيمان بموسى إنما وجب لظهور المعجزات على يديه دالةً على صدقه ، وقد ظهرت المعجزات على يدى محمد واليهود قد شاهدوها فوجب الاعتراف بنبوته .

ثم أردف ذلك تخويفهم بيوم القيامة حتى يستعدوا له ويتركوا المماراة بالباطل ، ثم ذكر أن المشركين يستعجلون به استهزاء وإنكارا لوجوده ، والمؤمنون خائفون

منه ، لعلمهم بالجزاء حينئذ ، ثم أعقب ذلك بذكر أن المماراة فى الساعة ضلال بَيِّنٌ ؛ لتظاهر الأدلة على حصولها لا محالة .

الإيضاح

(والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد) أى والذين يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ورسوله ، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى — حجتهم زائفة لاتُقْبل عند ربهم ، وعليهم غضب منه، لأنهم ما رَوْا فى الحق بعد ما تبين ، ولهم عذاب شديد يوم القيامة ، لتركهم الحق بعد أن وضحت محجته عنادا واستكبارا .

وقد سمى أباطيلهم التى لاينبغى التعويل عليها — أدلة مجاراة لهم على زعمهم حتى يعاودوا النظرفيها ، لعلهم يرعوون عن غيهم ويثوبون إلى رشدهم .

(الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) أى الله أنزل كتبه على أنبيائه حاوية للحق الذى لاشبهة فيه ، بعيدة من الباطل الذى لاخير فيه ، وأنزل العدل لِيُقْضَى بين الناس بالإنصاف ، ويحكم بينهم بحكمه الذى أمر به فى كتابه .

ونحو الآية قوله : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » .

ثم رغب سبحانه فى الآخرة وزهد فى الدنيا فقال :

(وما يدريك لعل الساعة قريب ؟) أى وأىُّ شىء يُعْلِمك لعل الساعة التى تقوم فيها القيامة تكون قد أزفت ؟ فعليك أن تتبع الكتاب وتواظب على العدل بين الناس، واعمل بما أُمِرْت به قبل أن يفجأك اليوم الذى توزن فيه الأعمال ويوفى كل عامل جزاء عمله .

والمراد بذلك حث المؤمنين على اتباع نهج الشرع وترك مخالفته .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الساعة وعنده قوم من المشركين فقالوا متى الساعة ؟ استهزاء بها ، وتكذيبا لمجيئها ، فأنزل الله الآية ، ويدل على ذلك قوله :

(يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) استعجال استهزاء وإنكار ، وكانوا يقولون متى هى ؟ ليتها قامت حتى يظهر لنا ، أنحن على الحق فنفوزَ بالنجاة ، أم محمد وأصحابه فنكونَ من الخاسرين ؟

وبعد أن بين حال المشركين فى شأنها ذكر حال المؤمنين بها فقال :

(والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) أى والذين آمنوا خائفون منها وجلون من مجيئها ، لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم ، وهم موقنون أنهم محاسبون ومجزيون على أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، كما أنهم يعلمون علم اليقين أن مجيئها حق لا ريب فيه ، فهم يستعدون له ويعملون من أجله .

ونحو الآية قوله : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ » .

روى « أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوت جَهُورى وهو فى بعض أسفاره فقال يا محمد : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو من صوته (هاؤم) فقال له متى الساعة ؟ فقال له : إنها كائنة فما أعددتَ لها ؟ فقال حب الله ورسوله ، فقال صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت » .

ثم بين ضلال المارين فيها فقال :

(ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد) أى ألا إن الذين يجادلون فى وجودها ، ويدفعون وقوعها ، لفى جور عن طريق الهدى ، وزيغ عن سبيل الرشاد ، وبعد من الصواب ، لأن الذى خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى كما قال : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ، وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) .

تفسير المفردات

لطيف بعباده : أى هو برّ بهم يفيض عليهم من جوده وإحسانه ، حرث الآخرة : ثمرات أعمالها تشبيها لها بالغلة الحاصلة من البذور ، حرث الدنيا : لذّاتها وطيباتها ، شركاء : أى فى الكفر وهم الشياطين ، شرعوا لهم : أى زينوا لهم ، مالم يأذن به الله : أى كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا فحسب ، كلمة الفصل : هى القضاء والحكم السابق منه بالنظرة إلى يوم القيامة ، الروضة : مستنقع الماء والخضرة ، وروضات الجنات : أطيب بقاعها وأنزهها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سبق أنه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على الدلائل الموصلة إلى السعادة ، وأن المتفرقين فى الدين استوجبوا شديد العذاب ، لكنه أخره إلى يوم معلوم — أرشد هنا إلى أن ذلك من لطف الله بعباده ، ولو شاء لجعلهم فى عماية من أمرهم ، وتركهم فى ضلالهم يعمهون ، ولو شاء لعجل لهم العذاب . ثم بين أن من

يعمل للآخرة يرجو ثوابها يضاعف له فيها الجزاء إلى سبعمائة ضعف ، ومن يعمل للدنيا وجاب لذاتها يؤته ما يريد ، وليس له فى الآخرة نصيب من نعيمها ، ثم أعقب هذا بذكر ما وسوست به الشياطين للمشركين ، وزينت لهم به من الشرك بالله وإنكار البعث إلى نحو ذلك ، ثم بين أنهم كانوا يستحقون العذاب العاجل على ذلك ، لكنه أجّله لما سبق فى علمه من إنظارهم إلى يوم معلوم ، ثم ذكر مآل كل من الكافرين والمؤمنين يوم القيامة ، فالأولون خائفون وجلون من جزاء ما عملوا ، والآخرون مترفون منعمون .

الإيضاح

(الله لطيف بعباده يرزق من يشاء) أى إنه تعالى برّ بعباده يرسل إليهم أعظم المنافع ، ويدفع عنهم أكبر البلاء ، فيرزق البرّ والفاجر ، لاينسى أحدا منهم ، ويوسع الرزق على من يشاء منهم ، ويقتّره على من يشاء ، ليمتحن الغنى بالفقير والفقير بالغنى ، وليحتاج بعض إلى بعض كما قال : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا » .

ونحو الآية قوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا » .

ثم ذكر ماهو كالعلة لذلك فقال :

(وهو القوى العزيز) أى وهو القادر على ما يشاء ، العزيز الذى لايقدر أحد أن يمنعه من شىء مما يريده .

وبعد أن أبان أن الرزق ليس إلا فى يده أتبعه بما يزهّد فى التكالب على طلب رزق البدن ، ويرغّب فى الجد فى طلب رزق الروح والسعى فى رفع منزلتها عند ربها ليرضى عنها فقال :

(من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه) أى من كان يريد بأعماله وكسبه ثواب الآخرة نوفقه لصالح الأعمال ونجزه بالحسنة عشر أمثالها إلى ما شاء الله .

(ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب) أى ومن كان سعيه موجها إلى شؤون الدنيا ، وطلب طيباتها واكتساب لذاتها ، وليس له همّ فى أعمال الآخرة — نؤته منها ما قسمناه له ، وليس له فى ثواب الآخرة حظ ، فالأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى ، قال قتادة : إن الله يعطى على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطى على نية الدنيا إلا الدنيا .

ونحو الآية قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً » .

وقال ابن عباس : من يؤثر دنياه على آخرته لم يجعل الله له نصيبا فى الآخرة إلا النار ، ولم يزد بذلك من الدنيا شيئا إلا رزقا فُرِغ منه وقُسِم له .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه وابن مردويه وابن حبّان عن أبىّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بشّر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين فى الأرض مالم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة من نصيب » .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى عن أبى هريرة قال: «تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ) لآية ثم قال يقول الله : ابنَ آدم تفرّغْ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسُدّ فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسدّ فقرك » . وعن علىّ كرم الله وجهه قال : الحرث حرثان : فحرث الدنيا المال والبنون ، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات .

ولما بين القسطاس الأقوم فى أعمال الآخرة وأعمال الدنيا أردفه التنبيه إلى ما هو الأصل فى باب الضلالة والشقاوة فقال :

(أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) أى هم مااتبعوا ماشرع الله

من الدين القويم ، بل اتبعوا ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس ، فحرّموا عليهم ما حرموا من البَحيرة والسائبة والوصيلة ، وحللوا لهم أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو أولئك من الضلالات والجهالات التى كانوا قد اخترعوها فى الجاهلية .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت عمرو بن لُحَىّ بن قَمَعَة يجر قُصْبَه - أمعاءه - فى النار » لأنه أول من سيّب السوائب وحمل قريشا على عبادة الأصنام ، وكان أحد ملوك خزاعة .

وقصارى ذلك — إن الشيطان زين لهم الشرك والمعاصى والشرائع المضلة وإنكار البعث والعمل للدنيا .

ثم بين أنه رحمة بعباده أخّر عذاب المشركين ليوم معلوم ولم يعجله لهم فقال :

(ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم) أى ولولا القضاء السابق منه تعالى بتأخير العذاب إلى يوم القيامة لعوجلوا بالعذاب كما قال سبحانه : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » .

(و إن الظالمين لهم عذاب أليم) أى و إن الظالمين أنفسهم بشرع مالم يأذن به الله مما ابتدعوه من التحليل والتحريم - لهم عذاب شديد الإيلام فى جهنم و بئس المصير .

ثم ذكر أحوال أهل العقاب وأهل الثواب يوم القيامة مبتدئا بالأولين فقال :

(ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم) أى ترى الظالمين خائفين أشد الخوف مما كسبوا من السيئات وهو واقع بهم لامحالة أشفقوا أو لم يشفقوا .

وذكر الآخرين بقوله :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات) أى والذين آمنوا بالله وأطاعوه فيما أمر به ونهى عنه — لهم فى الآخرة روضات الجنات متمتعين بمحاسنها ولذاتها .

ثم بين ما يكون من النعيم فى تلك الروضات فقال :

(لهم ما يشاءون عند ربهم) أى لهم ما يشاءون من فنون اللذات من مآكل ومشارب ومناظر مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وبعدئذ بين خطر ذلك الفوز الذى ينالونه تفضلا من ربهم ورحمة فقال :

(ذلك هو الفضل الكبير) أى ذلك الذى أعطاهم ربهم من هذا النعيم وتلك الكرامة — هو الفضل الذى منّ به عليهم ، وهو الذى يفوق كل كرامة فى الدنيا من بعض أهلها على بعض .

ذَلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) .

تفسير المفردات

البشارة : الإخبار بحصول ما يسرّ فى المستقبل ، والقربى : التقرب ، يقترف : أى يكتسب ، يختم على قلبك : أى يجعل قلبك من المختوم عليهم حتى تجترئ

على الافتراء ، يمحو : أي يزيل ، يحق : أي يثبت ، وكلماته : هى حججه وأدلته ، يستجيب الذين آمنوا : أى يجيب دعاءهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآيات السالفة أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون بالنعيم فى روضات الجنات ، وأنه يعطيهم من فضله ما فيه قُرّة أعينهم رحمة من لدنه — ذكر هنا أن ذلك كائن لهم لا محالة ببشارة منه لهم ، ثم أعقب هذا بأن أمر رسوله أن يقول لهم : إنه لا يسألهم على هذا البلاغ والنصح أجرا ، وإنما يطلب منهم التقرب إلى الله وحسن طاعته ، ثم رد عليهم قولهم : إن القرآن مفترى بأنه لا يفترى الكذب على الله إلا من كان مختوما على قلبه ، ومن سنن الله إبطال الباطل ونصرة الحق ، فلو كان محمد كذابا مفتريا لفضحه وكشف باطله ، ولكن أيده بالنصر والقوة ، ثم ندبهم إلى التوبة مما نسبوه إلى رسوله من افترائه للقرآن ، ثم وعد المؤمنين بأنه يجيب دعاءهم إذا هم دعوه ، ويزيدهم من نعمه ، وأوعد الكافرين بشديد العقاب كفاء ما اجترحوا من الشرور والآثام .

الإيضاح

(ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى هذا الذى أخبرتكم بأنى أعددته فى الآخرة من النعيم والكرامة لمن آمن بالله ورسوله وعمل صالح الأعمال — البشرى التى أبشركم بها فى الدنيا ، ليتبين لكم أنها حق وأنها كائنة لا محالة .

والخلاصة — إن هؤلاء الجامعين بين الإيمان والعمل بما أمر الله به وترك ما نهى عنه — هم المبشرون بتلك البشارة .

وبعد أن ذكر سبحانه ما أخبر به نبيه صلى الله عليه وسلم من هذه الأحكام التى اشتمل عليها كتابه - أمره أن يخبرهم بأنه لا يطلب منهم بسبب هذا التبليغ أجراً فقال :

(قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى) أى قل لهم : لا أسألكم على تبليغ ما أبلغكم به من هذا الدين القويم نفعا منكم فى دنياى ، لكن أسألكم أن تودوا الله ورسوله فى تقربكم إليه بالطاعة والعمل الصالح ، قاله الحسن البصرى ، ويدخل فى ذلك مودة النبى صلى الله عليه وسلم ومودة قرابته ومودة ذوى القربى من المسلمين ، فإن من تقرب إلى الله أحب رسوله وأكرم قرابة الرسول وأكرم قرابته هو من المسلمين.

وقال ابن عباس : إلا أن تودونى فى نفسى لقرابتى منكم ، وتحفظوا القرابة التى بينى وبينكم . وعن الشعبى قال : أكثر الناس علينا فى هذه الآية « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان واسط النسب فى قريش ، ليس بطن من بطونهم إلا وله فيه قرابة فقال الله : قل لا أسألكم الآية ، أى أن تودونى لقرابتى منكم وتحفظونى بها .

وروى عن ابن عباس قال : « قالت الأنصار فعلنا وفعلنا وكأنهم فخروا ، فقال العباس لنا الفضل عليكم ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم فى مجالسهم فقال : يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال أفلا تجيبون ؟ قالوا ما نقول يا رسول الله ؟ قال ألا تقولون : ألم يخرجك قومك فآويناك؟ ألم يكذبوك فصدقناك ؟ ألم يخذلوك فنصرناك ؟ فما زال يقول حتى جثوا على الركب ، وقالوا أموالنا وما فى أيدينا لله ورسوله فنزلت هذه الآية » ، وعلى هذه الرواية فالآية مدنية ، والأصح أنها مكية .

(ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا) أى ومن يعمل عملا فيه طاعة لله ورسوله نزد له فيه أجرا وثوابا ، فنجعل له مكان الحسنة عشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف إلى ما فوق ذلك فضلا منا ورحمة .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ . وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً » .

(إن الله غفور شكور) أى إنه تعالى يغفر الكثير من السيئات ، ويُكثِّر القليل من الحسنات ، فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر ، قال قتادة : غفور للذنوب ، شكور للحسنات .

ثم أنكر عليهم نسبة افتراء القرآن إلى الرسول ووبخهم على مقالهم فقال :

(أم يقولون افترى على الله كذبا) أى أيقع فى قلوبهم ويجرى على ألسنتهم أن ينسبوا مثله إلى الافتراء على الله وهو أقبح أنواع الفرية وأفحشها ؟

وهذا المقال منهم أفظع من الشرك الذى جعلوه شرعا لهم ، فإنهم قد جعلوا الحق الأبلج الذى يعاضده الدليل ويؤيده البرهان — افتراء على الله واختلاقا للكذب عليه — وفى ذلك أتم دلالة على بعده صلى الله عليه وسلم من الافتراء .

وخلاصة ذلك — إنهم قالوا إن هذا الذى يتلوه علينا من القرآن ما هو إلا اختلاق من قِبَل نفسه وليس بوحى من عند ربه كما يدّعى .

ثم زاد فى استبعاد الافتراء من مثله عليه السلام والإنكار له على أتم وجه فقال :

(فإن يشأ الله يختم على قلبك) أى فإن يشأ الله خذلانك يختم على قلبك لتجترئ بالافتراء عليه ، فإنه لايفعل مثل هذا إلا من كان فى مثل حالهم قد ختم الله على قلبه وأعمى بصيرته .

والخلاصة — إنه إن يشأ يجعلك منهم ، لأنهم هم المفترون الذين شرعوا من الدين مالم يأذن به الله .

وما أجمل هذا التعريض بأنهم مفترون، وأنهم فى نسبة الافتراء إليه مفترون أيضا، وشبيه بالآية قول أمين نسب إلى الخيانة : لعل الله خذلنى ، لعل الله أعمى بصيرتى —

لا يريد بمقاله إثبات الخذلان وعمى القلب ، بل يريد استبعاد الخيانة من مثله ، وأن من نسبه إلى ذلك فقد ركب شططا ، وأتى أمرا إدًّا ، وقال قولا نُكرا .

ثم أكد استبعاد الافتراء منه وزاده إيضاحا فقال :

(ويمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته) أى كيف يكون منه الافتراء على الله ، وقد جرت سنته تعالى أن يمحو الباطل ويمحقه ويثبت الحق وينشره بين الناس ، وهاهوذا يزداد ما أوتيه محمد كل يوم قوة وانتشارا ، فلو كان مفتريا كما تدّعون لكشف افتراءه ومحقه ، وقذف بالحق على باطله فدمغه .

وقد يكون المعنى — إن هذه عدةٌ من الله لرسوله بالنصر ويكون المراد — يمحو الله باطلهم وما بهتوك به ، ويثبت الحق الذى أنت عليه بقضائه الذى لا مرد له ، فيكون هذا كلاما معترضا بين ما قبله وما بعده مؤكدا لما سبق من الكلام من كونهم مبطلين فى نسبة الافتراء إلى من هو أصدق الناس حديثا .

(إنه عليم بذات الصدور) فيعلم ما تكنّه الضمائر ، وتنطوى عليه السرائر ، وتجرى الأمور بحسب علمه الواسع المحيط بكل شىء .

ثم امتنّ على عباده بقبول توبتهم إذا هم تابوا ورجعوا إليه فقال :

(وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) بالتجاوز عما فرط منهم من الذنوب ، واقترفوا من السيئات .

والتوبة الندم على المعصية ، والإقلاع عنها ، والعزم على عدم العودة إليها ، وهذه شروط ثلاثة فيما بين العبد وربه ، فإذا كملت صحت التوبة ، وإن فقد واحد منها لم تكن توبة صحيحة ، أما فيما يتعلق بحقوق العباد فيزاد على ذلك أن يبرأ من حق صاحبها .

ومن علامات التوبة النصوح — صدق العزيمة على ترك الذنب ، وألا يجد له حلاوة فى قلبه عند ذكره .

وقد ورد فى الحضّ على التوبة كثير من الأحاديث فى الصحيحين وغيرهما ، فمن ذلك :

(١) ما رواه أبو هريرة من قوله صلى الله عليه وسلم « لَلّهُ أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالّته فى المكان الذى يخاف أن يقتله فيه العطش » .

(٢) ما رواه جابر أن أعرابيا دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك وكبّر ، فلما فرغ من صلاته قال له علىّ كرم الله وجهه : إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين ، وتوبتك تحتاج إلى التوبة ، فقال : يا أمير المؤمنين ما التوبة ؟ قال التوبة اسم يقع على ستة معان : على الماضى من الذنوب الندامة ، ولتضييع الفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، وإذابتها فى الطاعة كما ربيتها فى المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته .

(ويعفو عن السيئات) أى يقبل التوبة فى المستقبل ويعفو عن السيئات فى الماضى .

(ويعلم ما تفعلون) أى ويعلم الذى تفعلونه كائنا ما كان خيرا أو شرا ، فيجازى بالثواب والعقاب ، أو يتجاوز بالعفو بحسب ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح .

وفى هذا حث على لزوم الحذر منه تعالى والإخلاص له وإمحاض التوبة .

(ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله) أى ويجيب الذين آمنوا إذا دعوه ، ويزيدهم من فضله على ما طلبوه بالدعاء .

وبعد أن ذكر ما أعده للمؤمنين من الثواب أردف ذلك ما أعده للكافرين من العذاب فقال :

(والكافرون لهم عذاب شديد) أى والكافرون يوم القيامة لهم عذاب مؤلم موجع ، فالمؤمنون قد تقبل دعاءهم وزادهم من فضله ، وهؤلاء لايستجيب لهم دعاء « وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ » .

وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَـكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلاَمِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥) .

تفسير المفردات

البسط : السعة ، والبغى : الظلم ومجاوزة الحد ، بقدر : أى بتقدير ؛ يقال قدَره قدْرا وقدَرا إذا قدّره ، والغيث : المطر ، وقنط : يئس ، ورحمته : هى منافع الغيث وآثاره التى تعم الحيوان والنبات والسهل والجبل ، والولى : هو الذى يتولى عباده

بالإحسان ، الحميد : أى المستحق للحمد على نعمه ، بث : نشر وفرّق ، والدابة : كل ماله دبيب وحركة ، على جمعهم : أى حين الحشر والحساب : بمعجزين : أى بجاعلين الله تعالى عاجزا بالهرب منه ، والجوارى : أى السفن الجارية ، والأعلام : واحدها علم: وهو الجبل ، قالت الخنساء فى رثاء أخيها صخر:

وإن صخراً لتأتمُّ الهُداة به كأنه علم فى رأسه نارٌ

يسكن الريح : أى يجعلها ساكنة لاتموج ، رواكد : أى ثوابت ، والصبار : كثير الصبر وهو حبس النفس حين الشدائد عن الجزع وعن التوجه إلى من لاينبغى التوجه إليه ، وشكور : أى كثير الشكر للنعم ، يوبقهن : أى يهلكهن ؛ يقال للمجرم أوبقته ذنوبه : أى أهلكته ، محيص : أى مهرب ومخلص .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف أنه يجيب دعاء المؤمنين إذا هم أنابوا إليه وأخبتوا ذكر هنا أنه لايعطيهم كل ما يطلبون من الأرزاق ، بل ينزلها بقدر بحسب مايعلم من مصلحتهم ، فإن كثرة الرزق تجعل الناس يتجبرون و يتكبرون ، والله هوالخبير بما يصلح حالهم من فقر وغنى .

قال خبّاب بن الأرتّ : فينا نزلت هذه الآية ، نظرنا إلى أموال بنى قُرَيظة والنضير و بنى قَيْنُقَاع فتمنيناها .

ثم أعقب هذا بأنهم إذا احتاجوا إلى الرزق لايمنعه منهم وهو المتولى أمورهم بإحسانه ، المحمود على ما يوصل للخلق من صنوف الرحمة ، ثم أقام الأدلة على ألوهيته بخلقه للسموات والأرض ومافيهما من الحيوان ، ثم جمعهم للحساب يوم القيامة ، ثم ذكر أن مايصيب الإنسان من نكبات الدنيامن الأمراض والأسقام والفقر والغنى فبكسب الإنسان واختياره كما دلت على صدق ذلك التجارب ، ثم أعقب ذلك بآية أخرى على

ألوهيته وهى جريان السفن فى البحار ، فتارة يجعل الريح ساكنة فتظل السفن على سطحها ، وأخرى تعصف الرياح فتفرقها أو تنجو بحسب تقديره تعالى .

الايضاح

(ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير) أى ولو أعطى عباده من الرزق فوق حاجتهم لحملهم ذلك على البغى والطغيان وطلب ما ليس لهم طلبه ، لأن الغنى مَبطرة مأشرَةٌ ، وكفى بحال قارون وفرعون عبرةً لمن اعتبر ، ولكن يرزقهم ما فيه صلاحهم وهو أعلم بحالهم ، فيغنى من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر بحسب ما يعلم من المصلحة فى ذلك كما ورد فى الأثر « إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه » .

والخلاصة — إنه تعالى خبير بما يصلح عباده من توسيع الرزق وتضييقه ، فيقدر لكل منهم ما يصلحه ، فيبسط ويقبض ، ويعطى ويمنع ، ولو أغناهم جميعا لبغَوْا ، ولو أفقرهم جميعا لهلكوا .

فنظام العالم لا يستقر إلا على هذا الوضع القائم الجامع بين الأمرين ، فخوف الأغنياء يزعهم عن الظلم ، وخوف الفقراء من الأغنياء يدعوهم إلى التعاون معهم ، ليفوزوا بمنفعتهم ويزعهم عن البغى .

عن أبى هانئ الخولانى قال : سمعت عمرو بن خُرَيت وغيره يقولون : « إنما نزلت هذه الآية فى أهل الصُّفّة ، فإنهم قالوا لو أن لنا لتمنوا الدنيا » . رواه السيوطى بسند صحيح .

قال قتادة : كان يقال : خير الرزق ما لا يُطغيك ولا يُلهيك .

وبعد أن بين أنه لا يعطى عباده ما زاد على حاجتهم ، لأنه يعلم أن الزيادة تضرهم في دينهم — ذكر أنهم لو احتاجوا إلى الغيث فهو لا يمنعه عنهم فقال :

(وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد) أى وهو الذى ينزل المطر من السماء فيغيثهم به من بعد يأسهم من نزوله حين حاجتهم إليه ، وينشر بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب ، وهو الذى يتولى عباده بإحسانه ويُحمد على ما يُوصله إليهم من رحمته .

قال قتادة : ذُكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : قحط المطر وقنَط الناس يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : مُطِرتم ثم قرأ الآية .

ثم أقام الأدلة على ألوهيته فقال :

(ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة) أى ومن دلائل عظمته وقدرته وسلطانه القاهر — خلق السموات والأرض وما نشر فيهما من دابة تدبّ وتتحرك ، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوان على اختلاف أشكالهم وألوانهم .

(وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) أى وهو يجمعهم يوم القيامة ، فيجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفُذُهم البصر ، ثم يحكم بينهم بحكمه العدل وهو اللطيف الخبير .

وقصارى ذلك — إنه قدير على جمع ما بث فيهما من دابة إذا شاء جمعه ، كما لم يتعذر عليه خلقه وتفريقه .

ثم ذكر دستورا للناس فى أعمالهم إذا تأملوه أقلعوا عما يرتكبونه من الآثام فقال :

(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) أى وما يحل بكم أيها الناس من المصايب فى الدنيا ، فإنما تصابون به عقوبة لكم على ما اجترحتم

من الآثام ، واقترفتم من الشرور والمعاصى ، ويعفو لكم عن كثير من جرائمكم فلا يعاقبكم بها .

فالله سبحانه جعل الذنوب أسبابا لها نتائجها ومسبباتها : فشارب الخمر يصاب بكثير من الأمراض الجسمية والعقلية فى الدنيا وهى أثر من آثار ما اجترح من الذنب. والتاجر غير الأمين أو الكذاب تصاب تجارته بالكساد ويشهر بين الناس بالخيانة فيحجمون عن معاملته . والحكام المرتشون الظلمة الذين يجمعون أموالهم بالسحت يصابون بالفقر والعُدْم ويصبحون مثلا بين الناس ، وإن لم يصبهم الفقر يصب أولادهم فيصبحوا بحال يرثى لها ويصيروا أحاديث الخاصة والعامة . والأمم الظالمة التى لاتناصر بين أفرادها ، بل بينها التقاطع ، ويبتز بعض أفرادها أموال بعض آخر ، تصاب بالمهانة بعد العظمة والذلة بعد العزة ، وما الأمثال فى ذلك بعزيزة ، فهاهى ذى الأمم الشرقية إنما أصابها ما أصابها من الضعف والخمول والاضمحلال ثم الزوال من صفحة الوجود بما اجترحت من ظلم وإفساد فى الأرض ، وأكل بعضها أموال بعض واحتجان عظمائها الأموال فى خزائنهم ، وابتزازها من أيدى الضعفاء ؛ وقد اقتص الله لهم منهم ، فأضاع ملكهم ، وأذهب ريحهم ، وجعلهم لقمة سائغة للمستعمرين الذين تحكموا فيهم وجعلوهم كالعبيد ، يتصرفون فيهم بحسب أهوائهم ، وما تمليه عليهم مصالحهم ، وما يَدرّ عليهم الخير لبلادهم وشعوبهم .

وفى هذا عبرة لمن ادّكر ، وقد تقدم أن قلنا فى غير موضع إن عقاب الأفراد فى الدنيا ليس بالمطرد ، إذ كثيرا ماترى سكيرا عِرْبيدا لايصاب بأذى مما يفعل ، وترى تاجرا يخزن الأمانة ولايصاب بكساد فى تجارته ، وحينئذ يكون عقاب كل منهما مؤجلا ليوم الحساب إن شاء ربك عاقب ، وإن شاء عفا بعد التوبة عما فرط منهما من الذنوب والآثام .

أما عقاب الأمم على ما تجترح من السيئات فهو محقق فى الدنيا ، ولدينا عظة التاريخ فى القديم والحديث ، فما من أمة تركت أوامر دينها وخالفت نواميس العمران ،

إلا زالت وصارت كأمس الدابر ، وأصبحت عبرة للباقين ، ومثلا للآخرين ، فالرومان والفرس والعرب فى الشرق وفى الأندلس والترك — مُثُل ماثلة أمامنا تجُلّى لنا تلك القضية « فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ » .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » وفى الحديث الصحيح « والذى نفسى بيده ما يصيب المؤمن من نَصَب ولا وَصَب ولا همّ ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها » .

ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفس محمد بيده مامن خَدْش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر » .

وروى الترمذى وجماعة عن علىّ كرم الله وجهه قال : « الا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) قال وسأفسرها لك يا على : ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم ، والله أكرم من أن يثنّى عليكم العقوبة فى الآخرة ، وما عفا الله تعالى عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه » والآثار فى هذا الباب كثيرة .

والخلاصة — إنه يكفّر عن العبد بما يصيبه من المصايب ، ويعفو عن كثير من الذنوب ؛ وقد ثبت بالأدلة الصحيحة أن جميع ما يصاب به الإنسان فى الدنيا يؤجر عليه أو يكفّر عنه من ذنوبه .

(وما أنتم بمعجزين فى الأرض) أى وإنكم لاتعجزون الله حيثما كنتم ، فلاتسبقونه بهربكم منه فى الأرض حتى لاتنالكم المصايب ، بل هى لاحقة بكم أينما تكونوا .

والخلاصة — إن ما قضاه الله عليكم واقع بكم لا محالة ولا مفرّ منه .

و بعد أن نفى المهرب مما قُدِّر نفى النصير والمعين الذى يمنع حلول المقدور فقال :

(وما لكم من دون الله من ولىّ ولا نصير) أى وما لكم من دون الله ولىّ يليكم بالدفاع عنكم إذا أراد عقوبتكم على معصيتكم ، ولا لكم نصير ينصركم إذا هو عاقبكم ، فينتصر لكم ، فاحذروا معاصيه واتقوا مخالفة أوامره ، فإنه لا دافع لعقوبته إذا أحلها بعبد من عباده .

ثم ذكر سبحانه آية أخرى من آيات عظمته الدالة على توحيده وصدق ما وعد به فقال :

(ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام) أى ومن دلائل قدرته ، و باهر حكمته ، وعظيم سلطانه — تسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره كالجبال الشاهقة ، والمدن العالية.

(إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره) أى إن يشأ الله الذى قد أجرى هذه السفن فى البحر ألا تجرى فيه. أسكن الريح التى تجرى بها، فتثبت فى موضع واحد وتقف على ظهر الماء لاتتقدم ولا تتأخر .

ثم أتى بجملة معترضة بين مامضى وما سيأتى فقال :

(إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن فى جرى هذه الجوارى فى البحر بقدرته تعالى — لحجةً بينة على قدرته على ما يشاء ، لكل ذى صبر على طاعته ، شكور لنعمه وأياديه عنده .

والمؤمن إذا كان فى ضراء كان من الصابرين ، وإذا كان فى سرّاء كان من الشاكرين ، وقال عون بن عبد الله : فكم من منعَم عليه غير شاكر ، وكم من مبتلى غير صابر ، وقال قُطْرُب : نعم العبد الصبار الشكور الذى إذا أُعْطِى شكر ، وإذا ابْتُلِى صبر . وقد قيل : الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر .

(أو يوبقهن بما كسبوا و يعف عن كثير) أى و إن يشأ يجعل الرياح عواصف فيغرق السفن بذنوب راكبيها ، ولكنه يعفو عن كثير من ذنوبهم ، ولوآخذهم بجميع ما يجترحون منها لأهلك كل من ركب البحر .

والخلاصة — إنه لو شاء أسكن الريح فوقفت السفن رواكد على ظهر البحر ، ولو شاء لأرسلها عاتية قوية فأخرتها عن سيرها ، وصرّفتها ذات اليمين وذات الشمال آبقة لاتسير على طريق ولا تصل إلى مقصد حتى تغرق ، ولكن من رحمته ولطفه يرسلها بقدر الحاجة لينتفع بها الملاحون لقضاء أوطارهم .

(ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا مالهم من محيص) أى وليعلم الذين ينازعون فى آياتنا على جهة التكذيب لها أنه لامخلص لهم إذا وقفت السفن أو إذا عصفت الريح ، فيصير ذلك سببا لاعترافهم بأن النافع الضارّ ليس إلا الله تعالى .

فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى
لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ
وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨)
وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) .

تفسير المفردات

آتاه الشيء : أعطاه إياه ، والمتاع : ما ينتفع ويتمتع به من رياش وأثاث ونحوها . يتوكلون : يفوّضون إليه أمورهم ، كبائر الإثم : هى كل ما يوجب حدّا ، والفواحش : هى ما فحش وعظم قبحه كالزنا والقتل ونحوهما ، واستجابوا : أى أجابوا داعى الله ، فأدّوا فرائضه ، وتركوا نواهيه ، والشّورى والمشاورة : المراجعة فى الآراء ، ليتبين الصواب منها ، والبغى : الظلم ، ينتصرون : أى ينتقمون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل توحيده وعظيم قدرته وسلطانه بخلق السموات والأرض وجَرْى السفن ماخرات فى البحار — أردف ذلك التنفير من الدنيا وزخرفها ، لأن المانع من النظر فى الأدلة إنما هو الرغبة فيها طلبا للرياسة والجاه ، فإذا صغرت الدنيا فى عين المرء لم يلتفت إليها، وانتفع بالأدلة ووجّه النظر إلى ملكوت السموات والأرض ، ثم أبان أن ما عند الله خير لمن آمن به ، وتوكل عليه ، واجتنب كبائر الذنوب والفواحش ، وكان منقادا له مطيعا لأوامره ، تاركا لنواهيه ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، ولم يبرم أمرا إلا بعد مشورة ، وانتصر لنفسه ممن ظلمه .

الإيضاح

(فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا) أى وكل ما تعطونه أيها الناس من الغنى والسعة فى الرزق والمال والبنين ، فهو متاع قليل ، تتمتعون به فى مدى قصير ، يذهب وينقضى ، ولله در القائل :

إنما الدّنيا فنــــاء ليس للدنيا ثبوت
إنمـــا الدنيا كبيت نسجته العنكبوت

وفى هذا تحقير لشأن هذه الحياة وزينتها وما فيها من النعيم الزائل :

ثم رغبهم فى ثواب الآخرة وما عند الله من النعيم المقيم فقال :

(وما عند الله خير وأبقى) أى وما عند الله من الثواب والنعيم خير من زهرة الدنيا، لأنه باقٍ سرمدىّ ، وما فيها زائل فانٍ ، والعقل قاض بترجيح الباقى على الفانى

ثم بين أنه لا يكون خيرا إلا لمن اتصف بصفات :

(١) (للذين آمنوا) أى للذين صدقوا الله وآمنوا برسوله .

(٢) (وعلى ربهم يتوكلون) أى وعلى من ربّاهم على إحسانه يعتمدون ، ويفوضون إليه أمورهم ، ولا يلتفتون إلى غيره فى مهامّ أمورهم . روى أن الآية نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه حين تصدق بماله فلامه المسلمون وخطأه الكافرون .

(٣) (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) أى والذين يتباعدون عن ارتكاب كبائر الآثام كالقتل والزنا والسرقة ، وعن الفواحش التى ينكرها الشرع والعقل والطبع السليم ، من قول أو فعل .

(٤) (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) أى وإذا ما غضبوا كظموا غيظهم ، إذ من سجاياهم الصفح والعفو ، وليس من طباعهم الانتقام ؛ وقد ثبت فى الصحيح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قط إلا أن تُنتهك حرمات الله » .

(٥) (والذين استجابوا لربهم) أى والذين أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه ، من توحيده والبراءة من عبادة كل مايعبد من دونه .

(٦) (وأقاموا الصلاة) المفروضة فى أوقاتها على أكمل وجوهها ، وخص الصلاة من بين أركان الدين ، لما لها من الخطر فى صفاء النفوس ، وتزكية القلوب ، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

(٧) (وأمرهم شورى بينهم) أى وإذا حزبهم أمر تشاوروا فيما بينهم ، ليقتلوه بحثا وتمحيصا ، ولا سيما الحروب ونحوها .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فى الكثير من الأمور ، ولم يكن يشاورهم فى الأحكام ، لأنها منزلة من عند الله ، أما الصحابة فكانوا يتشاورون فيها ، ويستنبطونها من الكتاب والسنة . وأول ما تشاور فيه الصحابة الخلافة ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم ينص عليها حتى انتهى أمرهم إلى تولية أبى بكر ، وتشاوروا فى قتال من ارتدوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فاستقرّ رأى أبى بكر على القتال، وقد كان فيه الخِيَرة للاسلام والمسلمين ، وشاور عمر رضى الله عنه الهُرْمزان حين وفد عليه مسلما .

ونحو الآية قوله : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » وعن الحسن : ما تشاور قوم إلا هُدوا لأرشد أمرهم . وقال ابن العربى : الشورى أُلفة للجماعة ، وصِقال للعقول ، وسبب إلى الصواب ، وما تشاور قوم قط إلا هُدوا . ولأمر ما أصبحت الحكومات فى العصر الحاضر لاتبتُّ فى مهام الأمور إلا إذا عرضت على مجالس الشورى (البرلمان — مجلس الشيوخ والنواب) وكأنى بك قد سمعت قول بشار بن بُرْد فى فوائد الشورى :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى لبيب أو مشورة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فريش الخوافى قوة للقوادم

وما خير كف أمسك الغُلّ أختها وما خـــير كف لم تؤيد بقائم

(٨) (ومما رزقناهم ينفقون) أى وينفقون مما آتاهم ربهم فى سبل الخير ، والبذل فيما فيه منفعة للفرد والمجتمع ، ورفعة الأمة وعلوّ شأنها وعزها .

(٩) (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) أى والذين إذا بغى عليهم باغ ينتصرون ممن ظلمهم من غير تعدّ عليه .

والمؤمنون فريقان :

(ا) فريق يعفو اتباعا لقوله تعالى : « وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » وقوله : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » وقوله : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ » .

(ب) فريق ينتصر ممن ظلمه وهو المذكور فى هذه الآية .

والخلاصة — إن العفو ضربان :

(١) ضرب يكون فيه العفو سببا لتسكين الفتنة ، وتهدئة النفوس ، ومنع استفحال الشر ، وهذا محمود وحثت عليه الآيات الكريمة التى ذكرت آنفا .

(٢) ضرب يكون فيه العفو سببا لجراءة الظالم وتماديه فى غيّه ، وهذا مذموم وعليه تحمل الآية التى نحن بصدد تفسيرها .

فالعفو عن العاجز المعترف بجُرمه محمود ، والانتصار من المخاصم المصرّ على جُرمه المتمادى فى غيّه محمود ، و إلى هذا أشار المتنبى بقوله :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا ... مضرّ كوضع السيف فى موضع الندى

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) .

تفسير المفردات

السيئة : مأخوذة من السوء ، وهو القبيح ، وانتصر : أى سعى فى نصر نفسه بجهده ، من سبيل : أى من عقاب ولاعتاب ، لمن عزم الأمور: أى لمن الأمور المشكورة والأفعال التى ندب إليها عباده ، ولم يرخّص بالتهاون فيها .

المعنى الجملى

بعد أن مدح فيما سلف الذين ينتصرون لأنفسهم ممن بغى عليهم — أردف ذلك ما يدل على أن ذلك الانتصار مقيد بالمثل ، لأن النقصان حَيْف ، والزيادة ظلم ، والتساوى هو العدل الذى قامت به السموات والأرض ، ثم ندب إلى العفو والإغضاء

عن الزلات ، ثم ذكر أنه لامؤاخذة على من ينتصر لنفسه ، وإنما المؤاخذة على من يظلم الناس ، ويبغى فى الأرض بغير الحق ، وأن الصبر وغفران السيئة مما حث عليه الدين ، وأجزل ثواب فاعله .

الإيضاح

(وجزاء سيئة سيئة مثلها)أى وجزاء سيئة المسىء عقوبته بما شرعه الله من عقوبة مماثلة لجرمه ، وسمى هذا الجزاء سيئة مع أنه عقوبة مشروعة من الله مأذون بها ، لأنها تسوء من تنزل به كما قال تعالى فى آية أخرى : « وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ » يريد ما يسوءهم من المصايب والبلايا .

وفى الآية حثّ على العفو ، لأن الانتصار إنما يُحْمد إذا حصلت المماثلة فى الجزاء، وتقديرُها عسر شاقّ ، وربما صار المظلوم حين استيفاء القصاص ظالما .

ونحو الآية قوله : « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » وقوله: « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ » وقوله « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا » .

وقد أمر صلى الله عليه وسلم بردّ الشتم على الشاتم . أخرج النسائى وابن ماجه وابن مردويه عن عائشة قالت: «دخلت علىّ زينب وعندى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلت علىّ تسبنى فردعها النبى صلى الله عليه وسلم فلم تنته ، فقال لى سبيها ، فسببتها حتى جفّ ريقها فى فمها ، ووجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل سرورا » . وكان هذا بمنزلة التعزيز منه لزينب بلسان عائشة ، لما أن لها حقا فى الرد وقد رأى فيه المصلحة .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المستبّان ما قالا من شىء فعلى البادى حتى يعتدى المظلوم ثم قرأ (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) » .

وقصارى ذلك — إن كل جناية على النفس أو المال تقابل بمثلها قصاصا ، لأن إهدارها يوجب فتح باب الشرور والمفاسد ، إذ فى طبع الإنسان الظلم والبغى والعدوان ، فإذا لم يزدجر عنه تمادى فيه ولم يتركه ، والزيادة على قدر الذنب ظلم ، والشرائع تتنزه عن ذلك ، ومن ثم شرع الله القصاص ، وندب إلى الفضل وهو العفو فقال : « وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ » وجاء تتمة لهذه الآية .

(فمن عفا وأصلح فأجره على الله) أى فمن عفا عن المسىء وأصلح ما بينه و بين من يعاديه بالعفو والإغضاء عما صدر منه ، فأجره على الله ، فيجزيه أعظم الجزاء .

وفى إبهام الأجر وجعله حقا على العظيم الكريم جل شأنه زيادة فى الترغيب فى العفو والحثّ عليه .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادى : ألا ليقم من كان له على الله أجر فلا يقوم إلا من عفا فى الدنيا وذلك قوله : (فَمَنْ عَفَا) الآية » .

ثم ذكر سبحانه خروج الظلمة عن محبته التى هى سبب الفوز والنجاة فقال :

(إنه لا يحب الظالمين) أى إنه تعالى لا يحب المتجاوزين الحد فى الانتقام ، وفى هذا تصريح بما تضمنه سالف الكلام من حسن رعاية طريق المماثلة وأنها قلّما تخلو من الاعتداء والتجاوز عن الواجب ، ولا سيما حال الحرد والتهاب الحمية ، وحينئذ يدخل المنتقمون فى زمرة من لا يحبهم الله .

(ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) أى والله لمن انتصر ممن ظلمه بعد ظلمه إياه ، فأولئك المنتصرون لا سبيل للمنتصر منهم أن يوجهوا إليهم عقوبة ولا أذى لأنهم انتصروا منهم بحق ، ومن أخذ حقه ممن وجب له عليه ولم يتعدّ — لم يظلم فلا سبيل لأحد عليه .

ولما نفى السبيل على من انتصر بعد ظلمه بيّن من عليه السبيل فقال :

(إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق) أى إنما الحرج والإثم على الذين يبدءون الناس بالظلم ، أو يزيدون فى الانتقام ويتجاوزون ما حُدّ لهم ، أو يتكبرون فى الأرض تجبراً وفساداً .

(أولئك لهم عذاب أليم) أى هؤلاء لهم عذاب مؤلم بسبب بغيهم وظلمهم .

ثم رغب سبحانه فى الصبر والعفو فقال :

(ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) أى ولمن صبر عن الانتصار من غير انتقام ولا شكوى ، وستر السيئة ، فقد فعل مايشكر عليه ، ويستحق به الأجر وجزيل الثواب .

روى « أنه صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر : ياأبا بكر ثلاث كلهن حق : مامن عبد ظُلِم بمَظْلمة فيُغْضِى عنها إلا أعزه الله تعالى بها ونصره ، ومافتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة . وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة » .

وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق لهم عذاب أليم على ما اجترحوا من البغى والعدوان بغير الحق — أردف ذلك بيان أن من أضله الله فلا هادى له، وأن الكافرين حين يرون العذاب يوم القيامة يطلبون الرجوع إلى الدنيا، وأنهم يُعْرَضون على النار وهم خاشعون أذلاء ينظرون من طرف خفى، وأن الذين آمنوا يقولون إن الكافرين لفى خسران فقد أضاعوا النفس والأهل، ولا يجدون لهم ناصرا يخلصهم مما هم فيه من العذاب.

الايضاح

(ومن يضلل الله فما له من ولىّ من بعده) أى إنه ما شاء الله كان ولا رادّ له، ومالم يشأ لم يكن، فمن هداه الله فلا مضل له، ومن يضلله فلا هادى له.

والخلاصة — إن من خذله الله لسوء استعداده وتدسيته نفسه باجتراح الآثام والمعاصى، فليس له من ولىّ يهديه إلى سبيل الرشاد، ويوصله إلى طريق الفوز والفلاح.

ونحو الآية قوله: « وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً ».

ثم ذكر تمنى الكافرين الرجوع إلى الدنيا فقال:

(وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مردّ من سبيل ؟) أى وترى الكافرين بالله حين يعاينون العذاب يوم القيامة يتمنّوْن الرجعة إلى الدنيا ويقولون: هل من رجعة لنا إليها ؟

ونحو الآية قوله: « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَو رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ».

ثم ذكر حالهم حين يعرضون على النار فقال :

(وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفىّ) أى وتراهم أيضا فى ذلك اليوم يعرضون على النار وهم خاشعون أذلاء (لأنهم عرفوا ذنوبهم وتكشفت لهم عظمة من عصوْه) يسارقون النظر إليها خوفا منها، وحذرا من الوقوع فيها، كما ينظر من قدّم للقتل إلى السيف ، فلا يقدر أن يملأ عينيه منه ، و إنما ينظر ببعضها .

ولما وصف حال الكفار حكى مايقوله المؤمنون فيهم فقال :

(وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) أى ويقول المؤمنون يوم القيامة : إن المغبونين غبنا لاغبن بعده — هم الذين خسروا أنفسهم ، فأُدْخِلوا فى النار ، وحرموا نعيم الأبد ، وفُرِّق بينهم و بين أحبابهم وأصحابهم وذوى قراباتهم .

ثم صدّقهم ربهم فيما قالوا فقال :

(ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم) أى ألا إن الكافرين لفى عذاب سرمدىّ ، لامهرب لهم منه ولا خلاص ، ثم أيأسهم من الفكاك منه بأى سبيل فقال :

(وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله) أى ولا يجدون لهم أعوانا وأنصارا ينقذونهم مما حل بهم من العذاب ، فأصنامهم التى كانوا يعبدونها لتشفع لهم لاتستطيع أن تتقدم إليهم بشفاعة .

(ومن يضلل الله فما له من سبيل) أى ومن يضلله الله لما علم من استعداده للشر والفساد وارتكاب الشرور والآثام فلا سبيل له إلى الوصول إلى الحق فى الدنيا ولا إلى الجنة فى الآخرة .

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ
مَالَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا
فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ ، وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ
مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ
كَفُورٌ (٤٨) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ
إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ
مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) .

تفسير المفردات

استجيبوا لربكم : أى أجيبوه إذا دعاكم إلى ما فيه نجاتكم ، لا مردّ له : أى لا يرده أحد بعد ما حكم به ، ملجأ : أى ملاذ تلجئون إليه ، نكير : أى إنكار وجحود لما اقترفتم ، حفيظا : أى محاسبا لأعمالهم رقيبا عليها ، رحمة : أى نعمة من صحة وغنى ، سيئة : أى بلاء من فقر ومرض وخوف ، كفور : نسّاء للنعمة ذكّار للبلية ، يزوجهم : أى يجعلهم جامعين بين البنين والبنات ، عقيما : أى لا يولد له .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما سيكون يوم القيامة من الأهوال وعظائم الأمور ــ حذر من هذا اليوم فبين أن الكافرين لا يجدون حينئذ ملجأ يقيهم من عذاب الله ، ولا ينكرون ما اقترفوه ، لأنه مكتوب فى صحائف أعمالهم ، ثم أرشد رسوله إلى أنهم إن أعرضوا عن دعوتك ، فلا تأبه بهم ، ولا تهتم بشأنهم ، ثم أعقب هذا بذكر طبيعة الإنسان ، وأنه يفرح حين النعمة ، ويجحد نعم ربه حين الشدة ، ثم قسم هبته لعباده فى النسل

أربعة أقسام ، فنهم من وُهِب الإناث ، ومنهم من وُهِب الذكران ، ومنهم من أعْطِى الصِّنفين ، ومنهم العقيم الذى لا نسل له .

الايضاح

(استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله) أى أجيبوا داعى الله وهو رسوله صلى الله عليه وسلم ، وآمنوا به ، واتبعوه فيما جاءكم به من عند الله ، من قبل أن يأتى يوم لا يستطيع أحد أن يرده إذا جاء به الله .

(مالكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير) أى ليس لكم حصن تتحصنون فيه ، ولا تستطيعون إنكار ما اجترحتموه من السيئات ، لأنه قد كتب فى صحفكم ، وتشهد به ألسنتكم وجوارحكم .

ونحو الآية قوله تعالى : « يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ؟ كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ » .

(فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ) أى فإن أعرض هؤلاء المشركون عما أتيتهم به من الحق ، ودعوتهم إليه من الرشد ، ولم يستجيبوا لك ، وأبَوْا قبوله منك ، فدعهم وشأنَهم ، فإنا لم نرسلك رقيبا عليهم تحفظ أعمالهم وتحصيها ، فما عليك إلا أن تبلغهم ما أرسلناك به إليهم ، فإذا أنت بلّغته فقد أديت ما كُلِّفْتَ به.

ونحو الآية قوله : « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » وقوله : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وقوله : « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » .

وبعدئذ ذكر طبيعة الإنسان وغريزته فى هذه الحياة فقال :

(وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور) أى وإنا إذا أغنينا ابن آدم فأعطيناه من لدنا سعة فى الرزق أو فى الصحة أو فى الأمن سرّ بما آتيناه ، وإن أصابته فاقة أو مرض بما أسلف من

معصية ربه جحد نعمتنا وأيس من الخير ، والإنسان من طبعه الجحد والكفران بالنعم حين الشدة :

والخلاصة — إن الإنسان إن إصابته نعمة أشِر وبطر ، وإن ابتلى بمحنة يئس وقنَط .

(لله ملك السموات والأرض) أى إنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، لامانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

(يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما) أى يخلق ما يشاء فيرزق من يشاء البنات فحسب ، ويرزق من يشاء البنين فحسب ، ويعطى من يشاء الزوجين الذكر والأنثى ، ويجعل من يشاء لا نسل له .

وفى هذا إيماء إلى أن الملك ملكه من غير منازع ولا مشارك ، يتصرف فيه كيف يشاء ، ويخلق مايشاء ، فليس لأحد أن يعترض أو يدبر بحسب هواه ، وتصرفه لايكون إلا على أكمل وجه وأتم نظام ، وقد قيل : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

(إنه عليم قدير) أى إنه عليم بمن يستحق كل نوع من هذه الأنواع ، قدير على ما يريد أن يخلق ، فيفعل ما يفعل بحكمة وعلم .

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه تقسيم النعم الجسمانية التى يهبها لعباده ــ أردفها تقسيم النعم الروحية ، وأبان أن الناس محجوبون عن ربهم ، لأنهم فى عالم المادة وهو منزه عنها ، ولكن من رقّ حجابه ، وخلَصت نفسه ، وأصبح فى مقدوره أن يتصل بالملإ الأعلى يستطيع أن يكلم ربه على أحد أوجه ثلاثة :

(١) أن يحس بمعان تُلقى فى قلبه ، أو يرى رؤيا منامية كرؤيا الخليل إبراهيم عليه السلام ذبح ولده .

(٢) أن يسمع كلاما من وراء حجاب كما سمع موسى عليه السلام من غير أن يبصر من يكلمه ، فهو قد سمع كلاما ولم ير المتكلم .

(٣) أن يرسل إليه ملكا فيوحى ذلك الملك ما يشاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم ذكر أنه كما أوحى إلى الأنبياء قبله أوحى إليه القرآن وما كان قبله يعلم ما القرآن وما الشرائع التى بها هداية البشر وصلاحهم فى الدارين .

الايضاح

(وما كان لبشر أن يكلمه الله) أى وما ينبغى لبشر من بنى آدم أن يكلمه ربه إلا بإحدى طرق ثلاث :

(١) (إلا وحيا) أى إلا أن يوحى إليه وحيا أى يكلمه كلاما خفيا بغير واسطة بأن يقذف فى رُوع النبى شيئا لايتمارى فيه أنه من الله عز وجل كما روى ابن حبان فى صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن روح القدس نفث فى رُوعى : إن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

(٢) (أو من وراء حجاب) أى أو إلا من طريق لايرى السامع المتكلم جهرة مع سماعه للكلام كما كلم موسى عليه السلام ربه .

(٣) (أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء) أى أو يرسل الله من ملائكته رسولا إما جبريل أو غيره فيوحى ذلك الرسول إلى المرسل إليه ما يشاء ربه أن يوحيه إليه من أمر ونهى كما كان جبريل عليه السلام ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى غيره من الأنبياء .

روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن الحٰرث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يارسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ماقال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول» قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، و إن جبينه ليتفصد (يسيل) عرقا » .

(إنه علىّ حكيم) أى إنه علىّ عن صفات المخلوقين يفعل ما تقتضيه حكمته ، فيكلمه تارة بواسطة ، وتارة بغير واسطة إما إلهاما و إما خطابا من وراء حجاب .

وبعد أن بين أقسام الوحى ذكر أنه أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم كما أوحى إلى الأنبياء قبله فقال :

(وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) أى وكما أوحينا إلى سائر رسلنا أوحينا إليك هذا القرآن رحمة من عندنا .

ثم بين حال نبيه قبل نزول الوحى بقوله :

(ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان) أى ما كنت قبل الأربعين وأنت بين ظهرانىْ قومك تعرف ما القرآن ولا تفاصيل الشرائع ومعالمها على النهج الذى أوحينا به إليك .

(ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا) أى ولكن جعلنا هذا القرآن نورا عظيما نهدى به من نشاء هدايته من عبادنا ، ونرشده إلى الدين الحق .

ونحو الآية قوله : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » الآية .

(وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) أى وإنك لتهدى بذلك النور من تشاء هدايته إلى الحق القويم .

ثم فسر هذا الصراط بقوله :

(صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) أى هذا الطريق هو الطريق الذى شرعه الله مالك السموات والأرض والمتصرف فيهما ، والحاكم الذى لا معقب لحكمه .

(ألا إلى الله تصير الأمور) أى ألا إن أمور الخلائق يوم القيامة تصير إلى الله لا إلى غيره ، فيضع كلا منهم فى موضعه الذى يستحقه من نعيم أو جحيم .

وفى هذا وعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم ، ووعيد للظالمين .

خلاصة ما تضمنته السورة الكريمة من الموضوعات

(١) إنزال الوحى على رسوله صلى الله عليه وسلم .

(٢) اختلاف الأديان ضرورى للبشر .

(٣) أصول الشرائع واحدة لدى جميع الرسل .

(٤) اختلاف المختلفين فى الأديان بغى وعدوان منهم .

(٥) إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن قامت الأدلة على صدقه .

(٦) استعجال المشركين لمجىء الساعة وإشفاق المؤمنين منها .

(٧) من يعمل للدنيا يؤت منها وماله حظ فى الآخرة ، ومن يعمل للآخرة يوفقه الله للخير .

(٨) ينزل الله الرزق بقدر بحسب ما يرى من المصلحة .

(٩) من الأدلة على وجود الخالق خلق السموات والأرض وجرى السفن فى البحار .

(١٠) متاع الآخرة خير وأبقى من متاع الدنيا .

(١١) جزاء السيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله .

(١٢) يتمنى المشركون يوم القيامة العودة إلى الدنيا حين يرون العذاب .

(١٣) إذا عرض المشركون على النار نظروا إليها من طرف خفىّ وهم خاشعون أذلاء .

(١٤) ليس على الرسول إلا البلاغ .

(١٥) يهب الله لمن يشاء الإناث ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما .

(١٦) أقسام الوحى إلى البشر .

(١٧) الرسول قبل الوحى ما كان يدرى شيئا من الشرائع .

سورة الزخرف

هى مكية إلا آية ٤٥ فإنها نزلت بالمدينة ، قاله مقاتل ، وآياتها تسع وثمانون ، نزلت بعد الشورى .

ووجه مناسبتها ما قبلها أن مفتتح هذه يشاكل مختتم تلك .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حَمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) .

تفسير المفردات

الكتاب : هو القرآن ، المبين : أى الموضح لطريق الهدى المبعد من الضلالات ، لعلكم تعقلون : أى لكى تفهموه وتحيطوا بما فيه ، أمّ الكتاب : هو علم الله الأزلى ، حكيم : أى ذو حكمة بالغة ، يقال ضربت عنه وأضربت عنه : أى تركته ، والذكر : أى القرآن ، صفحا : أى إعراضا ، مسرفين : أى منهمكين فى كفركم وتوليكم عن الحق ، بطشا : أى قوة وجلدا ، مضى : أى سلف ، والمثل : الصفة .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه بكتابه المبين لطريق الهدى إنه جعل هذا القرآن بلغة العرب لغة قومك ليفقهوا معناه ويحيطوا به خُبْرا ، وإنه محفوظ فى علمه تعالى فليس هو من عند

محمد كما تدّعون ، وإننا لن نترك تذكيركم به لأجل إعراضكم عنه ، وانهما كـكم في الـكفر به ، رحمة منا ولطفا بكم ، ثم حذّرهم وأنذرهم بأن كثيرا من الأمم قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة — كذبوا رسلهم فـكان عاقبتهم ما رأيتم ، وحل بهم ما تشاهدون آثاره .

الإيضاح

(حٰم) تقدم الـكلام في مثل هذا من قبل .

(والـكتاب المبين) أي والقرآن المبيّن لطريق الهدى والرشاد ، الموضح لما يحتاج إليه البشر في دنياهم وآخرتهم ليفوزوا بالسعادة ، فمن سلك سبيله فاز ونجا ، ومن تنكّب عنه خاب سعيه ، وضل سواء السبيل .

(إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلـكم تعقلون) أي إنا أنزلناه قرآنا عربيا إذ كنتم أيها المنذَرون به عربا ، لتعقلوا ما فيه من عبر ومواعظ ، ولتتدبروا معانيه ، ولم نُنْزِله بلسان العجم حتى لا تقولوا نحن عرب ، وهذا كلام أعجمي لا نفقه شيئا مما فيه .

ثم بين شرفه في الملإ الأعلى تعظيما له ، وليطيعه أهل الأرض فقال :

(وإنه في أمّ الـكتاب لدينا لعليّ حكيم) أي وإن هذا الـكتاب في علمه الأزلي رفيع الشأن ، لاشتماله على الأسرار والحـكم التي فيها سعادة البشر وهدايتهم إلى سبيل الحق .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

(أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ؟) أي أنترك إنذاركم وتذكيركم بالقرآن ، لانهماككم في الـكفر والإعراض عن أوامره ونواهيه ؟ كلا .

لا نفعل ذلك رحمة بكم ، وقد كانت حالكم تدعو إلى تخليتكم وما تريدون حتى تموتوا على الضلال .

قال قتادة : لو أن هذا القرآن قد رُفع حين ردّته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله تعالى عاد بعائدته ورحمته فكرره عليها ودعاهم إليه عشرين سنة أو ماشاء الله اه .

أراد أنه تعالى من رحمته ولطفه بخلقه لايترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وإن كانوا مسرفين معرضين عنه ، بل يأمر به ليهتدى من قُدِّرَ له الهداية ، وتقوم الحجة على من كتب له الشقاوة .

ثم قال مسلّيًا رسوله صلى الله عليه وسلم على تكذيب قومه ، آمرا له بالصبر ، مهدّدا للمشركين ، منذرا لهم بشديد العقاب .

(وكم أرسلنا من نبىّ فى الأولين . وما يأتيهم من نبىّ إلا كانوا به يستهزئون) أى وكثيرا ما أرسلنا فى الأمم الغابرة رسلا قبلك كما أرسلناك إلى قومك من قريش ، وكلما أتى نبى أمته يدعوهم إلى الهدى وطريق الحق استهزءوا به وسخروا منه كما يفعل قومك بك — فقومك ليسوا ببدع فى الأمم ، ولا أنت ببدع فى الرسل ، فلا تأس على ماتجد منهم ولا يَشقّنّ ذلك عليك ، فهم قد سلكوا سبيل مَن قبلهم ، واحتذوا حذوهم ، ونهجوا نهجهم حذو القُذّةِ بالقُذّةِ ، وكن كما كان أولو العزم من الرسل ، واصبر كما صبروا على ما أوذوا فى سبيل الله .

ثم ذكر عقبى تكذيبهم واستهزائهم برسله تسلية لرسوله وتحذيرا لهم فقال :

(فأهلكنا أشدّ منهم بطشا) أى فأهلكنا المكذبين بالرسل ولم يقدروا على دفع بأسنا إذ أتاهم ، وقد كانوا أشد بطشا من قومك وأشد قوة ، فأحرِ بهؤلاء ألا يُعْجِزونا .

ونحو الآية قوله : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً » الآية .

(ومضى مثل الأولين) أى وقد مضت سنتنا فى المكذبين لرسلهم من قبلكم ، ورأيتم ما حل بهم ، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم .

ونحو الآية قوله : « فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ » وقوله : « سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ » .

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ، كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) .

تفسير المفردات

مهدا : أى فراشا ، وأصله موضع فراش الصبى ، سبلاً : واحدها سبيل ، وهى الطريق ، بقدر : أى بمقدار تقتضيه الحكمة والمصلحة ، فأنشرنا : أى أحيينا ، ميتا : أى خالية من النبات ، الأزواج : أصناف المخلوقات ، لتستووا على ظهوره : أى لتستقروا عليها ، سخر : ذلل ، مقرنين : أى مطيقين ، قال قُطْرُب وأنشد قول عمرو بن معديكرب :

لقد علم القبائلُ ما عُقيــل   لنــا فى النائبات بمُقْرِنينــا

وقول الآخر :

ركبتم صَعْبَتَىْ أَشَرٍ وَحَيْفٍ　　　ولستم للصعاب بمقرنينا

لمنقلبون : أى راجعون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المشركين منهمكون فى كفرهم وإعراضهم عما جاء به القرآن من توحيد الله والبعث — أبان هنا أن أفعالهم تخالف أقوالهم ، فإن سألتهم عن الخالق لهذا الكون من سمائه وأرضه ليقولُن : الله ، وهم مع اعترافهم به يعبدون الأوثان والأصنام، ثم ذكر سبحانه جليل أوصافه ، فأرشد إلى أنه هو الذى جعل الأرض فراشا ، وجعل فيها طرقا ، لتهتدوا بها فى سيركم ، ونزّل من السماء ماء بقدر الحاجة يكفى زرع النبات وسقى الحيوان ، وخلق أصناف المخلوقات جميعا من حيوان ونبات ، وسخر لكم السفن والدواب لتركبوها وتشكروا الله على ما آتاكم ، وتقولوا : لولا لطف الله بنا ما كنا لذلك بمطيقين ، وإنا يوم القيامة إلى ربنا راجعون ، فيجازى كل نفس بما كسبت ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

الإيضاح

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) أى ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين من قومك : من خلق السموات والأرض ؟ لأجابوك : خلقهن العزيز فى سلطانه وانتقامه من أعدائه ، العليم بهن وما فيهن لايخفى عليه شىء من ذلك .

والخلاصة — إنهم يعترفون بأنه لاخالق لهما سواه ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأوثان .

ثم دل على نفسه بذكر مصنوعاته فقال :

(١) (الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون) أى والعزيز العليم هو الذى مهد لكم الأرض وجعلها لكم وطاء تطئونها بأقدامكم ، وتمشون عليها بأرجلكم ، وجعل لكم فيها طرقا تنتقلون فيها من بلد إلى آخر ، ومن إقليم إلى إقليم لمعاشكم ومتاجركم وابتغاء رزقكم .

والخلاصة — إن الخلق كلهم يتربَّوْن على الأرض وهى موضع راحتهم كما يربى الصبى على مهده .

(٢) (والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون) أى وهو الذى ينزل من السماء ماء بقدر الحاجة ، فلا يجعله كثيرا حتى لايكون عذابا كالطوفان الذى أنزل على قوم نوح ، ولا قليلا لايكفى النبات والزرع ، لئلا تهْلِكوا جوعا ، فتحيا به الأقاليم التى كانت خالية من النبات والشجر .

وكما أحيينا الأرض بعد موتها بالماء نحييكم ونخرجكم من قبوركم أحياء .

(٣) (والذى خلق الأزواج كلها) أى وهو الذى خلق سائر الأصناف مما تنبت الأرض من نبات وأشجار وثمار وأزاهير ، ومن الحيوان على اختلاف أجناسها وألوانها ولغاتها .

(٤) (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون) أى وهو الذى جعل لكم من السفن ما تركبونه فى البحار إلى حيث تقصدون لمعايشكم ومتاجركم ، ومن الأنعام ما تركبونه فى البر كالخيل والبغال والحمير ، ومما سيجدّ من وسائل المواصلات وطرق النُّقْلَة برّا وبحراً كما جاء فى سورة النحل من قوله تعالى : « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ » .

(لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) أى لكى تستووا على ظهور ما تركبون من

الفلك والأنعام ، ثم تذكروا نعمة ربكم الذى أنعم به عليكم ، فتعظموه وتمجّدوه وتقولوا تنزيها له عما يصفه المشركون : سبحان الذى سخر لنا هذا الذى ركبناه ، وما كنا لولا تسخيره وتذليله بمطيقين ذلك ، فالأنعام مع قوّتها ذللها للانسان ينتفع بها حيث شاء وكيفما أراد ، ولولا ذلك ما استطاع الانتفاع بها ، ولقد أشار إلى نحو من هذا العباسُ ابن مرداس فقال فى وصف الجمل :

وتضرب به الوليدة بالهَرَاوَى فلا غِيَرٌ لديه ولا نكير

واعلم أنه سبحانه عيّن ذكرا خاصا حين ركوب السفينة وهو قوله : « بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » وذكرا آخر حين ركوب الأنعام وهو قوله : « سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هٰذَا » وذكرا ثالثا حين دخول المنازل وهو قوله : « رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ المُنْزِلِينَ » .

أخرج مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر ركب راحلته ثم كبر ثلاثا ثم قال : (سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) .

قال القرطبى : علّمنا سبحانه وتعالى ما نقول إذا ركبنا الدواب ، وعرّفنا فى آية أخرى على لسان نوح عليه السلام ما نقول إذا ركبنا السفن ، فكم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحّمت أو طاح عن ظهرها فهلك ، وكم من راكب سفينة انكسرت به فغرق .

فلما كان الركوب مباشرة أمرٍ محظور ، واتصالا بسبب من أسباب التلف ، أمر ألا ينسى عند اتصاله به موته وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله عز وجل غير منفلت من قضائه ، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدّا للقاء الله ، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته فى علم الله وهو غافل عنه اه .

ولأجل ما تقدم أشار بقوله :

(وإنا إلى ربنا لمنقلبون) أى وإنا لصائرون إلى ربنا بعد مماتنا ، فيجازينا

كل نفس بما عملت، فاستعدوا لهذا اليوم، ولا تغفلوا عن ذكره فى حلكم وترحالكم، يوم ظعنكم ويوم إقامتكم.

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥)
أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ
بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَ مَنْ
يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ
هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (١٩)
وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ
يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١)
بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ
مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا
عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى
مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا
مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥).

تفسير المفردات

جزءا: أى ولدا؛ إذ قالوا الملائكة بنات الله، وعبر عن الولد بالجزء، لأنه بَضعة ممن ولد له؛ كما قال شاعرهم:

إنما أولادنا أكبا دنا تمشى على الأرض

مبين : أى ظاهر الكفر، من أبان بمعنى ظهر ، أصفاكم : أى اختار لكم ،ضرب: أى جعل ، مثلا : أى شبها أى مشابها بنسبة البنات إليه ،لأن الولد يشبه الوالد ، كظيم: أى ممتلىء غيظا وغما ، ينشّأ: أى يربّى ، فى الحِلْيَة : أى فى الزينة ، الخصام : أى الجدل، غير مبين : أى غير مظهر حجته لعجزه عن الجدل ، يخرصون : أى يكذبون ، مستمسكون : أى متمسكون ومعوّلون ، على أمة : أى على طريقة خاصة ، مترفوها : أى أهل الترف والنعمة فيها الذين أبطرتهم الشهوات ، فلا ينظرون إلى ما يوصلهم إلى الحق ، مقتدون : أى سالكون طريقتهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنهم يعترفون بالألوهية لله وأنه خالق السموات والأرض ، أردف هذا ببيان أنهم متناقضون مكابرون ، فهم مع اعترافهم لله بخلق السموات والأرض يصفونه بصفات المخلوقين المنافية لكونه خالقا لهما ، إذ جعلوا الملائكة بنات له ولا غَرو ، فالإنسان من طبعه الكفران وجحود الحق ، ومن عجيب أمرهم أنهم أعطوه أخس صنفى الأولاد ، وما لو بشِّر أحدهم به اسودّ وجها وامتلأ غيظا ، ومن يتربى فى الزينة وهو لا يكاد يبين حين الجدل ، فلا يُظْهِرُ حجة ولا يؤيد رأيا ، واختاروا لأنفسهم الذكران ، ثم أعقبه بالنعى عليهم فى جعلهم الملائكة إناثا ، وزاد فى الإنكار عليهم ببيان أن مثل هذا الحكم لا يكون إلا عن مشاهدة ، فهل هم شهدوا ذلك ؟ ثم توعدهم على هذه المقالة وأنه يوم القيامة يجازيهم بها .

ثم حكى عنهم شبهة أخرى ، قالوا : لو شاء الله ألا نعبد الملائكة ما عبدناها ، لكنه شاء عبادتها لأنها هى المتحققة فعلا فتكون حسنة ويمتنع النهى عنها ، ثم رد مقالهم بأن المشيئة إنما هى ترجيح بعض الأشياء على بعض ، ولا دخل لها فى حسن أو قبح

وبعد أن أبطل استدلالهم العقلى نفى أن يكون لهم دليل نقلى على صحة ما يدّعون،

ثم أبان أن ما فعلوه إنما هو بمحض التقليد عن الآباء دون حجة ولا برهان ، وهم ليسوا بِبِدع فى ذلك ، فكثير من الأمم قبلهم قالوا مثل مقالهم ، مع أن الرسل بينوا لهم الطريق السوىّ فكفروا به واتبعوا سَنَن من قبلهم حذو القُذَّة بالقذَّة ، فكان عاقبة أمرهم أن حلّ بهم نكالنا كما يُشاهدون و يرون من آثارهم.

الإيضاح

(وجعلوا له من عباده جزءا) أى وأثبتوا لله ولدا ، إذ قالوا الملائكة بنات الله قاله مجاهد والحسن ، والولد جزء من والده كما قال عليه السلام « فاطمة بَضْعة منى » .

و إن مقالهم هذا يقتضى الكفر من وجهين :

(١) كون الخالق جسما محدثا لمشابهة الولد له ، فلا يكون إلها ولا خالقا .

(٢) الاستخفاف به ، إذ جعلوا له أضعف نوعى الإنسان وأخسهما .

ثم أكد كفرهم بقوله :

(إن الإنسان لكفور مبين) أى إن الإنسان لجحود بنعم ربه التى أنعمها عليه، ظاهر كفره لمن تأمل حاله وتدبر أمره .

ثم زاد فى الإنكار عليهم والتعجب من حالهم فقال :

(أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين) أى هل اتخذ سبحانه من خلقه أخسّ الصنفين لنفسه ، واختار لكم أفضلهما ؟ وكأنه قيل : هبو أنه اتخذ ولدا فأنتم قد ركبتم شططا فى القسمة فادعيتم أنه سبحانه آثركم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما وترك لنفسه شرهما وأدناهما ، فما أنتم إلا حمقى جهلاء .

ونحو الآية قوله : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى — جائرة — » .

ثم زاد فى التوبيخ والإنكار بقوله :

(وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودًّا وهو كظيم)

أى وإذا بشر أحد هؤلاء بما نسبوه لله من البنات أنِف وعَلَته الـكآبة والحزن من سوء ما بشر به وتوارى من القوم خجلا .

روى أن بعض العرب وضعت امرأته أنثى فهجر البيت الذى ولدت فيه فقالت :

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظَلّ فى البيت الذى يلينا

غضبانَ ألا نلد البنينا وليس لنا من أمرنا ماشينا

وإنمـا نأخذ ما أُعْطينـا

ثم كرر الإنكار وأكده فقال :

(أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) أى أو قد جعلوا لله الأنثى التى تتربى فى الزينة ، وإذا خوصمت لا تقدر على إقامة حجة ولا تقرير دعوى ، لنقصان عقلها وضعف رأيها ؟ وما كان ينبغى لهم أن يفعلوا ذلك .

وفى قوله (ينشأ فى الحلية) إيماء إلى ما فيهنّ من الدعة ورخاوة الخلق بضعف المقاومة الجسمية واللسانية ، كما أن فيه دلالة على أن النشوء فى الزينة ونعومة العيش من المعايب والمذامّ للرجال ، وهو من محاسن ربات الحجال ، فعليهم أن يجتنبوا ذلك ويأنفوا منه ويربئوا بأنفسهم عنه ، قال شاعرهم :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذيول

وروى عن عمر أنه قال : « اخشوشنوا فى الطعام ، واخشوشنوا فى اللباس ، وتمعْدَدوا » أى تزيّوا بزِىّ مَعَدّ فى تقشفهم .

(وجعلوا الملائـكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) أى سموهم وحكموا لهم بذلك ، وفى هذا كفر من وجوه ثلاثة :

(١) إنهم نسبوا إلى الله الولد .

(٢) إنهم أعطوه أخس النصيبين .

(٣) إنهم استخفوا بالملائـكة بجعلهم إناثا .

وقد رد الله عليهم مقالهم فقال :

(أشهدوا خلقهم ؟) أى أحضروا خلق الله لهم ، فشاهدوهم بنات حتى يحكموا بأنوثتهم ؟ .

ونحو الآية قوله : « أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ » .

وفى هذا تجهيل شديد لهم ، ورمى لهم بالسفه والحمق .

ثم توعدهم على مقالهم فقال :

(ستكتب شهادتهم ويسألون) أى ستكتب هذه الشهادة التى شهدوا بها فى الدنيا فى ديوان أعمالهم ، ويسألون عنها يوم القيامة ليأتوا ببرهان على صحتها ، ولن يجدوا لذلك سبيلا .

وفى هذا دليل على أن القول بغير برهان منكر، وأن التقليد لا يغنى من الحق شيئا.

ثم حكى عنهم فنا آخر من فنون كفرهم بالله جاءوا به للاستهزاء والسخرية فقال :

(وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) أى وقالوا لو شاء الله لحال بيننا وبين عبادة الأصنام التى هى على صورة الملائكة ، فإنه تعالى عالم بذلك وهو قد أقرنا عليه .

وقد جمعوا فى هذا أفانين من الكفر وضروبا من الترهات والأباطيل ، منها :

(١) إنهم جعلوا لله ولدا تقدس سبحانه وتنزه عن ذلك .

(٢) دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين ، إذ جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا .

(٣) عبادتهم لهم بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله ، بل بالرأى والهوى والتقليد للأسلاف .

(٤) احتجاجهم بتقدير الله ذلك ، وقد جهلوا فى هذا جهلا كبيرا ، فإنه تعالى أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار ، وهو منذ أن بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته

وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة سواه كما قال : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ » وقال : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ، أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟ » .

ثم رد عليهم مقالهم و بيّن جهلهم بقوله :

(مالهم بذلك من علم) أى مالهم على ما قالوا ، دليل ولا برهان يستندون إليه فى تأييد دعواهم .

ثم أكد هذا الردّ بقوله :

(إن هم إلا يخرصون) أى ماهم إلا كاذبون فيما قالوا ، متمحلون تمحلا باطلا ، متقوّلون على الله مالم يقله .

و بعد أن بين بطلان قولهم بالعقل أتبعه ببطلانه بالنقل فقال :

(أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون) أى بل أأعطيناهم كتابا من قبل هذا القرآن ينطق بصحة ما يدّعون ، فهم بذلك الكتاب متمسكون ، وعليه معوّلون .

والخلاصة — إنه لا كتاب لهم بذلك .

ولما بين أنه لا حجة لهم على ذلك من عقل ولا نقل — ذكر أن الحامل لهم على ما جنحوا إليه إنما هو التقليد فقال :

(بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) أى ليس لهم مستند على ماهم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد ، وقد قالوا إنهم أرجح منا أحلاماً وأصح أفهاماً ، ونحن سائرون على طريقتهم ، وسالكون نهجهم ، ولم نأت بشىء من عند أنفسنا ، ولم نغلط فى الأتباع واقتفاء الآثار ، كما قال قيس بن الخطيم:

كنا على أمة آبائنا		ويقتدى بالأول الآخر

والخلاصة — إنهم اعترفوا بأن لا مستند لهم من حيث العيان ولا من حيث العقل ولا من حيث النقل ، وإنما يستندون إلى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم .

ثم بين سبحانه أن مقال هؤلاء قد سبقهم إلى مثله أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل فقال :

(وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) أى ومثل هذا المقال المتناهى فى الشناعة قالت الأمم الماضية لإخوانك الأنبياء ، فلم نرسل قبلك فى قرية رسولا إلا قال رؤساؤها وكبراؤها : إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين ، وإنا على منهاجهم سائرون ، نفعل مثل ما فعلوا ، ونعبد ما كانوا يعبدون .

فقومك أيها الرسول ليسوا ببِدْع فى الأمم ، فهم قد سلكوا نهج مَن قبلهم من أهل الشرك فى جواباتهم بما أجابوك به ، واحتجاجهم بما احتجوا به لمقامهم على دينهم الباطل .

ونحو الآية قوله : « كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » .

وإنما قال أولا : مهتدون ، وثانيا : مقتدون ، لأن الأول وقع فى محاجتهم النبى صلى الله عليه وسلم وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين وأنهم مهتدون كآبائهم ، فناسبه (مهتدون) والثانى وقع حكاية عن قوم ادعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء فناسبه (مقتدون) .

(وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم ودلالة على أن التقليد فى نحو ذلك ضلال قديم ، وتخصيص المترفين بالذكر للإشعار بأن الترف هو الذى أوجب البطر وصرفهم عن النظر إلى التقليد .

ثم حكى ما قاله كل رسول لأمته :

(قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟) أى قال لهم الرسول : أتبغون ذلك وتسيرون على نهجه ، ولو جئتكم من عند ربكم بدين أهدى إلى طريق الحق ، وأدل على سبيل الرشاد مما وجدتم عليه آباءكم من الدين والملة ؟ .

وتلخيص ذلك — أتتبعون آباءكم وتقلدونهم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم ؟ .

فأجابوه إجابة تيئيس من اتباعهم له على كل حال .

(قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) أى قالوا إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه ولو جئتنا بما هو أهدى منه ، فكأنهم يقولون : إنهم لو علموا صحة ما جئتهم به ما انقادوا لك ، لسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله .

وحينئذ لم يبق لهم عذر ، ومن ثم قال :

(فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) أى فانتقمنا من هؤلاء المكذبين لرسلهم الجاحدين بربهم، فانظر أيها الرسول كيف كان عاقبة أمرهم حين كذبوا بآياتنا؟ ألم نهلكهم ونجعلهم عبرة لغيرهم ؟

وفى هذا سلوة لرسوله ، وإرشاد له إلى عدم الاكتراث بتكذيب قومه له ، ووعيد وتهديد لهم .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا

لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ
رَحْمَتَ رَبِّكَ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ
فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ
مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ
بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ
أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) .

تفسير المفردات

لأبيه : أى آزر ، براء : كلمة لاتثنى ولا تجمع يقولون : أنا منك براء ، ونحن منك براء ، فإن قلت برىء ثنيت وجمعت، فطرنى : أى خلقنى ، والكلمة : هى كلمة التوحيد فى عقبه : أى فى ذريته ، مبين : أى ظاهر الرسالة بما له من المعجزات الباهرة ، من القريتين : أى من إحدى القريتين مكة والطائف ، والرجل الذى من مكة : هوالوليد ابن المغيرة المخزومى وكان يسمى ريحانة قريش ، والذى من الطائف: هوعروة بن مسعود الثقفى ، ورحمة ربك : هى النبوة ، والسخرى : هو الذى يقهر على العمل ، والسقف بضمتين : واحدها سقف كرهن ورهن ، والمعارج : واحدها مِعْرَج كمنبر ، وهو المسمى الآن (أسنسير) وهذا من معجزات القرآن إذ لم يكن معروفا عصر التنزيل ، يظهرون أى يرتقون ، زخرفا : أى نقوشا وتزاويق ، قال الراغب الزخرف : الزينة المزوقة ، ومنه قيل للذهب زخرف ، ولمّا بمعنى إلا ، حكى سيبويه نشدتك الله لمّا فعلت كذا : أى إلا فعلت كذا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة أن الذى دعا الكفار إلى اعتناق العقائد الزائفة هو تقليد الآباء والأجداد ، وبين أنه طريق باطل ، ونهج فاسد ، وأن الرجوع إلى الدليل أولى من التقليد - أردف هذا أنْ ذكر لهم أن أشرف آبائهم وهو إبراهيم عليه السلام ترك دين الآباء وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعتهم ، فيجب عليكم تقليده ، وحين عدل عن طريق آبائه جعل الله دينه باقيا فى عقبه إلى يوم القيامة ، وأديان آبائه دَرَسَتْ وبطلت .

ثم ذكر أن قريشا وآباءهم مَدَّ لهم فى العمر والنعمة ، فاغتروا بذلك واتبعوا الشهوات ، وأعرضوا عن توحيد الله وشكره على آلائه ، حتى جاءهم الرسول منبها لهم مذكرا بالنظر إلى من فطرهم وفطر السموات والأرض وآتاهم من فضله مايتمتعون به من زينة هذه الحياة ، فكذبوه وقالوا ساحر كذاب ، ثم حكى عنهم أنهم قالوا : هلا نُزِّل هذا القرآن على رجل عظيم الجاه كثير المال من إحدى القريتين مكة والطائف ، فرد عليهم مقالهم ، بأنه قسم الحظوظ الدنيوية بين عباده ، فجعل منهم الغنى والفقير ، والسيد والمَسُود ، والملوك والسُّوقَة ، والأقوياء والضعفاء ، ولم يغير أحد ماحكم به فى أحوال دنياهم على حقارتها ، فكيف يعترضون على حكمه فيما هو أرفع درجة ، وأشرف غاية ، وأعظم مرتبة ، وهو منصب النبوة ؟ .

ثم ذكر أن التفاوت فى شئون الدنيا هو الذى يتم به نظام المجتمع والسير به على النهج القويم ، فلولاه ماصرّف بعضهم بعضا فى حوائجه ، ولا تعاونوا فى تسهيل وسائل المعيشة ، ثم أعقب هذا ببيان أنه لولا أن يرغب الناس فى الكفر إذا رأوا الكفار فى سعة من الرزق لمتعهم بكل وسائل النعيم ، لجعل لبيوتهم أبوابا من فضة وسقفاً وسرراً ومصاعد منها وزينة فى كل شىء ، ولكن كل هذا متاع قليل زائل والآخرة هى الباقية ؛ وهى لمن يتقى الله ويجتنب الكفر والمعاصى .

ولم يفعل ذلك بالمؤمنين فيوسع عليهم جميعا ، ليكون سبب اجتماعهم على الإيمان العقيدة المنبعثة عن الاطمئنان النفسى ، لأنه لو فعل ذلك لاجتمعوا عليه طلبا للدنيا ، وهذا إيمان المنافقين ، ومن ثم ضيّق الرزق على بعض المسلمين ووسع على بعض ليكون من يدخله ، فإنما يدخله للدليل والبرهان وابتغاء رضوان الله و مثوبته .

الايضاح

(وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين) أى واذكر لقومك المكبّين على التقليد : كيف تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه حين رآهم عاكفين على عبادة الأصنام ؟ قال لهم إنى براء مما تعبدون إلا من عبادة الله الذى خلقنى وخلق الناس جميعا ، وأنه سيهدينى إلى سبيل الرشاد ، ويوفقنى إلى اتباع الحق ، وقد جزم بذلك لثقته بربه ، ولقوة يقينه .

(وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) أى وجعل كلمة التوحيد (وهى لا إله إلا الله) كلمة باقية فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله منهم ، لعل أهل مكة يرجعون عما هم عليه إلى دين أبيهم إبراهيم ، فإنهم إذا ذكروا أباهم الأعظم الذى بنى لهم البيت وأورثهم ذلك الفخر ، تبعوه فيما يدين به .

قال قتادة : لايزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة . وقال ابن العربى : إنما كانت لإبراهيم فى الأعقاب ، موصولة بالأحقاب ، بدعوتيه المجابتين : إحداهما قوله : « إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ » فقد قال إلا من ظلم منهم فلا عهد له . ثانيتهما قوله : « وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ » .

(بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين) أى ولكنى متعت هؤلاء المشركين وآباءهم من قبل ، ومددت أعمارهم ، وأكثرت نعمهم ، فشغلتهم النعم

والترف والشهوات ، فأطاعوا الشيطان ونسوا كلمة التوحيد ، فجريت على سنتى أن أجعل فى بنى إبراهيم من يوحّد الله ويدعو من كفر منهم إلى الإيمان ، فاخترت محمدا وأنزلت معه الكتاب ليدعو هؤلاء إلى ما فيه صلاحهم فى دينهم ودنياهم ، وسعادتهم فى آخرتهم وأولاهم .

ثم وبخهم على إعراضهم عما جاء به من الحق وعدم النظر فيه فقال :

(ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون) أى ولما جاءهم القرآن والرسول الصادق بما معه من المعجزات قالوا إن ما جاءنا به سحر وليس بوحى من عند الله وإنا به جاحدون ، فضموا إلى شركهم معاندةَ الحق والاستخفاف به .

ثم ذكر ضربا آخر من كفرهم بقوله :

(وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) أى وقالوا إن منصب الرسالة منصب شريف ، فلا يليق إلا برجل شريف كثير المال عظيم الجاه ، ومحمد ليس بذلك ، فمن الحق أن يسند هذا المنصب إما إلى الوليد بن المغيرة بمكة أو إلى عروة ابن مسعود الثقفى بالطائف .

فأنكر الله عليهم ذلك وجهّلهم وعجّب من حالهم بقوله :

(أهم يقسمون رحمة ربك) أى عجبا لهم كيف جهلوا قدر أنفسهم ؟ أو قد بلغ من أمرهم أن يصطفوا من يشاءون للنبوة التى لا يصلح لها إلا من بلغ مرتبة روحانية خاصة، وكان ذا فضائل قدسية وكمالات خلقية ، مستهينا بالزخارف الدنيوية التى انغمسوا فيها؟ فهم ليسوا لها بأهل ، فضلا عن أن يهبوها لمن يشاءون .

ثم بين خطأهم فى طلب الاصطفاء بحسب ما يهوَوْن فقال :

(نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) أى إننا فى هذه الحياة فضلنا بعض العباد على بعض ، فى الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، والشهرة والخمول ، لأنا لو سوّينا بينهم

فيها لم يخدم بعضهم بعضا ولم يسخّر أحد غيره ، وذلك مما يفضى إلى خراب العالم وفساد الدنيا ، ولم يستطع أحد أن يغيّر نظامنا ولا أن يخرج عن حكمنا .

وإذا كانوا قد عجزوا عن ذلك فى أحوال الدنيا فكيف يعترضون علينا فى منصب الرسالة ؟

وقصارى ذلك — إنا قسمنا بينهم أرزاقهم ، أفلا يقنعون بقسمتنا فى أمر النبوة وتفويضها إلى من نشاء من خلقنا ؟ .

ثم علل ما سلف بقوله :

(ورحمة ربك خير مما يجمعون) أى ورحمة ربك وفضله بالنبوة وما يتبعها من وحى وكتاب ينزل ، خير مما يجمعون من حطام الدنيا ، فالدنيا على شفا جرف هار ، ومظاهرها فانية لا قيمة لها ، فهو قد أغدقها على الدواب والأنعام وكثير من جهلة بنى آدم .

ثم بين حقارة الدنيا وخستها بقوله :

(ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون . وزخرفا) أى ولولا أن يعتقد كثير من الجهلة أن إعطاءنا المال للكفار دليل على محبتنا لمن أعطيناه ، فيجتمعوا على الكفر ، ويرغبوا فيه ، إذا رأوا سعة الرزق عندهم — لجعلنا لبيوتهم سقفا من فضة ، ومصاعد من فضة ، وسررا من فضة ، عليها يتكئون ، وزينة فى كل ما يُرْتفق به من شئون الحياة .

ثم بين أن هذه المتعة قصيرة الأمد ، سريعة الزوال ، فهى متاع الحياة الفانية فقال :

(وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) أى وما كل ذلك إلا متاع قصير زائل ، والآخرة بما فيها من ضروب النعيم التى لا يحيط بها عدّ ولا إحصاء — أعدها الله لمن اتقى الشرك والمعاصى ، وعمل بطاعته ، وآثر الآخرة على الدنيا .

أخرج الترمذى وابن ماجه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كانت الدنيا تعدِل عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء » .

وكذلك لو أعطيت هذه النعم والسرر والأبواب المصنوعة من الذهب والفضة للمؤمنين ، حتى ليصير الناس كلهم هكذا ، لأخلّت بالمقصود من الإيمان ، لأن الترف والنعيم يحجب العقول عن عالم الروحانيات والرقى العقلى ، فقلّ من يتخلص من شَرَك هذه الآفات ، فالشهوات والزينة والزخارف للعقول أشبه بالقاذورات للأجسام ، والأجسام القذرة يحوم حولها الذباب ، فيُلقِى فيها بيوضه لِتفْرُخ فى القروح والعيون ، ويخرج ذباب يعيش من تلك القاذورات ، وهكذا النفوس الضعيفة تعيش فيها النفوس المماثلة لها من عالم الشياطين ، وتلقى إليها بذور الفساد ، فتزْرَع فيها وتحصدها النفوس خزيا وعارا فى الدنيا والآخرة وهذا ماأشار إليه سبحانه بقوله :

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ، أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) .

تفسير المفردات

يقال عَشِى فلان كرضى إذا حصلت له آفة فى بصره ، وعشا : كغزا إذا نظر نظر العشىّ لعارض قال الحطيئة فى المحلّق الكلابى :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ

أى تنظر إليها نظر العشى لما يضعف بصرك من كثرة الوقود واتساع الضوء ، فالمراد هنا أنه يتعامى عن ذكر الله ، نقيض له : أى نهيىء له ونضم إليه ، والقرين : الرفيق الذى لا يفارق ، والمشرقين : أى المشرق والمغرب ، وكثيرا ما تسمى العرب الشيئين المتقابلين باسم أحدهما ، قال الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكُمُ   لنا قمراها والنجومُ الطوالعُ

يريد الشمس والقمر ، وبعد المشرقين : أى بعد أحدهما من الآخر ، فإما نذهبن بك : أى فإن قبضناك وأمتناك ، لذكر : أى لشرف عظيم ، تسألون : أى عن قيامكم بما أوجبه القرآن عليكم من التكاليف من أمر ونهى .

المعنى الجملى

بعد أن بين أن المال متاع الدنيا وهو عرض زائل ، ونعيم الآخرة هو النعيم الدائم الذى أعده الله للمتقين ـ ذكر هنا أن من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر الله وصار من جلساء الشياطين الضالين المضلين الذين يصدونه عن السبيل القويم ، ويظن أنه مهتد ، لأنه يتلقى من الشياطين مايلائم أخلاقه فيألفه ولا ينكره ، ثم ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة تبرأ الكافر من الشيطان قرينه وقال له : ليت بينى وبينك بُعْد ما بين المشرقين ، ثم أعقب هذا ببيان أن اشتراك الكافر مع قرينه الشيطان فى العذاب لا يخفف عنه شيئا منه ، لاشتغال كل منهما بنفسه .

ثم ذكر لرسوله أن دعوته لا تؤثر فى قلوبهم ، وقلما تُجْدِيهم المواعظ ، فإذا أسمعتهم

القرآن كانوا كالصم ، وإذا أريتهم معجزاتك كانوا كالعمى ، وإنما كانوا كذلك لضلالهم المبين ؛ ثم سلى رسوله وبين له أنه لابد أن ينتقم منهم إما حال حياته أو بعد موته ، ثم أمره أن يستمسك بما أمره الله به ، فيعمل بموجبه فإنه الصراط المستقيم النافع فى الدين والدنيا وفيه الشرف العظيم له ولقومه ، وسوف يسألون عما قاموا به من التكاليف التى أمرهم بها ، ثم أرشد إلى أن بغض الأصنام وبغض عبادتها جاء على لسان كل نبى ، فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس بِدْعا من بينهم فى الإنكار عليها حتى يعارض ويبغض .

الايضاح

(ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) أى ومن يتعام عن ذكر الله وينهمك فى لذات الدنيا وشهواتها نسلط عليه شياطين الإنس والجن يزينون له أن يرتع فى الشهوات ، ويَلَغ فى اللذات ، فلا يألوا جهدا فى ارتكاب الآثام والمحرمات على ماجرت به سنتنا الكونية ، كما نسلط الذباب على الأجسام القذرة ونخلق الحيات والعقارب والحشرات فى المحال العفنة ، لتلطف الجو وترحم الناس والحيوان ، وهكذا النفوس الموسوسة للضعفاء توقعهم فى الذنوب لاستعدادهم لها ، فينالون جزاءهم من عقاب الله وعقوبات البشر واحتقارهم لهم ، إلى ماينالهم من الأمراض الفتاكة والأدواء التى لايجدى فيها علاج، فيكون ذلك عبرة لهم ولغيرهم وأنى لهم أن تنفعهم تلك الذكرى فقد فات الأوان، ولا ينفع الندم على فائت :

ندم البغاة ولاتَ ساعة مَنْدَمٍ والبَغْىُ مَرْتع مبتغيه وخيمُ

قال الزجاج : معنى الآية — إن من أعرض عن القرآن وما فيه من الحكم إلى أباطيل المضلين — يعاقبه الله بشيطان يقيضه له حتى يضله ، ويلازمه قرينا له فلا يهتدى، مجازاة له حين آثر الباطل على الحق المبين اهـ .

أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن عثمان المخزومى : أن قريشا قالت قيّضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلا يأخذه ، فقيّضُوا لأبى بكر طلحة بن عبيد الله ، فأتاه وهو فى القوم فقال أبو بكر : إلام تدعونى ؟ قال : أدعوك إلى عبادة اللاّت والعُزّى قال أبو بكر وما اللات؟ قال: أولاد الله، قال: وما العزّى ؟ قال : بنات الله ، قال أبو بكر : فمن أمهم ؟فسكت طلحة فلم يجبه ، وقال لأصحابه أجيبوا الرجل ، فسكت القوم ، فقال طلحة : قم ياأبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فأنزل الله هذه الآية ، وثبت فى صحيح مسلم وغيره أن مع كل مسلم قرينا من الجن .

(وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) أى وإن هؤلاء الشياطين الذين يقيضهم الله لكل من يعشو عن ذكر الرحمن ليحولُنّ بينهم وبين سبيل الحق ، ويوسوسُنّ لهم أنهم على الجادّة وسواهم على الباطل ، فيطيعنهم ويكرّهن إليهم الإيمان بالله والعمل بطاعته .

ثم ذكر حال الكافر مع القرين يوم القيامة فقال :

(حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) أى حتى إذا وافى الكافر يوم القيامة إلينا وعرض عليها أعرض عن قرينه الذى وُكل به وتبرأ منه وقال : ليت بينى وبينك بعدما بين المشرق والمغرب ، فبئس القرين أنت أيها الشيطان، لأنك قد أضللتنى وأوصلتنى إلى هذا العذاب المهين ، والخزى الدائم ، والعيش الضنك، والمحل المُقِضّ المضْجع

ثم حكى ماسيقال لهم حينئذ توبيخا وتأنيبا فقال :

(ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) أى ولن ينفعكم فى هذا اليوم اشتراككم فى العذاب أنتم وقرناؤكم ، كما كان ينفع فى الدنيا الاشتراك فى المهامّ الدنيوية ، إذ يتعاونون فى تحمل أعبائها ، ويتقاسمون شدّتها وعناءها ، فإن لكل منهم من العذاب مالا تبلغه طاقته ، ولا قدرة له على احتماله .

وقد يكون المعنى — ولن ينفعكم ذلك من حيث التأسى ، فإن المكروب فى الدنيا يتأسى ويستروح بوجدان المشارك فى البلوى ، فيقول أحدهم لى فى البلاء والمصيبة أسوة ، فيسكّن ذلك من حزنه كما قالت الخنساء ترثى أخاها صخرا :

يذكّرنى طلوعُ الشمس صخرا وأذكره بكل مغيب شمس
فلولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يكون مثل أخى ولكن أُعزّى النفس عنه بالتأسى

وقصارى ذلك — إنه لا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شىء من العذاب ، إذ لكل منهم الحظ الأوفر منه .

وقد يكون المعنى — ولن ينفعكم اليوم الاعتذار والندم ، فأنتم وقرناؤكم مشتركون فى العذاب ، كما كنتم مشتركين فى سببه فى الدنيا .

وقد وصفهم فيما سلف بالعَشى ووصفهم بالعمى والصمم ، من قِبَل أن الإنسان لاشتغاله بالدنيا يكون كمن حصل بعينيه ضعف فى البصر ، وكلما زاد انهماكه بها كان ميله إلى الجسمانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل فقال :

(أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين ؟) أى أفأنت تسمع من قد سلبهم الله استماع حججه التى ذكرها فى كتابه ، أوتهدى إلى طريق الحق من أعمى قلوبهم عن إبصارها ، واستحوذ عليهم الشيطان فزين لهم طريق الردى .

والخلاصة — إن ذلك ليس إليك ، إنما ذلك إلى من بيده تصريف القلوب وتوجيهها أنّى شاء ، فعليك البلاغ وعلينا الحساب .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يبالغ فى دعاء قومه إلى الإيمان وهم لا يزيدون إلا غيًّا وتعاميا عما يشاهدون من دلائل النبوة وتصامًّا عما يسمعون من بينات القرآن .

وبعد أن أيأسه من إيمانهم سلاه بالانتقام منهم لأجله إما حال حياته أو بعد مماته فقال :

(فإما نذهبنّ بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينّك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون) أى فإن نذهب بك أيها الرسول من بين أظهر المشركين بموت أو غيره فإنا منهم منتقمون كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم المكذبة لرسلها ، أو نرينك الذى وعدناك من الظفر بهم و إعلائك عليهم فإنا عليهم مقتدرون ، فنظهرك عليهم ونخزيهم بيديك وأيدى المؤمنين .

وفى التعبير بالوعد وهو سبحانه لايخالف الميعاد — إشارة إلى أن ذلك سيقع حتما وهكذا كان ، فإنه لم يُقْبَض رسوله حتى أقر عينيه من أعدائه ، وحكّمه فى نواصيهم ، وملّكه ما تضمنته صياصيهم ، قاله السدى واختاره ابن جرير .

ثم أمر رسوله أن يستمسك بما أوحى به إليه فيعمل به فقال :

(فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم) أى فخذ بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق المفضى إلى الصراط المستقيم، والموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم .

ثم ذكر ما يستحثه على التمسك به فقال :

(وإنه لذكر لك ولقومك) أى وإن القرآن لشرف عظيم لك ولقومك ، لأنه نزل بلغتهم على رجل منهم ، فهم أفهم الناس له ، فينبغى أن يكونوا أسبق الناس إلى العمل به .

أخرج الطبرانى وابن مردويه عن عدى بن حاتم قال : « كنت قاعدا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ألا إن الله تعالى علم ما فى قلبى من حبى لقومى فبشرنى فيهم فقال سبحانه : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » الآية . فجعل الذكر والشرف لقومى — إلى أن قال — فالحمد لله الذى جعل الصدّيق من قومى والشهيد من قومى،

وإن الله قلب العباد ظهرا وبطنا ، فكان خير العرب قريش وهى الشجرة المباركة » ثم قال عدىّ ما رأيت رسول الله ذكرت عنده قريش بخير إلا سره حتى يتبين ذلك السرور فى وجهه للناس كلهم اهـ .

ونظير الآية قوله فى سورة الأنبياء « لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى شرفكم ، فالقرآن نزل بلسان قريش ، وإياهم خاطب ، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم وصاروا عيالا عليهم ، حتى يقفوا على معانيه من أمر ونهى ونبإ وقصص وحكمة وأدب .

روى الترمذى عن معاوية رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن هذا الأمر فى قريش لاينازعهم فيه أحد إلا أكبّه الله تعالى على وجهه ماأقاموا الدين » .

وفى الآية إيماء إلى أن الذكر الجميل والثناء الحسن أمر مرغوب فيه ، ولولا ذلك ما امتن الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم به ، ولما طلبه إبراهيم عليه السلام بقوله : « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » وقال ابن دريد :

وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقال المتنبى :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ... ما قاته وفضول العيش أشغال

(وسوف تسألون) عن حقه وأداء شكر النعمة فيه .

وخلاصة ما سلف — إن القرآن نزل بلغة العرب ، وقد وعد الله بنشر هذا الدين ، وأبناء العرب هم العارفون بهذه اللغة ، فهم الملزمون بنشرها ونشر هذا الدين للأمم الأخرى . فمتى قصروا فى ذلك أذلهم الله فى الدنيا ، وأدخلهم النار فى الآخرة ، فعسى أن يقرأ هذا أبناء العرب ويعلموا أنهم هم المعلمون للأمم ، فيبشروا هذا القرآن ويكتبوا المصاحف باللغة العربية ، ويضعوا على هوامشها تفاسير بلغات مختلفة كالإنجليزية

والألمانية والروسية حتى تعرف الأمم كلها هذا الدين معرفة حقة خالية من الخرافات التي ألصقها به المبتدعون ، ويعود سيرته الأولى ، وما ذلك على الله بعزيز .

ثم وبخ مشركي قريش بأن ماهم عليـه من عبادة الأصنام لم يأت في شريعة من الشرائع فقال :

(واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون)

أي واسأل أمم من أرسلنا من قبلك من الرسل : هل حكمنا بعبادة غير الله ؟ وهل جاء ذلك في ملة من الملل ؟ والمراد بهذا الاستشهاد بيان إجماع المرسلين على التوحيد والتنبيه إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس ببدع من بين الرسل في الأمر به ، حتى يكذّب ويعادى له .

وقصارى ذلك — إن الرسل جميعا دعوا إلى ما دعا إليـه من عبادة الله وحده لاشريك له ، ونهوا عن عبادة الأصنام .

ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَأَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ : أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ؟ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ

وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ (٥٦) .

تفسير المفردات

الآيات : هي المعجزات ، وملئه : أي أشراف قومه ، أخذناهم : أي أخذ قهر بالعذاب فأرسلنا عليهم الجراد والقُمّل والضفادع ، الساحر : أي العالم الماهر ، بما عهد عندك : أي بما أخبرتنا من عهده إليك أنا إذا آمنا كشف عنا العذاب الذي نزل بنا ، ينكثون : أي ينقضون العهد ، من تحتي : أي من تحت قصري وبين يديّ في جناني ، مهين : أي ضعيف حقير ، يبين : أي يفصح عن كلامه . قال ابن عباس كانت بموسى لثغة في لسانه (واللثغة بالضم : أن تصير الراء غينا أو لاما والسين ثاء وقد لَثِغ من باب طرب فهو ألثغ) ، والأسورة : واحدها سوار كأُخمرة وخمار ، قال مجاهد : كانوا إذا سودوا رجلا سوّروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة سيادته ، مقترنين : أي مقرونين به يعينونه على من خالفه ، فاستخف قومه : أي استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلال فاستجابوا له ، آسفونا : أي أغضبونا وأسخطونا . قال الراغب : الأسف الحزن والغضب معا ، وقد يقال لكل منهما على الانفراد . وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام ، فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا ، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا وسلفا : أي قدوة لمن بعدهم من الكفار ، مثلا : أي حديثا عجيب الشأن يسير سير المثل فيقول الناس مثلكم مثل قوم فرعون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن كفار قريش طعنوا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لكونه فقيرا عديم المال والجاه — بين هنا أن موسى بعد أن أورد المعجزات الباهرة أورد فرعون هذه الشبهة التى ذكرها كفار قريش فقال : إنى غنى كثير المال عظيم الجاه ، فلى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، وموسى فقير مهين وليس له بيان ولا لسان ، وهذا شبيه بما قاله كفار قريش

وأيضا فإنه لما قال : واسأل من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا — ذكر هنا قصة موسى وعيسى عليهما السلام وهما أكثر الأنبياء أتباعا وقد جاءا بالتوحيد ولم يكن فيما جاءا به إباحة اتخاذ آلهة من دون الله .

ثم ذكر سبحانه أن فرعون قال : هلا ألقى إلى موسى مقاليد الملك فطوق بسوار من ذهب إن كان صادقا ، زعما منه أن الرياسة من لوازم الرسالة ، أو جاء معه جمع من الملائكة يعينونه على من خالفه ، وأعقب هذا بأن ذكر أنه حين دعا قومه إلى تكذيب موسى فى دعواه الرسالة أطاعوه لضلالهم وغوايتهم ، ولما لم تُجْدِ فيهم المواعظ غضبنا وانتقمنا منهم ، وجعلناهم قدوة للكافرين ، وضربنا بهم الأمثال للناس ليكونوا عبرة لهم .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إنى رسول رب العالمين) أى ولقد بعثنا موسى ومعه حججه الدالة على صدقه إلى فرعون وأشراف قومه ، كما أرسلناك إلى هؤلاء المشركين من قومك ، فقال لهم : إنى رسول من قِبل الله إليكم ، كما قلت أنت لقومك : إنى رسول الله إليكم .

فطالبوه بإحضار البينة على صدق دعواه كما يدل على ذلك قوله :

(فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون) أى فلما جاءهم بالأدلة على صدق قوله فيما يدعوهم إليه من توحيد الله وترك عبادة الآلهة — إذا فرعون وقومه يضحكون من تلك المعجزات ، كما أن قومك يسخرون مما جئتهم به .

وفى هذا تسلية لرسوله على ما كان يلقاه من قومه المشركين ، وإعلام له بأن قومه لن يعْدوا أن يكونوا كسائر الأمم الذين كانوا على منهاجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله ، ونَدْبٌ له أن يستن بسنة أولى العزم من الرسل فى الصبر على أذى أقوامهم وتكذيبهم لهم ، وإخبار بأن عقبى أمرهم الهلاك كسنته فى الكافرين قبلهم ، وظفره بهم، وعلوّ أمره كما فعل بموسى عليه السلام وقومه الذين آمنوا به من إظهارهم على فرعون وملئه .

(وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها) أى وما أرينا فرعون وملأه حجة من حججنا الدالة على صدق رسولنا فى دعواه الرسالة إلا كانت أعظم من سابقتها فى الحجية عليهم ، وآكد فى الدلالة على صحة ما يأمر به من توحيد الله ، ومعنى الأخوّة بين الآيات تشاكلها وتناسبها فى الدلالة على صحة نبوة موسى كما يقال هذه صاحبة هذه أى هما قرينتان فى المعنى .

ثم بين ماجوزوا به على تكذيبهم فقال :

(وأخذناهم بالعذاب) أى وأنزلنا عليهم ألوانا من العذاب كنقص الثمرات والجراد والقمل والضفادع .

ثم بين العلة فى أخذه لهم بذلك وهو رجاء رجوعهم فقال :

(لعلهم يرجعون) أى لكى يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان بالله وطاعته ، والتوبة مما هم عليه مقيمون من المعاصى .

ولما عاينوا ماجاءهم به من الآيات البينات ، والدلالات الواضحات — ظنوا أن ذلك من قبيل السحر :

(وقالوا يأيها الساحر) أى وقالوا يأيها العالم الماهر ، وكانوا يسمون العلماء سحرة، ويوقرونهم ويعظمونهم ولم يكن السحر صفة ذم عندهم .

وقد يكونون نادوه بذلك فى تلك الحال ، لشدة شكيمتهم ، وفرط حماقتهم .

(ادع لنا ربك بما عهد عندك) أى ادع لنا ربك ليكشف عنا العذاب بما أخبرتنا من عهده إليك ، أنا إن آمنا به كشفه عنا .

(إننا لمهتدون) أى إنا لمؤمنون بما جئت به إن حدث ذلك :

ونحو ذلك ما جاء فى سورة الأعراف من قولهم : « لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ » .

ثم بين ما حدث منهم بعد دعوة موسى وكشف العذاب فقال :

(فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون) أى فدعانا فكشفنا عنهم العذاب فلم يؤمنوا ونقضوا العهد ، وقد كان هذا دَيْدَنهم مع موسى ، يَعِدُونه فى كل مرة أن يؤمنوا به إذا كشف عنهم الرجز ، ثم ينقضون ما عاهدوا الله عليه .

ونحو الآية ماجاء فى سورة الأعراف من قوله : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ . وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ » .

ثم أخبر سبحانه عن تمرد فرعون وعتوّه وعناده فقال :

(ونادى فرعون فى قومه قال : يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى) أى إنه جمع قومه ونادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها وجرى الأنهار المنبثقة من نهر النيل تحت قصوره وتحت جنانه وضياعه .

ثم أكد هذا بقوله :

(أفلا تبصرون ؟) ذلك وتستدلون به على قوة ملكى وعظم قدرى وضعف موسى عن مقاومتى لما فيه من فقر وعِىّ وحَصَر .

(أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) أى بل أنا ولا شك خير بما لى من السعة فى المال والجاه والملك العريض — من هذا المهين الحقير الذى لا يكاد يفصح عما يريد ، إذ كان فى لسانه حُبسة فى صغره فعابه بها ، وهو لا يعلم أن الله استجاب سؤله حين قال : « وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِى يَفْقَهُوا قَوْلِى » فحل عقدة لسانه كما جاء فى قوله : « قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى » .

قال الحسن البصرى : إنه قد بقى منها شىء لم يسأل زواله ، وإنما سأل زوال ما يمنع الإبلاغ والإفهام اه .

والأشياء الخِلقية لا يعاب المرء بها ولا يذم ، لكنه أراد الترويج على رعيته وصدهم عن الإيمان به .

ونحو الآية قوله : « فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى » .

ثم ذكر شبهة مانعة له من الرياسة ، وهى أنه لا يلبس لبس الملوك ، فلا يكون رئيسا ولا رسولا لتلازمهما فى زعمه فقال :

(فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب) أى فهلا ألقى ربُّ موسى عليه أساور من ذهب إن كان صادقا كما جرت عادتهم بذلك ، وهذا شبيه بما قال كفار قريش فى عظيم القريتين .

ثم ذكر شبهة أخرى وهى أنه ليس له خدم من الملائكة تعينه فقال :

(أو جاء معه الملائكة مقترنين) أى هلا جاء معه الملائكة متتابعين متقارنين إن كان صادقا ، يعينونه على أمره ، ويشهدون له بالنبوة ، ويمشون معه ، كما نفعل نحن

إذا أرسلنا رسولا فى أمر هامّ يحتاج إلى دفاع ، وفيه خصام ونزاع — وهو بهذا أوهم قومه أن الرسل لابد أن يكونوا على هيئة الجبابرة ، أو يكونوا محفوفين بالملائكة .

ثم ذكر أن هذه الخدع قد انطلت عليهم ، وسحرت ألبابهم ، لغفلتهم وضعف عقولهم ، فاعترفوا بربوبيته ، وكذبوا بنبوة موسى فقال :

(فاستخفّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين) أى فاستخف أحلامهم بقوله وكيده ، وبما أبداه من عظمة الملك والرياسة ، وجعلها مناطا للعلم والنبوة ، وأنه لو كانت هناك نبوة لكان أولى بها ، فأطاعوه فيما أمرهم ، لأنهم كانوا قوما ذوى ضلال وغىّ ومن ثم أسرعوا إلى تلبية دعوة ذلك الفاسق الغوىّ .

ثم ذكر جزاءهم على ما اجترحوا من تكذيب رسوله على وضوح الدليل وظهور الحق فقال :

(فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) أى فلما أغضبونا بعنادهم وعظيم استكبارهم وبغيهم فى الأرض — انتقمنا منهم بعاجل عذابنا ، فأغرقناهم جميعا .

وإنما أهلكوا بالغرق ليكون هلاكهم بما تعززوا به وهو الماء فى قوله : « وَهٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِنْ تَحْتِى » :

وفى هذا إشارة إلى أن من تعزز بشىء دون الله أهلكه الله به .

أخرج أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب وابن أبى حاتم عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيتَ الله يعطى العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك استدراج منه له ، وقرأ : (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) » .

(فجعلناهم سلفا) أى فجعلناهم قدوة لمن يعمل عملهم من أهل الضلال ككفار قومك .

(ومثلا للآخرين) أى وعبرة وموعظة لمن يأتى بعدهم من الكافرين .

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلاَئِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (٦٦) .

تفسير المفردات

مثلا : أى حجة و برهانا ، يصدّون (بكسر الصاد) أى يصيحون و يرتفع لهم ضجيج وفرح ، جدلا : أى خصومة بالباطل ، خصمون : أى شديدو الخصومة مجبولون على اللجاج وسوء الخلق ، مثلا : أى أمرا عجيبا ، منكم : أى من بعضكم ، يخلفون : أى يخلفونكم فى الأرض ، علم : أى علامة وشرط من أشراطها ، فلا تمترنّ : أى فلا تشكنّ ، البينات : المعجزات ، الحكمة : الشرائع المحكمة التى لا يستطاع نقضها ولا إبطالها .

المعنى الجملى

روى محمد بن إسحاق فى السيرة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوما فى المسجد مع الوليد بن المغيرة ، فجاء النضر بن الحارث وجلس معهم وفى المسجد غير واحد من رجالات قريش ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض له النضر فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا عليهم: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » الآيات ، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَى التميمى وجلس فقال له الوليد بن المغيرة : والله ماقام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنّا ومانعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال ابن الزبعرى : أمَا والله لو وجدته لخصَمْتُه ، سلوا محمدا ، أكلٌّ ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذُكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته وأنزل الله عز وجل : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » أى عيسى وعزير ومن عُبِد معهما ، فاتخذهم مَنْ بعدهم من أهل الضلال أربابا من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه السلام وأنه يعبد من دون الله «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً الآية) » .

الإيضاح

(ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) أى ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى له ، إذا

قومك من هذا المثل يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحا وسرورا كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا أعيَوْا فى حجة ثم فُتِحت عليهم .

وقد روى أن عبد الله بن الزبعرى قبل إسلامه قال للنبى صلى الله عليه وسلم وقد سمعه يقول : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » أليس النصارى يعبدون المسيح وأنت تقول كان نبيا وعبدا صالحا ، فإن كان فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه ، ففرح قريش وضحكوا وارتفعت أصواتهم .

(وقالوا أآلهتنا خير أم هو؟) أى إن آلهتنا ليست خيرا من عيسى ، فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون .

(ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) أى ما ضربوا لك المثل إلا لأجل الجدل والغلبة فى القول لا لإظهار الحق ، فإن قوله : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ » إنما ينطلق على الأصنام والأوثان ولا يتناول عيسى والملائكة ، ولكنهم قوم ذَوُو لَدَدٍ فى الخصومة ، مجبولون على سوء الخلق واللجاج .

قال صاحب الكشاف : إن ابن الزبعرى بخبثه وخداعه وخبث دِخْلته لما رأى كلام الله ورسوله محتملا لفظه وجه العموم مع علمه بأن المراد به أصنامهم لا غير — وجد للحيلة مساغا فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله ، على طريقة المحْك والجدال وحب المغالبة والمكابرة وتوقّح فى ذلك ، فتوقّر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أجاب عنه ربه بقوله : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » فدل به على أن الآية خاصة فى الأصنام اهـ .

أخرج سعيد بن منصور وأحمد فى جماعة عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم تلا هذه الآية »

ثم بين أن عيسى عبد من عبيده الذين أنعم عليهم بقوله :

(إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل) أى ما عيسى بن مريم

إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة وروادفها ، فهو رفيع المنزلة على القدر ، وقد جعلناه آية ، بأن خلقناه من غير أب ، وشرفناه بالنبوة ، وصيرناه عبرة سائرة ، تفتح للناس باب التذكر والفهم ، وليست مخالفة العادة بموجبة لعبادته كما يزعم النصارى ، بل مذكرة بعبادة الخالق الحكيم .

(ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون) أى ولو نشاء لجعلنا ذريتكم ملائكة يخلفونكم فى الأرض كما يخلفكم أولادكم ، كما خلقنا عيسى من أنثى بلا ذكر وجعلناه رجلا .

وقد يكون المعنى على التهديد والتخويف لقريش ويكون المراد — لو نشاء لأهلكناكم وجعلنا بدلكم فى الأرض ملائكة يعمرونها ويعبدوننا .

والخلاصة — إننا لو نشاء لجعلنا فى الأرض عجائب كأمر عيسى بحيث يلد الرجل ملكا فيخلفه ، فباب العجائب وتغير السنن لاحد له عندنا ، فكم من نواميس خافية عليكم بيدنا تصريفها .

(وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم) أى وإن القرآن ليعلمكم بقيام الساعة ، ويخبركم عنها وعن أهوالها ، فلا تشكّنّ فيها واتبعوا هداى ، فهذا الذى أدعوكم إليه هو الصراط المستقيم الذى لاعوج فيه وهو الموصل إلى الحق .

(ولا يصدنكم الشيطان) أى ولا تغتروا بوساوس الشيطان وشبهه التى يوقعها فى قلوبكم ، فيمنعكم ذلك عن اتباعى ، فإن الذى دعوتكم إليه هو دين الله الذى اتفق عليه رسله وكتبه .

ثم علل نهيهم عن اتباعه بعداوته لهم فقال :

(إنه لكم عدو مبين) أى إنه مظهر لعداوته لكم ، غير متحاش ولا متكتم لها كما يدل على ذلك ما وقع بينه وبين أبيكم آدم من امتناعه عن السجود له ، وما ألزم به نفسه من إغواء جميع بنى آدم إلا عباد الله المخلصين .

(ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) أى ولما جاء عيسى بالمعجزات الواضحة قال قد جئتكم بالشرائع التى فيها صلاح البشر ، ولأبيّن لكم بعض ما اختلف فيه قوم موسى من أحكام الدين دون أمور الدنيا كطرق الفلاحة والتجارة ، فإن الأنبياء لم يبعثوا لبيانها. كما يشير إلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام حين نهاهم عن تأبير النخل (تلقيحه بالطلع) ففسد الثمر ولم يغلّ شيئا نافعا « أنتم أعلم بأمور دنياكم وأنا أعلم بأمور دينكم » .

ولما بين لهم أصول الدين وفروعه قال :

(فاتقو الله وأطيعون) أى فاتقوا الله فى مخالفتى ، وخافوا أن يحل بكم عقابه ، وأطيعونى فيما أبلغكم عنه من الشرائع والتكاليف .

ثم فصل ما يأمرهم به بقوله :

(إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه) أى إن الله الذى يستحق إفراده بالألوهية وإخلاص الطاعة له — ربى وربكم ، فأنا وأنتم عبيد له فقراء إليه .

(هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى جئتكم به هو الصراط المستقيم ، وكل الديانات جاءت بمثله ، فما هو إلا اعتقاد بوحدانية الله ، وتعبُّد بشرائعه .

وقصارى ذلك — إنه علم بحقائق ، وعمل بشرائع .

ولما كان الطريق القويم يجب الاجتماع عليه ، والاتفاق على سلوكه — بين أنهم خالفوا ذلك فاختلفوا فيه فقال :

(فاختلف الأحزاب من بينهم) أى فاختلف النصارى وصاروا شيعا ، من ملكانية إلى نسطورية إلى يعقوبية ، فنهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدعى أنه ابن الله ، ومنهم من يقول إنه الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

(فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) أى فالويل لهؤلاء المختلفين الذين

أشركوا بالله وقالوا فى عيسى ما كفروا به ـ من عذاب يوم القيامة حين يحاسبون على ما قالوا وعلى ما عملوا .

ثم حذرهم وأنذرهم على ماهم فيه من الخلاف دون أن يتبينوا وجه الحق فقال :

(هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) أى هل ينتظر هؤلاء الأحزاب المختلفون فى شأن عيسى القائلون فيه الباطل من القول ـــ إلا أن تقوم الساعة بغتة وهم غافلون عنها لا يعلمون بمجيئها لاشتغالهم بأمر دنياهم وإنكارهم لها ، فيندمون حين لا ينفعهم الندم ، ولا يدفع ذلك عنهم شيئا .

ونحو الآية قوله تعالى : « تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » .

روى ابن مردويه عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعمة ، والرجلان يطويان الثوب ، ثم قرأ (هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) .

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَاعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) .

تفسير المفردات

الأخلاء : واحدهم خليل ، وهو الصديق الحميم ، مسلمين : أى مخلصين منقادين لربهم ، تحبرون : أى تسرون سرورا يظهر حَباره (بفتح الحاء) أى أثره من النضرة

والحسن على وجوهكم ، والصحاف : واحدها صحفة وهى كالقصعة ، قال الكسائى: أكبر أوانى الأكل الجفنة ثم القصعة ثم الصحفة ثم المِئْكلة ، والأكواب : واحدها كوب ، وهو كوز لا أذن له .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن يوم القيامة سيأتيهم بغتة وهم لايشعرون — أردف ذلك بيان أحوال ذلك اليوم ، فمنها أن الأخلاء يتعادَون فيه إلا من تخالّوا على الإيمان والتقوى ، ومنها أن المؤمنين لايخافون من سلب نعمة يتمتعون بها ، ولا يحزنون على فقد نعمة قد فاتتهم ، ومنها أنهم يتمتعون بفنون من الترف والنعيم فيطاف عليهم بصحاف من ذهب فيها ما لذّ وطاب من المآكل ، وبأكواب وأباريق فيها شهىّ المشارب ، ويقال لهم هذا النعيم كِفاء ما قدمتم من عمل بأوامر الشرع ونواهيه ، وأسلفتم من إخلاص لله وتقوى له .

الايضاح

(الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين) أى كل صداقة وخلّة فإنها تنقلب فى ذلك اليوم إلى عداوة إلا ما كانت فى الله وفى سبيله ، فإنها تبقى فى الدنيا والآخرة .

ونحو الآية ما قاله إبراهيم لقومه : « إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » .

ثم ذكر ما يتلقى به سبحانه عباده المؤمنين المتحابين فى الله تشريفا لهم وتسكينا لِرَوْعهم مما يرون من الأهوال فقال :

(ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) أى ونقول لهم حينئذ : ياعباد

لاتخافوا من عقابى ، فإنى قد أمنتكم منه برضاى عنكم ، ولا تحزنوا على فراق الدنيا ، فإن الذى تقدُمون عليه خير لكم مما فارقتموه منها .

ثم بين من يستحق هذا النداء وذلك التكريم فقال :

(الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) أى الذين آمنت قلوبهم ، وصفت نفوسهم ، وانقادت لشرع الله بواطنهم وظواهرهم .

ثم ذكر ما يقال لهم على سبيل البشرى فقال :

(ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون) أى ادخلوا الجنة أيها المؤمنون أنتم وأزواجكم مغبوطين بكرامة الله ، مسرورين بما أعطاكم من مننه .

وبعدئذ ذكر طرفا مما يتمتعون به من النعيم فقال :

(يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب) أى وبعد أن يستقروا فى الجنة ويهدأ رَوعهم يطاف عليهم بجفان من الذهب مُترَعة بألوان الأطعمة والحلوى ، وبأكواب فيها أصناف الشراب مما لذّ وطاب .

وبعد أن فصل بعض مافى الجنة من نعيم ، عمّم فى ذلك فقال :

(وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) أى وفى الجنة ما تشتهيه أنفس أهلها من صنوف الأطعمة والأشربة والأشياء المعقولة والمسموعة ونحوها مما تطلبه النفوس وتهواه كائنا ما كان ، جزاء لهم على ما منعوا أنفسهم من الشهوات ، وفيها ما تقرّ أعينهم بمشاهدته ، وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم ، وأنتم لاتخرجون منها ولا تبغون عنها حِوَلا .

أخرج ابن أبى شيبة والترمذى عن عبد الرحمن بن سابط قال: «قال رجل يارسول الله هل فى الجنة خيل فإنى أحب الخيل ؟ قال : إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرسا من ياقوتة حمراء فتطير بك فى أىّ الجنة شئت إلا فعلت ، وسأله آخر فقال : يارسول الله هل فى الجنة من إبل فإنى أحب الإبل ؟ فقال إن يدخلك الله الجنة يكن لك ما اشتهت نفسك ولذت عينك » .

ثم ذكر أن هذا كان فضلا من ربكم آتاكموه كفاء أعمالكم التى أسلفتموها فقال:

(وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) أى وهذه الجنة جعلها الله لكم باقية كالميراث الذى يبقى عن المورث، جزاء ما قدمتم من عمل صالح.

أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار، فالكافرُ يرث المؤمنَ منزله فى النار، والمؤمنُ يرث الكافرَ منزله فى الجنة، وذلك قوله: «وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا»».

وبعد أن ذكر الطعام والشراب ذكر الفاكهة فقال:

(لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) أى لكم فيها صنوف من الفواكه لا حصر لها، تأكلون منها حيثما شئتم، وكيفما اخترتم.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠).

تفسير المفردات

المراد بالمجرمين هنا الراسخون فى الإجرام وهم الكفار، يفتّر: أى يخفف، من قولهم: فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلا، مبلسون: من الإبلاس وهو الحزن المعترض

من شدة اليأس ، والمبلس كثيرا ما يلزم السكوت وينسى مايعنيه ، ومن ثم قيل أبلس فلان إذا سكت وانقطعت حجته ، قاله الراغب ، مالك : خازن النار ، ليقض علينا ربك : أى ليمتنا ، من قولهم : قضى عليه : أى أماته ، وأبرم الأمر : أحكم تدبيره ، أمرا : هو التحيل فى تكذيب الحق ، والسر : هو مايحدث به المرء نفسه أو غيره فى مكان خال ، والنجوى : التناجى فيما بينهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما أعدّ لأهل الجنة من النعيم المقيم ، والتمتع بفنون اللذات من المآكل والمشارب والفواكه — أعقب ذلك بذكر مايكون فيه الكفار من العذاب الأليم الدائم الذى لا يخفَّف عنهم أبدا، وهم فى حزن لاينقطع ، ثم ذكر أن هذا ليس إلا جزاء وفاقا لما دسُّوا به أنفسهم من سيىء الأعمال ، ثم أردف ذلك بمقال أهل النار لخزنة جهنم وطلبهم من ربهم أن يموتوا حتى يستريحوا مما هم فيه من العذاب ، ثم إجابته لهم عن ذلك ، ثم وبخهم على ماعملوا فى الدنيا واستحقوا به العذاب ، ثم ذكر ما أحكموا تدبيره من ردّ الحق وإعلاء شأن الباطل ظنا منهم أنا لانسمع سرّهم ونجواهم ، وقد وهِموا فيما ظنوا ، فإن الله عليم بذلك ورسله يكتبون كل ما صدر عنهم من قول أو فعل .

الايضاح

(إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون) أى إن الذين اجترموا الكفر بالله فى الدنيا يجازيهم ربهم بعذاب جهنم خالدين فيه أبدا لاينفك عنهم ولا يجدون عنه حوِلا .

(لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون) أى لايخفف عنهم لحظة وهم فيه ساكتون سكوت يأس من النجاة والفرج ، ولا منافاة بين هذا وبين قوله الآتى : ونادوا

يا مالك الخ لأن تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة ، فتختلف بهم الأحوال ، فيسكتون تارة لغلبة اليأس عليهم وعلمهم أنه لافرج ، ويشتد عليهم العذاب أخرى فيستغيثون .

ثم ذكر أن ذلك العذاب جزاء ما كسبت أيديهم فقال :

(وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) أى وما ظلمنا هؤلاء المجرمين بفعلنا بهم ما أخبرناكم أننا فاعلون بهم ، ولكن هم الذين أساءوا إلى أنفسهم ، فكذبوا الرسل وعصوهم بعد أن أقاموا الحجة عليهم ، فأتوهم بباهر المعجزات .

ثم ذكر ما يقوله أهل النار وما يجيبهم به خزنتها فقال :

(ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون) أى ونادى المجرمون من شدة العذاب فقالوا : يا مالك ادع لنا ربك أن يقبض أرواحنا ليريحنا مما نحن فيه ، فأجابهم بقوله إنكم ماكثون لاخروج لكم منها ، ولا محيص لكم عنها .

ونحو الآية قوله تعالى : « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » وقوله : « وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا » .

ثم خاطبهم خطاب تقريع وتوبيخ وبين سبب مكثهم فيها بقوله :

(لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) أى لقد بيّنا لكم الحق على ألسنة رسلنا وأنزلنا إليكم الكتب مرشدة إليه ، ولكن سجاياكم لاتقبله ولا تقْبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق وتأباه ، وتبغض أهله ، فعودوا على أنفسكم بالملامة ، واندموا حيث لاتنفعكم الندامة .

وبعد أن ذكر كيفية عذابهم فى الآخرة ، بين سببه وهو مكرهم وسوء طويتهم فى الدنيا فقال :

(أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون) أى بل هم تحيلوا فى رد الحق بالباطل بوجوه من الحيل والمكر ، فكادهم الله تعالى ورد عليهم سوء كيدهم بتخليدهم فى النار معذبين فيها أبدا .

وقصارى ذلك — أحكموا كيد النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنا محكمون لهم كيدا قاله مجاهد وقتادة وابن زيد .

ونحو الآية قوله: « ومَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وهُمْ لا يَشْعُرُونَ » وقوله: « أمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالّذِينَ كَفَرُوا هُمُ المَكِيدُونَ » .

(أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم) أى بل أيظنون أنا لانسمع حديث أنفسهم بذلك ، ولا ما يتكلمون به فيما بينهم بطريق التناجي .

(بلى ورسلنا لديهم يكتبون) أى بل نسمعهما ونطلع عليهما ، والحفظة يكتبون جميع ما يصدر عنهم من قول وفعل .

والخلاصة — إنا نعلم ذلك ، والملائكة يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها .

قال يحيى بن مُعاذ : من ستر من الناس ذنوبه ، وأبداها لمن لاتخفى عليه خافية — فقد جعله أهون الناظرين إليه ، وهو من أمارات النفاق .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القُرظى قال : بينا ثلاثة نفر بين الكعبة وأستارها ، قرشيان وثقفى ، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا ، وقال الثانى: إذا جهرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع ، وقال الثالث : إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم ، فنزلت الآية .

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ

الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩) .

تفسير المفردات

سبحان رب السموات : أى تنزيها له عن كل نقص ، يصفون : أى يقولون كذبا بأن له ولدا ، فذرهم : أى فاتركهم ، يخوضوا : أى يسلكوا فى باطلهم مسلك الخائضين فى الماء ، ويلعبوا : أى يفعلوا فى أمورهم الدنيوية فعل اللاعب الغافل عن عاقبة ما يعمل، يومهم: هو يوم القيامة، إله : أى معبود بحق لاشريك له ، يدعون : أى يعبدون ، من شهد بالحق: أى من نطق بكلمة التوحيد، يؤفكون : أى يصرفون ، وقيله : أى قوله : قال أبو عبيدة : يقال قلت قولا وقالا وقيلا ، وفى الخبر « نهى عن قيلٍ وقالٍ » ، فاصفح عنهم : أى اعف عنهم عفو المعرض ولاتقف عن التبليغ، سلام:أى سلام متاركة لكم بسلامتكم منى وسلامتى منكم .

المعنى الجملى

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين إحقاقا للحق : إن مخالفته لهم فى عبادة ما يعبدون لم يكن بغضا منه لهم ولا عداوة لمعبوديهم ، بل لاستحالة نسبة ما نسبوه إليهم و بنوا عليه عبادتهم لهم من كونهم بنات الله ، تنزه ربنا عما يقولون ، ثم أمره أن يتركهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى يلاقون فيه جزاء أعمالهم وأقوالهم

ثم أخبر بأن لامعبود فى السماء ولا فى الأرض سواه ، وهو الحكيم العليم بكل شيء وأن من يعبدونهم لايشفعون لهم حين الجزاء والحساب ، ثم ذكر أن أقوالهم تناقض أفعالهم ، فهم يعبدون غير الله ، و يقولون إن الخالق للكون : سمائه ، وأرضه هو الله ، ثم أردف هذا أنه لايعلم الساعة إلا هو ، وأنه يعلم شديد حزنك على عدم إيمانهم ، وعدم استجابتهم لدعوتك، ثم ختم السورة بأمررسوله بالإعراض عنهم وتركهم وشأنهم، وسيأتى اليوم الذى يلقون فيه الجزاء على سوء صنيعهم .

الايضاح

(قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) أى قل لهم : إن ثبت ببرهان صحيح توردونه ، وحجة واضحة تُدْلون بها — أن للرحمن ولدا ، كنت أسبقكم إلى طاعته ، والانقياد له ، كما يعظِّم الرجلُ ابن الملك تعظيما لأبيه — ولاشك أن هذا أبلغ أسلوب فى نفى الولد ، كما يقول الرجل لمن يناظره و يجادله : إن ثبت ماتقول بالدليل فأنا أول من يعتقده و يقول به ، وهذا ما اختاره ابن جرير ورجحه .

وخلاصته — إذا كنت لم أعترف بولد ، بدليل أنى لم أعبده مع أنى أقرب الناس إلى الله ، فالولد لاوجود له حتما — وكأنه يقول : إن انتفاء الولد مرتب على انتفاء عبادته ، لما علم من أنه إذا انتفى اللازم لشيء انتفى ذلك الشيء ، كما استدل بعدم فساد نظام الكون على وحدانية الله فى قوله : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا — السموات والأرض — آلِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتَا » .

ثم نزه سبحانه نفسه فقال :

(سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) أى تنزه مالك السموات والأرض وما فيهما من الخلق ، ورب العرش المحيط بذلك كله — عما يصفه

به المشركون كذبا ، وعما ينسبون إليه من الولد ، إذ كيف تكون هذه العوالم كلها ملكا له ، ويكون شىء منها جزءا منه ، تعالى ربنا عن ذلك علوّا كبيراً .

ولما ذكر الدليل القاطع على نفى الولد أمره أن يتركهم وشأنهم فيما يقولون فقال :

(فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) أى فاترك أيها الرسول هؤلاء المفترين على الله ، الواصفيه بأن له ولدا ، يخوضوا فى باطلهم ، ويلعبوا فى دنياهم حتى يأتى ذلك اليوم الذى لامحيص عنه ، وحينئذ يعلمون عاقبة أمرهم ، ويذوقون الوبال والنكال جزاء ما اجترحوه من الشرك والآثام .

ولا يخفى مافى هذا من شديد الوعيد والتهديد .

ثم أكد هذا التنزيه فقال :

(وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم) أى وهو الله الذى يعبده أهل السماء وأهل الأرض ، ولا تصلح العبادة إلا له ، وهو الحكيم فى تدبير خلقه وتسخيرهم لما يشاء ، العليم بمصالحهم ، فالحكمة المقترنة بالعلم تخللت كل رطب ويابس وجليل وحقير ، فمن يشاهد إتقان العالم وحسن تنسيقه وإبداعه يجد الحكمة فيه على أتم وجوهها ، ويعجب مما فيه من جمال وكمال ويدهش لما يجد فيه من غرائب يحار فيها اللب ، فأفردوا له العبادة ، ولا تشركوا به شيئا سواه .

(وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما) أى وتقدس خالق السموات والأرض وما فيهما من عوالم لا ندرى كنهها ولا نعلم حقيقتها ، المتصرف فيهما بلامدافعة ولا ممانعة من أحد ، وهو العلى العظيم الذى بيده أزمّة الأمور نقضاً وإبراما .

(وعنده علم الساعة) أى وعنده العلم بميقات الساعة لا يجليها لوقتها إلا هو .

(وإليه ترجعون) أى وإليه المرجع فيجازى كل أحد بما يستحق ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

(ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) أى ولاتقدر الأصنام والأوثان التى يعبدونها على الشفاعة لهم كما زعموا أنهم شفعاء عند ربهم،

ولكن من نطق بكلمة التوحيد وكان على بصيرة وعلم من ربه كالملائكة وعيسى تنفع شهادتهم عنده بإذنه لمن يستحقها .

وقال سعيد بن جُبير : إن معنى الآية – لا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم و بصيرة .

ثم بين أن هؤلاء المشركين متناقضو الأقوال والأفعال فقال :

(ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله) أى ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله العابدين غيره ، من خلق الخلق جميعا ؟ ليعترفُنّ بأنه الله تعالى وحده لاشريك له فى ذلك ، ولا يستطيعون الجحود لظهور الأمر وجلائه .

(فأنى يؤفكون ؟) أى فكيف ينقلبون عن عبادة الله إلى عبادة غيره ، و ينصرفون عنها مع هذا الاعتراف ، فإن المعترف بأن الله خالقه إذا عمد إلى صنم أو حيوان وعبده مع الله أو عبده وحده – فقد عبد بعض مخلوقات الله ، فهم فى غاية الجهل والسفه وضعف العقل .

وفى هذا تعجيب شديد من إشراكهم بعد هذا .

(وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) أى و يعلم علم الساعة وقوله لربه شاكيا قومه الذين كذبوه ولقى منهم شديد الأذى : يارب إن هؤلاء الذين أمرتنى بإنذارهم وأرسلتنى إليهم لتبليغهم دينك الحق – قوم لا يؤمنون .

ولما شكا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ربه عدم إيمانهم أجابه بقوله :

(فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) أى فأعرض عنهم وأنت آيس من إيمانهم ، ولا تجبهم بمثل ما يخاطبونك به من سيء الكلام ، بل تألفهم واصفح عنهم قولا وفعلا ، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم ، فإنك ستنتصر عليهم ، و يحل بهم بأسنا الذى لا يردّ .

وقد أنجز الله وعده ، وأنفذ كلمته ، وأعلى دينه ، وشرع الجهاد والجلاد ، فدخل الناس فى دين الله أفواجا ، وانتشر الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها .

فلله الحمد والمنة على إظهار الحق وإعلاء مناره ، وإزهاق الباطل وكبح جماحه ، تعاليت ربنا ياذا الجلال والإكرام ، والطَّوْل والإنعام ، وصلواتك على محمد وآله .

خلاصة ما تضمنته السورة من المقاصد

(١) وصف القرآن الكريم .

(٢) الأمر بإنذار قومه صلى الله عليه وسلم مع غفلتهم وإسرافهم فى لذات الدنيا،

(٣) شأن هؤلاء المشركين فى تكذيبهم للرسول شأن غيرهم من المكذبين من قبلهم .

(٤) اعترافهم بأن الله هو خالق السموات والأرض مع عبادتهم للأصنام والأوثان .

(٥) اعتقادهم أن الملائكة بنات الله ثم نعى ذلك عليهم .

(٦) تمسكهم بتقليد الآباء والأجداد فى شئونهم الدينية .

(٧) قصص الأنبياء من أولى العزم كإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام .

(٨) وصف نعيم الجنة .

(٩) الأهوال التى يلقاها أهل النار حتى يتمنَّوا الموت ليستريحوا مما هم فيه .

(١٠) متاركة أهل الباطل والصفح عنهم حتى يأتى وعد الله .

سورة الدخان

هى مكية ، وآيها تسع وخمسون ، نزلت بعد الزخرف .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه تعالى ختم ما قبلها بالوعيد والتهديد ، وافتتح هذه بالإنذار الشديد .

(٢) إنه تعالى حكى فيما قبلها قول رسوله صلى الله عليه وسلم : يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون ، وحكى هنا عن أخيه موسى : « فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ » .

(٣) إنه قال فيما سلف « فاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ » ، وحكى هنا عن موسى « إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ، وإنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِى فَاعْتَزِلُونِ » ، وهو قريب من ذلك .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا
مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمٰوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى
وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩)

تفسير المفردات

ليلة مباركة : هى ليلة القدر ، منذرين : أى مخوّفين ، يفرق : أى يفصل ويبين ، حكيم : أى محكم لايستطاع أن يطعن فيه بحال ، موقنين أى تطلبون اليقين وتريدونه كما يقال مُنْجِدٌ مُتْهِم : أى يريد نجداً وتهامة .

المعنى الجملى

أقسم جلت قدرته بكتابه الكريم المبين لما فيه صلاح البشر إنه أنزل القرآن فى ليلة القدر لإنذار العباد وتخويفهم من عقابه ، وإن هذه الليلة يفصل فيها كل أمر حكيم، فيبين فيها التشريع النافع للعباد فى دنياهم وآخرتهم ، وهو رب السموات والأرض وما بينهما فلا تخفى عليه خافية من أمرهم ، وهو الذى بيده إحياؤهم وإماتتهم ، وهو ربهم ورب آبائهم الأولين ، ولكنهم يمترون بعد أن وضح الحق ، وأفصح الصبح لذى عينين .

الايضاح

(حم) أسلفنا الكلام فى مثل هذا من قبل :

(والكتاب المبين . إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) أقسم ربنا جلت قدرته بكتابه المجيد إنه بدأ ينزل القرآن فى ليلة مباركة هى ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر كما جاء فى قوله « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » من شهر رمضان كما قال سبحانه « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » .

والخلاصة — إن بدء نزوله كان فى ليلة القدر ثم نزل منجما بعد ذلك فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع حالاً فحالا ، وقد عقد السيوطى فى كتابه « الاتقان » أبوابا لنزول القرآن فقال : باب ما نزل منه صيفا · باب ما نزل منه شتاء . باب ما نزل منه سفراً . باب ما نزل منه حضراً . باب ما نزل منه فى الأرض . باب ما نزل منه فى السماء . باب ما نزل منه بين الأرض والسماء . باب ما نزل منه بمكة . باب ما نزل منه بالمدينة · باب ما نزل بين مكة والمدينة — إلى آخر ما قال فليراجع فإن فيه فوائد نفيسة ·

ثم بين السبب فى إنزاله فقال :

(إنا كنا منذرين) أى إنا كنا معلمين الناس ما ينفعهم فيعملون به ، وما يضرهم فيجتنبونه ، لتقوم حجة الله على عباده .

ثم بين سبب تخصيص نزوله بتلك الليلة فقال :

(فيها يفرق كل أمر حكيم . أمراً من عندنا) أى فى هذه الليلة بدأ يبين سبحانه ما ينفع عباده من أمور محكمة لاتغيير فيها ولا تبديل . بإنزاله ذلك التشريع الكامل الذى فيه صلاح البشر وهدايتهم وسعادتهم فى دنياهم وآخرتهم ، ولا غَرْوَ فهى من لدن حكيم عليم بما يصلح شئون عباده فى معاشهم ومعادهم .

ثم بيّن السر فى نزول القرآن على لسان رسوله فقال :

(إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك) أى إنا أرسلنا الرسول به رحمة منا لعبادنا حتى يستبين لهم ما يضرهم وما ينفعهم وحتى لايكون لهم حجة بعد إرسال الرسول به .

ثم أكد ربوبيته بقوله :

(إنه هو السميع العليم) أى إنه إنما فعل تلك الرحمة ، لأنه هو السميع لأقوالهم ، العليم بما يصلح أحوالهم ، فلا عجب أن أرسله إليهم لحاجتهم إليه .

ثم أكد العلة فى سمعه للأشياء وعلمه بها فقال :

(رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) أى إنه هو السميع لكل شىء العليم به ، لأنه مالك السموات والأرض وما فيهما ان كنتم تطلبون معرفة ذلك معرفة يقين لاشك فيه .

و بعد أن أثبت ربوبيته ووحدانيته ذكر فذلكة لذلك فقال :

(لا إله إلا هو يحيى ويميت) أى هو الإله الذى لاتصلح العبادة إلا له ، وهو المحيى المميت ، فيحيى ما يشاء مما يقبل الحياة ، ويميت ما يشاء عند انتهاء ما قدر له من الأجل .

(ربكم ورب آبائكم الأولين) أى هو مالككم والمتصرف فيكم، ومالك آبائكم الأولين ومدبر شئونهم، فاعبدوه دون آلهتكم التى لاتقدر على ضر ولا نفع .

ثم بيّن أنهم ليسوا بموقنين بالجواب بعد أن تبين لهم الرشد من الغى فقال :

(بل هم فى شك يلعبون) أى بل هم فى شك من التوحيد والبعث والإقرار بأن الله خالقهم، وإن قالوا ذلك فإنما يقولونه تقليداً لآبائهم من غير علم، إذ هم قابلوه بالهزؤ والسخرية فعل اللاعب العابث الذى يأخذ الجِدّ وما لامرية فيه ، أخذ الهزل الذى لافائدة فيه .

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦) .

تفسير المفردات

ارتقب : أى انتظر، من قولهم : رقبته أى انتظرته وحرسته ، والمراد من الدخان ما أصابهم من الظلمة فى أبصارهم من شدة الجوع حتى كأنهم كانوا يرون دخانا، فإن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه ورأى الدنيا كالمملوءة دخانا، يغشى الناس: أى يحيط بهم، اكشف عنا: أى ارفع ، أنّى: أى كيف يكون ومن أين معلّم أى يعلمه غلام رومى لبعض ثقيف ، وبطش به أخذه بالعنف والسطوة كأبطشه ، والبطش : الأخذ الشديد فى كل شىء والبأس ، قاله صاحب القاموس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال كفار قريش إذ قابلوا الرحمة بالكفران ولم ينتفعوا بالمنزّل ولا بالمنزّل عليه — أردف هذا أن أمر نبيّه بالانتظار حتى يحل بهم بأسه ، لأنهم أهل الخذلان والعذاب ، لا أهل الإكرام والغفران .

وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتهديد للمشركين .

ثم حكى عنهم مقالهم فى شأن الرسول ، فتارة يقولون : إنه معلَّم ، وأخرى يقولون إنه مجنون ، ثم أوعدهم بأنه سينتقم منهم يوم البطشة الكبرى وهو يوم القيامة ، ويجازيهم بما قالوا وبما فعلوا ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

الإيضاح

(فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين) أى فانتظر يوم يأتى الجدب والمجاعة التى تجعل الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان المنتشر فى الفضاء .

ومن خبر هذا ما رواه البخارى عن مسروق قال : إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم الجَهْد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة ، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ، فأنزل الله تعالى « فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ — إلى أَلِيمٌ » فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله : استسق الله تعالى ، فاستسقى لهم فسُقُوا ، فأنزل الله « إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم الأولى فأنزل الله « يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ » فانتقم الله منهم يوم بدر .

(يغشى الناس هذا عذاب أليم) أى يحيط بهم من كل جانب ، فيقولون : هذا عذاب مؤلم يقضّ المضاجع وينتهى إلى موت محقق إن دام .

ثم بين أنهم وعدوا الرسول أن يؤمنوا إذا كشف عنهم العذاب كما كان يحدث من قوم فرعون حين نزول الرجز بهم فقال :

(ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) أى ربنا إنا سنؤمن إن كشفت عنا العذاب ، وهذه هى طبيعة البشر إذا هم وقعوا فى شدة أيا كانت أن يَعِدوا بالتوبة والإقلاع عما هم فيه ، ولـكن النفوس الشريرة ، لاتتجه إلى فعل الخير ، ولا تفعل ما تتقرب به إلى ربها ، انتظارا لمثوبته ، ورجاء فى غفرانه ورحمته .

روى أنه لما اشتد القحط بقريش مشى أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشده الرحم وواعده إن دعا لهم وزال ما بهم أن يؤمنوا .

ثم نفى صدقهم فى الوعد و بين أن غرضهم كشف العذاب فحسب فقال :

(أنّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون ؟) أى كيف يتذكرون و يتعظون و يفون بما وعدوا به من الإيمان حين يكشف عنهم العذاب ، وقد جاءهم الرسول بما هو كافٍ فى رجوعهم إلى الحق فلم يرجعوا ، بل قال بعضهم : إن القرآن إنما يعلمه له غلام رومىّ لبعض ثقيف ، وقال آخرون : إنه أصيب بخَبَل إذ تلقى إليه الجن هذه الـكلمات حين يعرض له الغشْى .

والخلاصة — إن التوبة إما أن تكون بما ينال الناس من النوائب ، و إما أن تكون بما يتضح لهم من الحقائق ، وهؤلاء قد اتضحت لهم وجوه الصواب فلم يفقهوا ، فأخذناهم بالعذاب ، ولـكن كيف يرجعون به وقد ذكرناهم بالآيات وأريناهم الحقائق وهى أنجع أثرا من العقاب فلم يؤمنوا وقالوا ما قالوا .

ثم نبه إلى أنهم لا يوفون بعهدهم ، بل إذا زال الخوف نكصوا على أعقابهم ورجعوا سيرتهم الأولى وعضّوا على الـكفر بالنواجذ ، وساروا على طريق الآباء والأجداد فقال:

(إنا كاشفو العذاب قليلا إنهم عائدون) أى إنا رافعو هذا الضر النازل بهم بالخصب الذى نوجده لهم زمنا يسيرا ، و إنا لنعلم أنهم عائدون إلى سيرتهم الأولى من

تمسكهم بالكفر وترك الحق وراءهم ظهريا ، لما فى طباعهم من الميل إلى عبادة الأوثان وتقليد الآباء والأجداد .

ولما كان العذاب الأليم لم يؤثر ، والإصلاح بالعلم والإيمان لم يفد، أمهلناهم إلى يوم البطشة الكبرى حيث لاتوبة بعدها فينتقم الله منهم ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) أى إننا يوم القيامة لنسلطنّ عليهم بأسنا ، ولننتقمنّ منهم أشد الانتقام ، ولا يجدُنّ شفيعا ولا وليا ولا نصيرا يمنع عنهم عقابنا ، فيندمُنّ ، ولات ساعة مندم .

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا
إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ
تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ
بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ
مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ
كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا
آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)
وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ
عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ
مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ (٣٣) .

تفسير المفردات

فتنا : أى بلونا وامتحنا ، كريم : أى جامع لخصال الخير والأفعال المحمودة قاله الراغب ، أدّوا إلىّ عباد الله : أى أطلقوا وسلموا ، أمين : أى ائتمنه الله على وحيه ورسالته ، وأن لاتعلوا على الله : أى لاتستكبروا على الله بالاستهانة بوحيه، بسلطان مبين : أى بحجة واضحة لاسبيل إلى إنكارها ، عذت بربى وربكم : أى التجأت إليه وتوكلت عليه ، أن ترجمون : أى تؤذونى ضربا أوشتما ، فاعتزلون : أى كونوا بمعزل منى لاعلىّ ولا لى ولا تتعرضوا لى بسوء ، مجرمون : أى كافرون ، أسر بعبادى : أى سر بهم ليلا، متبعون : أى يتبعكم فرعون وقومه ، رهوا : أى ساكنا ، يقال عيش راهٍ إذا كان خافضا وادعا ، وافعل ذلك سهوا رهوا : أى ساكنا بغير تشدد ، قال القُطامى فى وصف الرّكاب :

يمشين رَهْوًا فلا الأعجاز خاذِلَةٌ ولا الصدورُ على الأعجاز تتّكِلُ

مقام كريم : أى مجالس ومنازل حسنة ، نَعمة : أى حسن ونضرة ، قال صاحب الكشاف : النعمة (بالفتح) من التنعم ، (وبالكسر) من الإنعام، فاكهين : أى طيبى الأنفس ناعمين ، فما بكت عليهم السماء : أى لم تكترث لهلاكهم ولا اعتدّت بوجودهم ، وقد جرى الناس أن يقولوا حين هلاك الرجل العظيم الشأن : إنه قد أظلمت الدنيا لفقده ، وكُسِفَتْ الشمس والقمر له — وبكت عليه السماء والأرض كما قال جرير يرثى عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

الشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفة تبكى عليك نجومَ الليل والقمرا

منظرين : أى ممهلين ومؤخرين ، العذاب المهين : أى الشديد الإهانة والإذلال ، عاليًا : أى جبارًا متكبرًا، من المسرفين : أى فى الشر والفساد ، اخترناهم : أى اصطفيناهم، على علم : أى عالمين باستحقاقهم ذلك ، على العالمين : أى عالمى زمانهم ، الآيات : أى المعجزات كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى ، بلاء مبين : أى اختبار ظاهر.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن مشركى مكة أصروا على كفرهم ولم يؤمنوا برسولهم — أردف هذا بيان أن هؤلاء ليسوا ببدع فى الأمم ، فكثير قبلهم كذبوا رسلهم ، فهاهم أولاء قوم فرعون قد كان منهم مع موسى مثل ما كان من قومك معك بعد أن أتاهم بالبينات التى كانت تدعو إلى تصديقه ، فكذبوه فنصره الله عليهم وأغرق فرعون وقومه وجعلهم مثلا للآخرين .

الايضاح

(ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم . أن أدّوا إلىّ عباد الله إنى لكم رسول أمين) أى ولقد اختبرنا قبل مشركى قومك — قوم فرعون وهم مثال قومك فى جبروتهم وطغيانهم ، وعتوّهم واستكبارهم ، فأرسلنا إليهم الرسول الكريم موسى عليه السلام فقال لهم : أيها القوم أرسلوا معى بنى إسرائيل وأطلقوهم من أسركم وتعذيبكم ، إنى رسول من الله مأمون على ما أبلغكم غير متّهم فيه .

ونحو الآية قوله عز اسمه : « أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى » .

(وأن لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين) أى وأن لا تطغَوْا وتبغوا على ربكم فتكفروا به وتعصُوه فتخالفوا أمره — لأنى آتيكم بحجة واضحة على حقية ما أدعوكم إليه ، لمن تأملها وتدبّر فيها .

(وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون) أى وإنى ألتجئ إلى الله الذى خلقنى وخلقكم أن لا تصلوا إلىّ بسوء من قول أو فعل .

(وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون) أى وإن كنتم لم تصدقونى فيما جئتكم به من عند

ربكم فخلوا سبيلى ولا ترجمونى باللسان ولا باليد ، ودعوا الأمر بينى و بينكم مسالمة إلى أن يقضى الله بيننا .

ولما طال مقامه صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ، وأقام حجج الله عليهم ، ولم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً دعا عليهم ، و إلى ذلك أشار بقوله :

(فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون) أى فدعا ربه إذ كذبوه ولم يؤمنوا به ولم يؤدوا إليه عباد الله وهموا بقتله : بأن هؤلاء قوم مشركون بك مكذبون لرسلك .

ونحو الآية قوله : « وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا » .

وحينئذ أمره الله أن يخرج ببنى إسرائيل من بين أظهرهم بلا أمر فرعون ولا مشورته ، و إلى ذلك أشار بقوله :

(فأسر بعبادى ليلا) أى فسر ببنى إسرائيل ومن آمن معك من القبط ليلا .

ثم علل السُّرَى ليلا فقال :

(إنكم متبعون) أى إن فرعون وقومه سيتبعونكم إذا علموا بخروجكم ، ومسيرُكم ليلاً يؤخر علمهم بذلك ، فلا يدركونكم .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً . لا تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى » .

(واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون) أى و إذا قطعت البحر أنت وأصحابك فاتركه ساكنا على حاله التى كان عليها حين دخلتَه حتى يدخلَه فرعون وقومه فيغرقوا فيه .

روى أن موسى عليه السلام لما قطع البحر رجع ليضرب بعصاه حتى يلتئم خوفا من فرعون وجنوده أن يتبعوه ، فأُمر أن يتركه كما هو حتى يدخلوه .

و إنما أخبر موسى بغرقهم ليطمئن قلبه فيترك البحر كما هو .

ولما أخبر بغرقهم ذكر ما خلفوه فقال :

(كم تركوا من جنات وعيون. وزروع . ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين) أى كم ترك فرعون وقومه بعد مهلكهم من بساتين فيحاء ، وحدائق غنّاء ، وزروع ناضرة ، وقصور شاهقة ، فقد كانوا فى بُلَهْنِيَة من العيش ، وسعة فى الرزق ، وخفض ودعة، وسرور وحبور .

ثم أكد هذا بقوله :

(كذلك) أى هكذا فعلنا بهؤلاء الذين كذبوا رسلنا ، وهكذا نفعل بكل من عصانا وخالف أمرنا .

(وأورثناها قوما آخرين) أى وأورثنا تلك البلاد بما فيها من خير عميم ، ونعيم عظيم ، قوما غير أهلها ممن لايمتون إليهم بقرابة ولا دين ، فقد تغلب على مصر الآشوريون والبابليون حينا ، والحبش حينا آخر ، ثم الفرس مدة واليونان أخرى ثم الرومان من بعدهم ، ثم العرب ثم الطولونيون والإخشيديون والفاطميون والمماليك البرية والبحرية والترك والفرنسيون والإنكليز . وها نحن أولاء نجاهد لنحظى بخروجهم من ديارنا ونتمكن من استقلال بلادنا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

ثم سخر منهم واستهزأ بهم حين هلكوا فقال :

(فما بكت عليهم السماء والأرض) كان هؤلاء القوم يستعظمون أنفسهم و يظنون أنهم لو ماتوا لقال الناس فيهم ذلك على ما جرت به العادة فى مهلك العظيم

أن يقولوا بكت عليه السماء والأرض ، وبكته الريح ونحو ذلك . قال يزيد بن مفرِّغ :

الريح تبكى شجوَهُ　　　والبرق يلمع فى غمامه

فأخبر سبحانه بأن هؤلاء كانوا دون ذلك فما بكت عليهم سماء ولا أرض.

(وما كانوا منظرين) أى وما أمهلوا لتوبة أو تدارك تقصير ، بل عُجِّل لهم العذاب .

ولما بين كيفية إهلاك فرعون وقومه ، أردف ذلك ذكر إحسانه إلى موسى وقومه فقال :

(ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين. من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين) أى ولقد خلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد وقتل الأبناء واستحياء النساء وتكليفهم بالأعمال الشاقة ، إلى نحو ذلك من وسائل الخسف والضيم إذ كان جبارا مستكبرا مسرفا فى الشر والفساد ، ولا أدل على ذلك من ادعائه الألوهية ، إذ قال أنا ربكم الأعلى .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا » .

وبعد أن بين طريق دفعه للضُّر عنهم ، أردف ذلك ذكر ما أكرمهم به فقال :

(ولقد اخترناهم على علم على العالمين) أى ولقد اصطفيناهم على عالمى زمانهم بما أنزلنا عليهم من الكتب وأرسلنا فيهم من الرسل ، ونحن عالمون بأنهم أهل لكل مكرُمة وفضل .

(وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين) أى وأعطيناهم من الأمور ذوات الخطر الدالة على كرامتهم عندنا ، ما فيه عبرة لمن تأمل فيه ، فأنجيناهم من عدوهم ، وظللنا عليهم الغمام ، وأنزلنا عليهم المنّ والسلوى ، إلى نحو أولئك .

قال الحسن وقتادة : البلاء المبين النعمة الظاهرة على نحو ما جاء فى قوله : « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا » وقوله : « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » .

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) .

تفسير المفردات

بمنشرين : أى بمبعوثين ، يقال نشر الله الموتى وأنشرهم إذا أحياهم ، وتبّع : واحد التبابعة ، وهم ملوك اليمن ، وهذا اللقب أشبه بفرعون لدى قدماء المصريين ، وهم طبقتان : الطبقة الأولى ملوك سبإ وريدان من سنة ١١٥ قبل الميلاد إلى ٢٧٥ بعده . والطبقة الثانية ملوك سبإ وريدان وحضرموت والشّحْر من سنة ٢٧٥ بعد الميلاد إلى سنة ٥٢٥ ، وأولهم شِمْر برعش ، وآخرهم ذونواس ثم ذو جدَن ، ومنهم ذو القرنين أو إفريقش ، ويسمى الصعب . وبعده عمرو زوج بلقيس ثم أبو بكر ابنه ثم ذونواس ، والذين اشتهروا من هؤلاء الملوك ثلاثة شِمْر برعش وذو القرنين وأسعد أبو كرب .

المعنى الجملى

عود على بدء — كان الكلام أولا فى كفار قريش ، إذ قال فيهم : بل هم فى شك يلعبون ، أى إنهم فى شك من البعث والقيامة ، ثم بين كيف أصروا على كفرهم ، ثم ذكر أن قوم فرعون كانوا فى إصرارهم على الكفر كهؤلاء ، وقد أهلكهم الله وأنجى بنى إسرائيل ، ثم رجع إلى الحديث الأول ، وهو إنكارهم للبعث وقولهم إنه لاحياة بعد هذه الحياة ، فإن كنتم صادقين فاسألوا ربكم يعجل لنا إحياء من

مات حتى يكون ذلك دليلا على صدق دعواكم النبوّة والبعث فى القيامة ، ثم توعدهم بأنه سيستنّ بهم سنة من قبلهم من المكذبين ، فقد أهلك من هم أقوى منهم بطشا وأكثر جنداً ، وهم قوم تبع ملوك اليمن من قحطان ، فحذارِ أن تصرّوا على الكفر حتى لا يحيق بكم بأس ربكم .

الايضاح

(إن هؤلاء ليقولون . إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين) أى إن هؤلاء المشركين من أهل مكة يقولون : ما ثَمّ إلا هذه الحياة الدنيا ، ولا حياة بعد الممات ، ولا بعث ولا نشور .

ثم خاطبوا من وعدوهم بالنشور ، وهم النبى وأصحابه وقالوا لهم :

(فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) أى إن كان البعث حقا كما تقولون ، فعجلوا لنا بإحياء آبائنا الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا إن كنتم صادقين فيما تدّعون .

وهذه حجة داحضة ، فإن المعاد يوم القيامة بعد انقضاء الدار الدنيا حين يعيد الله العالمين خلقا جديدا ، ومن ثم لم يتعرض الكتاب الكريم لردّ ما قالوا ، بل قال لهم مهددا متوعدا منذرا بأسه الذى لا يرد :

(أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين) أى إن نظراءهم المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع أهلكهم الله وخرّب ديارهم وشرّدهم فى البلاد شَذَرَ مَذَرَ ، وقد كانوا أقوى منهم جندا وأكثر عددا ، وكانت لهم دولة وصولة ، وهؤلاء ليسوا فى شىء من ذلك — وكذلك فعل بمن قبلهم كعاد وثمودَ إذ كانوا فى خسران مبين بكفرهم وإنكارهم للبعث والنشور ، فليحذر هؤلاء أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك « سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً » .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢).

تفسير المفردات

لاعبين : أي عابثين ، بالحق : أي بسبب الحق وهو الإيمان بالله والطاعة له ، يوم الفصل : هو يوم القيامة ، سمى بذلك لأنه يُفْصَل فيه بين الحق والباطل ، ميقاتهم: أي وقت موعدهم ، يغني : أي ينفع ، مولى : أي ابن عم أو حليف .

الايضاح

(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) أي وما خلقنا الخلق عبثا بأن نوجدهم ثم نفنيهم بغير امتحان بطاعتنا ، واتباع أمرنا ونهينا ، وبغير مجازاة المطيع على طاعته ، والعاصي على معصيته ، بل خلقناهم لنبتلي من أردنا امتحانه منهم بما شئنا ، ولنجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ونجزي الذين أحسنوا بالحسنى .

وقد سبق نحو هذا في سورة « يونس » وسورة « المؤمنون » حيث قال : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » وفي سورة ص إذ قال: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ » .

(ما خلقناهما إلا بالحق) أي ما خلقناهما إلا خلقا ملتبسا بالحق ، وهو الدلالة بهما على وحدانية الخالق لهما ، ووجوب طاعته ، والإنابة إليه ، لعظمته وجبروته

كما جاء فى الحديث القدسى « كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف ، فخلقت الخلق فبى عرفونى » .

(ولكن أكثرهم لايعلمون) أى ولكن أكثر هؤلاء المشركين بالله لايعلمون ذلك ، فهم لايخافون من سخطه عقوبة لهم على ما اجترحوا من السيئات ، ولا يرجون ثوابا على خير فعلوه لتكذيبهم بالميعاد والعودة إلى دار أخرى بعد هذه الدار .

وخلاصة ما تقدم — إن هؤلاء لقلة تدبرهم لايعتقدون أن الأمر كذلك ، وهم واهمون فيما يظنون ، إذ لو لم توجد دار الجزاء لما امتاز مطيع من عاص ، ولا محسن من مسىء ، والعقل قاض بغير هذا .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) أى إن هذا اليوم الذى يفصل الله فيه بين خلقه ، فيحق الحق ، ويبطل الباطل ، لآت لامحالة وهووقت حسابهم ، وجزائهم على ما كسبت أيديهم من خير أو شر .

ونحو الآية قوله : « لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ » وقوله : « إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً » .

م وصف أهوال هذا اليوم فقال :

(يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون) أى إن هذا يوم تنقطع فيه الأسباب بابن آدم فلا تنفع الناسَ إلا أعمالهم ، فمن أصاب خيرا فى دنياه سعد به ، ومن أصاب شرا شقى به ، ولا يغنى القريب عن القريب ، ولا يدفع عنه شيئا من عذاب الله ، ولا يجد الناصرَ الذى يقيه ذلك العذاب .

وقصارى ذلك — لايفيد المؤمن الكافر ولا ينصره ولو كان بينهما فى الدنيا عُلْقة من قرابة أو صداقة أو غيرها .

ونحو الآية قوله: « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » وقوله « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ » .

(إلا من رحم الله) أى لكن من رحمه الله فإنه لا يحتاج إلى قريب ينفعه، ولا إلى ناصر ينصره قاله الكسائى .

(إنه هو العزيز الرحيم) أى إن الله هو العزيز فى انتقامه من أعدائه ، الرحيم بأوليائه وأهل طاعته .

إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) .

تفسير المفردات

شجرة الزقوم : هى شجرة ذات ثمر مر تنبت بتهامة ، شبهت بها الشجرة التى تنبت فى الجحيم ، والأثيم : أى الكثير الآثام والذنوب وهو الكافر ، والمهل : دردىء الزيت ، والحميم : الماء الذى تناهى حره ، والعتل أن تأخذ بمنكبى الرجل فتجره إليك وتذهب به إلى حبس أو محنة . وقال ابن السكيت : عتلته إلى السجن وأعتلته إذا دفعته دفعا عنيفا ، وسواء الجحيم : وسطها .

الإيضاح

(إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم) أى إن الزقوم وهو ثمر هذه الشجرة التى فى الجحيم - طعام للكافر كثير الذنوب والآثام .

(كالمهل يغلى فى البطون . كغلى الحميم) أى وهذا الطعام الذى يشبه درديء الزيت الأسود — يغلى فى بطون الكفار ويكون كالماء الحار إذا اشتد غليانه .

(خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم) أى ويقال للزبانية « خدم جهنم » خذوا هذا المجرم فادفعوه دفعا إلى وسط جهنم ، لينال قسطه من عذابها .

(ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) أى وبعد أن تُدْخِلوه فيها صبّوا فوق رأسه من الماء الساخن الذى ذكرنا صفته .

ونحو الآية قوله تعالى : « يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ » .

ثم ذكر ما يقال له آنئذ تقريعا وتهكما .

(ذق إنك أنت العزيز الكريم) أى ذق هذا الذل والهوان اليوم ، فإنك كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم ، وها هو ذا قد تبين لك أنك أنت الذليل المهين ، فأين ما كنت تقول وتدعى من العز والكرامة ؟ فهلا تمتنع من العذاب بعزتك .

أخرج الأموى فى مغازيه عن عكرمة قال : لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا جهل فقال له : إن الله أمرنى أن أقول لك : أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ، فنزع يده من يده وقال بأى شيء تهددنى ، ما تستطيع أنت ولا صاحبك أن تفعلا بى شيئا ، إنى لمن أعز هذا الوادى وأكرمه ، لقد علمتَ أنى أمنع أهل بطحاء على قومه ، فقتله الله يوم بدر وأذله ، وعيّره بكلمته ، فأنزل « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » .

(إن هذا ما كنتم به تمترون) أى إن هذا العذاب الذى تعذبون به هو العذاب الذى كنتم تشكّون فيه فى الدنيا ، فتختصمون فيه ، ولا توقنون به ، فقد لقيتموه فذوقوه .

ونحو الآية قوله تعالى « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ
سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤)
يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ
الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ
إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩) .

تفسير المفردات

فى مقام أمين : أي فى مجلس أمنوا فيه من كل همّ وحزن ، سندس : أى ديباج رقيق ، إستبرق : أى حرير فيه بريق ولمعان ، زوّجناهم : أى قرناهم ، بحور عين : أى بجوار بيض حسان واسعات العيون ، يدعون : أى يطلبون ، وقاهم : أى حفظهم ارتقب : أى انتظر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وعيد الكافرين وما يرونه من الأهوال فى ذلك اليوم — أعقب هذا بوعد المتقين بما يلاقونه فى جنات النعيم من ضروب التكريم فى الملبس والزوجات والمآكل ، ثم ببيان أن هذا النعيم أبدىّ خالد لايعقبه موت ولا تحوّل ولا انتقال ، ثم ختم السورة بالمنة على العرب فى نزول القرآن بلغتهم لعلهم يعتبرون ويتعظون به ، ثم توعدهم إذا هم كذبوا بما جاء به الرسول بحلول النقمة بهم ، والنصر له عليهم ، كما هى سنته فى أمثالهم من المكذبين « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » .

الايضاح

(إن المتقين فى مقام أمين) أى إن المتقين لله فى الدنيا الخائفين عقابه ، المنتظرين فضله وثوابه — يكونون فى الآخرة فى مجالس يأمنون فيها من الموت ومن كل ما يحزنهم ويصيبهم من الآفات والآلام .

وقد ذكر سبحانه من ضروب نعيمهم خمسة ألوان :

(١) مساكنهم كما قال « فِي مَقَامٍ أَمِينٍ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ » والمسكن يطيب بأمرين :

(ا) أن يكون من فيه آمنا من جميع ما يخافه ويحذر منه ، وهو المقام الأمين .

(ب) أن يكون فيه أسباب النزهة من الجنات والعيون ، وذلك قوله: « فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ » .

(٢) ملابسهم ، وهى التى عناها سبحانه بقوله :

(يلبسون من سندس وإستبرق) وقد تقدم بسط الكلام فى ذلك فى سورة الكهف .

(٣) استئناس بعضهم ببعض بجلوسهم على جهة التقابل ، وهو ما أشار إليه بقوله :

(متقابلين) أى ينظر بعضهم إلى بعض ، وهو أتمّ للأنس .

(٤) الأزواج كما قال :

(كذلك وزوّجناهم بحور عين) أى وهذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين اللاتى لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانّ .

(٥) المأكول كما قال :

(يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) أى يطلبون ما يشتهون من أنواع الفاكهة ، وهم آمنون من انقطاعها ، ومن غائلة أذاها ومكروهها ، فهى ليست كفاكهة الدنيا التى نأكلها ونخاف مكروه عاقبتها ، أو نخاف نفادها فى بعض الأحايين .

و بعد أن وصف ما هم فيه من نعيم مقيم ، بيّن أن حياتهم فى هذا النعيم دائمة لايلحقها موت ولا فناء فقال :

(لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) أى لايخشون فى الجنة موتا ولا فناء أبدا. وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ، و يا أهل النار خلود فلا موت » وقد تقدم هذا فى سورة مريم .

وروى أبو هريرة وأبو سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقال لأهل الجنة إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تنعَموا فلا تبأسوا أبدا ، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرَموا أبدا » رواه مسلم .

وخلاصة ذلك — لايذوقون فيها الموت ، لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا كذا قال الزجاج والفرّاء .

(ووقاهم عذاب الجحيم) أى وهم مع هذا النعيم قد نجاهم من العذاب الأليم ، فى دركات الجحيم ، فأعطاهم ما يطلبون ، ونجاهم مما يهربون .

(فضلا من ربك) أى نجاهم من ذلك تفضلا منه و إحسانا .

(ذلك هو الفوز العظيم) أى ذلك الذى أعطيناه هؤلاء المتقين من الكرامة ، هو الفوز العظيم بما كانوا يطلبون إدراكه فى الدنيا ، بأعمالهم ، وطاعتهم لربهم ، واتقائهم إياه ، فيما امتحنهم به من الطاعات ، واجتنابهم المحرمات .

ولما أتمّ المقاصد التى أراد ذكرها فى هذه السورة لخصها بقوله :

(فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) أى إنما سهلنا إليك قراءة القرآن الذى أنزلناه إليك بلسانك ، ليتذكر به قومك و يتعظوا بعظاته ، و يتفكروا فى آياته إذاتلوتها عليهم ، فينيبوا إلى ربهم ، و يذعنوا للحق الذى تبيّنوه .

ولما كان القرآن مع هذا الوضوح والبيان قد خالف فيه بعض الناس وعاند ، قال تعالى مسليًا رسوله وواعداً له بالنصر ، ومتوعدا من كذبه بالهلاك .

(فارتقب إنهم مرتقبون) أى فانتظر فإنهم منتظرون ، وسيعلمون لمن تكون النصرة والغلبة ، والظفر وعلوّ الكلمة فى الدنيا والآخرة ـ ولا شك أن النصر سيكون لك كما كان لإخوانك من النبيين والمرسلين ومن تبعهم من المؤمنين كما قال : «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » .

وقصارى ذلك — ارتقب النصرة من ربك ، إن المشركين مرتقبون بك مايتمنونه من الغوائل ، وما يتربصونه بك من الدوائر ، ولن يضيرك ذلك بفضل ربك عليك ، وسيتم نصرك ، ويُفْلِج حجتك ، ويُعلى كلمتك .

اللهم يامن بيدك الخير ، وأنت على كل شىء قدير ، وفقنا لإتمام تفسير كتابك ، واجعله لنا نورا يوم العرض والحساب .

خلاصة ماتضمنته هذه السورة الكريمة من المقاصد

(١) بيان بدء نزول القرآن .

(٢) وعيد الكافرين بحلول الجدب والقحط بهم .

(٣) عدم إيمانهم مع توالى النكبات بهم .

(٤) عظة الكافرين بقصص فرعون وقومه مع موسى عليه السلام ، وقد أنجى الله المؤمنين ، وأهلك الكافرين .

(٥) إنكار المشركين للبعث وقولهم : إن هى إلا موتتنا الأولى ومانحن بمنشرين .

(٦) إقامة الدليل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٧) وصف أهوال يوم القيامة .

(٨) وصف ما يلاقيه المجرمون من النكال والوبال .

(٩) وصف نعيم المتقين وحصولهم على كل ما يرغبون .

سورة الجاثية

هى مكية إلا الآية الثامنة فمدنية .

وعدة آيها سبع وثلاثون ، نزلت بعد سورة الدخان .

ومناسبتها لما قبلها : أن أول هذه تُشاكل لآخر سابقتها فى الأغراض والمقاصد .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) .

تفسير المفردات

لآيات : أى لعبرا ، يبث : أى يفرق وينشر ، اختلاف الليل والنهار : أى تعاقبهما ليل بعد نهار ونهار بعد ليل ، من رزق . أى من مطر ، وسمى بذلك لأنه سبب له ، وتصريف الرياح : أى تغييرها من جهة إلى أخرى ، ومن حال إلى حال .

الايضاح

(حم) قد عرفت الكلام فى أمثالها من قبل .

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) أى إن هذا الكتاب الكريم

أنزله العزيز الغالب القاهر لكل شىء ، الحكيم فى تدبيره لكل ماخلق ، فهو سبحانه مع قهره للعوالم المادية والروحية ، لايتصرف إلا بالحكمة كما يشاهد فى النبات والحيوان والأجسام الإنسانية ودوران الكواكب وانتظامها فى سيرها ، فكل ذلك من القهر والغلبة لها مع الحكمة فى صنعها ، ومن ثم أعقب ذلك بنتائج العزة والحكمة فقال :

(إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين) أى إن فى السموات السبع اللاتى منهن ينزل الغيث ، وفى الأرض التى منها يخرج الخلق — لأدلة واضحة للمصدقين بالحجج إذا تأملوها وفكروا فيها تفكير من يسلك السبيل القويم ، فيرتب المقدمات، ليصل منها إلى النتائج ، التى هى لازمة لها بحكم النظام الفكرى ، والترتيب العقلى .

و بعد أن ذكر الأدلة الكونية التى فى الآفاق أتبعها بذكر الأدلة التى فى الأنفس فقال :

(وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) أى و إن فى خلق الله إيا كم على أطوار مختلفة من تراب ثم من نطفة إلى أن تصيروا أناسىّ ، وفى خلق ما تفرق فى الكون من الدواب ـ حُجَجاً لقوم يوقنون بحقائق الأشياء فيقررونها بعد العلم بصحتها .

(واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) أى وَ إن فى تعاقب الليل والنهار عليكم، هذا بظلمته وسواده ، وذاك بنوره وضيائه ، وفيما أنزل الله من السماء من مطر تحيا به الأرض بعد موتها ، فتهتز بالنبات والزرع من بعد جدو بها وقحوطها، فتخرج أرزاق العباد وأقواتهم، وفى تصريف الرياح لمنافعكم شمالية مرةً وجنوبيةً أخرى ، صبا مرة ، ودَبُوراً أخرى ـ لأدلة وحججا لله على خلقه الذين يعقلون عنه حججه و يفهمون ما وعظهم به من الآيات والعبر.

وقصارى ما سلف — إنكم إذا تأملتم الحكم المنبثة فى السموات والأرض آمنتم بوحدة خالقها وقدرته ، فإذا ازددتم علماً ، ازداد تثبتكم وفهمكم ، فصرتم موقنين بها لأن الإيقان يكون بتوافر الأدلة وتكاثرها ، ومتى أيقنتم بجمال هذا الكون وحسن نظامه أصبحتم من ذوى العقول الناضجة ، والأفكار النافذة فى أسرار هذا الكون وبديع صنعه ، فتستطيعون أن تنتفعوا بما فيه وتسخروه لمنافعكم فى هذه الحياة المليئة بالمطالب .

وإجمال ذلك — إن أول المراتب الإيمان بالله ، فإذا ازداد المرء علما وحكمة وبحثا فى دقائق الأشياء وعظائمها أصبح موقنا به ، وكلما ازداد بحثا ازداد عقله دراية وفهما لأسرار هذا الكون ، فسخره لمنافعه ، واستفاد من نُظُمه التى وجد عليها وعرف أنه لم يخلق عبثا ، بل خلق للانتفاع بما فى ظاهره وباطنه ، علويّه وسفليه ، أرضه وسمائه ، نوره وظلامه ، فكأنه يقول: إنا أمرناكم بالنظر فى العالم لتؤمنوا، فإذا ازددتم علما أيقنتم بى، وذلك كله مما يربى عقولكم ، ويكملها إلى أقصى حدود طاقتها البشرية .

تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ
يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ
يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ
آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ
وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَذَا هُدًى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ
مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١) .

تفسير المفردات

الأفاك: كثير الإفك والكذب، والأثيم: كثير الإثم والمعاصى، والإصرار على الشيء: ملازمته، من ورائهم: أى من بعد آجالهم، يغنى: أى يدفع، أولياء: أى أصناما، والرجز: أشد العذاب.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر آيات القرآن العظيم — أشار إلى مالها من علوّ المرتبة، ورفيع الدرجة ثم أوعد من كذبوا بها بعد سماعها، وأصروا على كفرهم بها - بالويل والثبور، وعظائم الأمور، ثم بين أن عاقبتهم النار، وبئس القرار، ولا تنفعهم أصنامهم شيئا، ولا تدفع عنهم ما قدّر لهم من العذاب.

الإيضاح

(تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) أى هذه آيات القرآن بما فيها من حجج وبينات، نتلوها عليك متضمنة للحق.

(فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟) أى فبأى حديث أيها القوم بعد حديث الله الذى يتلوه على رسوله، وبعد حججه وبرهاناته التى دلكم بها على وحدانيته — تصدقون إن كذبتم به.

والخلاصة — إذا كنتم لاتؤمنون بهذه الآيات ولا تنقادون لها، فبم تؤمنون؟ وإلامَ تنقادون؟

وبعد أن بين للكفار آياته، وذكر أنهم إن لم يؤمنوا بها فبأى حديث بعدها يؤمنون؟ أتبعه بالوعيد العظيم لهم فقال:

(ويل لكل أفاك أثيم) أى فالويل أشد الويل، والعذاب أقسى العذاب، لكل كذاب فى قوله، أثيم فى فعله.

وبعد أن وصف هذا الأفاك بالإثم أولا، أتبعه بوصفه بالاستكبار عن سماع الآيات فقال:

(يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرّ مستكبرا كأن لم يسمعها) أى إذا سمع آيات الله تقرأ عليه، وهى مشتملة على الوعد والوعيد، والإنذار والتبشير، والأمر والنهى، والحكم والآداب، أصرّ على الكفر بها، وجحدها عنادا كأنه ما سمعها.

ثم أوعده على مافعل عذابا أليمًا فى نار جهنم فقال:

(فبشره بعذاب أليم) أى فبشره أيها الرسول بالعذاب المؤلم الموجع فى جهنم وبئس القرار.

وفى تسمية هذا الخبر المحزن بشرى، وهى لاتكون إلا فى الأمر السار — تهكم بهم، واحتقار لشأنهم، فهو من وادى قوله للكافر «ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ» وقول الشاعر:

* تحيــةُ بينهم ضربٌ وجيعٌ *

نزلت الآية فى النضر بن الحارث وكان يشترى أحاديث الأعاجم، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن، وهى عامة فى كل من كان صادًّا عن الدين مستكبرا عن اتباع هدايته.

(وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا) أى وإذا وصل إليه خبرها، وبلغه شىء منها، جعلها هزوا وسخرية، فقد روى أن أبا جهل حين سمع قوله تعالى «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ» دعا بتمر وزُبْد وقال لأصحابه: تزقّموا من هذا، ما يعدكم محمد إلا شهدا، وحين سمع قوله «عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ» أى على النار قال: إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدى.

ثم ذكر ما يصيب هؤلاء من العذاب، فقال :

(أولئك لهم عذاب مهين) أى أولئك الأفاكون المتصفون بتلك الصفات لهم العذاب الذى يهينهم و يذلهم فى نار جهنم بما كانوا فى الدنيا يستكبرون عن طاعة الله واتباع آياته واتخاذها هزوا .

(من ورائهم جهنم) أى ومن وراء ماهم فيه من التعزز بالدنيا والتكبر جهنم ، والمراد أنها من قدامهم ، لأنهم متوجهون إليها .

(ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا) أى ولا يدفع العذاب عنهم ما كسبوا من الأموال والأولاد .

(ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) أى ولا تغنى عنهم أصنامهم التى عبدوها من دون الله شيئا .

(ولهم عذاب عظيم) أى ولهم من الله يومئذ عذاب عظيم لا يُقْدَر قدرُه .

(هذا هدى) أى هذا القرآن الذى أنزلناه إليك أيها الرسول هاد إلى الحق وإلى صراط مستقيم لمن اتبعه وعمل بما فيه .

(والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) أى والذين جحدوا بآياته الكونية فى الأنفس والآفاق وآياته المنزلة على ألسنة رسله لهم العذاب المؤلم الموجع يوم القيامة .

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) .

تفسير المفردات

سخر : هيأ ، الفلك : السفينة ، والابتغاء : الطلب ، يغفر : أى يعفو ويصفح ، لا يرجون : أى لا يتوقعون حصولها ، وأيام الله : وقائعه بأعداء دينه كما يقال لوقائع العرب أيام العرب ، والقوم هم المؤمنون الغافرون .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف الحجج الدالة على ربوبيته ووحدانيته — أردف ذلك ذكر آثارها ، فمن ذلك تسخير السفن فى البحار حاملة للأقوات والمتاجر رجاء أن تشكروا ما أنعم به عليكم ، ومنها تسخيره مافى السموات والأرض من شموس وأقمار وبحار وجبال ، لتنتفعوا بها فى مرافقكم وشئونكم المعيشية .

ثم أمر المؤمنين بأحاسن الأخلاق ، فطلب إليهم أن يصفحوا عن الكافرين ويحتملوا أذاهم ، وعند الله جزاؤهم ، فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، ويوم القيامة يعرضون على ربهم ويجازى كل نفس بما كسبت من خير أو شر .

الإيضاح

(الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) أى إن ذلك الخالق الواحد الذى أقمت لكم الأدلة على وجوده — هو الذى يسّر لكم استخدام البحر لتجرى فيه السفن بإذنه وقدرته ، حاملة أقواتكم ومتاجركم ، لتقوم بشئونكم المعيشية ، ولتطلبوا رزق ربكم منه بالغوص للدرّ تارة والصيد تارة أخرى ،

ولتشكروه على ما أفاض عليكم من هذه النعم ، فتعبدوه وتطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه .

(وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى وسخر لكم جميع ما خلقه فى سمواته وأرضه مما تتعلق به مصالحكم ، وتقوم به معايشكم ، فمما سخرلكم من المخلوقات السماوية الشمس والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح ، ومن المخلوقات الأرضية الدواب والأشجار والجبال والسفن رحمة منه وفضلا ، وكل هذه أدلة على أنه الله الذى لا إله غيره ، لمن تأمل فيها واعتبر بها وتدبرها حق التدبر .

والخلاصة — إن العالم كله كأنه جسم واحد يحتاج كل جزء منه إلى الأجزاء الباقية، فلا يستقيم مطر بلا حرارة شمس ، ولا تسير سفن إلا بهواء أو فحم أو كهرباء وما شاكل ذلك ، فالعالم كله كساعة منتظمة لا يستقيم سيرها إلا إذا استكملت آلاتها وعُددها .

وعن طاوس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله مم خلق الخلق فقال من الماء والنور والظلمة والهواء والتراب ، قال فمم خلق هؤلاء ؟ قال لا أدرى ، ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير فسأله ، فقال مثل قول عبد الله بن عمرو ، فأتى ابن عباس فسأله مم خلق الخلق؟ فقال من الماء والنور والظلمة والريح والتراب، قال مم خلق هؤلاء؟ فقرأ ابن عباس : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ » فقال الرجل ما كان ليأتى بهذا إلا رجل من أهل بيت النبوة .

ولما علّم سبحانه عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة — أردفه تعليمهم فضائل الأخلاق فقال :

(قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) أى قل للذين صدقوا الله ورسوله: اعفوا واصفحوا عن هؤلاء المشركين الذين لا يخافون بأس الله ونقمته ، إذا نالكم منهم أذى ومكروه قاله مجاهد .

روى الواحدى والقشيرى عن ابن عباس أن الآية نزلت فى عمر بن الخطاب مع عبد الله بن أُبىّ فى غزوة بنى المصْطَلق ، فإنهم نزلوا على بئر يقال لها المُرَيْسِيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليستقى فأبطأ عليه ، فقال ما حبسك ؟ قال غلام عمر قعد على فم البئر ، فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قِرب النبى صلى الله عليه وسلم وقرب أبى بكر وملأ لمولاه ، فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل « سمِّنْ كلبَك يأْكلك » فبلغ عمرَ قولُه ، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله ، فأنزل الله هذه الآية :

وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس سببا آخر قال : لما نزل قوله تعالى : « مَنْ ذَا الّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا » قال يهودى بالمدينة يسمى فِنْحاصا ، احتاج رب محمد . قال فلما سمع عمر بذلك اشتمل على سيفه وخرج فى طلبه ، فجاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن ربك يقول لك : « قُلْ لِلّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ » فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلب عمر فلما جاء قال : (ياعمر ضع سيفك) قال يا رسول الله صدقت . أشهد إنك أرسلت بالحق ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية . فقال عمر: لاجرم والذى بعثك بالحق لاترى الغضب فى وجهى .

ثم علل الأمر بالمغفرة فقال :

(ليجزى قوما بما كانوا يكسبون) أى ليجزى الله تعالى يوم القيامة قوما بما كسبوا فى الدنيا من أعمال طيبة ، من جملتها الصبر على أذى الكفار والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه — ما لا يحيط به الوصف من الثواب العظيم فى جنات النعيم .

ولما رغب سبحانه ورهّب وقرر أنه لابد من الجزاء — أبان أن النفع والضر لايعدو المحسن والمسىء فقال :

(من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) أى من عمل من عباد الله بطاعته ، فانتهى إلى أمره وازدجر عن نهيه — فلنفسه عمل ، ولها طلب الخلاص من عذابه ،

والله غنى عن كل عامل ، ومن أساء عمله فى الدنيا بمعصية ربه فعلى نفسه جنى ، ولها اكتسب الضر .

ثم بين وقت الجزاء فقال :

(ثم إلى ربكم ترجعون) أى ثم تصيرون إلى ربكم حين العرض للحساب ، فيجازى المحسن منكم بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) .

تفسير المفردات

الكتاب : المراد به الكتب التى نزلت على أنبيائهم ، الحكم : الفصل بين الناس فى الخصومات ، لأنهم كانوا ملوكا ، بينات من الأمر : أى دلائل واضحات فى أمر الدين ، ويندرج فيها معجزات موسى عليه السلام ، بغياً : أى حسداً وعناداً ، على شريعة من الأمر : أى على طريقة ومنهاج فى أمر الدين . وأصل الشريعة مورد

الماء فى الأنهار ونحوها ، وشريعة الدين يرد منها الناس إلى رحمة الله والقرب منه ، بصائر للناس : أى معالم للدين بمنزلة البصائر فى القلوب .

المعنى الجملى

اعلم أن الله سبحانه بين أنه أنعم على بنى إسرائيل بنعم كثيرة ، وقد حصل بينهم الاختلاف بغياً وحسداً ، وجاء ذكر هذا تسلية لرسوله بأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، بل طريقهم طريق من تقدمهم ، ثم أمر رسوله بأن يتمسك بالحق ، ولا يكون له غرض سوى إظهاره ، ولا يتبع أهواء الجاهلين الضالين ، ثم ذكر أن القرآن معالم للهداية تهتدى بها القلوب الضالة عن طريق الحق ، فتلزم الجادّة وتصل إلى طريق النجاة .

الايضاح

(ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر) امتنّ سبحانه على بنى إسرائيل بما أنعم به عليهم من وافر النعم الدينية والدنيوية وذكر من ذلك :

(١) إنزال التوراة على موسى فيها معالم للهدى وشرائع للناس تهديهم إلى سواء السبيل.

(٢) إرسال الرسل، فكثر فيهم الأنبياء بما لم يكن لأمة مثله .

(٣) القضاء بين الناس والفصل فى خصوماتهم ، إذ كان الملك فيهم ، فاجتمع لهم حكم الدين وحكم الدنيا .

(٤) إبتاؤهم طيبات الأرزاق، فكانوا ذوى ترف ونعيم فى معايشهم ، وكان

منهم الملوك ذوو الحظ الأوفر من العظمة والفضل وسعة الجاه والأمر والنهى و بسطة العيش كداود وسليمان عليهما السلام .

(٥) تفضيلهم على الناس جميعا ، إذ لم يكن فى أمة أنبياء كما كان فيهم ، ولم يجمع الله بين الملك والنبوة فى شعب كما اجتمع فيهم ، فهم أرفع الشعوب منقبة .

قال ابن عباس : لم يكن أحد من العالمين أكرم على الله ولا أحب إليه منهم اه .
وقد آتاهم من الآيات المرئية والمسموعة وأكثر فيهم من الأنبياء بما لم يفعله بغيرهم ممن سبق .

(٦) إيتاؤهم أحكاما ومواعظ مؤيدة بالمعجزات ، وقد كان هذا مما يستدعى ألفتهم واجتماعهم ، وكانوا كذلك لا يختلفون إلا اختلافا يسيرا لا يضر مثله ، فلما جاءهم العلم اختلفوا كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) أى فما حدث فيهم هذا الخلاف إلا بعد قيام الحجة طلبا للرياسة وحسدا فيما بينهم ، وقد سبق تفصيله فى سورة حم عسق .

ثم وكل سبحانه أمر المختلفين إليه للقضاء بينهم يوم القيامة فقال :

(إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى إن ربك سبحانه يقضى بين المختلفين من بنى إسرائيل بغيا وحسدا فيما كانوا فيه يختلفون فى الدنيا بعد العلم الذى آتاهم ، والبيان الذى جاءهم منه ، و يجعل الفلَج للمحقّ على المبطل ، والمقصد من هذا أنه لا ينبغى أن يغترّ المبطل بنعم الدنيا ، فإنها و إن ساوت نعم المحق أو زادت عليها ، فهو سيرى فى الآخرة ما يسوءه .

وفى هذا تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم ، وأن تسير على نهجهم .

ولما بين أنهم أعرضوا عن الحق بغيا وحسدا — أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعدل عن هذه الطريقة وأن يستمسك بالحق فقال :

(ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لايعلمون) أى ثم جعلناك بعد بنى إسرائيل الذين وصفت لك صفتهم — على نهج خاص من أمر الدين، فاتبع ما أوحى إليك ، ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون الذين لايعلمون توحيد الله ولا شرائعه لعباده وهم كفار قريش ومن وافقهم فتهلك .

ثم علل النهى عن اتباع أهوائهم فقال :

(إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا) أى إن هؤلاء الجاهلين بربهم لايدفعون عنك شيئا مما أراده بك إن اتبعت أهواءهم وخالفت شريعته .

ثم بين أولياء الكافرين وأولياء المؤمنين فقال :

(وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض) أى وإن الكافرين ليتولى بعضهم شئون بعض فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلا ولىّ ولا شفيع ولا نصير يجلب لهم ثوابا ولا يدفع عنهم عقابا .

(والله ولىّ المتقين) أى والمتقون المهتدون وليهم الله وهو ناصرهم ومخرجهم من الظلمات إلى النور ، والكافرون أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، فما أبعد الفرق بين الولايتين :

شتان ما يومى على كورها ويوم حيّان أخى جابر

وقصارى ما سلف ــ دم على ما أنت عليه من اعتمادك على ولاية ربك ونصرته ، وأعرض عما سواه .

ثم بين فضل القرآن وذكر ما يجلبه التمسك بحبله المتين فقال :

(هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون) أى هذا القرآن دلائل للناس فيما يحتاجون إليه من أمر الدين ، وبينات تبصّرهم وجه الفلاح ، وتعرّفهم سبيل الهدى ، وهو هدى ورحمة لقوم يوقنون بصحته ، وهو تنزيل من رب العالمين .

وإنما خص الموقنين بأنه لهم هدى ورحمة ، لأنهم هم الذين ينتفعون بما فيه دون من كذّب به من أهل الكفر فإنه عليهم عمى .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) .

تفسير المفردات

الاجتراح : الاكتساب ، ومنه الجارحة للأعضاء التى يُكْتَسب بها كالأيدى ، والمراد بالسيئات: سيئات الكفر والإشراك بالله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الفارق بين الكافرين والمؤمنين فى الولاية ، فأبان أن الأولين بعضهم أولياء بعض ، وأن الآخرين وليهم الله ــ أردف ذلك ذكر الفارق بينهم فى المحيا والممات ، فالمحسنون مرحومون فى الحالين، ومجترحو السيئات مرحومون فى الدنيا فحسب، ثم ذكر الدليل على هـذا بأن الله ما خلق الخلق إلا بالحق المقتضى للعدل والانتصاف للمظلوم من الظالم ، والتفاوت بين المحسن والمسىء فى الجزاء ، وإذا لم يكن هذا فى المحيا كان فى دار الجزاء حتما ، لتجزى كل نفس بمـا كسبت ، فلا تظلم بنقص ثواب أو بمضاعفة عقاب .

ثم عجّب سبحانه ممن ركب رأسه واتبع هواه وترك الهدى وأضله الله وهو العليم باستعداده وخبث طويته ، وأنه ممن يميل إلى تدسية نفسه واجتراح الآثام والمعاصى ،

فهو ممن ختم الله على سمعه وقلبه ، فلا يتأثر بعظة ، ولا يفكر فى آية ، وجعل على بصره غشاوة مانعة من الاستبصار والاعتبار ، فمن بعدَ الله يهديه ؟ أفلا تتذكرون وتتفكرون فى هذا ؟

روى الكلبى فى تفسيره أن عُتبة وشيبة والوليد بن عتبة قالوا لعلى وحمزة وجمع من المؤمنين : والله ما أنتم على شىء ، ولو كان ما تقولونه حقا ، لكان حالنا أفضل من حالكم فى الآخرة كما هو أفضل فى الدنيا ، فنزلت الآية «أم حسب الذين اجترحوا السيئات الخ » .

الايضاح

(أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم) أى أيظن هؤلاء الذين اكتسبوا الإثم والمعاصى فى الدنيا ، فكفروا بالله وكذبوا الرسل ، وخالفوا أمره ، وعبدوا غيره ، أن نجعلهم كالذين آمنوا به وصدقوا رسله ، فنساوى بينهم فى دار الدنيا وفى الآخرة — كلا لا يستوون فى شىء منهما ، فإن أهل السعادة فى عز الإيمان والطاعة وشرفهما فى المحيا ، وفى رحمة الله ورضوانه فى الممات ، وأهل الشقاء فى ذل الكفر والمعاصى وهوانهما فى المحيا ، وفى لعنة الله والعذاب الخالد فى الممات ، فشتان ما بينهما وما أبعد ما بين الثريا والثرى .

ونحو الآية قوله تعالى : « لايَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » وقوله : « أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ »

(ساء ما يحكمون) أى ساء ما ظنوا وبَعُد أن نساوى بين الأبرار والفجار فى الدار الآخرة وفى هذه الدار .

وفى الآية إرشاد إلى تباين حالى المؤمن العاصى والمؤمن الطائع .

وقد أثر عن كثير من الناسكين المخبتين لربهم أنهم كانوا يبكون عند تلاوة هذه الآية حتى سموها مبكاة العابدين .

أخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد والطبرانى وجماعة عن أبى الضحى قال : قرأ تميم الدارى سورة الجاثية فلما أتى على قوله « أم حسب الذين اجترحوا السيئات » الآية لم يزل يكررها و يبكى حتى أصبح وهو عند المقام .

وأخرج ابن أبى شيبة عن بشير مولى الربيع بن خيثم أن الربيع كان يصلى فمرّ بهذه الآية (أم حسب الذين) فلم يزل يردّدها حتى أصبح .

وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها : ليت شعرى من أى الفريقين أنت ؟ .

ثم أقام الدليل على عدم التساوى وأبان حكمة ذلك فقال :

(وخلق الله السموات والأرض بالحق) أى لم يخلق الله السموات والأرض للجور والظلم ، بل خلقهما للحق والعدل ، ومن العدل أن يخالف بين المحسن والمسىء فى العاجل والآجل .

(ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) أى وليثيب كل عامل بما هو له أهل، فلا يبخس المحسن ثواب إحسانه ، أويحمل عليه جُرم غيره فيعاقبه به ، أو يجعل للمسىء ثواب إحسان غيره .

والخلاصة — كل عامل يُجْزَى بما كسبت يداه ، ولا يُظْلم بنقص ثواب ، ولا بتضعيف عقاب .

ثم بين أحوال الكافرين وذكر جناياتهم على أنفسهم فقال :

(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟) أى انظر واعجب من حال من ركب رأسه ، وترك الهدى ، وأطاع الهوى ، فكأنه جعله إلها يعبده من دون الله ، فهو لا يهوى شيئا إلا فعله ، لا يخاف ربا ولا يخشى عقابا ، ولا يفكر فى عاقبة مايعمل .

وفى هذا إيماء إلى ذم اتباع هوى النفس ، ومن ثم قال وهب بن مُنَبِّه : إذا شككت فى خير أمرين فانظر أبعدهما من هواك فأته . وقال سهل التّسْتَرى : هواك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك ، وقال الإشبيلى الزاهد :

فخالف هواها واعصها إنّ من يطع هوى نفسه ينزع به شرّ منزع
ومن يطع النفس اللجوجة تُرْدِهِ وترمِ به فى مصرعٍ أىّ مصرع

وقال البوصيرى فى بردته :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محّضاك النصح فاتّهمِ

وقال ابن عباس : ما ذكر الله هوى فى القرآن إلا ذمّه ، قال تعالى « وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ » وقال : « وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » وقال « وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » .

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى صلى الله عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئتُ به » وقال أبو أمامة : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ما عُبِد تحت السماء إله أبغضَ إلى الله من الهوى » وروى شدّاد بن أوس عن النبى صلى الله عليه وسلم « الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والفاجر من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « إذا رأيت شُحًّا مطاعاً وهوًى متّبعاً ودنيا مُؤْثَرَة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة » وعنه أنه قال « ثلاث مُهْلِكات ، وثلاث منجيات ، فالمهلكات شحٌّ مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، والمنجيات خشية الله فى السر والعلن ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الرضا والغضب » .

وحسبك ذمّا لاتباع الهوى قوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » .

(وأضله الله على علم) أى خذله فلم يجعله يسلك سبيل الرشاد ، لأنه قد علم أنه لا يهتدى ولو جاءته كل آية ، لما فى جوهر نفسه من الميل إلى ارتكاب الإجرام ، واتباع الشهوات ، فهو يوغل فى القبائح دون زاجر ولا وازع .

(وختم على سمعه) أى وقد طبع على سمعه ، فلا يتأثر بالآيات تتلى عليه ليعتبر بها ، ولا يتدبرها ليعقل مافيها من النور والهدى .

(وقلبه) أى وختم على قلبه ، فلا يعى حقًّا ، ولا يسترشد إلى صواب .

(وجعل على بصره غشاوة) تمنعه أن يبصر حجج الله وآياته فى الآفاق والأنفس ، فيستدل بها على وحدانيته ويعلم بها أن لا إله غيره .

قال مقاتل : نزلت فى أبى جهل . ذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد ابن المغيرة ، فتحدثا فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو جهل : والله إنى لأعلم أنه صادق ، فقال له مَهْ ، وما دلك على ذلك ؟ قال : يا أبا عبد شمس كنا نسميه فى صباه الصادق الأمين ، فلما تم عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن ، والله إنى لأعلم أنه صادق ، قال فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به ؟ قال : تتحدث عنى بنات قريش أنى اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كسرة ، واللات والعُزّى إن اتبعته أبدا فنزلت « وختم على سمعه وقلبه » .

ونحو الآية قوله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

ثم ذكر أن مثل هذا لا أمل فى هدايته فقال :

(فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟) أى فمن يوفقه لإصابة الحق ، وإبصار محجة الرشد بعد إضلال الله إياه ، أى لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك ، أفلا تتذكرون أيها القوم فتعلموا أن من فعل الله به ما وصفنا ، فلن يهتدى أبداً ، ولن يجد لنفسه وليًّا ولا مرشدا .

وَقَالُوا مَاهِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرِ
وَمَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)
قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ
فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٢٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن المشركين قد اتخذوا إلههم هواهم ، وأن الله قد أضلهم على علم بحالهم ، وأنه ختم على سمعهم وقلبهم وجعل على بصرهم غشاوة — ذكر هنا جناية أخرى من جناياتهم ، وحماقة من حماقاتهم ، تلك أنهم أنكروا البعث وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما ذلك منهم إلا ظنون وأوهام لامستند لها من نقل ولا عقل ، ولم يجدوا حجة يقولونها إلا أن قالوا : إن كان ما تقوله حقا فارجعوا آباءنا الموتى إلى الحياة ، فأمر الله رسوله أن يجيبهم بأنه هو الذى يحييهم ثم يميتهم ، ثم يجمعهم فى يوم لاشك فيه ، ولكن أكثر الناس لايعلمون حقيقة ذلك .

الايضاح

(وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) أى وقال المشركون الذين سبق ذكر بعض أوصافهم : لاحياة بعد هذه الحياة التى نحن نعيش فيها ، فنموت نحن وتحيا أبناؤنا من بعدنا — وهذا تكذيب صريح منهم للبعث والمعاد .

وقصارى ذلك — ما ثَمَّ إلا هذه الدار ، يموت قوم و يعيش آخرون ، وليس هناك بعث ولا قيامة .

(وما يهلكنا إلا الدهر) أى وما يفنينا إلا مرّ الليالى والأيام ، فمرورها هو المؤثر فى هلاك الأنفس ، ويضيفون كل حادث إلى الدهر وأشعارهم ناطقة بذلك قال :

أشاب الصغير وأفنى الكبير كرُّ الغداة ومرّ العشى

وقد كان العرب فى جاهليتهم إذا أصابتهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا ياخيبة الدهر ، وقد جاء النهى عن سبِّ الدهر ، فجاء فى الحديث القدسى «يقول الله عز وجل : يؤذينى ابن آدم ، يسبّ الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلِّب الليل والنهار» .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى : استقرضت عبدى فلم يعطنى ، وسبّنى عبدى يقول وادهراه وأنا الدهر » .

قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله صلى الله عليه وسلم « لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » كان العرب فى الجاهلية إذا أصيبوا بشدة أو بلاء قالوا يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله ، فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل ، لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة ، فلذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله تعالى هو الدهر الذى يعنونه ، ويسندون إليه تلك الأفعال .

ثم نعي عليهم مقالهم هذا الذى لادليل عليه فقال :

(وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) أى وما لهم بقصر الحياة على حياة الدنيا ونسبة الإهلاك إلى الدهر ـ علم يستند إلى عقل أو نقل ، وقصارى أمرهم الظن والتخمين من غير أن يكون لهم ما يتمسكون به من حجة نافذة .

وفى الآية إشارة إلى أن القول بغير بينة ولا حجة ـ لاينبغى أن يعوّل عليه ، وأن اتباع الظن منكر عند الله .

ثم ذكر شبهتهم على إنكار البعث فقال :

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم

صادقين) أى وإذا تلى على هؤلاء المشركين الذين سبق القول فى جرائمهم - آيات الـكتاب الدالة على أن البعث حق ، وأن الله سيعيد الخلق يوم القيامة وينشئه نشأة أخرى - لم يكن لهم من حجة فى دحْض هذا إلا أن قالوا إن كان ما تقولونه حقًّا فأنشِروا لنا آباءنا الأولين وابعثوهم من قبورهم أحياء حتى نعتقد صحة ما تقولون .

وهذا قول آفن وكلام لاينبغى أن يصدر من عاقل ، فإنه لايلزم من عدم حصول الشيء فى الحال كإعادة آبائهم التى طلبوها فى الدنيا - امتناعه فيما بعد إذا قامت القيامة وبعث الله الموتى من قبورهم للعرض والحساب .

وتسمية كلامهم الزائف حجة - ضرب من التهكم بهم على نحو قوله :

* تحيةُ بينِهِمْ ضربٌ وجيعٌ *

ثم أمر سبحانه رسوله أن يرد عليهم فقال :

(قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة) أى قل لهؤلاء المشركين المنكرين للبعث : الله يحييكم ما شاء أن يحييكم فى الدنيا ، ثم يميتكم فيها متى شاء ، ثم يجمعكم جميعا أولـكم وآخركم صغيركم وكبيركم يوم القيامة .

ثم أكد ذلك بقوله :

(لاريب فيه) أى لا ريب فى هذا الجمع والبعث ، فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة ، والحـكمة قاضية بذلك ، لتجزى كل نفس بما كسبت ، والأديان جميعا متضافرة على تحققه وحصوله يوم القيامة .

وقصارى ما سلف - إن البعث أمر ممكن أخبر به الأنبياء الصادقون ، والحـكمة تقتضى حصوله والعقل يؤيده ، فهو واقع لامحالة .

(ولـكن أكثر الناس لايعلمون) أى ولـكن أكثر الناس ينكرون البعث ويستبعدون عودة الأجساد بعد موتها وحين تكون عظاما نخرة كما قال :

« إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا » أى يرون وقوعه بعيدا والمؤمنون يرونه قريبا ، وما دعاهم إلى ذلك إلا جهلهم وقصر نظرهم ، لا لأن فيه شائبة ريب .

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ، كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) .

تفسير المفردات

جاثية : أى باركة على الركب مستوفزة ، وهى هيئة المذنب الخائف المنتظر ما يكره ، إلى كتابها : أى إلى صحيفة أعمالها التى كتبها الحفظة لتحاسَب على ما قُيِّد فيها ، ينطق : أى يشهد ، نستنسخ : أى نجعل الملائكة تكتب وتنسخ .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت فيما سلف أنه تعالى قادر على الإحياء مرة ثانية كما قدر على ذلك فى المرة الأولى ـ ذكر هنا دليلا آخر على ذلك ، وهو أنه تعالى مالك الكون كله ، فهو قادر على التصرف فيه بالإحياء فى الإعادة كما أحياه فى البدء ، ثم ذكر من أهوال هذا اليوم أن كل أمة تجثو على ركبها وتجلس جِلسَة المخاصِم بين يدى الحاكم ينتظر القضاء، وكل أمة تدعى إلى صحيفة أعمالها التى كتبتها الحفظة لتحاسب عليها ، ويقال لهم : اليوم تجزون ما كنتم تعملون ، ولا شاهد عليكم أصدق من كتابكم ، فهو صورة أعمالكم قد كتبتها الملائكة فى دنياكم .

الايضاح

(ولله ملك السموات والأرض) أى إنه تعالى مالك العالم العلوى والسفلى ، جار حكمه فيهما ، دون ما تدعون من دونه من الأوثان والأصنام .

ثم توعد الكافرين أهل الباطل فقال :

(ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) أى ويوم تقوم الساعة ويحشر الناس من قبورهم للعرض والحساب ـ سيظهر خسران أولئك المنكرين الجاحدين بما أنزل الله على رسله من الآيات والدلائل ـ بدخولهم فى جهنم وبئس المستقر .

وقد جعلت الحياة والصحة والعقل كأنها رءوس أموال ، والتصرف فيها بطلب السعادة الأخروية يجرى مجرى تصرف التاجرفى ماله طلبا للربح . أما الكفارفقد أتعبوا أنفسهم وتصرفوا فيها بفعل الآثام والإشراك بالله تصرف التاجر الذى أساء فى تجارته فوُكِس فيها ، ولم يجد فى العاقبة إلا الخسران والخذلان والطرد من رحمة الله ، وذلك ما لا يرضاه عاقل لنفسه ، يزن الأمور بميزان الحكمة والسداد .

ثم بين حال الأمم فى ذلك اليوم وما تلاقيه من الشدائد انتظارا لفصل القضاء فقال :

(١) (وترى كل أمة جاثية) على ركبها لشدة الهول والرعب ، واستعدادا لما لعلها تؤمر به حين فصل القضاء .

(٢) (كل أمة تدعى إلى كتابها) لذى أنزل عليها لتعبد ربها بهديه ، وكتابها الذى نسخته الحفظة من أعمالها ، ليطبق أحدهما على الآخر ، فمن وافق كتابه ما أمر به من كتاب ربه نجا ، ومن خالفه هلك وكان من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

ونحو الآية قوله : « وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ » .

ثم ذكر أنهم يُنْذَرون ويُبَشَّرون بما سيبنى عليه حكم القضاء فقال :

(اليوم تجزون ما كنتم تعملون) أى ويقال لهم حال دعائهم : اليوم تجازون بأعمالكم التى عملتموها فى الدنيا خيرها وشرها .

ثم بين مستندات الحكم وأدلته فقال :

(هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) أى هذا كتابنا الذى كتبته الحفظة ودوّنت فيه أعمالكم - يشهد عليكم شهادة حق دون زيادة ولا نقص ، فهو صورة تطابق ما فعلتموه حذوَ القُذَّة بالقُذَّة .

ثم علل مطابقة هذه الشهادة لأعمالهم فقال :

(إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) أى إنا كنا نأمر الحفظة بنسخ أعمالكم وكتابتها وإثباتها عليكم أول فأول فى الدنيا ، فهى وَفْق ما عملتم بالدقة والضبط .

وفى هذا إجابة عما يخطر بالبال من سؤال فيقال : ومن يحفظ أعمالنا على كثرتها مع طول المدة وبعد العهد ؟ فأجيبوا بهذا الجواب .

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ
فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا
نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا
وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ

آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) .

تفسير المفردات

فى رحمته : أى فى جنته ، الفوز : هو الظفر بالبغية ، المبين : أى الظاهر أنه لافوز وراءه ، آياتى : أى آيات كتبى التى جاءت فى الشرائع السماوية ، وعد الله : أى بأنه محيى الموتى من قبورهم ، بمستيقنين : أى بمتحققين ، وبدا : أى ظهر ، سيئات ما عملوا : أى ء وباتها ، وحاق : أى حل ، ننساكم ، أى نترككم ، نسيتم : أى تركتم ، آيات الله : أى حججه ، غرتكم : أى خدعتكم ، الحياة الدنيا : أى زينتها ، يستعتبون : أى يطلب منهم العتبى بالتوبة من ذنوبهم ، والإنابة إلى ربهم ، الكبرياء : العظمة والسلطان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أهوال العرض والحساب ، وأن أعمال كل أمة تعرض عليها ، ويقال لهم هذا ما كتبته الحفظة فى الدنيا ، فهو شهادة صدق لاشك فيها — أردف هذا بيان أنه بعد انتهاء هذا الموقف يُدْخَل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات النعيم ، ويوبَّخُ الكافرون على ما فرط منهم فى الدنيا ويقال لهم : لاعذر لكم فى الإعراض عن آياتى حين كانت تتلى عليكم إلا الاستكبار والعناد ، وقد كنتم فى الحياة الأولى إذا قيل لكم إن يوم القيامة آت لاشك فيه ، قلتم لايقين عندنا به ، وهو موضع حَدْس وتخمين ، فهاهو ذا قد حل بكم جزاء ما اجترحتموه من السيئات ، وما كنتم تستهزئون به

فى دنياكم ، إذ قد خدعتكم بزخارفها ، فظننتم أن لاحياة بعد هذه الحياة — فلا مأوى لكم إلا جهنم فادخلوها ، ولا مخرج لكم منها ، ولا عتبى حينئذ ، فلا تنفع توبة مما فرط منكم من الذنوب .

الايضاح

فصل سبحانه فى هذه الآيات حالى السعداء والأشقياء فقال :

(١) (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته) أى فأما الذين آمنت قلوبهم ، وعملت جوارحهم صالح الأعمال التى أمر بها الدين ، فيكافئهم ربهم على ما عملوا ، ويدخلهم جنات النعيم . جاء فى الحديث الصحيح أن الله تعالى قال للجنة « أنتِ رحمتى، أرحم بك من أشاء » .

ثم بين خطر ما نالوا وعظيم ما أُوتوا فقال :

(ذلك هو الفوز المبين) أى هذا هو الظفر بالبغية التى كانوا يطلبونها ، والغاية التى كانوا يسعَوْن فى الدنيا لبلوغها ، وهو فوز لافوز بعده .

(٢) (وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين) أى وأما الذين جحدوا وحدانية الله فيقال لهم تأنيبا وتوبيخا : ألم تكن تأتيكم رسلى فتتلوا عليكم آيات كتبى ، فتستكبرن عن الإيمان بها ؟ ولا عجب فديدنكم الإجرام ، وارتكاب الآثام ، والكفر بالله ، لاتصدقون بميعاد ، ولا تؤمنون بثواب ولا عقاب .

(وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة ؟ إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين) أى وكنتم إذا قال لكم المؤمنون : إنه سبحانه وتعالى باعثكم من قبوركم بعد موتكم ، وإن الساعة التى أخبركم أنه سيقيمها لحشركم وجمعكم للحساب والثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، آتية لا ريب فيها ، فاتقوا الله وآمنوا به ، وصدقوا برسوله ، واعملوا لما ينجيكم من عذابه — قلتم لعتوّكم واستكباركم متعجبين مستغربين ، ما الساعة ؟ نحن لاعلم لنا بها ، وما نظنها آتية إلا ظنا لايقين فيه .

ثم ذكر أنهم يقفون موقف المتهم المسئول زيادة فى تأنيبهم ثم يحل بهم ما كانوا يستهزئون به من العذاب :

(وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى وظهرت لهم قبائح أعمالهم التى عملوها فى الدنيا حين قرءوا كتب أعمالهم التى دونتها الحفظة كى لا يكون لهم حجة إذا نزل بهم العذاب ثم جوزوا بما كانوا يهزءون به فى الدنيا ويقولون ما هو إلا أوهام وأباطيل ، وخرافات قد دونها المبطلون .

ثم ذكر ما يزيد فى تعذيبهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم فقال :

(وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين) أى وقيل لهم تغليظا فى العقوبة وإمعانا فى التهكم والسخرية : اليوم نترككم فى العذاب ، كما تركتم العمل للقاء يومكم هذا ، وليس لكم مستنقذ ينقذكم منه ، ولا مستنصر يستنصر لكم ممن يعذبكم .

والخلاصة — إنه تعالى جمع لهم ثلاثة ألوان من العذاب : قطع الرحمة عنهم ، وجعل مأواهم النار ، وعدم وجود الأنصار والأعوان ، من قِبل أنهم أتوا بثلاثة ضروب من الإجرام : الإصرار على إنكار الدين الحق ، والاستهزاء به ، والاستغراق فى حب الدنيا ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا) أى هذا الذى حل بكم من عذاب الله بأنكم فى الدنيا اتخذتم حجج الله وآيات كتابه التى أنزلها على رسوله سخرية تسخرون منها ، وخدعتكم زينة هذه الحياة فآثرتموها على العمل لما ينجيكم من عذابه ، ظنا منكم أنه لا حياة بعد هذه الحياة ولا بعث ولا حساب .

(فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) أى فاليوم لا يخرجون من النار ، ولا هم يردون إلى الدنيا ليتوبوا ويراجعوا الإنابة مما عوقبوا عليه .

والخلاصة — إنهم لا يُخرجون ولا يطلب منهم أن يزيلوا عَتْب ربهم عليهم أى لايطلب منهم إرضاؤه لفوات أوانه .

وبعد أن ذكر ما حوته السورة من آلائه تعالى وإحسانه ، وما اشتملت عليه من الدلائل التى فى الآفاق والأنفس ، وما انطوت عليه من البراهين الساطعة على المبدإ والمعاد — أثنى على نفسه بما هو له أهل فقال :

(فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين) أى فلله الحمد على أياديه على خلقه ، فإياه فاحمدوا ، وله فاعبدوا ، فكل ما بكم من نعمة فهو مصدرها دون ماتعبدون من وثن أو صنم . وهو مالك السموات السبع ، ومالك الأرضين السبع ، ومالك جميع ما فيهنّ .

(وله الكبرياء فى السموات والأرض) أى وله الجلال والعظمة والسلطان فى العالم العلوى والعالم السفلى ، فكل شىء خاضع له فقير إليه دون ما سواه من الآلهة والأنداد .

وفى الحديث القدسى : « يقول الله تعالى : الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما أسكنته نارى » . أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه وابن أبى شيبة عن أبى هريرة .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو العزيز الذى لايمانع ولا يغالب ، الحكيم فى أفعاله وأقواله ، تقدس ربنا جلت قدرته ، وعظمت آلاؤه .

وقصارى ذلك — له الحمد فاحمدوه ، وله الكبرياء فعظّموه ، وهو العزيز الحكيم فأطيعوه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

خلاصة ماحوته هذه السورة الكريمة من الأغراض والمقاصد

(١) إقامة الأدلة على وجود الخالق سبحانه .

(٢) وعيد من كذب بآياته واستكبر عن سماعها .

(٣) طلب العفو من المؤمنين عن زلات الكافرين .

(٤) الامتنان على بنى إسرائيل بما آتاهم من النعم الروحية والمادية .

(٥) أمر رسوله ألا يطيع المشركين ولا يتبع أهواءهم .

(٦) التعجب من حال المشركين الذين أضلهم الله على علم .

(٧) إنكار المشركين للبعث .

(٨) ذكر أهوال العرض والحساب ، وشهادة صحائف الأعمال على الإنسان .

(٩) حلول العذاب بالمشركين بعد أن تتبين لهم قبائح أعمالهم .

(١٠) ثناء المولى سبحانه على نفسه و إثبات الكبرياء والعظمة له .

تم تفسير هذا الجزء ليومين بقيا من صفر من سنة خمس وستين وثلثمائة بعد الألف بمدينة حلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة المبحث

تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية

بكلية دار العلوم سابقا

الجزء السادس والعشرون

دار إحياء التراث العربي

بيروت

الجزء السادس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحقاف

هى مكية إلا ثلاث آيات : ١٠ ، ١٥ ، ٣٥ فمدنية .

وآياتها خمس وثلاثون ، نزلت بعد الجاثية .

ووجه اتصالها بما قبلها — أنه تعالى ختم السورة السالفة بالتوحيد ، وذمّ أهل الشرك وتوعدهم عليه ، وافتتح هذه بالتوحيد وتوبيخ المشركين على شركهم أيضا .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حٰمٓ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوَاتِ ، ائْتُونِى بِكِتَابٍ

مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ؟ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) .

تفسير المفردات

أجل مسمى : هو يوم القيامة ، أنذروا : أى خوّفوا ، معرضون : أى مولّون لاهون ، تدعون : أى تعبدون ، شرك : أى نصيب، أثارة : أى بقية ، ومثلها الأثرة (بالتحريك) يقال (سمنت الإبل على أثارة) أى بقية شحم كان قبل ذلك ، حشر : أى جمع ،كافرين : أى مكذبين .

المعنى الجملى

بدأ سبحانه السورة بإثبات أن هذا القرآن من عند الله ، لا من عند محمد كما تدّعون ثم ذكر أن خلق السموات والأرض مصحوب بالحق قائم بالعدل والنظام ، ومن النظام أن تكون الآجال مقدرة معلومة لكل شىء ، إذ لا شىء فى الدنيا بدائم ، ولا بد من يوم يجتمع الناس فيه للحساب ، حتى لا يستوى المحسن والمسىء ، ولكن الذين كفروا أعرضوا عن إنذار الكتاب ولم يفكروا فيما شاهدوا فى العالم من النظام والحكمة ، فلاهم بسماع الوحى متعظون ، ولاهم بالنظر فى العالم المشاهد يعتبرون؛ ثم نعى على المشركين حال آلهتهم وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : أخبرونى ماذا خلق آلهتكم من الأرض ، أم لهم شركة فى خلق السموات حتى يستحقون العبادة ؟ فإن كان لهم ما تدّعون فهاتوا دليلا على هذا الشرك المدّعَى بكتاب موحى به من قبل القرآن أو ببقية

من علوم الأولين ، وكيف خطر على بالكم أن تعبدوها وهى لاتستجيب لكم دعاء إلى يوم القيامة وهى غافلة عنكم ، وفى الدار الآخرة تكون لكم أعداء وتجحد عبادتكم لها .

الايضاح

(حم) الكلام فى مثلها قد تقدم من قبل .

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) اعلم أنّ نظم أول هذه السور كنظم أول سورة الجاثية وقد تقدم إيضاحه وتفسيره .

(ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) أى ما خلقناها إلا خلقا ملتبسا بالعدل ، وبتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ، إليه ينتهى بقاؤه فى هذه الحياة الدنيا ، وهذا يستدعى أن يكون خلقه لحكمة وغاية ، وأن يكون هناك يوم معلوم للحساب والجزاء ، لئلا يتساوى مَن أحسن فى الدار الأولى ومن أساء فيها ، ومن أطاع ربه واتبع أوامره ونواهيه ، ومن دنّى نفسه ، وركب رأسه ، واتبع شيطانه وهواه ، وسلك سبل الغواية فلم يترك منها طريقا إلا سلكه ، ولا بابا إلا ولَجه .

ثم بين غفلة المشركين وإعراضهم عما أنذروا به فقال :

(والذين كفروا عما أنذروا معرضون) أى مع ما نصبنا من الأدلة ، وأرسلنا من الرسل ، وأنزلنا من الكتب — بقى هؤلاء الكفار معرضين عنه ، غير ملتفتين إليه ، فلا هم بما أنزلنا من الكتب اتعظوا ، ولا بما شاهدوا من أدلة الكون اعتبروا ، وأنَّى لهم ذلك ؟ فهم صم بكم عمى لا يعقلون .

وبعد أن أثبت لنفسه الألوهية ، وأنه رحيم عادل ، وأثبت البعث والجزاء يوم القيامة ، ردّ على عبدة الأصنام فقال :

(قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات) أى قل لهم أيها الرسول : أخبرونى عن حال آلهتكم بعد التأمل فى خلق

السموات والأرض وما بينهما ، والنظام القائم فيهما ، المبنى على الحكمة ودقة الصنع ، والإبداع فى التكوين : هل تعقلون لهم مدخلا فى خلق جزء من هذا العالم السفلى ، فيستحقوا لأجله العبادة ؟ ولوكان لهم ذلك لظهر التفاوت فى هذا النظام ، والمشاهد أنه على حال واحدة يستمد أدناه من أعلاه ، ويرتبط بعضه ببعض ، وكل فرد فى الأرض مخدوم بجميع الأفراد فيها ، أم هل تظنون أن لهم شركة فى خلق العالم العلوى شموسه وأقماره ، كواكبه ونجومه ، سياراتها وثوابتها .

وقصارى ذلك — نفى استحقاق آلهتهم للمعبودية على أتم وجه ، فقد نفى أن لها دخلا فى خلق شىء من أجزاء العالم السفلى استقلالا ، ونفى ثانيا أن لها دخلا على سبيل الشركة فى خلق شىء من أجزاء العالم العلوى ، ونَفْىُ ذلك يستلزم نفى استحقاق المعبودية أيضا .

وتخصيص الشركة فى النظم الجليل بقوله سبحانه « فى السَّمَٰوَاتِ » مع أنه لاشركة فيها ولا فى الأرض أيضا — لأن الغرض إلزامهم بما هو مسلَّم لهم ، ظاهر لكل أحد ، والشركة فى الحوادث السفلية ليست كذلك ، لتملكهم وإيجادهم لبعضها بحسب الصورة الظاهرة .

وبعد أن بكّتهم وعجّزهم عن الإتيان بسند عقلى ، عجزهم و بكتهم عن الإتيان بسند نقلى فقال :

(ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) أى إن كان ماتقولونه حقا فائتونى أيها القوم بكتاب من قبل هذا الكتاب كالتوراة والإنجيل يشهد بصحة ما تدّعون لآلهتكم ، أو ببقية بقيت عندكم من علم الأولين المفكرين فى خلق السموات والأرض ترشد إلى استحقاق الأصنام والأوثان للعبادة . وتدل على صحة المسلك الذى سلكتموه .

والخلاصة — إن الدليل : إما وحى من الله ، أو بقية من كلام الأوائل ، و إما

إرشاد من العقل ، فإن كان الأول فأين الكتاب الذى يدل على أنهم شركاء ؟ وإن كان الثانى فأين هو ؟

وبعد أن أبطل شركة الأصنام فى الخلق بعدم قدرتها على ذلك — أتبعه إبطاله بعدم علمها بالعبادة فقال :

(ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون) أى لا أضل ممن يعبد من دون الله أصناما ويتخذهم آلهة ، وهم إذا دُعُوا لا يسمعون ولا يجيبون إلى يوم القيامة ؛ أى لا يجيبون أبدا ماداموا فى الدنيا ، إذ هم فى غفلة عن دعائهم ، لأنهم أحجار ، فهم صم بكم لا يسمعون ولا يتكلمون .

وما أنكى هذا التوبيخ وما أمضّ ألمه لهؤلاء المشركين على سوء رأيهم وقبح اختيارهم فى عبادتهم ما لا يعقل شيئا ولا يفهم ، وتركهم عبادة من بيده جميع نعمهم ، ومن به إغاثتهم حين تنزل بهم الجوائح والمصايب .

وبعد أن أبان أنهم لا ينفعونهم فى الدنيا ولا يستجيبون لهم دعاء — أبان حالهم فى الآخرة فقال :

(وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) أى وإذا جُمِع الناس لموقف الحساب كانت هذه الآلهة التى يعبدونها فى الدنيا أعداء لهم ، إذ يتبرءون منهم ، وكانوا بعبادتهم كافرين ، فهم يقولون : ما أمرناهم بعبادتنا ولا شعرنا بهم ، تبرأنا إليك ربنا منها .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » وقوله حكاية عن إبراهيم عليه السلام « وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ، كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩).

تفسير المفردات

المراد بالحق آيات القرآن، افتراه: كذب عليه عمدا، فلا تملكون لى من الله شيئا: أى لاتغنون عنى من الله شيئا إن أراد عقابى، تفيضون فيه: أى تخوضون فيه من تكذيب القرآن، يقال أفاض القوم فى الحديث: أى اندفعوا فيه، والبدع والبديع من كل شىء: المبتدَع المحدَث دون سابقة له.

المعنى الجملى

بعد أن تكلم فى تقرير التوحيد ونفى الأضداد والأنداد — أعقب هذا بالكلام فى النبوة، وبين أنه كلما تلا عليهم الرسول شيئا من القرآن قالوا إنه سحر، بل زادوا فى الشناعة وقالوا: إنه مفترى، فرد عليهم بأنه لو افتراه على الله فمن يمنعه من عقابه لو عاجله به؟ وهو العليم بما تندفعون فيه من الطعن فى نبوّتى، ويشهد لى بالصدق والبلاغ، وعليكم بالكذب والجحود.

ثم أمر رسوله أن يقول لهم: إنى لست بأول الرسل حتى تنكروا دعائى لكم إلى التوحيد، ونهيى لكم عن عبادة الأصنام، وما أدرى ما يفعل بى فى الدنيا؟

أأموت أم أقتل كما قتل الأنبياء قبلى ، ولا ما يفعل بكم ، أتُرْمَوْن بالحجارة من السماء أم تخسف بكم الأرض ، أم يفعل بكم غير ذلك مما عمل مع سائر المكذبين للرسل ؟ وإنى لا أعمل عملا ولا أقول قولا إلا بوحى من ربى ، وما أنا إلا نذير ، لا أستطيع أن آتى بالمعجزات والأخبار الغيبية ، فالقادر على ذلك هو الله تعالى .

الايضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين) أى وإذا تتلى على هؤلاء المشركين حججنا التى أودعناها كتابنا الذى أنزلناه عليك قالوا : هذا خداع وتمويه يفعل فعل السحر فى قلب من سمعه .

ثم انتقل من هذه المقالة الشنعاء إلى ما هو أشنع منها فقال :

(أم يقولون افتراه) أى دع هذا واسمع القول المنكر العجيب : إنهم يقولون إن محمدا افتراه على الله عمدا ، واختلقه عليه اختلاقا .

وقد أمر الله رسوله أن يبطل شبهتهم بقوله :

(قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا) أى قل لهم : لو كذبت على الله ، وزعمت أنه أرسلنى إليكم ، ولم يكن الأمر كذلك لعاقبنى أشد العقاب ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم أن يجيرنى منه ، فكيف أقدم على هذه الفرية وأعرّض نفسى لعقابه ، فالملوك لا يتركون من كذب عليهم دون أن ينتقموا منه ، فما بالكم بمن يتعمد الكذب على الله فى الرسالة ، وهى الجامعة لأمور عظيمة ، ففيها الإخبار عن تكليف الناس بما يصلح شأنهم فى دينهم ودنياهم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ ، وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلاَّ بَلاَغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ » وقوله : «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ» .

ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام منهم بقوله :

(هو أعلم بما تفيضون فيه) أى هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه ، من التكذيب بالقرآن ، والطعن فى آياته ، وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى .

ثم أكد صدق ما يقول بنسبة علم ذلك إلى الله فقال :

(كفى به شهيدا بينى وبينكم) فهو يشهد لى بالصدق فى البلاغ ، ويشهد عليكم بالكذب والجحود .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد الشديد على إفاضتهم فى الطعن فى الآيات .

ثم فتح لهم باب الرحمة بعد الإنذار السابق لعلهم يتوبون ويثوبون إلى الحق فقال :

(وهو الغفور الرحيم) أى ومع كل ما صدر منكم من تلك المطاعن الشنعاء ، إن أنتم تبتم وأنبتم إلى ربكم وصح عزمكم على الرجوع عما أنتم عليه ، تاب عليكم ، وعفا عنكم ، وغفر لكم ورحمكم .

وبعد أن حكى عنهم طعنهم فى القرآن — أمر رسوله أن يرد عليهم مقترحاتهم العجيبة ، وهى طلبهم من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمعجزات بحسب مايريدون ويشتهون ، وكلها تدور حول الإخبار بشئون الغيب فقال :

(قل ما كنت بدعاً من الرسل) أى قل لهم : لست بأول رسول بلغ عن ربه ، بل قد جاءت رسل من قبلى ، فما أنا بالفذّ الذى لم يعهد له نظير حتى تستنكرونى وتستبعدون رسالتى إليكم ، وما أنا بالذى يستطيع أن يأتى بالمعجزات متى شاء ، بل ذلك باذنه تعالى وتحت قبضته وسلطانه ، وليس لى من الأمر شىء ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) أى ولا أعلم ما يفعل بى فى الدنيا ، أأخرج من بلدى كما أُخرجَت أنبياء من قبلى ، أم أُقتَل كما قتل منهم من قتل ؟ ولا ما يفعل

بكم أيها المكذبون ، أتُرْمَوْنَ بحجارة من السماء أم تُخْسَف بكم الأرض ؟ كل هذا علمه عند ربى .

وفى صحيح البخارى وغيره من حديث أمّ العلاء أنها قالت : « لما مات عثمان ابن مظعون رضى الله عنه ، قلت : رحمة الله عليك يا أبا السائب ، لقد أكرمك الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أمّا هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإنى لأرجو له الخير ، والله ما أدرى ــ وأنا رسول الله ــ ما يُفعل بى ولا بكم ، قالت أمّ العلاء فوالله ما أزكى بعده أبداً » .

وفى رواية الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس « أنه لما مات قالت امرأته أو امرأة : هنيئا لك ابنَ مظعون الجنةُ ، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر مغضَب وقال: وما يدريك ؟ والله إنى لرسول الله ، وما أدرى مايفعل الله بى، فقالت : يا رسول الله صاحبك وفارسك وأنت أعلم ، فقال : أرجو له رحمة ربه تعالى وأخاف عليه ذنبه » .

ومن هذا يعلم أن ما ينسب إلى بعض الأولياء من العلم بشئون الغيب ، فهو فرية على الله ورسوله ، وكفى بما سلف ردّا عليهم .

ثم أكد ما سلف وقرره بقوله :

(إن أتبع إلا مايوحى إلىّ) أى ما أتبع إلا القرآن ، ولا أبتدع شيئا من عندى .
ثم زاد الأمر توكيدا فقال :

(وما أنا إلا نذير مبين) أى وما أنا إلا نذير ، أنذركم عقاب الله ، وأخوّفكم عذابه ، وآتيكم بالشواهد الواضحة على صدق رسالتى ، ولست أقدر على شىء من الأعمال الخارجة عن قدرة البشر .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) .

المعنى الجملى

لا يزال الكلام موصولا بسابقه ، فبعد أن نعى عليهم استهزاءهم بكتابه وقولهم فيه : إنه سحر مفترى وردّ الرسول عليهم بأنه ليس بأول رسول حتى يستنكرون نبوته و يطلبون منه ما لا قِبَل له به من المعجزات التى أمْرها بيد الله لا بيده ــ أردف هذا أمر رسوله أن يقول لهم : ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله الله علىّ لأبلغكموه فكفرتم به وكذبتموه ؟ وقد شهد شاهد من بنى إسرائيل الواقفين على أسرار الوحى بما أوتوا من التوراة على مثل ما قلتُ ، فآمن واستكبرتم ؟ ثم حكى عنهم شبهة أخرى بشأن إيمان من آمن منهم من الفقراء كعمار وصهيب وابن مسعود فقالوا : لو كان هذا الدين خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء ، ثم ذكر أنهم حين لم يهتدوا به قالوا : إنه من أساطير الأولين ، ثم ذكر أن مما يدل على صدق القرآن أن التوراة وهى الإمام المقتدى به ، بشرت بمقدَم محمد صلى الله

عليه وسلم فاقبلوا حكمها فى أنه رسول حقا من عند الله ، ثم أعقب هذا ببيان أن من آمنوا بالله وعملوا صالحا لايخافون مكروها ، ولايحزنون لفوات محبوب ، وأولئك هم أهل الجنة ، جزاء ماعملوا من عمل صالح ، وما أخبتوا لربهم ، وانقادوا لأمره ونهيه .

الايضاح

(قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم) أى قل لهم : أخبرونى إن ثبت أن القرآن من عند الله لعجز الخلق عن معارضته ، لا أنه سحر ولا مفترى كما تزعمون ، ثم كذبتم به وشهد أعلم بنى إسرائيل بكونه من عند الله فآمن واستكبرتم - أفلستم تكونون أضل الناس وأظلمهم ؟ .

والخلاصة - أخبرونى إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، وشهادة منصف من بنى إسرائيل عارف بالتوراة على مثل ماقلت فآمن به مع استكباركم - أفلا تكونون ظالمين لأنفسكم ؟

وهذا الشاهد هو عبد الله بن سلام - فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال : « ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام وفيه ، نزلت : (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ) » .

وأخرج الترمذى وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : نزل فىّ آيات من كتاب الله ، نزلت فىّ (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ) ونزل فىّ : (قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) .

ثم ذكر أن فى استكبارهم عن الإيمان ظلما لأنفسهم وكفرا بآيات ربهم فقال :

(إن الله لايهدى القوم الظالمين) أى إن الله لايوفق لإصابة الحق وهدى الصراط المستقيم من ظلموا أنفسهم باستحقاقهم سخط الله لكفرهم به بعد قيام الحجة الظاهرة عليهم .

عن عوف بن مالك الأشجعى قال « انطلق النبى صلى الله عليه وسلم وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يامعشر اليهود أرونى اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، يحطّ الله عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذى عليه ، فسكتوا فما أجابه منهم أحد ، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد ثلاثا ، فقال : أبيتم ، فوالله لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفّى ، آمنتم أو كذبتم ، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا نخرج ، فإذا رجل من خلفه فقال : كما أنت يامحمد فأقبل ، فقال ذلك الرجل : أىّ رجل تعلمونى فيكم يامعشر اليهود، فقالوا : والله مانعلم فينا رجلا أعلم بكتاب الله ، ولا أفقه منك ولا من أبيك ولا من جدّك ، فقال فإنى أشهد بالله أنه النبى الذى تجدونه مكتوبا فى التوراة والإنجيل ، قالوا كذبت ، ثم ردوا عليه وقالوا شرّا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم لن يُقبل منكم قولكم ، فخرجنا ونحن ثلاثة : رسول الله وأنا وعبد الله ابن سلام فأنزل الله : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ــ إلى قوله ــ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

أخرجه أبو يعلى وابن جرير والطبرانى والحاكم وصححه السيوطى .

ثم حكى نوعا آخر من أقاويلهم الباطلة فى القرآن العظيم والمؤمنين به فقال :

(وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه) أى وقال كفار مكة لأجل إيمان من آمن من فقراء المؤمنين كعمار وصُهَيْب وابن مسعود ومن لفّ لفّهم : لو كان ما أتى به محمد خيراً ماسبقنا إليه هؤلاء، فإن معالى الأمور لاتنالها أيدى الأراذل، وهؤلاء سُقّاط الناس ورعاة الإبل والشاء ، وقد قالوا ذلك زعما منهم أنهم المستحقون للسبق إلى كل مكرمة ، وأن الرياسة الدينية مما تنال بأسباب دنيوية ، وقد غاب عنهم أنها منوطة بكمالات نفسية وملكات روحية مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنية

والإقبال على الآخرة ، وأن من فاز بها فقد حازها بحذافيرها ، ومن حُرِمها فما له فيها من خلاق ، ولم يعلموا أن الله يختص برحمته من يشاء ويصطفى لدينه من يشاء .

وعن قتادة : قال ناس من المشركين نحن أعز ونحن ونحن فلو كان خيرا ماسبقنا إليه فلان وفلان فنزلت هذه الآية .

وروى أنه لما أسلمت جُهينة ومُزَينة وأسلَمُ وغِفار قالت بنو عامر وغطفان وأشجع وأسد: لو كان هذا خيرا ماسبقتنا إليه رعاء البُهْم والشاء .

فأجابهم الله عن هذا بقولهم :

(وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) أى وقد ظهر عنادهم واستكبارهم إذ لم يهتدوا به ، وسيقولون الفَيْنَةَ بعد الفينة والحين بعد الحين : هذا كذب مأثور عن الأقدمين ، انتقاصا له ولأهله ، واستكبارا عن اتباع الحق . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكبر بطْر الحق وغمْص (احتقار) الناس » .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » .

ثم رد عليهم طعنهم فى القرآن وأثبت صحته فقال :

(ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيًّا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) أى ومما يدل على صحة القرآن أنكم لاتنازعون فى أن الله أنزل التوراة على موسى وجعلها إماما لبنى إسرائيل ورحمة لهم ، وهى قد اشتملت على البشارة بمَقْدَم محمد صلى الله عليه وسلم فلابد أن يكون محمد صادقا فى رسالته ، وأن يكون القرآن من عند الله ، وقد جاء بلسان عربى لينذر الذين ظلموا أنفسهم وهم مشركو مكة وهو بشرى لمن أحسن عملا .

والخلاصة — كيف يكون إفكا قديما وهو مصدق لكتاب موسى الذى تعترفون

بصدقه ، وهو بلسان عربى ، والتوراة بلسان عبرى ، فتصديق الأول للثانى دليل على اتحادهما صدقا — فبطل كونه إفكا قديما وثبت الصدق القديم .

و بعد أن ذكر طريق المبطلين أرشد إلى طريق المحقين وذكر جزاءهم فقال :

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى إن الذين قالوا ربنا الله ، لا إله غيره ، ثم استقاموا على تصديقهم بذلك ، ولم يخلطوه بشرك ولم يخالفوا الله فى أمر ولا نهى — فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله ، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم بعد مماتهم .

(أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) أى هؤلاء الذين قالوا هذا القول واستقاموا — هم أهل الجنة ماكثين فيها أبدا ثوابا منا لهم كفاء ماقدموا من صالح الأعمال فى الدنيا .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) .

تفسير المفردات

الإيصاء والوصية : بيان الطريق القويم لغيرك ليسلكه ، والإحسان : خلاف الإساءة ، والحسن : خلاف القبح ، والمراد أنه يفعل معهما فعلا ذا حسن ، والكره

(بالضم والفتح) كالضعف والضعف : المشقة ، وحمله : أى مدة حمله ، وفصاله : فطامه ؛ والمراد به الرضاع التام المنتهى بالفطام ، والأشد : استحكام القوة والعقل ، أوزعنى : أى رغبنى ووفقنى ، من أوزعته بكذا : أى جعلته مولعا به راغبا فى تحصيله ، والقبول : هو الرضا بالعمل والإثابة عليه ، فى أصحاب الجنة : أى منتظمين فى سلكهم كما تقول أكرمنى الأمير فى أصحابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى سابق الآيات توحيده سبحانه وإخلاص العبادة له والاستقامة فى العمل — أردف هذا الوصية بالوالدين ، وقد فعل هذا فى غير موضع من القرآن الكريم كقوله : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » وقوله : « أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ » .

روى أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر إذ أسلم والداه ولم يتفق ذلك لأحد من الصحابة ، فأبوه أبو قحافة عثمان بن عمرو ، وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو .

الإيضاح

(ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا) أى أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما ، والبر بهما فى حياتهما و بعد مماتهما ، وجعلنا البر بهما من أفضل الأعمال ، وعقوقهما من الكبائر ، والآيات والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

ثم ذكر سبب التوصية وخص الكلام بالأم لأنها أضعف وأولى بالرعاية ، وفضلها أعظم كما ورد فى صحيح الأحاديث ومن ثم كان لها ثلثا البر ؛ فقال :

(حملته أمه كرها ووضعته كرها) أى إنها قاست فى حمله مشقة وتعبا من وحم وغثيان وثقل إلى نحو أولئك مما ينال الحوامل ، وقاست فى وضعه مشقة من تعب الطلق وألم الوضع ، وكل هذا يستدعى البر بها واستحقاقها الكرامة وجميل الصحبة .

ثم بين سبحانه مدة حمله وفصاله فقال :

(وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) أى ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهرا تكابد الأمُّ فيها الآلام الجسمية والنفسية ، فتسهر الليالى ذوات العدد إذا مرض ، وتقوم بغذائه وتنظيفه وكل شئونه بلا ضجر ولا ملل ، وتحزن إذا اعتل جسمه أو ناله مكروه يؤثّر فى نموّه وحسن صحته .

وفى الآية إيماء إلى أن أقل الحمل ستة أشهر ، لأن أكثر مدة الإرضاع حولان كاملان لقوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ » فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر ، وبذلك يعرف أقل الحمل وأكثر الإرضاع .

وأول من استنبط هذا الحكم منها علىّ كرم الله وجهه ووافقه عليه عثمان وجمع من الصحابة رضى الله عنهم . روى محمد بن إسحاق صاحب السيرة عن مَعْمَر بن عبد الله الجهنى قال : تزوج منا رجل من امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان رضى الله عنه فذكر ذلك له ، فبعث إليها ، فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها ، فقالت لها : وما يبكيك ؟ فوالله ما التبس بى أحد من خلق الله تعالى غيره قط ، فيقضى الله فىّ ما شاء ، فلما أُتى بها عثمان أمر برجمها ، فبلغ ذلك عليا فأتاه فقال ماتصنع ؟ قال ولدت لتمام ستة أشهر وهل يكون ذلك ؟ فقال له علىّ : أما تقرأ القرآن ؟ قال بلى ، قال : أما سمعت الله عزوجل يقول (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) وقال : « حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » فلم تجده أبقى إلا ستة أشهر ، فقال عثمان : والله ما فطنت لهذا ، علىّ بالمرأة ، فوجدها قد فُرِغ منها ، قال معمر فوالله ماالغراب بالغراب ولاالبيضة بالبيضة بأشبه منه بأبيه ، فلما رآه أبوه قال : ابنى والله لا أشك فيه .

وعن ابن عباس أنه كان يقول : إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع

أحد وعشرون شهرا، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا، وإذا ولدت لستة أشهر فحولان كاملان لأن الله يقول: (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا).

(حتى إذا بلغ أشده) أى حتى إذا اكتهل واستوفى السن التى تستحكم فيها قوته وعقله وهى فيما بين الثلاثين والأربعين.

(وبلغ أربعين سنة) وهذا نهاية استحصاد العقل واستكماله، ومن ثم روى عن ابن عباس: من أتى عليه الأربعون ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار ولهذا قيل:

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يهوى حياء ولا سِتْر
فدعه فلا تَنْفَسْ عليه الذى مضى ... وإن جرّ أسباب الحياة له العمر

قال المفسرون: لم يبعث الله نبيا قط قبل الأربعين إلا ابنى الخالة «عيسى ويحيى»

(قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ) أى رب وفقنى لشكر نعمك التى غمرتنى بها فى دينى ودنياى، بما أتمتع به من سعة فى العيش، وصحة فى الجسم، وأمن ودعة، للإخلاص لك، واتباع أوامرك، وترك نواهيك، وأنعمت بها على والدىّ من تحننهما علىّ حين ربيانى صغيرا.

(وأن أعمل صالحا ترضاه) أى واجعل عملى وَفْق رضاك لأنال مثوبتك.

(وأصلح لى فى ذريتى) أى واجعل الصلاح ساريا فى ذريتى، متمكنا من نفوسهم، راسخا فى قلوبهم.

قال ابن عباس: أجاب الله دعاء أبى بكر فأعتق تسعة من المؤمنين منهم بلال وعامر بن فُهَيْرة، ولم يُرِد شيئا من الخير إلا أعانه عليه، ودعا فقال: أصلح لى فى ذريتى، فأجابه الله تعالى، فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعا، فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعا، وقد أدرك أبوه وولده عبد الرحمن، وولده أبو عتيق النبىَّ صلى الله عليه وسلم وآمنوا به، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.

(إنى تبت إليك وإنى من المسلمين) أى إنى تبت إليك من ذنوبى التى فرطت منى فى أيامى الخوالى ، وإنى من الخاضعين لك بالطاعة ، المستسلمين لأمرك ونهيك ، المنقادين لحكمك .

روى أبو داود فى سننه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُعلّمهم أن يقولوا فى التشهد : اللهم ألّف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، ونجّنا من الظلمات إلى النور ، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لنا فى أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا ، وأزواجنا وذرياتنا وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مُثْنِين بها عليك ، وأتمها علينا » .

ثم ذكر جزاء أصحاب هذه الأوصاف الجليلة فقال :

(وأولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة) أى هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم الذين يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا فى الدنيا من صالح الأعمال ، فيجازيهم به ، ويثيبهم عليه ، ويصفح عن سيئات أعمالهم التى فرطت منهم فى الدنيا لماماً ولم تكن عادة لهم ، بل جاءت بحافز من القوة الشهوانية ، أو القوة الغضبية ، فلا يعاقبهم عليها ، وهم منتظمون فى سلك أصحاب الجنة ، داخلون فى عدادهم .

ثم أكد الوعد السابق بقوله :

(وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) أى وعدهم الله الوعد الحق الذى لاشك فيه ، وأنه موفّ به .

وهذه الآية كما تنطبق على سعد بن أبى وقاص وعلى أبى بكر الصديق اللذين قيل فى كل منهما إن الآية نزلت فيه تنطبق على كل مؤمن ، فهو موصّى بوالديه ،

مأمور أن يشكر نعمة الله عليه وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا ، وأن يسعى فى إصلاح ذريته ، ويدعو الله أن يوفقه لعمل أهل الجنة .

وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى؟ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَاهَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) .

تفسير المفردات

أفٍّ : صوت يصدر من الإنسان حين تضجره ، أخرج : أى أبعث من القبر للحساب ، خلت القرون من قبلى : أى مضت ولم يخرج منها أحد ، يستغيثان الله : أى يقولان الغياث بالله منك ، يقال استغاث الله واستغاث بالله ، والمراد أنهما يستغيثان بالله من كفره ، إنكارا واستعظاما له ، حتى لجأ إلى الله فى دفعه كما يقال العياذ بالله من كذا ، ويلك : دعاء عليه بالثبور والهلاك ، ويراد به الحث على الفعل أو تركه إشعاراً بأن مرتكبه حقيق بأن يهلك ، فإذا سمع ذلك ارعوى عن غيه وترك ماهو فيه وأخذ بما ينجيه ، أساطير الأولين : أى أباطيلهم التى سطروها فى الكتب من غير أن يكون لها حقيقة ، حق عليهم القول : أى وجب عليهم قوله لإبليس « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ

وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » من الخاسرين : أى الذين ضيعوا نظرهم الشبيه برءوس الأموال باتباعهم همزات الشياطين ، والدرجات : المنازل واحدها درجة ، وهى المنزلة ، ويقال لها منزلة إذا اعتبرت صعودا ، ودرَكة إذا اعْتُبِرَت حدورا ، ومن ثم يقال درجات الجنة ، ودركات النار ، فالتعبير بالدرجات هنا على سبيل التغليب ، طيباتكم : أى شبابكم وقوتكم يقولون ذهب أطيباه أى شبابه وقوته ، الهون : أى الهوان والذل ، تفسقون : أى تخرجون من طاعة الله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه حال الداعين للوالدَين ، البررة بهما ، ثم ذكر ما أعد لهما من الفوز والنجاة فى الدار الآخرة — أعقب هذا بذكر حال الأشقياء العاقّين للوالدين ، المنكرين للبعث والحساب ، المحتجين بأن القرون الخوالى لم تبعث ، ثم رد الآباء عليهم بأن هذا اليوم حق لاشك فيه، ثم بإجابة الأبناء لهم بأن هذه أساطير الأولين وخرافاتهم، ثم ذكر أن أمثال هؤلاء ممن حق عليهم القول بأن مصيرهم إلى النار .

ثم أردف هذا أن لكل من البررة والكفرة منازل عند ربهم كِفاء ما قدموا من عمل وسيُجْزَوْن عليها الجزاء الأوفى ، ثم أخبر بأنه يقال للكفار حين عرضهم على النار: أنتم قد تمتعتم فى الحياة الدنيا ، واستكبرتم عن اتباع الحق ، وتعاطيتم الفسوق والمعاصى ، فجازاكم الله بالإهانة والخزى والآلام الموجبة للحسرات المتتابعة فى دركات النار .

الإيضاح

(والذى قال لوالديه أفّ لكما ، أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ؟) أى والذى قال لوالديه أن دعواه إلى الإيمان والإقرار ببعث الله خلقَه من

قبورهم ومجازاته إياهم بأعمالهم : أفّ لكما : إنى لضجر منكما ، أتقولان إنى أُبْعَث من قبرى حيا بعد موتى وفنائى ، وما لحقنى من بِلى وتفتت عظام ؟ إن هذا لعجب عاجب فهاهى ذى قرون مضت ، وأمم قد خلت من قبلى كعاد وثمود ولم يبعث منهم أحد ، ولو كنت مبعوثا بعد وفاتى كما تقولان لبُعث من قبلى من القرون الغابرة ؛ ألا ترى إلى قول من قال :

ما جاءنا أحد يخبّر أنه　　فى جنة لمَّا مضى أو نار

وزعم مَرْوان بن الحكم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد ردت عليه عائشة رضى الله عنها. أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال : إنى لفى المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله قد رأى لأمير المؤمنين (يعنى معاوية) فى يزيد رأيا حسنا أن يستخلفه ، فقد استخلف أبو بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : سنةَ هِرَقْل وقيصر[1] إن أبا بكر رضى الله عنه ما جعلها فى أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ، ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده ، فقال مروان : ألستَ « الَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا » فقال عبد الرحمن : ألستَ ابن اللعين الذى لعن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أباك ، فسمعت عائشة فقالت لمروان : أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ، كذبتَ والله مافيه نزلت ، نزلت فى فلان بن فلان .

والحق أن الآية لم ترد فى شخص معين ، بل المراد كل شخص يقول أمثال هذه المقالة فيدعوه أبواه إلى الإيمان بالبعث وإلى الدين الصحيح فيأبى وينكر .

(وهما يستغيثان الله ويلك آمن إنّ وعد الله حق) أى ووالداه يستصرخان الله عليه ، ويستغيثانه أن يوفقه إلى الإيمان بالبعث ، ويقولان له حثا وتحريضا : هلاكا لك، صدِّق بوعد الله ، وأنك مبعوث بعد وفاتك ، إن وعد الله الذى وعده خلقه أنه باعثهم من قبورهم ومخرجهم منها إلى موقف الحساب لمجازاتهم حق لاشك فيه .

(١) يريد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم ، وهرقل : اسم ملك الروم .

والخلاصة — إنهما يستعظمان قوله ، ويلجآن إلى الله فى دفعه ، ويدعوان عليه بالويل والثبور ، ليستحثاه على ترك ماهو فيه ، ويشعراه بأن ما يرتكبه جدير بأن يُهلِك فاعله .

ثم ذكر ردّه عليهما مع الاستهزاء بهما والتعجيب من حالهما .

(فيقول : ماهذا إلا أساطير الأولين) أى فيقول مجيبا والديه ، رادّا عليهما نصحهما ، مكذبا بوعد الله : ماهذا الذى تقولان لى ، وتدعوان إليه ، إلا ما سطره الأولون من الأباطيل ، فأصبتماه أنتما وصدقتما به ، ولا ظلّ له من الحقيقة .

ثم ذكر سبحانه جزاء هؤلاء على ما قالوا واعتقدوا فقال :

(أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس) أى هؤلاء الذين هذه أوصافهم هم الذين وجب عليهم عذاب الله ، وحلت عليهم عقوبته وسخطه ، فيمن حل به العذاب من الأمم الذين قد مَضَوْا من قبلهم من الجن والإنس ممن كذّبوا الرسل ، وعَتَوْا عن أمر ربهم .

وفى الآية إيماء إلى أن الجن يموتون قرنا بعد قرن كالإنس . قال أبو حيان فى البحر : قال الحسن البصرى فى بعض مجالسه : الجن لايموتون ، فاعترضه قتادة بالآية فسكت .

وفيها ردّ أيضا على من قال : إنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، لأنه رضى الله عنه أسلم وجُبّ عنه ما قبل وكان من أفاضل الصحابة ، أما من حق عليه القول فهو مَن علم الله تعالى أنه لايُسْلِم أبدا .

ثم ذكر العلة فى هذا العذاب المهين فقال :

(إنهم كانوا خاسرين) لأنهم ضيعوا فِطَرهم التى فطرهم الله عليها واتبعوا الشيطان ، فغُبِنوا ببيعهم الهدى بالضلال ، والنعيم بالعذاب .

ثم ذكر أن لكل من الفريقين الذين قالوا ربنا الله ، والذى قال لوالديه مراتب متفاوتة فقال :

(ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لايظلمون) أى ولكل من الأبرار والفجار من الإنس والجن مراتب عند الله يوم القيامة بحسب أعمالهم من خير أو شر فى الدنيا ، وليوفيهم أجور أعمالهم ، المحسن منهم بإحسانه ، والمسىء منهم بإساءته ، وهم لا يظلمون شيئا ، فلا يعاقب المسىء إلا بعقوبة ذنبه ، ولا يحمل عليه ذنب غيره ، ولا يبخس المحسن منهم ثواب إحسانه .

وبعد أن بين سبحانه أنه يعطى كل ذى حق حقه — بين الأهوال التى يلاقيها الكافرون فقال :

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) أى واذكر لقومك حال الذين كفروا حين يعذبون فى النار ، ويقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ : إن كل ما قدر لكم من اللذات والنعيم قد استوفيتموه فى الدنيا ونلتموه ولم يبق لكم منه شىء ، ولكن بقيت لكم الإهانة والخزى جزاء استكباركم وفسوقكم عن أمر ربكم وخروجكم من طاعته .

وفى هذا تحريض على التقلل من زخرف الدنيا وزينتها والأخذ بالتقشف فيها .

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم والبيهقى عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنه رأى فى يد جابر بن عبد الله رضى الله عنه درهما فقال ماهذا الدرهم ؟ قال أريد أن أشترى به لأهلى لحما قَرِموا إليه ، فقال : أكلما اشتهيتم شيئا اشتريتموه ؟ أين تذهب عنكم هذه الآية: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا»

وروى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لأنا أعلم بخفض العيش ، ولو شئت لجعلت أكبادا وصِلاء[1] وصِنابا وصلائق ولكنى

---

(١) الصلاء . الشواء بالمد والكسر ، والصناب : صباغ (سلطة) يتخذ من الخردل والزبيب ، والصلائق : الحملان المشوية .

أستبق حسناتى ، فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

وأخرج أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان عن ثَوْبان رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر كان آخر عهده من أهله بفاطمة ، وأول من يدخل عليه منهم فاطمة رضى الله عنها ، فقدم من غزاة فأتاها فإذا بِمِسْح (بكسر فسكون ، وهو ثوب من شعر غليظ) على بابها ، ورأى على الحسن والحسين قُلْبَيْنِ (مثنى قلب بضم فسكون: السوار) من فضة فرجع ولم يدخل عليها ، فلما رأت ذلك ظنت أنه لم يدخل من أجل ما رأى ، فهتكت الستر ونزعت القُلبين من الصبيّين فقطعتهما فبكيا ، فقسمت ذلك بينهما ، فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يبكيان ، فأخذ ذلك رسول الله منهما ، وقال ياثو بان اذهب بهذا إلى بنى فلان (أهل بيت بالمدينة) واشتر لفاطمة قلادة من عَصْب (بفتح فسكون خرز أبيض) وسوارين من عاج ، فإن هؤلاء أهل بيتى : ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا » .

وقد كان السلف الصالح يؤثرون التقشف والزهد فى الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم فى الآخرة أكمل ، لا أن التمتع بزخارف الدنيا مما يمتنع ، بدليل قوله تعالى « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

نعم إن الاحتراز عن التنعم أولى ، لأن النفس إذا اعتادت ذلك وألفته صعب عليها تركه والاكتفاء بما دونه ، ولله درّ البوصيرى إذ يقول :

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : أن على المرء أن يأكل ما وجد ، طيبا كان أو قَفَارا (الطعام بلا أُدْم) ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها

ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر ، ولا يعتمده أصلا ، ولا يجعله دَيْدَنًا له .

قصص هود عليه السلام مع قومه عاد

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ، فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) .

تفسير المفردات

أخا عاد : هو هود عليه السلام ، والأحقاف : واحدها حقف (بالكسر والسكون) وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، سمى به وادٍ بين عمّان ومَهْرَة كانت تسكنه عاد ، وكانوا أهل عمل ، سيارة فى الربيع ، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وهم من قبيلة إرَم ، والنذر : واحدهم نذير أى منذر ، من بين يديه : أى من قبله ، ومن خلفه : أى من بعده ، لتأفكنا : أى لتصرفنا ، عن آلهتنا : أى عن عبادتها ، بما تعدنا : أى من معاجلة العذاب على الشرك : إنما العلم عند الله ، أى العلم بوقت نزوله عند الله ، والعارض : السحاب الذى يعرض فى أفق السماء قال الأعشى :

يامن رأى عارضا قد بِتُّ أرمقه كأنما البرق فى حافاته الشُّعَل

مستقبل أوديتهم : أى متجها إليها ، تُدَمِّر : أى تهلك ، حاق : أى نزل ، صرفنا : أى بيّنّا ونوّعنا ، الآيات : الحجج والعبر ، فلولا : أى فهلا ، نصرهم : أى منعهم ، قربانا : أى متقربا بها إلى الله ، ضلوا عنهم : أى غابوا عنهم ، إفكهم : أى أثر إفكهم وصرفهم عن الحق ، وما كانوا يفترون أى وأثر افترائهم وكذبهم .

المعنى الجملى

بعد أن أورد سبحانه الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة التى أعرض عنها أهل مكة ولم يلتفتوا إليها ولم تُجْدِهِم فتيلا ولا قِطميرا ، لاستغراقهم فى الدنيا واشتغالهم بطلبها — أردف هذا ذكر قصص عاد وما حدث منهم مع نبيهم هود عليه السلام وضرب لهم به المثل ليعتبروا فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا، ويقبلوا على طاعة الله ، فقد كانوا أكثر منهم أموالا وأقوى منهم جندا ، فسلط الله عليهم العذاب بسبب كفرهم ، ولم يغن عنهم مالهم من الله شيئا .

الايضاح

(واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى واذكر أيها الرسول لقومك المكذبين ماجئتهم به من الحق - هودا أخا عاد ، فقد كذبه قومه بالأحقاف حين أنذرهم بأس الله وشديد عذابه ، وقد مضت رسل من قبله ومن بعده منذرة أممها ألا تشركوا مع الله شيئا فى عبادتكم إياه ، بل أخلصوا له العبادة ، وأفردوا له الألوهة ، وقد كانوا أهل أوثان يعبدونها من دون الله ، فقال لهم ناصحا : إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول «يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مالٌ وَلاَ بَنُونَ إلاّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

وحين نصحهم بذلك أجابوه :

(قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) أى قال قومه له : أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعونا إليه ، وإلى اتباعك فيما تقول ؟ هلمّ فهات ماتعدنا به من العذاب على عبادة مانعبد من الآلهة إن كنت صادقا فى قولك وعِدَتِك .

والخلاصة — أتزيلنا بضروب من الكذب عن آلهتنا وعبادتها ؟ فأتنا بما تعدنا من معالجة العذاب على الشرك إن كنت صادقا فى وعيدك ، وقد استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادا منهم لوقوعه كما قال تعالى . « يَسْتَعْجِلُ بِها الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بها » .

فردّ هود عليهم مقالهم :

(قال إنما العلم عند الله) أى قال : إنما العلم بوقت نزوله عند الله وحده لا عندى ، فلا أستطيع تعجيله ولا أقدر عليه ، ثم بين وظيفته فقال :

(وأبلغكم ما أرسلت به إليكم) من ربكم من الإنذار والإعذار ، لا أن آتى بالعذاب ، فليس ذلك من مقدورى ، بل هو من مقدورات ربى .

ثم بين لهم أنهم جاهلون بوظيفة الرسل فقال :

(ولـكنى أراكم قوما تجهلون) أى وإنى لأعتقد فيكم الجهل ، ومن ثم بقيتم مصرّين على كفركم ، ولم تهتدوا بما جئتكم به ، بل اقترحتم علىّ ماليس من شأن الرسل ، وهو الإتيان بالعذاب .

ثم ذكر مجىء العذاب إليهم وانتقامه منهم واستئصال شأفتهم فقال :

(فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هـذا عارض ممطرنا) أى فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ، فرأوْا سحابا يعرض فى أفق السماء متجها إلى أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، ظنا منهم أن غيثا قد أتاهم وفيه حياتهم .

روى أنه قد حبس عنهم المطر أياما، فساق الله إليهم سحابة سوداء، فخرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له المغِيِّث ، فلما رأوها تستقبل أوديتهم استبشروا بها خيرا .

ولمـا سمع هود مقالهم وشام العارض مليا قال :

(بل هو ما استعجلتم به) من العذاب إذ قلتم « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

ثم فسر هذا العارض وبين حقيقته فقال :

(ريح فيها عذاب أليم) أى بل هو ريح فيها عذاب يهلـكـكم ويجعلـكم كأمس الدابر .

ثم وصف هذه الريح فقال :

(تدمر كل شىء بأمر ربها) أى تهلك كل شىء مرت به من نفوس عاد وأموالها بإذن ربها .

ونحو الآية قوله تعالى : « ما تَذَرُ مِنْ شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ » أى كالشىء البالى الخلَق .

ثم ذكر مآل أمرهم بعدها فقال :

(فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) أى فجاءتهم الريح فدمرتهم ، فصاروا بعد الهلاك لا يرى إلا آثار مساكنهم، إذ قد اجتاحت الأموال، وأذهبت الأنفس، وجعلتها أثرا بعد عين .

روى عن ابن عباس : أن أول ماعرفوا أنه عذاب أليم أنهم رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلّقوا أبوابهم ، فقلعتها الريح وصرعتهم : وأحال الله عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام ، ثم كشفت الريح عنهم الرمال فاحتملتهم فطرحتهم فى البحر .

أخرج مسلم والترمذى والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال : اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلتْ به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ، فإذا أخْيلتِ السماء تغّير لونه صلى الله عليه وسلم وخرج ودخل ، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرّى عنه ، فسألته ؛ فقال عليه السلام لا أدرى لعلّه كما قال قوم عاد (هذا عارض ممطرنا)» .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : « ما رأيت رسول الله مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته[1] وإنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيما وريحا عُرف ذلك فى وجهه ، قلت يارسول الله: الناس إذا رأَوُا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف فى وجهك الكراهية ، قال : ياعائشة وما يؤمِّننى أن يكون فيه عذاب ، عذِّب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا » .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « نُصِرْتُ بالصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ[2] » .

---

(١) واحدها لهاة : وهى اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم .
(٢) الصبا : ريح الشمال ، والدبور : ريح الجنوب .

قال شاعرهم يحكى هذا القصص فيما رواه ابن الكلبي :

فدعا هود عليهم دعوةً أضحَوْا هُمُودا

عصفت ريح عليهم تركت عاداً خمودا

سُخِّرت سبع ليال لم تدَع فى الأرض عودا

(كذلك نجزى القوم المجرمين) أى كما جازينا عاداً بكفرهم بالله ذلك العقاب فى الدنيا ، فأهلكناهم بعذابنا ، كذلك نجزى كل مجرم كافر بالله متماد فى غيّه .

ولا يخفى مافى هذا من التهديد والوعيد الشديد .

ثم أخبر سبحانه عن قوة عاد بقوله :

(ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) أى ولقد مكنا عادا الذين أهلكناهم بكفرهم فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا ، وأعطيناهم منها مالم نعطكم مثله ولا قريبا منه ، من الأموال الكثيرة ، و بسطة الأجسام ، وقوة الأبدان — وهم على ذلك ما نجَوْا من عقاب الله ، فتدبروا أمركم ، وفكروا فيما تعملون قبل أن يحل بكم العذاب ، ولا تجدون منه مهربا .

ونحو الآية قوله « كانوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ » .

(وجعلنا لهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء) أى إنا فتحنا عليهم أبواب نعمنا ، فأعطيناهم سمعا فما استعملوه فى سماع الأدلة والحجج ليعتبروا و يتذكروا ، وأعطيناهم أبصارا ليروا ما نصبناه من الشواهد الدالة على وجودنا فما انتفعوا بها ، وأعطيناهم قلوبا تفقه حكمة الله فى خلق الأكوان فما استفادوا منها مايفيدهم فى آخرتهم و يقرّبهم من جوار ربهم ، بل صرفوها فى طلب الدنيا ولذاتها ، لاجرم لم ينفعهم ما أعطيناهم من السمع والأبصار والأفئدة ، إذ لم يستعملوها فيما خلقت له من شكر من أنعم بها ودوام عبادته .

ثم بين العلة فى عدم إغناء ذلك عنهم فقال :

(إذ كانوا يجحدون بآيات الله) أى لأنهم كانوا يكذبون رسل الله ، وينكرون معجزاتهم .

(وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى ونزل بهم ما سَخِروا به فاستعجلوه من العذاب .

وفى هذا تخويف لأهل مكة حتى يحذروا من عذاب الله ، ويخافوا عقابه ، فإنّ عادا لما اغتروا بدنياهم ، وأعرضوا عن قول الحق — نزل بهم العذاب ، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم شيئا — فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى .

ولما أخبر بهلاكهم على مالهَم من المُكْنَة العظيمة ، ليتعظ بهم من سمع أمرهم ، أتبعه بذكر من كان مشاركا لهم فى التكذيب ، فأدركه سوء العذاب كما أدركهم فقال :

(ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى) أى ولقد أهلكنا يا أهل مكة ماحول قريتكم من القرى المكذبة للرسل كعاد ، وقد كانوا بالأحقاف بحضرموت ، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وسبإ باليمن ، ومدين ، وكانت فى طريقهم فى رحلاتهم صيفا وشتاء ، بعد أن أنذرناهم بالمَثُلات ، فلم يغن ذلك عنهم شيئا فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر .

(وصرّفنا الآيات لعلهم يرجعون) أى وبيّنا لهم دلائل قدرتنا ، وبديع حججنا ليرجعوا عن غيّهم الذى استمسكوا به لمحض التقليد ، أو لشبهة عرضت لهم ، فحلّ بهم سوء العذاب ولم يجدوا لهم نصيرا ولا دافعا لعذاب الله ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم) أى فهلا نصرهم أوثانهم وآلهتهم التى اتخذوا عبادتهم قربانا يتقربون به إلى ربهم فيما زعموا ، حين جاءهم بأسه فأنقذوهم من عذابه إن كانوا يشفعون عنده ، لكنهم غابوا عنهم ولم يفيدوهم شيئا .

وفى هذا تقريع لأهل مكة وتأنيب لهم على أنه لو كانت آلهتهم التى يعبدونها من دون الله تغنى عنهم شيئا ، أو تنفعهم عنده — لأغنت عمن كان قبلهم من الأمم الذين أهلكوا بعبادتهم لها ، فدفعت عنهم العذاب إذ نزل بهم ، أو لشفعت لهم عند ربهم ، لكنها أضرّتهم ولم تنفعهم ، وغابت عنهم أحوج ما كانوا إليها ، فما أحراهم أن يتنبهوا لما هم فيه من خَطَل الرأى وسوء التقدير للأمور .

(وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) أى وامتناع نصرة آلهتهم لهم وضلالهم عنهم — أثر من آثار إفكهم الذى هو اتخاذهم إياهم آلهة ، وثمرة افترائهم على الله الكذب .

استماع الجن للقرآن

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) .

تفسير المفردات

صرفنا : أى وجهنا ، والنفر : ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال ، سموا بذلك : لأنهم ينفِرون إذا حَزَبَهم أمر لكفايته ، أنصتوا : أى اسكتوا ، قضى : أى فرغ

من تلاوته، ولّوا : أى رجعوا ، منذرين : أى مخوّفين لهم عواقب الضلال . روى أن هؤلاء الجن كانوا من جِن نَصِيبِين من ديار بكر قريبة من الشام ، أو من نِينَوَى بالموصل ، وكان الاجتماع بوادى نخلة على نحو ليلة من مكة ، وقد أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجن و يدعوهم إلى الله تعالى و يقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفراً منهم فاستمعوا منه ، حتى إذا انقضى من تلاوته رجعوا إلى قومهم منذريهم عقاب الله إذا هم استمروا على الضلال . أجاره من كذا : أنقذه منه ، وداعى الله : هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فليس بمعجز فى الأرض : أى لا يَنْجُو منه هارب ، ولا يسبق قضاءه سابق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن فى الإنس من آمن ومنهم من كفر — أعقب هذا ببيان أن الجن كذلك، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ؛ وأن مؤمنهم معرّض للثواب، وكافرهم معرض للعقاب ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام كما أرسل إلى الإنس أرسل إلى الجن .

واعلم أن عالَمَ الملائكة وعالَمَ الجن لايقوم عليهما دليل من العقل ؛ فهما بمعزل عن ذلك ، و إنما دليلهما السمع و إخبار الأنبياء بذلك فقط ، فعلينا أن نؤمن بما جاء به فَحَسْبُ ولا نزيد على ذلك شيئا، ولا نتوسع فى بحثه وتأويله وتفصيله ، فإن ذلك من عالَمَ الغيب الذى لم نؤت من علمه كثيرا ولا قليلا ، فعلينا أن نؤمن بأن اتصالا قد تمّ بين النبى صلى الله عليه وسلم وعالَمَ الملائكة ، و به تَلَقَّى الوحى على أيديهم ، وأنه اتصل بعالَمَ الجن ، فعلّمهم وبشرهم وأنذرهم ، لكنا لاندرى كيف كان الاتصال ولا كيف تلقَّوْا عنه القرآن ، ولعل تقدم العلوم فى مستأنف الأيام يلقى علينا ضوءا من هذه المعرفة ، أو لعل قراءة علم الروح والتوسع فى دراسته ينير لنا بعض السر فى ذلك؛ ففى هذه الدراسة معرفة شىء من أحوالنا فى الحياة الأخرى بعد هذه الحياة . وسيأتى تفصيل لهذا القصص فى سورة الجن

الإيضاح

(و إذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين) أى واذكر أيها الرسول لقومك موبخا لهم على كفرهم بما آمنت به الجن ، لعلهم يتنبهون لجهلهم ، و يرعوون عن غيّهم وقبح ما هم فيه من كفر بالقرآن و إعراض عنه ، مع أنهم أهل اللسان الذى به نزل ، ومن جنس الرسول الذى جاء به ، وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عند الله وآمنوا به ، وليسوا من أهل لسانه ، ولا من جنس رسوله — فى ذلك الوقت الذى وجه الله إليه جماعة من الجن، ليستمعوا القرآن و يتعظوا بما فيه من عِبَر وعظات ، فلما حضروا الرسول قال بعضهم لبعض : أنصتوا مستمعين ، فلما فرغ من تلاوته رجعوا إلى قومهم لينذروهم بأس الله وشديد عذابه .

وذكر الوقت ذكرٌ لما فيه من الأحداث التى يراد إخبار السامع بها ، لما لها من خطر جليل وشأن عظيم ، فيراد علمه بها ليكون لها فى نفسه الأثر الذى يقصد منها من ترغيب أو ترهيب، ومسرة أو حزن إلى نحو أولئك من أغراض الكلام ومقاصده .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : سألت ابن مسعود من آذن النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن ، قال آذنته بهم الشجرة .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذى عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : هل صحب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم منكم أحد ليلة الجن ؟ قال ما صحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه ذات ليلة فقلنا اغتيل .استُطير . مافعل ؟ قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان فى وجه الصبح إذا نحن به يجىء من قِبَل حراء فأخبرناه فقال : إنه أتانى داعى الجنّ فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ، فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم .

وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هـذا وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة بعد مرة ، وأخذت عنه الشرائع والأحكام الدينية .

ثم فصل ما قالوه لهم فى إنذارهم .

(قالوا : ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق و إلى طريق مستقيم) أى قالوا لهم ياقومنا من الجن : إنا سمعنا كتابا أنزله الله من بعد توراة موسى ، يصدق ما قبله من كتب الله التى أنزلها على رسله ، ويرشد إلى سبيل الحق ، و إلى مافيه لله رضا ، و إلى الطريق الذى لاعوج فيه .

وخصوا التوراة بالذكر لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين . وقال عطاء لأنهم كانوا على اليهودية ، وهذا يحتاج إلى نقل صحيح .

(ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم) أى ياقومنا أجيبوا رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى مايدعوكم إليه من طاعة الله ، وصدقوه فيما جاء به من أمر الله ونهيه — يغفر لكم بعض ذنوبكم ويسترها لكم ولا يفضحكم بها فى الآخرة بعقوبته لكم عليها ، وينقذكم من عذاب موجع ، إذا أنتم تبتم من ذنوبكم وأنبتم إلى ربكم ، وأخلصتم له العبادة .

وفى الآية إيماء إلى أن حكم الجن حكم الإنس فى الثواب والعقاب والتعبد بالأوامر والنواهى .

ثم حذروا قومهم وتوعدوهم وأوجبوا إجابتهم داعىَ الله بطريق الترهيب إثر إيجابها بطريق الترغيب فقالوا :

(ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء) أى ومن لا يجب رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى مادعا إليه من التوحيد والعمل بطاعته ، فلا يفوت ربه ولا يسبقه هربا إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيَه ، ولا يجد له نصراء ينصرونه ويدفعون عنه عذابه .

ثم بيّن أن من فعل ذلك فقد بلغ الغاية فى الضلال ، والبعد عن الصراط السوىّ فقال :

(أولئك فى ضلال مبين) أى وأولئك الذين يفعلون ذلك يكونون فى ضلال بيّن ، وجور عن قصد السبيل ، لأن طريق الحق واضحة وأعلامه منصوبة ، والوصول إليه ميسور ، فمن جانفه وأعرض عنه فقد أجرم واستحق الجزاء الذى هو له أهل .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ ، فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥).

تفسير المفردات

لم يعى : أى لم يعجز ، قال الكسائى : يقال أعييت من التعب ، وعييت من انقطاع الحيلة والعجز ، قال عَبيد بن الأبرص :

عَيُّوا بأمرهمُ كما عيَّتْ ببيضتها الحمامهْ

أولو العزم : أى ذوو الحزم والصبر ، قال مجاهد : هم خمسة نظمهم الشاعر فى قوله :

أولو العزم نوحٌ والخليل الممجّدُ وموسى وعيسى والحبيبُ محمدٌ

بلاغ : أى كفاية فى الموعظة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى أول السورة ما يدل على وجود الإله القادر الحكيم ، وأبطل قول عبدة الأصنام ، ثم ثنى بإثبات النبوة وذكر شبهاتهم فى الطعن فيها وأجاب عنها — أردف ذلك إثبات البعث وأقام الدليل عليه ، فذكر أن من خلق السموات والأرض على عظمهن فهو قادر على أن يحيى الموتى ، ثم أعقب هذا بما يجرى مجرى العظة والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه كما صبر من قبله أولو العزم من الرسل ، و بعدم استعجال العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لا محالة و إن تأخر ، وحين نزوله بهم سيستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار لهول ما عاينوا ، ثم ختم السورة بأن فى هذه العظات كفاية أيما كفاية ، وما يهلك إلا من خرج عن طاعة ربه ، ولم ينقد لأمره ونهيه .

الايضاح

(أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ؟) أى أولم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الخلق بعد وفاتهم ، و بعثه إياهم من قبورهم بعد بلاهم ، فيعلموا أن الذى خلق السموات السبع والأرض فابتدعهن من غير شىء ، ولم يعى فى إنشائهن — بقادر على أن يحيى الموتى فيخرجهم من بعد بلاهم فى قبورهم أحياء كهيئتهم قبل وفاتهم ؟ .

ونحو الآية قوله عز وجل : « لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ » .

والخلاصة — إن من قال للسموات والأرض كونى فكانت لا ممانعة ولا مخالفة ، طائعة خائفة وجلة — أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟

ثم أجاب عن ذلك مقرِّراً للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود فقال :

(بلى إنه على كل شيء قدير) أى بلى إن الذى خلق ذلك — ذو قدرة على كل شيء أراد خلقه ، ولا يُعْجِزه شيء أراد فعله .

وقد أجاب سبحانه عن هذا السؤال ؛ لوضوح الجواب إذ لايختلف فيه أحد ، ولا يعارض فيه ذو لبّ .

ولما أثبت البعث بما أقام من الأدلة ذكر ما يحدث حينئذ من الأهوال فقال :

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق ؟ قالوا بلى وربنا) أى ويوم يعرض هؤلاء المكذبون بالبعث وبثواب الله لعباده على أعمالهم الصالحة ، وعقابه إياهم على أعمالهم السيئة — على نار جهنم يقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ : أليس هذا العذاب الذى تعذّبونه اليوم وقد كنتم تكذبون به فى الدنيا — بالحق الذى لاشك فيه ؟ قالوا من فَوْرِهم : بلى وربنا إنه لحق.

(قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى قال آمرا لهم على طريق الإهانة والتوبيخ : ذوقوا عذاب النار الآن جزاء جحودكم به فى الدنيا ، وإبائكم الاعترافَ به إذا دُعيتم للتصديق به .

ولما قرر التوحيد والنبوة والبعث وأجاب عن شبهاتهم — أردف ذلك مايجرى مجرى العظة والنصيحة لنبيّه ، لأن الكفار كانوا يؤذونه ويوغرون صدره فقال :

(فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) أى فاصبر أيها الرسول على ما أصابك فى الله من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم منذراً ، كما صبر أولو العزم من الرسل على القيام بأمر الله والانتهاء إلى طاعته .

والخلاصة — اصبر على الدعوة إلى الحق ومكابدة الشدائد كما صبر إخوانك الرسل من قبلك .

وعن عائشة قالت : ظلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صائما ثم طوى ، ثم ظلّ صائما ثم طوى ، ثم ظل صائما قال ياعائشة : « إن الدنيا لاتنبغى لمحمد ولا لآل محمد ،

ياعائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها، والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم فقال : « اصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » وإنى والله لأصبرنّ كما صبروا جَهدى ولا قوة إلا بالله » أخرجه ابن أبى حاتم والدّيلمى.

ولما أمره بالصبر، وهو أعلى الفضائل، نهاه عن العجلة وهى أخسّ الرذائل فقال :

(ولا تستعجل لهم) أى ولا تعجل بمسألة ربك العذابَ لهم ، فإنه نازل بهم لا محالة .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً » وقوله : « فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا » .

ثم أخبر بأن العذاب إذا نزل بالكافرين استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار فقال :

(كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) أى كأنهم حين يرون عذاب الله الذى أوعدهم بأنه نازل بهم — لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار — لأن شدة ماينزل بهم منه ينسيهم قدر ما مكثوا فى الدنيا من السنين والأعوام ، فيظنونها ساعة من نهار .

ونحو الآية قوله : « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ » وقوله : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » .

(بلاغ) أى هذا القرآن بلاغ لهم ، وكفاية إن فكروا واعتبروا ، ودليله قوله تعالى : « هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ » وقوله : « إِنَّ فِى هٰذَا لَبَلاَغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ » .

ثم أوعد وأنذر فقال :

(فهل يهلك إلا القوم الفاسقون؟) أى وما يَهلِك بالعذاب إلا الخارجون عن طاعة الله ، المخالفون لأمره ونهيه ؛ إذ لا يعذب إلا من يستحق العذاب .

قال قتادة : لا يهلك على الله إلا هالك مشرك ، وهذه الآية أقوى آية فى الرجاء ومن ثم قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون ، وهذا تطميع فى سعة فضل الله سبحانه وتعالى .

أخرج الطبرانى فى الدعاء عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو : « اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل برّ ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، اللهم لاتدع لى ذنباً إلا غفرته ولا همًّا إلا فرّجته ، ولا ديناً إلا قضيته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين » .

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

(١) إقامة الأدلة على التوحيد والرد على عبدة الأصنام والأوثان .

(٢) المعارضات التى ابتدعها المشركون للنبوة والإجابة عنها وبيان فسادها .

(٣) ذكر حال أهل الاستقامة الذين وحدوا الله وصدقوا أنبياءه ، وبيان أن جزاءهم الجنة .

(٤) ذكر وصايا للمؤمنين من إكرام الوالدين وعمل ما يرضى الله .

(٥) بيان حال من انهمكوا فى الدنيا ولذاتها .

(٦) قصص عاد، وفيه بيان أن صرف النعم فى غير وجهها يورث الهلاك .

(٧) استماع الجن للرسول صلى الله عليه وسلم وتبليغهم قومهم ما سمعوه .

(٨) عظة للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أمته .

(٩) بيان أن القرآن فيه البلاغ والكفاية فى الإنذار .

(١٠) من عدل الله ورحمته ألا يعذب إلا من خرج من طاعته ولم يعمل بأمره ونهيه .

سورة محمد صلى الله عليه سلم

وتسمى سورة القتال

هى مدنية إلا آية ١٣ فقد نزلت فى الطريق أثناء الهجرة .

وآيها ثمان وثلاثون آية . نزلت بعد الحديد .

ولا تخفى قوة ارتباطها بما قبلها ، فإن أولها متلاحم بآخر السورة السابقة ، حتى لو أسقطت البسملة من البين لكان الكلام متصلا بسابقه لاتنافر فيه ، ولكان بعضه آخذا بحُجَز بعض .

أخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها فى صلاة المغرب .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) .

تفسير المفردات

صدوا عن سبيل الله : أى صرفوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وذلك يستلزم أنهم منعوا أنفسهم عن الدخول فيه ، أضل أعمالهم : أى أبطلها ، وهو الحق من ربهم :

أى وهو الحق الثابت الذى لامِرْيَة فيه ، بالَهُمْ : أى حالهم فى الدين والدنيا بالتوفيق لصالح الأعمال ، وأصل البال : الحال التى يكترث بها ، ولذلك يقال ما باليت به : أى ما اكترثت به ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «كل أمرذى بال» الحديث . يضرب الله للناس أمثالهم : أى يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه فى معادهم .

المعنى الجملى

قسم سبحانه الناس فريقين : أهل الكفر الذين صدوا الناس عن سبيل الله ، وهؤلاء يبطل أعمالهم سواء كانت حسنة كصلة الأرحام وإطعام الطعام ، أو سيئة كالكيد لرسول الله والصدّ عن سبيل الله ، فالأولى يبطل ثوابها ، والثانية يمحو أثرها ، وهكذا كل من قاوم عملا شريفا فإن مآله الخذلان .

وأهل الإيمان بالله ورسوله الذين أصلحوا أعمالهم ، وأولئك يغفر الله لهم سيئات أعمالهم ويوفقهم فى الدين والدنيا ، كما أضاع أعمال الكافرين ولم يُثِبْ عليها .

ثم علل ما سلف بأن أعمال الفريقين جرت على ماسنه الله فى الخليقة : بأن الحق منصور ، وأن الباطل مخذول سواء كان فى أمور الدين أم فى أمور الدنيا ، فالصناعات المحكمة إنما يقبل الناس عليها ويؤثرونها ، لأنها جارية على الطريق القويم والنسق الحق ، وهكذا الشأن فى المزروعات والمصنوعات المتقنة الجيدة ، والسياسات الحكيمة .

والصناعات المرذولة والسلع المزجاة لن يكون حظها إلا الكساد والبوار ، لأن الباطل لاثبات له ، والحق هو الثابت ، والله هو الحق فينصر الحق ، والعلم الصحيح والدين الصحيح والصناعات الجيدة والآراء الصادقة نتائجها السعادة ، وضدها عاقبته الشقاء والبوار .

وقصارى ذلك — إن الله سبحانه خلق السموات والأرض بالحق وعلى قوانين ثابتة منظمة ، فكل ماقرب من الحق كان باقيا ، وكل ما ابتعد عنه كان هالكا ، فرجال الجدّ والنشاط مؤيدون ، ورجال الكسل والتواكل مخذولون ، والمحققون فى كل شىء محبوبون منصورون .

الايضاح

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) أى الذين جحدوا توحيد الله ، وعبدوا غيره ، وصدوا من أراد عبادته والإقرار بوحدانيته وتصديق نبيّه عما أراد — جعل الله أعمالهم تسير على غير هدى ، لأنها عملت فى سبيل الشيطان لا فى سبيل الرحمن ، وما عمل للشيطان فمآله الخسران .

فما عملوه فى الكفر مما كانوا يسمونه مكارم أخلاق : من صلة الأرحام وفك الأسارى وإطعام الطعام وعمارة المسجد الحرام وإجارة المستجير وقرى الأضياف ونحو ذلك — حكم الله ببطلانه ، فلا يرون له فى الآخرة ثوابا ، ويجزون به فى الدنيا من فضله تعالى .

ونحو الآية قوله : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » .

قال ابن عباس : نزلت الآية فى المطعمين ببدر ، وهم اثنا عشر رجلا : أبو جهل ، والحارث بن هشام ، وعتبة ، وشيبة ابنا ربيعة ، وأبىّ ، وأمية ابنا خلف ، ومُنبّه ونُبيه ابنا الحجاج ، وأبو البَخْترى بن هشام ، وزمْعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام ، والحارث بن عامر بن نوفل ؟

ولما ذكر سبحانه جزاء أهل الكفر ، أتبعهم بثواب أهل الإيمان فقال :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزّل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) أى والذين صدقوا الله ، وعملوا بطاعته ، واتبعوا أمره ونهيه ، وصدقوا بالكتاب الذى نزل على محمد ، هو الحق من ربهم — محا الله بفعلهم سيىء ما عملوا فلم يؤاخذهم به ، وأصلح شأنهم فى الدنيا بتوفيقهم لسبل السعادة ، وأصلح شأنهم فى الآخرة بأن يورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم فى جناته .

قال ابن عباس نزلت الآية فى الأنصار .

ثم بين سبب الإضلال ، و إصلاح البال فقال :

(ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) أى و إنما أبطلنا أعمال الكفار وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شئونهم ، لأن الذين كفروا اختاروا الباطل على الحق بما وسوس إليهم به الشيطان ، ولأن الذين آمنوا اتبعوا الحق الذى جاءهم من ربهم ، فأنار بصائرهم وهداهم إلى سبل الرشاد .

(كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) أى كما بينت لكم فعلى بفريقى الكفار والمؤمنين . كذلك نمثل للناس الأمثال ، ونشبّه لهم الأشباه ، فنلحق بالأشياء أمثالها وأشكالها .

والخلاصة — إنه جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، و إضلال أعمالهم مثلا لخيبتهم ، واتباعَ الحق مثلا لعمل المؤمنين ، وتكفير سيئاتهم مثلا لفوزهم ، وهكذا شأن القرآن يوضح الأمور التى فيها عظة وذكرى بضرب الأمثال كما ضرب المثل بالنخل والحنظل فى سورة أخرى .

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ، فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا

اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (٨) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٩) .

تفسير المفردات

لقيتم من اللقاء : وهو الحرب ، فضرب الرقاب : أى فالقتل ، وعبر به عنه تصويرا له بأشنع صورة وهوحزّ العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وأوجه أعضائه ومجمع حواسه ، و بقاء البدن ملقى على هيئة مستبشعة ، وفى ذلك من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل ، وأثخنتموهم : أى أكثرتم القتل فيهم ، فشدّوا الوثاق : أى فأسروهم، والوثاق : (بالفتح والكسر) : مايوثق به ، منّا : أى إطلاقا من الأسر بالمجّان ، فداء : أى إطلاقا فى مقابلة مال أو غيره ، والأوزار فى الأصل : الأحمال ويرادبها آلات الحرب وأثقالها من السلاح والكُراع ، قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذُكورا
ومن نسج داودَ موْضونةً تساق مع الحىّ عِيراً فعِيرا

انتصر : أى انتقم ببعض أسباب الهلاك من خسف أو رجفة أو غرق ، ليبلو : أى ليختبر ، يضلّ : أى يضيع ، بالهم . أى شأنهم وحالهم ، عرّفها . أى بينها وأعلمها ، إن تنصروا الله : أى تنصروا دينه ، يثبت أقدامكم : أى يوفقكم للدوام على طاعته ، فتعساً لهم ، من قولهم : تعس (بفتح العين) الرجل تعسا : أى سقط على وجهه ، وضده انتعش : أى قام من سقوطه ، ويقال تعسا ونُكسا (بضم النون) : أى سقوطا على الوجه وسقوطا على الرأس ، أحبط أعمالهم : أى أبطلها ؟

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أن الناس فريقان : أحدهما متبع للباطل ، وهو حزب الشيطان ، وثانيهما متبع للحق ، وهو حزب الرحمن - ذكر هنا وجوب قتال الفريق الأول حتى يفىء إلى أمر الله ، ويرجع عن غيّه ، وتُخْضَد شوكته .

الإيضاح

(فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًّا بعدُ وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) أى فإذا واجهتم المشركين فى القتال فاحصدوهم حصدا بالسيوف حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقابهم وصاروا فى أيديكم أسرى فشدوهم فى الوثاق ، كى لا يقاتلوكم أو يهربوا منكم ، ثم أنتم بعد انتهاء الحرب وانتهاء المعارك - بالخيار فى أمرهم ، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتموهم بلا عوض من مال أو غيره ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشاطرونهم عليه - حتى لا يكون حرب مع المشركين ولا قتال ، بزوال شوكتهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ » .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى فى الأسارى (فإما منًّا بعد وإما فداء) وكان عليه عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده . روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « بعث النبى صلى الله عليه وسلم خيلا قِبَل نجد ، فجاءت برجل من بنى حَنيفة ، يقال له ثُمامة ابن أُثال ، فربطوه فى سارية من سوارى المسجد ، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ما عندك يا ثمامة ؟ فقال : عندى خير ، إن تقتلنى تقتل ذا دم ، وإن تُنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل ما شئت ، حتى كان الغد ، فقال له صلى الله عليه وسلم : ما عندك يا ثمامة ؟ قال : عندى ما قلت لك ، قال : أطلقوا

ثمامة ، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلىّ ، والله ما كان من دين أبغض إلىّ من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إلىّ ، والله ما كان من بلد أبغض إلىّ من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلىّ وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : صبوتَ ، قال لا ولكن أسلمتُ مع محمد صلى الله عليه وسلم .

وعن عمران بن حصين قال : أسر أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من عَقيل فأوثقوه ، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ففداه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف .

واعلم أن للحرب فوائد ، وللسلم أخرى ، فالأمم فى حال الطفولة عقولها أشبه بعقول الشاب المراهق الذى لم يبلغ الحلم ، تراه يقاتل الصبيان ويشاجرهم ويوقع الأذى بهم وهم يزيدون فى أذاه ، وينكلون به ، وهذه هى حال الأمم اليوم .

ألاَ إن الحرب تقوِّى الأبدان ، وترقى الصناعات ، وتجعل الأمم تنمو ، وتوقظ الشعور ، وتفتح المغلق ، وتيسر العسير ، قال أرسطو للاسكندر : إن الراحة مضرة للأمم ، ومن ثم قيل : إذا أردت رقىّ أمة فاجعلها تخوض الحروب ؛ فذلك يفتح لها باب السعادة ؛ والأمم النائمة على فراش الراحة الوثير معرّضة للزوال .

فإذا كملت أخلاق الأمم ومواهبها ، فإن نتائج السلم عندها ستكون كنتائج الحرب لدى مَن قبلها ، فكما يفرح الرجل فى الأمم الحاضرة بغلبة الأعداء وشفاء الغليل وجمع الرجال والسلاح والكُراع ، فسيكون فرح الأمم فيما بعد بمساعدة غيرها وانشراح صدورها بظهور أمم أخرى تكافح معها فى ميدان الحياة ، ويكون كل فرد فى الأمم المقبلة أشبه بالأب يكدح لمساعدة أبنائه ، وهذا الكدح والجد فى العمل لفائدة الجميع يجد فيه العامل لذة وفرحا أشد من فرح المنتصر فى ميادين القتال .

وإن الأمم لاتزال فى الطّور الأول ، فهى تسعى لإسعاد نفسها بإهلاك سواها ، وسيأتى حين تسعى فيه لإسعاد الجميع ، ويكون فرحها بهذا المسعى أشد من فرحها بهزيمة الأعداء ويكون الناس جميعا بعضهم لبعض كالآباء والأبناء .

وإلى حال الكمال أشار سبحانه بقوله : (حتى تضع الحرب أوزارها) وإلى حال النقص أشار سبحانه بقوله :

(ذلك) أى هذا الذى أمرتكم به من قتل المشركين إن لقيتموهم فى حرب ، وشدّ وثاقهم فى أسرهم، والمنّ والفداء حتى تضع الحرب أوزارها — هو الحق الذى أمركم به ربكم ، وهو السنة التى جرى عليها لإصلاح حال عباده ، وهى التى ستبقى السنة الطبيعية بين الأمم ما دامت فى طور طفولتها ، حتى يتم نضجها العقلى والخُلُقى فتضع الحرب أوزارها ، إذ لايكون هناك حاجة إليها ، لأن العالم كله يكون كأسرة واحدة ، سعادته بسعادة أفراده جميعا ، وشقاؤه بشقائهم .

ثم بين أن هذه هى السنة التى أرادها الله من حرب المشركين ، ولو شاء لانتقم منهم بلا حرب ولا قتال ، فقال :

(ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) أى ولو يشاء ربكم لانتصر من هؤلاء المشركين بعقوبة عاجلة ، وكفاكم أمرهم ، ولكنه أراد أن يبلو بعضكم ببعض فيختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين ويبلوهم بكم ، فيعاقب بأيديكم من شاء ، ويتعظ منهم من شاء بمن أهلك بأيديكم حتى ينيب إلى الحق .

وفى الجهاد تقوية لأبدانكم ، ورقىّ لعقولكم ، ونفاذ لكلمتكم ، وجمع لشملكم بما ترون من اتحاد عدوكم ، وبه ترقى الزراعة والتجارة والصناعة وجميع العلوم إذ لا يتم حرب ولا غلبة إلا بها ، وهكذا ترتقى حال الأعداء ، فيتسع العمران ، وتعم المدنية ، ويرقى النوع الإنسانى ، ولا يعيش فى هذا الوسط الصاخب إلا الصالح للبقاء ، والضعيف من الطرفين هالك ، وهذه هى سنة الله فى الكون .

ثم ذكر جزاء المجاهدين فى سبيل الله فقال :

(والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم) أى والذين جاهدوا أعداء الله فى دين الله وفى نصرة ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من الهدى ، فلن يجعل أعمالهم التى عملوها فى الدنيا ضائعة سدى ؛ كما أذهب أعمال الكافرين وجعلها عديمة الجدوى .

روى أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «يعطَى الشهيدُ ستّ خصال . عند أول قطرة من دمه تكفَّر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوّج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويُحَلّى حُلة الإيمان » .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : « ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحُد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركون : اعلُ هُبَل (أكبر أصنامهم) ونادى المسلمون : الله أعلى وأجلّ. وقال المشركون : يوم بيوم بدر والحرب سجال . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : قولوا لاسواء . قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون ، وقتلاكم فى النار يعذبون ، فقال المشركون : إن لنا العُزى ولا عُزَّى لكم . فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم » .

ثم فسر ما سلف بقوله :

(سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرّفها لهم) أى سيوفقهم الله للعمل بما يرضيه ويحبه ، ويصونهم مما يورث الضلال ، ويصلح شأنهم فى العقبى ، ويتقبل أعمالهم ، ويجعل لكل منهم مقرّا فى الجنة لايضل فى طلبه .

لاجرم أن لكل امرئ فى الحياة عملا يستوجب حالا فى الآخرة لايتعداها ، كما يحصل كل من نال إجازة فى علم أو صناعة على عمل يشاكل إجازته فى قوانين الدولة .

والناس فى الآخرة أشبه بأنواع السمك فى البحر الملح وأنواع الطير فى جوّ السماء لكل منها جوّ لاتتعداه ، هكذا لكل من الصالحين درجة فى الآخرة لايتعداها ، بل يجد نفسه مقهورا على البقاء فيها ؛ كما أن السمك منه ما هو قريب من سطح الماء ، ومنه مايوجد تحت سطح الماء بمئات الأمتار وآلافها ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا » .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : يُهْدَى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها ، لايخطئون ؛ كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لايستدلون عليها .

وفى الخبر: « لأحدكم بمنزله فى الجنة أعرف منه بمنزله فى الدنيا » .

ثم وعدهم سبحانه بنصرهم على أعدائهم إذا نصروا دينه بقوله :

(يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) أى إن تنصروا دين الله ينصركم على عدوكم، ويثبت أقدامكم فى القيام بحقوق الإسلام ومجاهدة الكفار، لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة المشركين هى السفلى :

وبعد أن ذكر جزاء المجاهدين أعقبه بجزاء الكافرين فقال :

(والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم) أى والذين كفروا بالله وجحدوا توحيده فخزياً لهم وشقاء ، وأبطل الله أعمالهم وجعلها على غير هدى واستقامة ، لأنها عملت للشيطان ، لا طاعة للرحمن .

ثم بين سبب ذلك الإضلال فقال :

(ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) أى ذلك الذى فعلنا بهم من التعس وإضلال الأعمال ، من أجل أنهم كرهوا كتابنا الذى أنزلناه على نبينا محمد

صلى الله عليه وسلم فكذبوا به وقالوا هو سحر مبين ، فمن ثم أحبط أعمالهم التى عملوها فى الدنيا وأصلاهم سعيرا .

وقصارى ذلك — إن كل ما عملوه فى الدنيا من صالح الأعمال فهو باطل ، لعدم الإيمان الذى هو أساس قبول الأعمال .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) .

المعنى الجملى

بعد أن نعى سبحانه على الكافرين مغبّة أعمالهم ، وأن النار مثوى لهم — أردف هذا أمرهم بالنظر فى أحوال الأمم السالفة ورؤية آثارهم ، لما للمشاهدات الحسية من آثار فى النفوس ، ونتائج لدى ذوى العقول ، إذا تدبروها واعتبروا بها .

الايضاح

(أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أى أفلم يسر هؤلاء المكذّبون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، المنكرون ما أنزلنا عليه من الكتاب — فى الأرض فيروا نقمة الله التى أحلها بالأمم الغابرة ، والقرون الخالية ، حين كذبوا رسلهم كعاد وثمود ، ويتعظوا بذلك ، ويحذروا أن نفعل بهم كما فعلنا بمن قبلهم .

ثم ذكر ما فعله بهم فقال :

(دمّر الله عليهم) يقال دمّره : أهلكه ، ودمّر عليه : أهلك ما يختص به ، أى أهلك ما يختص بهم من الأهل والولد والمال ، أفلا يعتبر هؤلاء بما حل بمن قبلهم فيعلموا أن ما حاق بهم من سوء المنقلب — لابد أن يحل بهم مثله بحسب ما وضعه سبحانه من السنن فى الأمم المكذبة لرسلها ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهذا ماعناه سبحانه بقوله :

(وللكافرين أمثالها) أى ولهؤلاء الكافرين السائرين سيرتهم أمثال هذه العاقبة التى ترون آثارها .

ثم بيّن السبب فى حلول أمثال هذه العاقبة بهم فقال :

(ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لامولى لهم) أى هذا الذى فعله بهم من التدمير والهلاك ، ونصر المؤمنين وإظهارهم عليهم بسبب أن الله ولىّ من آمن به وأطاع رسوله ، وأن الكافرين لاناصر لهم ، فيدفع ماحل بهم من العقوبة والعذاب .

ونفى المولى عنهم هنا لايخالف إثباته فى قوله : « ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ » لأن المراد به هناك المالك لأمورهم ، المتصرف فى شئونهم .

قال قتادة : نزلت يوم أُحد والنبى صلى الله عليه وسلم فى الشِّعب ، إذ صاح المشركون : يوم بيوم ، لنا العزّى ولا عُزّى لكم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » وقد تقدم هذا برواية أخرى .

و بعد أن بين حالى المؤمنين والكافرين فى الدنيا ، بيّن حاليهم فى الآخرة فقال :

(إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار) أى إن الله ذا الجلال والكمال يدخل يوم القيامة من آمنوا به وصدقوا رسوله وعملوا صالح الأعمال — بساتين تجرى من تحت قصورها الأنهار كرامة لهم على إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر .

(والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام) أى والذين جحدوا توحيد الله وكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم يتمتعون فى هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية ، ويأكلون فيها غير مفكرين فى عواقبهم ومنتهى أمورهم ، ولا معتبرين بما نصب الله لخلقه فى الآفاق والأنفُس من الحجج المؤدية إلى معرفة توحيده وصدق رسوله ، فمثلهم مثل البهائم تأكل فى معالفها ومسارحها ، وهى غافلة عما هى بصدده من النحر والذبح ، فكذلك هؤلاء يأكلون ويتلذذون وهم ساهون لاهون عن عذاب السعير .

(والنار مثوى لهم) أى ونار جهنم مسكن ومأوى لهم يصيرون إليها بعد مماتهم .

والخلاصة — إن المؤمنين عرفوا أن نعيم الدنيا ظل زائل فتركوا الشهوات ، وتفرغوا للصالحات ، فكانت عاقبتهم النعيم المقيم فى مقام كريم ، وإن الكافرين غفلوا عن ذلك فرتعوا فى الدِّمَن كالبهائم حتى ساقهم الخذلان ، إلى مقرهم من دَرَك النيران ، أعاذنا الله منها .

و بعد أن ضرب لهم المثل بقوله : «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ» ولم يعتبروا به وذكرلهم ماتقدم من الأدلة على وحدانيته — ضرب المثل لنبيّه تسلية له على مايلاقي من عنت قومه وجحودهم فقال :

(وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) أى وكثير من الأمم التى كان أهلها أشد بأسا وأكثر جمعا ، وأعدّ عديدا من

أهل مكة الذين أخرجوك — أهلكناهم بأنواع العذاب ولم يجدوا ناصرا ولا معينا يدفع عنهم بأسنا وعذابنا ، فاصبر كما صبر قبلك أولو العزم من الرسل ، ولا تَبْخَع نفسك عليهم حسرات ، فالله مظهرك عليهم، ومهلكهم كما أهلك من قبلهم إن لم ينيبوا إلى ربهم ، ويثوبوا إلى رشدهم .

وغير خافٍ ما فى هذا من التهديد الشديد ، والوعيد الأكيد لأهل مكة .

أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : أنتِ أحبّ بلاد الله إلىّ ، وأنتِ أحب بلاد الله إلىّ . ولولا أن أهلك أخرجونى لم أخرج منكِ ، وأعدى الأعداء من عدا على الله فى حرَمه ، أوقتل غير قاتله ، أوقتل بذُحول (ثارات) الجاهلية فأنزل الله سبحانه على نبيه (وكأين من قرية) » الآية .

ثم ذكر الفارق بين حالى المؤمنين والكافرين والسبب فى كون هؤلاء فى أعلى عليين وأولئك فى أسفل سافلين ، فقال :

(أفمن كان على بيِّنة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ؟) أى أفمن كان على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه بما أنزله فى كتابه من الهدى والعلم ، وبما فطره الله عليه من الفطرة السليمة ، فهو على علم بأن له ربًّا يجازيه على طاعته إياه بالجنة ، وعلى إساءته ومعصيته إياه بالنار — كمن حسّن له الشيطان قبيح عمله ، وأراه إياه جميلا فهو على العمل به مقيم ، وعلى السير على نهجه دائب ، واتبع هواه وجمحت به شهواته فطفق يعدو فى المعاصى ، ويَخُبّ فيها ويضع ، غير ملتفت إلى واعظ أو زاجر ؟

والخلاصة — أيستوى الفريقان : من كان ثابتا على حجة بينة من عند ربه وهى كتابه الذى أنزله على رسوله وسائر الحجج التى أقامها فى الآفاق والأنفس . ومن زين له الشيطان سيء أعماله من الشرك وسائر المعاصى كإخراجك من قريتك ،

واتباع هواه من غير أن يكون له شبهة يركن إليها تعاضد ما يدعيه ، وتطمئن إليها نفسه فى الدفاع عما يدين به ؟ كلاّ هما لا يستويان .

ونحو الآية قوله : « أفَمَنْ يَعْلَمُ أنَّ ما أُنزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أعْمَى » وقوله : « لاَ يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ ، وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) .

تفسير المفردات

مثل الجنة : أى صفتها ، آسن : أى متغير الطعم والريح لطول مكثه ، وفعله أسَن (بالفتح من بابى ضرب ونصر ، وبالكسر من باب علم) لذة تأنيث لذّ ، وهو اللذيذ ، مصفى : أى لم يخالطه الشمع ولا فضلات النحل ولم يمت فيه بعض نحله كعسل الدنيا ، حميما : أى حارًّا ، والأمعاء : واحدها معى (بالفتح والكسر) وهو مافى البطون من الحوايا .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه الفارق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال ـ ذكر الفارق بينهما فى مرجعهما ومآلها ، فذكر ما للأولين من النعيم المقيم واللذات التى لا يدركها

الإحصاء ، وما للآخرين من العذاب اللازب فى النار وشرب المـاء الحارّ الذى يقطّع الأمعاء .

الايضاح

(مثل الجنة التى وعد المتقون) أى صفة الجنة التى وعدها الله من اتقى عقابه ، فأدى فرائضه واجتنب نواهيه ـ ماستسمعونه بعد .

ثم فسر هذه الصفة بقوله :

(١) (فيها أنهار من ماء غير آسن) أى فيها أنهار جارية من مياه غير متغيرة الطعم والريح ، لطول مكثها وركودها .

(٢) (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) أى لم يحمض ولم يصر قارصا ولا حازرا كألبان الدنيا ، وتغير الريح لايفارق تغير الطعم .

(٣) (وأنهار من خمر لذة للشاربين) أى وفيها أنهار من خمر لذيذة لهم ، إذ لم تدنسها الأرجل ، ولم ترنّقها (تـكدرها) الأيدى كخمر الدنيا ، وليس فيها كراهة طعم وريح ، ولا غائلة سكر وخُمار كخمور الدنيا ، فلا يتكرّهها الشاربون .

(٤) (وأنهار من عسل مصفى) أى وفيها أنهار من عسل قد صُفِّى من القذى وما يكون فى عسل أهل الدنيا قبل التصفية من الشمَع وفضالات النحل وغيرها .

وبدئ بالماء لأنه لايستغنى عنه فى الدنيا ، ثم باللبن لأنه يجرى مجرى المطعوم لـكثير من العرب فى غالب أوقاتهم ، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الرىّ والشبَع تشوفت النفس لما يستلذ به ، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء فى الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم.

أخرج أحمد والترمذى وصححه وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى عن معاوية ابن حيدة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « فى الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار منها بعد » .

(٥) (ولهم فيها من كل الثمرات) أى ولهم فيها أنواع من الثمار المختلفة الطعوم والروائح والأشكال .

(٦) (ومغفرة من ربهم) فهو يرضى عنهم بما أسلفوا من عمل ، ويتجاوز عن هفواتهم التى اقترفوها فى الدنيا .

وبعد أن ذكر ما وعد به المتقين من النعيم - ذكر ما أوعد به الكافرين من العذاب الأليم فقال :

(١) (كمن هو خالد فى النار) أى أم من هو خالد فى الجنة بحسب ماجرى به الوعد كمن هو خالد فى النار كما نطق به الكتاب فى قوله : « وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » أى ليس هؤلاء كأولئك فليس من هو فى الدرجات العلى، كمن هو فى الدركات السفلى .

(٢) (وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم) أى وسقوا ماء حارّا لايستساغ ، وإذا دنوا منه شوى وجوههم وقطّع أمعاءهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ؟ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) .

تفسير المفردات

آنفاً : أى قبيل هذا الوقت ، مأخوذ من أنف الشيء لما تقدم منه ، وأصل ذلك الأنف بمعنى الجارحة ثم سمى به طرَف الشيء ومقدمه وأشرفه ، آتاهم : أى ألهمهم ، بغتة : أى فجأة ، والأشراط : العلامات ، واحدها شرط (بالسكون والفتح) ومنه أشراط الساعة ، قال أبو الأسود الدؤلى :

فإن كنتِ قد أزمعتِ بالصَّرْم بيننا فقد جعلتْ أشراط أوله تبـدو

فأنى لهم : أى كيف لهم ، ذكراهم : أى تذكرهم ، متقلبكم : أى تقلبكم لأشغالكم فى الدنيا ، ومثواكم : أى مأواكم فى الجنة أو النار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال المشركين وبين سوء مغبتهم — أردف هذا بيان أحوال المنافقين الذين كانوا يحضُرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه تهاونا واستهزاء به ، حتى إذا خرجوا من عنده قالوا للواعين من الصحابة : ماذا قال قبل افتراقنا وخروجنا من عنده ؟ — وهؤلاء قد طبع الله على قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم ، ومن ثم تشاغلوا عن سماع كلامه وأقبلوا على جمع حطام الدنيا ، ثم أعقبه بذكر حال من اهتدوا ، وألهمهم ربهم ما يتقون به النار ، ثم عنَّف أولئك المكذبين وذكر أن عليهم أن يرعووا قبل أن تجيء الساعة التى بدت علاماتها ببعث محمد صلى الله عليه وسلم والذكرى لاتنفع حينئذ ، ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالثبات على ماهو عليه من وحدانية الله وإصلاح نفسه بالاستغفار من ذنبه ، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات ، والله هو العليم بتصرفكم فى الدنيا ومصيركم إلى الجنة أو إلى النار فى الآخرة .

الإيضاح

(ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً ؟) أى ومن الناس منافقون يستمعون فلا يعُون ما تقول ، ولا يفهمون ما تتلو عليهم من كتاب ربك ، تغافلا عما تدعو إليه من الإيمان ، حتى إذا خرجوا من عندك قالوا لمن حضر مجلسك من أهل العلم بكتاب الله : ماذا قال محمد قبل أن نفارق مجلسه ؟ .

وما مقصدهم من ذلك إلا السخرية والاستهزاء بما يقول ، وأنه مما لاينبغى أن يُؤْبه به ، أو يلقى لمثله سمع .

روى مقاتل أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب و يعيب المنافقين ، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد لله ابن مسعود ، استهزاء : ماذا قال محمد آنفاً ؟ قال ابن عباس : وقد سئلتُ فيمن سئل .

ثم بين سبب استهزائهم وتهاونهم بما سمعوا فقال :

(أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) أى هؤلاء الذين هذه صفتهم — هم الذين ختم الله على قلوبهم ، فلا يهتدون للحق الذى بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، واتبعوا شهواتهم وما دعتهم إليه أنفسهم ، فلا يرجعون إلى حجة ولا برهان .

ثم ذكر سبحانه أضداد هؤلاء بقوله :

(والذين اهتدوا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم) أى والذين اهتدوا بالإيمان واستماع القرآن زادهم الله بصيرة وعلماً وشرح صدورهم ، وألهمهم رشدهم ، وأعانهم على تقواه .

ثم بيّن أنهم فى غفلة عن النظر والتأمل فى عاقبة أمرهم فقال :

(فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها) أى إنه بعد أن قامت الأدلة على وحدانيــة الله وصدق نبوّة رسوله وأن البعث حق ، وأن الله يهلك

من كذب رسله ويحل بهم الوبال والنكال كما شاهدوا ذلك فيمن حولهم من الأمم التى أهلكها الله لتكذيبها رسلها ، ولم يبق منها إلا آثارها ، ولم يفدهم كل ذلك شيئا ولم يتعظوا ولم يؤمنوا — فماذا ينتظرون للعظة والاعتبار ؟ لا ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة إذ جاءت علامتها ، ولم يبق من الأمور الموجبة للتذكر والعظة للإيمان بالله سوى ذلك .

والخلاصة — إن البراهين قد نصبت، والأدلة قد وضحت على وجوب الإيمان بالله، وصدق رسوله ، والبعث والنشور ، وهم لم يؤمنوا — فلا يتوقع منهم إيمان بعدئذ إلا حين مجىء الساعة بغتة ، وهاهى ذى أشراطها قد ظهرت ، ومقدماتها قد بدأت ، ولم يأبهوا بها ، ولا فكروا فى أمرها ، والمراد بيان أنهم بلغوا الغاية فى العناد ، والنهاية فى الاستكبار .

ثم أظهر خطأهم ، وحكم بأن رأيهم آفن فى تأخيرهم التذكر إلى قيام الساعة ، ببيان أن التذكر لا يجدى نفعا حينئذ فقال :

(فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ؟) أى فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة ؟ فإن الذكرى لا تنفع حينئذ ، ولا تقبل التوبة ، ولا ينفع الإيمان .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى » .

وبعد أن أبان أن الذكرى لا تنفع إذا انقضت هذه الدار التى جعلت للعمل — أمر رسوله بالثبات على ماهو عليه ، والاستغفار لأتباعه ، فقال :

(فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) أى إذا علمت سعادة المؤمنين وعذاب الكافرين ، فاستمسك بما أنت عليه من موجبات السعادة، واستكمل حظوظ نفسك بالاستغفار من ذنبك (وذنوب الأنبياء أن يتركوا ماهو الأولى بمنصبهم الجليل) وتوجه بالدعاء والاستغفار لأتباعك من المؤمنين والمؤمنات .

وفى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم

اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى هزلى وجدّى، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى » .

وثبت أنه كان يقول فى آخر الصلاة : « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به منى ، أنت إلهى لا إله إلا أنت» .

وجاء أيضا أنه قال « أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منهما ، فإن إبليس قال : إنما أهلكتُ الناس بالذنوب ، وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء فهم يحسبون أنهم مهتدون » .

وفى الأثر المروى « قال إبليس وعزّتك وجلالك لا أزال أغويهم مادامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الله عز وجل : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » .

ثم رغبهم سبحانه فى امتثال ما يأمرهم به ، ورهّبهم مما ينهاهم عنه فقال :

(والله يعلم متقلبكم ومثواكم) أى والله يعلم تصرفكم فى نهاركم ومستقركم فى ليلكم، فاتقوه واستغفروه ، فهو جدير بأن يُتقى ويُخشى ، وأن يُستغفر ويُسترحم .

ونحو الآية قوله : « وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ » وقوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » .

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ، فَإِذَا

عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣).

تفسير المفردات

لولا : كلمة تفيد الحثّ على حصول ما بعدها ، أى هلا أنزلت سورة فى أمر الجهاد ، محكمة : أى بيّنة واضحة لا احتمال فيها لشىء آخر ، مرض : أى ضعف ونفاق ، نظر المغشىّ عليه من الموت : أى كما ينظر المصروع الذى لا يطرف بصره جبناً منه وهلعا ، أولى لهم : أى فويل لهم ، وهو من الوَلْى بمعنى القرب ، والمراد الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ويقرب منهم ، عزم الأمر : أى جَدّ أولو الأمر ، عسى كلمة تدل على توقع حصول ما بعدها ، توليتم أى توليتم أمور الناس . وتأمرتم عليهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه حال المنافقين والكافرين والمؤمنين حين استماع آيات التوحيد والحشر والبعث وغيرها من الأمور التى أوجب الدين علينا اعتقادها بقوله فيما سلف « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » وقوله : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى » — أردف هذا فذكر حالهم فى الآيات العملية كآيات الجهاد والصلاة والزكاة ونحوها ، فأبان أن المؤمنين كانوا ينتظرون مجيئها ويرجون نزولها ، وإذا تأخرت كانوا يقولون : هلا أمرنا بشىء من ذلك ، لينالوا ما يقرّبهم من ربهم ويحصلوا على رضوانه والزلفى إليه ، وأن المنافقين كانوا إذا نزل شىء من تلك التكاليف شق عليهم ونظروا نظرة المصروع الذى يشخص بصره خوفا وهلعا . ثم ذكر نتيجة لما سلف ، وفذلكة

لما تقدم ، فأعقب هذا بأن الله طرد المنافقين وأبعدهم من الخير ، ومن قبل هذا أصمهم فلا يسمعون الكلام المستبين ، وأعمى أبصارهم فلا يسيرون على الصراط المستقيم ، أما المؤمنون فقد رضى عنهم وأرضاهم ، ونالوا محبته ، ودخلوا جنته ، فضلا منه ورحمة ، والله ذو الفضل العظيم .

الايضاح

(ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشىّ عليه من الموت) أى إن المؤمنين المخلصين فى إيمانهم يشتاقون للوحى ، ونزول آيات الجهاد حرصا على ثوابه ويقولون : هلا أنزلت سورة تأمرنا به ، فإذا أنزلت سورة واضحة الدلالة فى الأمر به فرحوا بها ، وشق ذلك على المنافقين ، وشخصت أبصارهم هلعا وجبنا من لقاء العدو ونظروا مغتاظين بتحديد وتحديق كمن يشخص بصره حين الموت .

ونحو الآية قوله « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ » .

ثم هددهم وتوعدهم فقال :

(فأولى لهم) أى فالموت أولى لمثل هؤلاء المنافقين ، إذ حياتهم ليست فى طاعة الله ، فالموت خير منها ، وقد يكون المعنى على التهديد والوعيد والدعاء عليهم بالهلاك ، فكأنه قيل : أهلكهم الله هلاكا أقرب لهم من كل شر وهلاك ، فهو نحو قولهم فى الدعاء بُعْدًا له وسُحْقًا .

قال الأصمعي معناه : قاربه ما يهلكه أي نزل به ، وأنشد :

فَعَادَى بين هادِيَتَيْنِ منها وأولى أن يزيد على الثلاث

أي قارب أن يزيد .

(طاعة وقول معروف) أي طاعة لله وقول معروف أمثل لهم وأحسن مما هم فيه من الهلع والجزع والجبن من لقاء العدو ، فمتاع الحياة الدنيا متاع قليل ، وظل زائل ، والآخرة خير لمن اتقى .

(فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) أي فإذا حضر القتال كرهوه وتخلَّفوا عنه خوفا وفَرَقًا ، ولو صدقوا في إيمانهم واتباعهم للرسول ، وأخلصوا النية في القتال لكان خيرا لهم عند ربهم ، إذ ينالون به الثواب والزلفى عنده ويعطيهم ماتقرّ به أعينهم ، ويدخلهم جنات النعيم .

ثم خاطب أولئك المنافقين خطاب توبيخ وتأنيب فقال :

(فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) أي فلعلكم لما عهد فيكم من الحرص على الدنيا وزخرفها إذ قد أُمِرْتم بالجهاد الذي هو الوسيلة إلى الثواب فكرهتموه ، وظهر عليكم ما ظهر من الخوف والهلع والتشبث بالبقاء في هذه الحياة والتكالب على زينتها إن أنتم توليتم أمور الناس وصرتم عليهم أمراء أن تفسدوا في الأرض بالبغي وسفك الدماء ، وتقطعوا أرحامكم فتعودوا إلى تباغض الجاهلية من إغارة بعضكم على بعض ونهب الأموال وسفك الدماء .

والخلاصة — إنه لاعجب بعد أن صدر منكم ماصدر من كراهة الدفاع عن حَوْزة الإسلام — أن تعيدوا أحوال الجاهلية جَزَعة إذا صرتم أمراء الناس وولاتهم .

وبعد أن ذكر هناتهم بين سببها فقال :

(أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) أي فهؤلاء هم الذين أبعدهم الله من رحمته ، فأصمهم عن الانتفاع بما سمعوا ، وأعمى أبصارهم عن الاستفادة مما

شاهدوا من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق ، فلم يكن سماعهم سماع إدراك ، ولا إبصارهم إبصار اعتبار .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحِقْو الرحمن فقال مَهْ ، قالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال نعم ؛ أما ترضَيْن أن أصل من وصلكِ ، وأقطع من قطعكِ ؟ قالت بلى ، قال : فذلكِ لكِ ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرءوا إن شئتم (فَهَلْ عَسَيْتُمْ) الآية . أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى صلة الرحم .

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) .

تفسير المفردات

يتدبرون القرآن : أى يتصفحون مافيه من المواعظ والزواجر حتى يُقْلِعُوا عن الوقوع فى الموبقات ، ارتدوا على أدبارهم : أى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، سوّل لهم : أى سهّل لهم وزين ، وأملى لهم : أى مدّ لهم فى الأمانى والآمال ، يضربون وجوههم وأدبارهم : أى يتوفونهم وهم على أهوال الأحوال وأفظعها ، والأضغان : واحدها ضِغْن ، وهو الحقد الشديد ، وتضاغن القوم واضطغنوا إذا أبطنوا الأحقاد ، قال :

قل لابن هندٍ ما أردتَ بمنْطِقٍ ساء الصديق وشيّد الأضغانا ؟

لأريناكهم : أى لعرّفناكهم ، والسيمى : العلامة ، ولحن القول : أسلوبه بإمالته عن وجهه من التصريح إلى التعريض والتورية ، ولنبلونّكم : أى لنختبرنّكم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن أولئك المنافقين أبعدهم الله عن الخير ، فأصمهم فلم ينتفعوا بما سمعوا وأعمى أبصارهم فلم يستفيدوا بما أبصروا ـ بين أن حالهم دائرة بين أمرين : إما أنهم لايتدبرون القرآن إذا وصل إلى قلوبهم ، أو أنهم يتدبرون ولكن لاتدخل معانيه فى قلوبهم لكونها مُقْفَلة ؛ ثم ذكر أنهم رجعوا إلى الكفر بعد أن تبين لهم الهدى بالدلائل الواضحة ، والمعجزات الباهرة ، وقد زين لهم الشيطان ذلك وخدعهم بباطل الأمانى ، ثم بين سبب ارتدادهم وهو قولهم لبنى قُرَيظة والنَّضِير من اليهود : سنطيعكم فى بعض أحوالكم وهو ما حكى عنهم فى قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ » والله يعلم مايصدر عنهم من كل قبيح .

ثم أردف هذا ذكر ما يصادفونه من الأهوال إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم بسبب اتباعهم أهواءهم وعمل ما يغضب ربّهم ، ومن ثم أحبط أعمالهم ، وهل يعتقد هؤلاء المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ؟ بل إنه سيوضح ذلك لذوى البصائر ، ولو نشاء لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عِيانا ، ولكن لم نفعل ذلك، ستراً منا على عبادنا ، وحملا للأمور على ظاهر السلامة ، وردًّا للسرائر إلى عالِمها ، وإنك لتعرفنّهم فيما يبدو من كلامهم الدالّ على مقاصدهم ، بمغامز يضعونها أثناء حديثهم، وقد كان يفهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويفهم مراميها فلا تخفى عليه .

ثم ذكر أنه يبتلى عباده بالجهاد وغيره ، ليعلم الصادق فى إيمانه ، الصابر على مشاقّ التكاليف ، من غيره ، ويختبر أعمالهم حسناتهم وسيئاتهم فيجازيهم بما قدموا « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

الإيضاح

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟) أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التى وعظ بها فى آى كتابه، ويتفكرون فى حججه التى بيّنها فى تنزيله فيعلموا خطأ ماهم عليه مقيمون ، أم هم قد أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل فى كتابه من العبر والمواعظ ؟

والخلاصة — إنهم بين أمرين كلاهما شر ، وكلاهما فيه الدمار ، والمصير إلى النار ، فإما أنهم يعقلون ولا يتدبرون ، أو أنهم سُلِبوا العقول فهم لا يعون شيئا .

ولما أخبر بإقفال قلوبهم بيّن منشأ ذلك فقال :

(إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدَى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم) أى إن الذين رجعوا القهقرى على أعقابهم كفاراً من بعد ما تبين لهم الهدى

وقصد السبيل ، فعرفوا واضح الحجج ، ثم آثروا الضلال على الهدى عنادا لأمر الله ــ الشيطان زين لهم ذلك وخدعهم بالآمال ، وحسَّن لهم مافى الدنيا من لذة يتمتعون بها إلى حين ، ثم يعودون كما كانوا مؤمنين ، إلى نحو ذلك من وساوسه التى لاتدخل تحت الحصر ، ولا يبلغها العدّ .

ثم ذكر كيف إنهم ضلوا فقال :

(ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم) أى ذلك الضلال من قِبَل أنهم مالئوا اليهود من بنى قريظة والنضير وناصحوهم سرا على المؤمنين كما هو شأن المنافقين فى كل زمان ، والله يعلم مايسرون وما يخفون ، وهو مطلع عليهم وعالم بهم .

ولا يخفى مافى ذلك من الوعيد وشديد التهديد .

ونحو الآية قوله : « وَاللهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ » .

ثم ذكر أن هذه الحيل إن أجْدَت فى حياتهم فماذا هم فاعلون حين وفاتهم فقال :

(فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) أى فكيف يفعلون إذا جاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم على أقبح الوجوه وأفظعها ، وقد مثل ذلك بحال يخافونها فى الدنيا ، ويجبنون عن القتال من أجلها ، وهو الضرب على الوجوه والأدبار ، إذ فى يوم الوفاة لا نصرة لهم ولا مفرّ ، فكيف يحترزون من الأذى، ويبتعدون من العذاب؟ .

ثم بين سبب التوفى على تلك الحال الشنيعة فقال :

(ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) أى ذلك الهول الذى يرونه من أجل أنهم انهمكوا فى المعاصى ، وزينت لهم الشهوات ، وكرهوا مايرضى الله من الإيمان به والعمل على طاعته والإخلاص له فى السر والعلن ، فأحبط ما عملوه من البر والخير ، كالصدقات ، والأخذ بيد الضعيف ، ومساعدة البائس الفقير ،

و إغاثة الملهوف إلى نحو أولئك ، إذ هم فعلوه وهم مشركون فلم تكن لله ولا بأمره ، بل بأمر الشيطان للفخر وحسن الأحدوثة بين الناس .

ثم بالغ فى توبيخ المنافقين ، و إظهار خباياهم ، و إعلان نواياهم فقال :

(أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) أى بل أحسب أولئك المنافقون الذين فى قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أن الله لايكشف أستارهم و يبرز أحقادهم ، بلى سيبرزها للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين فلا تبقى مستورة ، وقد أنزل الله فى فضائحهم وما يبطنون من الأفعال سورة براءة ، ولذا تسمى الفاضحة كقوله فيهم : « وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ » وقوله : « فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا » .

ثم أكد ما فهم من سالف الكلام وأنه سيظهرها فقال :

(ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم) أى ولو نشاء أيها الرسول لعرّفناك أشخاصهم ، فعرفتهم عيانا بعلامات هى غالبة عليهم ، ولكنه لم يفعل ذلك فى جميع المنافقين للستر على خلقه ، وردًّا للسرائر إلى عالمها ، وحرصا على ألا يؤذى ذوى قرباهم من المخلصين .

(ولتعرفنهم فى لحن القول) أى ولتعرفنهم فيما يداورونه من القول ، فيعدلون عن التصريح بمقاصدهم إلى التعريض والإشارة ، و إياه عنى القائل فى مدح محبوبته فقال :

منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحنا

يريد أنها تتكلم بشىء وتريد غيره وتعرّض فى حديثها فتزيله عن جهته ، لفطنتها وذكائها .

وقد كانوا يخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بألفاظ ظاهرها الحسن وهم يعنون بها القبيح . قال الكلبى : فلم يتكلم بعد نزولها عند النبى صلى الله عليه وسلم منافق

إلا عرفه ، وقال أنس : فلم يَخْفَ منافق بعد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم، عرّفه الله ذلك بوحى أو علامة عرفها بتعريف الله إياه .

وفى الحديث : « ما أسرّ أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر » .

وروى أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال : ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه .

وقد ثبت فى الحديث تعيين جماعة من المنافقين ، فقد روى أحمد عن عقبة ابن عامر قال : « خطبَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة َفحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال : إن فيكم منافقين فمن سميتُ فليقم ، ثم قال : قم يافلان ، قم يافلان ، قم يافلان حتى سمى ستة وثلاثين رجلا ، ثم قال : إن فيكم منافقين فاتقوا الله ، قال فمرّ عمر رضى الله عنه برجل ممن سمى مقنَّعٍ قد كان يعرفه ، فقال مالك ؟ فحدّثه بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بُعْدًا لك سائر الدهر » .

ثم وعد سبحانه وأوعد ، و بشر وأنذر فقال :

(والله يعلم أعمالكم) فيجازيكم بما قدمتم من خير أو شر ، إذ لايضيع عمل عامل عدلاً منه ورحمة .

(ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) أى ولنختبرنكم بالأمر بالجهاد وسائر التكاليف الشاقة حتى يتميز المجاهد الصابر من غيره ، ويُعرَّف ذو البصيرة فى دينه من ذى الشك والحيْرة فيه ، والمؤمن من المنافق ، ونبلو أخباركم فنعرف الصادق منكم فى إيمانه من الكاذب .

قال إبراهيم بن الأشعث : كان الفُضَيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لاتبتلنا ، فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) .

تفسير المفردات

شاقوا الرسول : أى عادَوْه وخالفُوه ، وأصله صاروا فى شِقٍّ غير شقه ، فلاتهنوا : أى فلا تضعفوا عن القتال ، من الوهْن وهو الضعف ، وقد وهِن الإنسان ووهّنه غيره ، وتدعوا إلى السلم : أى تدعوا الكفار إلى الصلح خوفا وإظهارا للعجز ، الأعلون : أى الغالبون ، والله معكم : أى ناصركم ، لن يتركم أعمالكم : أى لن ينقصكموها ؛ من وترت الرجل : إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم أو سلبت ماله وذهبت به ، فشبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر وهو إضاعة شىء معتد به من الأنفس والأموال .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المنافقين ستفضح أسرارهم ، وأنهم سيلقون شديد الأهوال حين وفاتهم — أردف ذلك ذكر حال جماعة من أهل الكتاب وهم بنو قُرَيظة والنَّضِير كفروا بالله وصدوا الناس عن سبيل الله وعادَوا الرسول بعد أن شاهدوا نعته فى التوراة، وما ظهر على يديه من المعجزات ، فهؤلاء لن يضروا الله شيئا بكفرهم ، بل يضرون أنفسهم وسيحبط الله مكايدهم التى نصبوها لإبطال دينه ، ثم ذكر قصص بنى سعد

وقد أسلموا وجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلينا ، مَنًّا بذلك عليه ، فنهاهم عن ذلك و بين لهم أن هذا مما يبطل أعمالهم ، ثم أعقب هذا ببيان أن من كفروا وصدوا عن السبيل القويم ثم ماتوا وهم على هذه الحال فلن يغفر الله لهم ، ثم أرشد إلى أن عمل الكافرين الذى له صورة الحسنات محبط وأن ذنبهم غير مغفور ، و بعدئذ أردف هذا أن الله خاذلهم فى الدنيا والآخرة فلا تبالوا بهم ، ولا تظهروا ضعفا أمامهم ، فإن الله ناصركم ، ولن يضيع أعمالكم .

الإيضاح

(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ماتبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم) أى إن الذين جحدوا توحيد الله ، وصدوا الناس عن دينه الذى بعث به رسوله ، وخالفوا هذا الرسول وحاربوه وآذَوْه من بعد أن استبان لهم بالأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة أنه مرسل من عند ربه — لن يضروا الله شيئا ، لأن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ، ومظهره على من عاداه وخالفه ، وسيبطل مكايدهم التى نصبوها ، لإبطال دينه ومشاقة رسوله ، ولا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون له من الغوائل ، وستكون ثمرتها إما قتلهم أو جلاءهم عن أوطانهم .

والمراد بصد الناس عن سبيل الله ، منعهم إياهم عن الإسلام بشتى الوسائل ، وعن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم والانضواء تحت لوائه .

ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

(يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى يأيها الذين صدّقوا بوحدانية الله وقدرته وسائر صفات كماله ، وصدقوا رسوله فيما جاء على لسانه من الشرائع — أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فى اتباع أوامرهما والانتهاء عن نواهيهما .

ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم كما أبطل الكفار أعمالهم فقال :

(ولا تبطلوا أعمالكم) أى ولا تبطلوا حسناتكم بالمعاصى قاله الحسن ، وقال الزهرى بالكبائر . وقال مقاتل بالمنّ والأذى وقال عطاء بالنفاق والشرك ؛ والأولى أن يراد به النهى عن كل سبب من الأسباب التى تكون سببا فى إبطال الأعمال كائنا ما كان بلا تخصيص بنوع معين .

وعن أبى العالية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت هذه الآية، فخافوا أن يبطل الذنب العمل .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنا معشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى أنه ليس شىء من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) فقلنا : ما هذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئا منها ، قلنا قد هلك حتى نزل « إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشاَءُ » فكففنا عن القول فى ذلك ، وكنا إذا رأينا أحدا أصاب منها شيئا خفنا عليه ، وإن لم يصب منها رجونا له .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال فى الآية : من استطاع منكم ألا يبطل عملا صالحا بعمل سوء فليفعل ولا قوة إلا بالله تعالى .

ثم بين سبحانه أنه لا يغفر للمصرّين على الكفر والصدّ عن سبيل الله فقال :

(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) أى إن الذين جحدوا توحيد الله وصدوا من أراد الإيمان بالله ورسوله عن ذلك ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوه ، ثم ماتوا وهم على كفرهم فلن يعفو الله سبحانه عما صنعوا ، بل يعاقبهم ويفضحهم به على رءوس الأشهاد .

وقيد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر ، لأن باب التوبة وطريق المغفرة لا يغلقان على من كان حيا .

ثم ذكر سبحانه أن لا حرمة للكافر فى الدنيا والآخرة ، فأمر بقتالهم وأرشد إلى أن النصر حليف المؤمنين فقال :

(فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) أى فلا تضعفوا أيها المؤمنون عن جهاد المشركين وتجبنوا عن قتالهم ، وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة خوَراً و إظهاراً للعجز ، وأنتم العالون عليهم والله معكم بالنصر لكم عليهم ، ولا يظلمكم أجور أعمالكم فينقصكم ثوابها .

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ ، فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللهُ الْغَنِىُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) .

تفسير المفردات

كل ما اشتغلت به مما ليس فيه ضرر فى الحال ولا منفعة فى المآل ولم يمنعك عن مهامّ أمورك فهو لعب ، فإن شغلك عنها فهو لهو ، ومن ثم يقال آلات الملاهى ، لأنها مَشْغَلة عن غيرها ، و يقال لما دون ذلك لعب كاللعب بالشِّطرنج والنَّرْد والحمام ، فيحفكم أى فيجهدكم بطلبها جميعا ، والإلحاف والإحفاء بلوغ الغاية فى كل شىء ؛ يقال أحفاه فى المسألة : إذا لم يترك شيئا من الإلحاح ، أضغانكم : أى أحقادكم .

المعنى الجملى

بعد أن أمر المؤمنين بترك المعاصى لأنها محبطة لثواب الأعمال الصالحة ، وأمرهم بالتشمير عن ساعد الجد للجهاد ومقاتلة الأعداء نصرةً لدينه ، ووعدهم بأن الله ناصرهم وهم الأَعْلَوْنَ ، فلا ينبغى لهم أن يطلبوا المهادنة من العدو خوَرا وجبنا خوفا على الحياة ولذاتها — أكد هذا المعنى فأبان أنه لا ينبغى لكم أيها المؤمنون الحرص على الدنيا ، فإنها ظل زائل ، وعَرَض غير باق ، وما هى إلا لذات مؤقتة لاتلبث أن تزول ، وهى مشغَلة عن صالح الأعمال ، فلا يليق بكم أن تعَضّوا عليها بالنواجذ ، بل اعملوا لما يرضى ربكم يؤتكم أجوركم وهو لا يسألكم من أموالكم إلا القليل النزر الذى فيه صلاح المجتمع للمعونة على القيام بالمرافق العامة ، دنيويةً كانت أو دينية ، وهو عليم بأنكم أشحة على أموالكم ، فلو طلبها لبخلتم بها وظهرت أحقادكم على طالبيها ، والله قد طلب إليكم الإنفاق فى سبيله ، والقيام بما تحتاج إليه الدعوة ، فإن بخلتم فضرر ذلك عائد إليكم ، والله غنى عن معونتكم ، وإن أعرضتم عن الإيمان والتقوى يأت الله بخلق غيركم يقيمون دينه ، وينصرون الدعوة .

الإيضاح

(إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) يقول سبحانه حاضًّا عباده المؤمنين على جهاد أعدائه والنفقة فى سبيله ، وبذل مهجتهم فى قتال أهل الكفر به : قاتلوا أيها المؤمنون أعداء الله وأعداءكم من أهل الكفر ، ولا تدْعُكم الرغبة فى الحياة إلى ترك قتالهم ، فإنما الحياة الدنيا لعب ولهو لايلبث أن يضمحل ويذهب إلا ما كان منها من عمل فى سبيل الله وطلب رضاه .

ثم رغبهم فى العمل للآخرة فقال :

(وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم) أى وإن تؤمنوا

ربكم وتتقوه حق تقاته ، فتؤدوا فرائضه وتجتنبوا نواهيه — يؤتكم ثواب أعمالكم فيعوضكم عنها ماهو خير لكم يوم فقركم وحاجتكم إلى أعمالكم ، وهو لايأمركم بإخراجها جميعها فى الزكاة وسائر وجوه الطاعات ، بل يأمركم بإخراج القليل منها وهو ربع العشر للزكاة مواساة لإخوانكم الفقراء ، ونفعُ ذلك عائد إليكم .

ثم بين شح الإنسان على ماله وشدة حرصه عليه فقال :

(إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) أى إن يسألكم ربكم أموالكم فيجهدكم بالمسألة ويلحف عليكم بطلبها — تبخلوا بها وتمنعوها إياه ضنا منكم بها ، لكنه علم ذلك منكم فلم يسألكموها فيخرج ذلك السؤال أحقادكم لمزيد حبكم للمال .

قال قتادة : قد علم الله أن فى سؤال المال خروج الأضغان للاسلام من حيث محبة المال بالجبلّة والطبيعة ، ومن نوزع فى حبيبه ظهرت طويته التى كان يُسِرُّها .

والخلاصة — قد علم الله شح الإنسان على المال فلم يطلب منه إلا النزر اليسير فى الصدقات ، وبذل المال فى المرافق العامة لإصلاح شئون المجتمع الإسلامى كسدّ الثغور ، وبناء القناطر والجسور .

ثم أكد ما سلف وقرره بقوله :

(هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله) أى هاأنتم أيها المؤمنون تُدْعَوْن إلى النفقة فى جهاد أعداء الله ونصرة دينه .

(فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنىّ وأنتم الفقراء) أى فمنكم من يبخل عن النفقة فى هذا السبيل ، ومن يبخل فإنما ضرر ذلك عائد إلى نفسه ، لأنه يُنْقِصها أجرها من الثواب ، ويبعدها من رضا الله والقرب منه فى جنات النعيم ، والله لاحاجة إليه فى أموالكم ولا نفقاتكم ، فهو الغنى عن خلقه ، وخلقُه فقراء إليه ، وإنما حضكم على النفقة فى سبيله ، لتنالوا بذلك الأجر والثواب .

(وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم) أى وإن تعرضوا

عن طاعة الله واتباع شرائعه ، وترتدوا راجعين عنها ، يهلككم ثم يجىء بقوم آخرين غيركم يصدّقون بها ، ويعملون بالشرائع التى أنزلها على رسوله ، ويقومون بذلك كله على ما يؤمرون به ، والمراد بهم على ما صح فى الحديث أهلُ فارس .

أخرج عبد الرازق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى والترمذى عن أبى هريرة قال : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (وَ إِنْ تَتَوَلَّوا) الخ فقالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولّينا استبْدِلُوا بنا ، ثم لا يكونون أمثالنا ؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكِب سلمان ، ثم قال هذا وقومه ، والذى نفسى بيده لو أن هذا الدين تعلق بالثريا لتناوله رجال من فارس » .

وقد طعن بعض رواة الحديث فيه وجرّحوا بعض رواته ، قال ابن كثير وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم .

قال الكلبى : شرط فى الاستبدال تولّيهم لكنهم لم يتولوا فلم يستبدل سبحانه قوما غيرهم بهم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ، ونصر دينه بأتباعه المؤمنين ، وجعلهم للعمل بنشره دائبين .

اشتملت هذه السورة الكريمة على ثلاثة مقاصد

(١) وصف الكافرين والمؤمنين من أول السورة إلى قوله: « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ » .

(٢) جزاء الفريقين فى الدنيا والآخرة من خذلان ونصر ونار وجنة من قوله : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ — إلى قوله : واللهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ » .

(٣) الوعد والتهديد للمنافقين والمرتدين من قوله : « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ » إلى آخر السورة .

سورة الفتح

هى مدنية ، وآيها تسع وعشرون ، نزلت بعد سورة الجمعة .

ووجه مناسبتها لما قبلها :

(١) إن الفتح المراد به النصر مرتب على القتال .

(٢) إن فى كل منهما ذكراً للمؤمنين والمخلصين والمنافقين المشركين .

(٣) إن فى السورة السالفة أمراً بالاستغفار ، وفى هذه ذكر وقوع المغفرة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) .

تفسير المفردات

أصل الفتح : إزالة الأغلاق ، وفتح البلد : دخله عنوة أو صلحا ، والمراد بالفتح هنا صلح الحديبية (والحديبية بئر) على المشهور ، وهو المروى عن ابن عباس وأنس والشعبي والزهرى ، وسمى هذا فتحا ؛ لأنه كان سببا لفتح مكة ، قال الزهرى : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير كثر بهم سواد الإسلام ، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف ففتحوها .

والخلاصة — إنه كان من نتائج هذا الصلح الأمور الآتية :

(١) تم في هذا الصلح ما يسمونه في العصر الحديث (جسّ النبض) لمعرفة قوة العدو ومقدار كفايته و إلى أىّ حد هى .

(٢) معرفة صادق الإيمان من المنافقين كما علم ذلك من المخلفين فيما يأتى .

(٣) إن اختلاط المسلمين بالمشركين حبب الإسلام إلى قلوب كثير منهم فدخلوا فى دين الله أفواجا .

مبينا : أى بيِّنا ظاهر الأمر مكشوف الحال .

المعنى الجملى

نزلت هذه السورة الكريمة حين منصرَفه صلى الله عليه وسلم من الحديبية فى ذى القَعْدَة من سنة ست من الهجرة ، لما صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام وحالوا بينه و بين قضاء عمرته ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكرّه من جماعة من الصحابة كعمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فلما نحر هديه حيث أُحصِر ورجع أنزل الله تعالى هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل هذا الصلح فتحا لما فيه من المصلحة ، ولما آل إليه أمره ؛ فقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعدّ الفتح صلح الحديبية . وروى البخارى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلاً ، فسأله عمر عن شىء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر : ثكلتك أمك ياعمر ، كررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، كل ذلك لا يجيبك ، قال عمر : فحركت بعيرى حتى تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فىّ قرآن ، فما لبثت أن سمعت صارخا يصرخ بى ، فقلت لقد خشيت أن يكون نزل فىّ قرآن ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه فقال : لقد أنزلت علىّ سورة لهى أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » .

وفى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال : لما نزلت « إنّا فَتَحْنَا لكَ فَتْحًا مُبِيناً — إلى قوله : فَوْزاً عَظِيماً » مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة وقد نحروا الهدى بالحديبية ، قال النبى صلى الله عليه وسلم ، لقد أنزلت علىّ آية هى أحب إلىّ من الدنيا جميعها » .

هذا ، ولما كان لكل عامل ثمرة يجنيها من عمله ، وغاية يبتغيها منه — كان للنبوّة نهاية مطلوبة فى هذه الحياة وثمرة تتبع هذه النهاية ، فنهاية أمر النبوة أن تلتئم الأمور ويجتمع شملها ، وتكمل نظمها التى تبنى عليها الحياة الهنية حتى يعيش العالم فى طمأنينة وهدوء ، ولن يتم ذلك إلا بعد بث الدعوة والجهاد العلمى والعملى بقتال الأعداء وخضد شوكتهم ، ومتى تمّ هذا وأنقِذ المستضعفون ودخل الناس فى دين الله أفواجا كرها ثم طوعا انتظم أمر النبوة ، وأدى الرسول واجبه واستوجب أن يجنى ثمرة أعماله ، وهى :

(١) مغفرة ما فرط من ذنبه مما يعدّ ذنبا بالنظر إلى مقامه الشريف .

(٢) تمام النعمة باجتماع الملك والنبوة بعد أن كانت له النبوة وحدها .

(٣) الهداية إلى الصراط المستقيم فى تبليغ الرسالة ، وإقامة مراسم الرياسة .

(٤) المنَعة والعزة ونفاذ الكلمة ورهبة الجانب وحمى الذمار .

فهذا الفتح كان كفيلا بهذه الشئون الأربعة ، فكأنه سبحانه يقول لرسوله : لقد بلّغتَ الرسالة ، ونصبْت فى العمل ، وجاهدت بلسانك وسيفك ، وجمعت الرجال والكُراع والسلاح ، وتلطفت وأغلظت ، وأخلصت فى عملك ، وفعلت فى وجيز الزمن مالم ينله مثلك فى طويله ، حتى تمّ ماندبناك له ، فلتجن ثمار عملك ، ولتقرّ عينا بما آل إليه أمرك فى الدنيا والآخرة .

الايضاح

(إنا فتحنا لك فتحا مبينا) أى إنا فتحنا لك فتحا ظاهرا لايختلج فيه شك بذلك الصلح الذى تم على يديك فى الحديبية ، إذ لم يمض إلا القليل من الزمن حتى

يدخل الناس فى دين الله أفواجا ، وكان هو السُّلَّم الذى فيه رَقِيتَ إلى فتح مكة ، وتسابق العرب إلى الدخول فى الدين زَرافات ووُحْدانا .

(ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر) أى ليغفر لك ربك جميع ما فرط منك من الهفوات مما يصح أن يسمى ذنبا بالنظر إلى مقامك الشريف ، وإن كان لايسمى ذنبا بالنظر إلى سواك ، ومن ثم قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

والمراد غفران الذنوب التى قبل الرسالة والتى بعدها ، قاله مجاهد وسفيان الثورى وابن جرير والواحدى وغيرهم .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن المغيرة بن شعبة قال : «كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى حتى تَرِم قدماه، فقيل له : أليس قد غفرلك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة — قلت لم يجعله علة للمغفرة ، ولكنه جعله علة لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة ، وهى المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسّرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك ، لنجمع لك بين عز الدارين ، وأغراض الآجل والعاجل اهـ .

(ويتم نعمته عليك) بإعلاء شأن دينك ، وانتشاره فى البلاد ، ورفع ذكرك فى الدنيا والآخرة .

(ويهديك صراطا مستقيما) أى ويرشدك طريقا من الدين لا اعوجاج فيه ، يستقيم بك إلى رضا ربك .

(وينصرك الله نصراً عزيزاً) أى وينصرك على من ناوأك من أعدائك نصراً ذا عزّ بالغ ، لايدفعه دافع ، لما يؤيدك به من بأس ، وينيلك من ظفر .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا(٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا(٧).

تفسير المفردات

أنزل السكينة: أى خلقها وأوجدها ، قال الراغب : إنزال الله تعالى نعمته على عبد: إعطاؤه إياها ، إما بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن ، أو بإنزال أسبابه بالهداية إليه كإنزال الحديد ونحوه اهـ. والسكينة : الطمأنينة والثبات من السكون ، إيمانا مع إيمانهم: أى يقينا مع يقينهم ، جنود السموات والأرض : أى الأسباب السماوية والأرضية ، ويكفر عنهم سيئاتهم : أى يغطيها ولا يظهرها ، والسوء : (بالضم والفتح) : المساءة ، وظن السوء : أى ظن الأمر السوء فيقولون فى أنفسهم : لاينصر الله رسوله والمؤمنين ، عليهم دائرة السوء : الدائرة فى الأصل الحادثة التى تحيط بمن وقعت عليه ، وكثر استعمالها فى المكروه ، والسوء : العذاب والهزيمة والشر (وهو بالضم والفتح لغتان) وقال سيبويه : السوء هنا الفساد ، أى عليهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين لايتخطاهم، لعنهم : أى طردهم طرداً نزلوا به إلى الحضيض ، عزيزاً : أى يغلِب ولا يُغْلَب .

المعنى الجملى

بعد أن أخبر سبحانه بأنه سينصر رسله — بيّن سبيل النصر بأنه رزقهم ثبات أقدام ليزدادوا يقينا إلى يقينهم ، ثم أخبر بأن من سننه أن يسلّط بعض عباده على بعض، وهو العليم بالمصالح واستعداد النفوس ، وقد وعد المؤمنين جنات تجرى من تحتها الأنهار وأوعد عباده الكافرين والمنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمؤمنين — بالعذاب الأليم ، وغضب عليهم وطردهم من رحمته .

روى أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » مَرْجِعَه من الحديبية ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لقد أنزلت علىّ آية أحب إلىّ مما على وجه الأرض » ثم قرأها عليهم ، فقالوا هنيئا مريئا يارسول الله ، لقد بيّن لك ماذا يَفْعَل بك ، فماذا يُفْعَل بنا ؟ فنزلت عليه « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ — حتى بلغ — فَوْزًا عَظِيماً » وأخرجه الشيخان من رواية قتادة .

الإيضاح

(هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) أى هو الذى أنزل فى قلوب المؤمنين طمأنينة وثبات أقدام عند اللقاء ومقاتلة الأعداء (وهو المسمى فى العصر الحديث الروح المعنوية فى الجيوش) ليزدادوا يقينا فى دينهم إلى يقينهم برسوخ عقيدتهم واطمئنان نفوسهم بعد أن دهمهم من الحوادث مامن شأنه أن يزعج ذوى الأحلام ، ويزلزل العقائد بصدّ الكفار لهم عن المسجد الحرام ورجوعهم دون بلوغ مقصدهم ، ولكن لم يرجع أحد منهم عن الإيمان بعد أن هاج الناس وزلزلوا زلزالا شديدا حتى إن عمر بن الخطاب لم يكن راضيا عن هذا الصلح وقال : ألسنا على الحق

وهم على الباطل ؟ وكان للصديق من القدم الثابتة ورسوخ الإيمان مادل على أنه لايجارَى ولا يبُارَى .

(ولله جنود السموات والأرض) فهو الذى يدبر أمر العالم ، ويسلط بعض جنده على بعض ، فيجعل جماعة يجاهدون لإعلاء كلمة الحق ، ويجعل آخرين يقاتلون فى سبيل الشيطان ، ولو شاء لأرسل عليهم جندا من السماء فأباد خضراءهم ، لـكنه سبحانه شرع الجهاد والقتال ، لما فى ذلك من مصلحة هو عليم بها ، وحكمة قد تغيب عنا ، وهذا ماعناه بقوله :

(وكان الله عليما حكيما) فهو لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض.

(ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما) أى وإنما دبر ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله ويشكروها فيدخلوا الجنة ما كثين فيها أبدا ، وليكفر عنهم سيئات أعمالهم بالحسنات التى يعملونها ، شكراً لربهم على ما أنعم به عليهم ، وكان ذلك ظفرا لهم بما كانوا يرجون ويسعون له ، ونجاة مما كانوا يحذرونه من العذاب الأليم ، وهذا منتهى ما يرون من منفعة مجلوبة ، ومضرة مدفوعة .

(ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء) أى وليعذب هؤلاء فى الدنيا بإيصال الهمّ والغمّ إليهم بسبب علو كلـمة المسلمين ، وبما يشاهدونه من ظهور الإسلام وقهر المخالفين ، وبتسليط النبى صلى الله عليه وسلم عليهم قتلا وأسرا واسترقاقا ، وفى الآخرة بعذاب جهنم .

وهم قد كانوا يظنون أن النبى صلى الله عليه وسلم سيغُلب ، وأن كلمة الـكفر ستعلو كلمة الإسلام ، ومما ظنوه ما حكاه الله بقوله : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » .

وإنما قدم المنافقين على المشركين ، لأنهم كانوا أشـد ضرراً على المؤمنين من الـكفار المجاهرين ، لأن المؤمن كان يتوقى المجاهر ، ويخالط المنافق لظنه إيمانه ،

وكان يفشى سره إليه ، وفى هـذا دلالة على أنهم أشد منهم عذابا ، وأحق منهم بما أوعدهم الله به .

والخلاصة — إن الفريقين ظنوا أن الله لاينصر رسوله ولاالمؤمنين على الكافرين.

وقد دعا سبحانه عليهم بأن ينزل بهم ما كانوا يظنونه بالمؤمنين من الدوائر وأحداث الزمان فقال :

(عليهم دائرة السوء) أى عليهم تدور الدوائر ، وسيحيق بهم ما كانوا يتربصونه بالمؤمنين من قتل وسبى وأسر لايتخطاهم .

ثم بين ما يستحقونه من الغضب واللعنة فقال :

(وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً) أى ونالهم غضب من الله وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ، وأعدّ لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ، وساءت منزلا يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات .

(ولله جنود السموات والأرض) من الملائكة والإنس والجن ، والصيحة والرجفة والحجارة والزلازل والخسف والغرق ونحو ذلك — أنصاراً على أعدائه إن أمرهم بإهلاكهم أهلكوهم وسارعوا مطيعين لذلك .

وفائدة إعادة هذه الجملة — بيان أن لله جنوداً للرحمة وجنوداً للعذاب ، فذكرهم أوّلا بيانا لإنزالهم للرحمة ، وأنهم يدخلون الجنة مكرمين معظمين ، وذكرهم ثانيا بيانا لإنزال العذاب على الكافرين فى نار جهنم كما قال « عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَيَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ » .

روى أنه لما جرى صلح الحديبية قال ابن أبيّ : أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدوّ ، فأين فارس والروم - فبيّن سبحانه أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم .

(وكان الله عزيزا حكيما) أى وكان الله غالبا فلا يرد بأسه ، حكيما فيما دبره لخلقه .

خلاصة ماسلف

إنه قد ترتب على هذا الفتح أربعة أشياء للنبي صلى الله عليه وسلم :

(١) مغفرة الذنوب .

(٢) اجتماع الملك والنبوّة .

(٣) الهداية إلى الصراط المستقيم .

(٤) العزة والمنعة .

وفاز المؤمنون بأربعة أشياء :

(١) الطمأنينة والوقار .

(٢) ازدياد الإيمان .

(٣) دخول الجنات .

(٤) تكفير السيئات .

وجازى الكفار بأربعة أشياء :

(١) العذاب . (٢) الغضب .

(٣) اللعنة . (٤) دخول جهنم .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ
إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ، يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى
نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) .

تفسير المفردات

شاهداً : أى على أمتك لقوله تعالى : « وَيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ » ومبشراً : أى بالثواب على الطاعة ، ونذيراً : أى بالعذاب على المعصية ، وتعزروه : أى تنصروه ، وتوقروه : أى تعظموه ، بكرة : أى أول النهار ، وأصيلا : أى آخر النهار ، والمراد جميع النهار ، إذ من سنن العرب أن يذكروا طرفى الشىء ويريدوا جميعه ، كما يقال شرقا وغربا لجميع الدنيا ، يبايعونك : أى يوم الحديبية إذ بايعوه على الموت فى نصرته والذبّ عنه كما روى عن سلمة بن الأكوع وغيره ، أو على ألا يفروا من قريش كما روى عن ابن عمر وجابر ، إنما يبايعون الله ، لأن المقصود من بيعة الرسول وطاعته طاعة الله وامتثال أوامره ، يد الله فوق أيديهم : أى نصرته إياهم أعلى وأقوى من نصرتهم إياه ، كما يقال اليد لفلان : أى الغلبة والنصرة له ، نكث : أى نقض ، يقال أوفى بالعهد ووفى به : إذا أتمه ، وقرأ الجمهور (عليه) بكسر الهاء ، وضمها حفص ، لأنها هاء هو وهى مضمومة فاستصحب ذلك كما فى له وضربه .

المعنى الجملى

بعد أن أتم الكلام على ما لكلٍّ من النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من الثمرات التى ترتبت على عمله — أعقبه بما يعمهما معا ، فذكر أنه أرسل رسوله شاهداً على أمته ، ومبشرا لها بالثواب ، ومنذرا إياها بالعقاب ، ثم أبان أن فائدة هذا الإرسال هو الإيمان بالله وتعظيمه وتسبيحه غدوة وعشيا ونصرة دينه ، ثم ذكر بيعة الحديبية (قرية صغيرة على أقل من مرحلة من مكة ، سميت باسم بئر هناك) وأن الذين بايعوا هذه البيعة إنما بايعوا الله ونصروا دينه ، وأن من نقض منهم العهد فوبال ذلك عائد إليه ، ولا يضرنّ إلا نفسه ، ومن أوفى بهذا العهد فسينال الأجر العظيم ، والثواب الجزيل .

بيعة الرضوان — بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خِراش بن أمية الخزاعى حين نزل الحديبية ، فبعثه إلى قريش بمكة ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقروا جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله ، فمنعه الأحابيش (واحدهم أحبوش ، وهو الفوج من قبائل شتى) فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليبعثه ، فقال إنى أخافهم على نفسى، لما أعرف من عداوتى إياهم وما بمكة عَدَوِىٌّ (قبيلته بنو عدى) ولكنى أدلك على رجل هو أعز بها منى وأحب إليهم — عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته ، فلقيه أبَان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة فجعله فى جواره حتى فرغ من رسالته لعظماء قريش ، ثم احتبسوه عندهم، فشاع بين المسلمين أن عثمان قد قُتل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لانبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وبايعه القوم على ألا يفرّوا أبدا إلا جدّ بن قيس الأنصارى ، فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا داعين إلى الموادعة والصلح ، وكان قد أتى رسولَ الله أن الذى بلغه من أمر عثمان كذب ، فتمّ الصلح ومشى بعضهم إلى بعض على أن يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام القابل ويدخل مكة .

روى البخارى من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيِّب : كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال خمس عشرة مائة ، والمشهور الذى رواه غير واحد أنهم كانوا أربع عشرة مائة .

الايضاح

(إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) أى إنا أرسلناك أيها الرسول شاهداً على أمتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه مما أرسلتك به إليهم ، مبشراً لهم بالجنة إن أجابوك إلى ما دعوتهم إليه من الدين القيم ، ونذيرا لهم عذاب الله إن تولّوْا وأعرضوا عما جئتهم به من عنده ، فآمنوا بالله ورسوله وانصروا دينه وعظموه وسبحوه فى الغدوّ والعشىّ .

(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) أصل البيعة العقد الذى يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للامام والوفاء بالعهد الذى التزمه له ، والمراد بها هنا بيعة الرضوان بالحديبية ، وقد بايعه جماعة من الصحابة على ألا يفروا ، منهم معْقِل بن يسار ، أى إن الذين يبايعونك بالحديبية من أصحابك على ألا يفروا عند لقاء العدو ، ولا يولّوهم الأدبار ، إنما يبايعون الله ببيعتهم إياك ، وقد ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(يد الله فوق أيديهم) أى نعمة الله عليهم بالهداية فوق ما صنعوا من البيعة كما قال تعالى : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاَ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ » .

(فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) أى فمن نقض العهد الذى عقده مع النبى صلى الله عليه وسلم فإن ضرر ذلك راجع إليه ولا يضرّنّ إلا نفسه .

(ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) أى ومن وفّى بعهد البيعة فله الأجر والثواب فى الآخرة ، وسيدخله جنات يجد فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ، وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) .

تفسير المفردات

المخلفون : واحدهم مخلَّف ، وهو المتروك فى المكان خلف الخارجين منه ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم : أى إن كلامهم من طرَف اللسان غير مطابق لما فى القلب فهو كذب صراح، والملك : إمساك بقوة وضبط ؛ تقول ملكت الشىء إذا دخل تحت ضبطك دخولا تاما ، ومنه لا أملك رأس بعيرى : إذا لم تستطع إمساكه إمساكا تاما ، والمراد بالضر : ما يضر من هلاك الأهل والمال وضياعهما ، و بالنفع : ما ينفع من حفظ المال والأهل ، ينقلب : أى يرجع ، إلى أهليهم : أى عشائرهم وذوى قرباهم ، بوراً : أى هالكين لفساد عقائدكم وسوء نياتكم ، سعيراً : أى ناراً مسعورة موقدة ملتهبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال المنافقين فيما سلف و بين أن الله غضب عليهم ولعنهم وأعدّ لهم عذاب السعير — أردف ذلك ذكر قبائل من العرب جُهَيْنَة ومُزَيْنَة وغفار

وأشجع والدِّيل وأسلم – تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استنفرهم عام الحديبية حين أراد السير إلى مكة معتمرا ، وساق معه الهدى ليُعلم أنه لا يريد حربا ، واعتلوا بأن أموالهم وأهليهم قد شغلتهم ، لكنهم فى حقيقة أمرهم كانوا ضعاف الإيمان خائفين من مقاتلة قريش وثقيف وكِنانة والقبائل المجاورة لمكة وهم الأحابيش ، وقالوا : كيف نذهب إلى قوم قد غزوه فى عُقْر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم ؟ وقالوا : لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذا السفر ، ففضحهم الله فى هذه الآية وأخبر بأنه أعدّ لهؤلاء وأمثالهم نارا موقدة تطّلع على الأفئدة ، وأعدّ للمؤمنين جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، وهو ذو مغفرة لمن أقلع من ذنبه ، وأناب إلى ربه .

الإيضاح

(سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا) أى أيها الرسول سيقول لك الذين تخلفوا عن صحبتك والخروج معك فى سفرك حين سرت إلى مكة معتمراً زائراً بيت الله الحرام وعاقبتهم على التخلف : شغلنا عن الخروج معك معالجة أموالنا و إصلاح معايشنا وأهلونا ، إذ لم يكن لنا من يقوم بتدبير شئونهم وقضاء حاجهم ، فاطلب لنا المغفرة من ربك ، إذ لم يكن تخلفنا عن عصيان لك ، ولا مخالفة لأمرك .

فرد الله عليهم وكذبهم بقوله :

(يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم) أى إنهم لم يكونوا صادقين فى اعتذارهم بأن الامتناع كان لهذا السبب ، لأنهم إنما تخلفوا اعتقادا منهم أن النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يُغْلبون بدليل قوله بعدُ : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » .

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم حين اعتذروا بتلك الأباطيل فقال :

(قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا؟) أى قل لهم: إنكم بعملكم هذا تحترسون من الضرّ وتتركون أمر الله ورسوله وتقعدون طلبا للسلامة، ولكن لو أراد الله بكم ضرا لاينفعكم قعودكم شيئا ، أو أراد بكم نفعا فلا رادّ له ، إذ من ذا الذى يمنع من قضائه ؟

وهذا ردّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع عنهم الضر ويجلب لهم النفع .

ثم أبان لهم أنه عليم بجميع نواياهم وأن ما أظهروه من العذر هو غير ما أبطنوه من الشك والنفاق فقال :

(بل كان الله بما تعملون خبيراً) فيعلم أن تخلفكم لم يكن لما أظهرتم من المعاذير ، بل كان شكا ونفاقا كما فصل ذلك بقوله :

(بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بورا) أى إن تخلفكم لم يكن لما أبديتم من الأسباب ، بل إنكم اعتقدتم أن الرسول والمؤمنين سيُقتلون وتُستأصَل شأفتهم ، فلا يرجعون إلى أهليهم أبدا ، وزين لكم الشيطان ذلك الظن حتى قعدتم عن صحبته ، وظننتم أن الله لن ينصر محمدا وصحبه المؤمنين على أعدائهم ، بل سيُغلبون ويُقتلون ، وبلغ الأمر بكم أن قلتم : إن محمدا وأصحابه أَكَلَةُ رأس (قليلو العدد) فأين يذهبون ؟ وقد صرتم بما قلتم قوما هَلْكى لاتصلحون لشىء من الخير، مُستوجبين سخط الله وشديد عقابه .

ثم أخبر سبحانه عما أعدّه للكافرين به فقال :

(ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا) أى ومن لم يصدق بما أخبر الله به ويقرّ بصدق ما جاء به رسوله من الحق من عنده ، فإنا أعتدنا له سعيرا من النار تستعر عليه فى جهنم إذا وردها يوم القيامة جزاء كفره .

ثم بين قدرته على ذلك وأنه يفعل ما يشاء لا رادّ لحكمه ، ولا معقّب لقضائه فقال :

(ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) أى ولله السلطان والتصرف فى السموات والأرض ، فلا يقدر أحد أن يدفعه عما أراد بكم من تعذيب على نفاقكم إن أصررتم عليه ، أو منعه من العفو عنكم إن أنتم تبتم من نفاقكم وكفركم .

وهذا حَسْم لأطماعهم فى استغفاره صلى الله عليه وسلم لهم وهم على هذه الحال .

ثم أطمعهم فى مغفرته وعفوه إن تابوا وأنابوا إليه فقال :

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان الله كثير المغفرة والرحمة ، يختص من يشاء بمغفرته ورحمته دون من عداهم من الكافرين فهم بمعزل عن ذلك .

وفى الآية حثّ لهؤلاء المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على التوبة والمراجعة إلى أمر الله فى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وطلب المبادرة بها ، فإن الله يغفر للتائبين ويرحمهم إذا أنابوا إليه ، وأخلصوا العمل له .

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا ، كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) .

تفسير المفردات

المراد بالمغانم : مغانم خيبر ، فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية فى ذى الحجة من سنة خمس وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية

فقتحها وغنم أموالا كثيرة خصهم بها والمراد بتبديل كلام الله الشركة فى المغانم دون أن ينصروا دين الله ويعلوا كلمته ، يفقهون : أى يفهمون والمراد بالفهم القليل فهمهم لأمور الدنيا دون أمور الدين ·

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أعتذارهم عن التخلف فيما سلف بأنه إنما كان لمعالجة معايشهم وصلاح أموالهم ، وما كان له من سبب آخر يقعدهم عن نصرته — أعقب ذلك بما يكذبهم فى هذه المعذرة ، فإنهم قد طلبوا السير مع النبى صلى الله عليه وسلم فى وقعة خيبر لما يتوقعونه من مغانم يأخذونها ، ولوكانت التعلّة السالفة حقا ما طلبوا السير معه بحال ·

ثم أخبر بأن الله سبحانه رفض طلبهم الذهاب مع رسول الله إلى خيبر ، فقالوا إن ذلك حسد من المؤمنين لهم أن ينالوا شيئا من الغنيمة ، فرد الله عليهم ما قالوا ، وأبان أنهم قوم ماديون لايسعون إلا للدنيا ، ولا يفهمون مايعلى شأن الدين و يرفع قدره .

الإيضاح

(سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم) أى سيقول لك الذين تخلفوا عنك فى عمرة الحديبية واعتلوا بشغلهم بأموالهم وأهليهم :دعونا نتبعكم ونسر معكم إلى غزوخيبر ، حين توقعوا ما سيكون فيها من مغانم. وفى هذا وعد للمبايعين الموافقين بالغنيمة ، وللمتخلفين المخالفين بالحرمان .

(يريدون أن يبدلوا كلام الله) فإنه تعالى وعـد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لايشاركهم فيها غيرهم من الأعراب ، فقد جاء فى صحيح الأخبار « إن الله وعد

أهل الحديبية أن يعوّضهم من مغانم مكة مغانم خيبر إذا قفلوا موادعين لا يصيبون شيئا .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم إقناطاً وتيئيساً من الذهاب معه إلى خيبر .

(قل لن تتبعونا) أى لا تأذن لهم فى الخروج معك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن امتناعهم عن الخروج إلى الحديبية ما حصل إلا لأنهم كانوا يتوقعون المَغْرَمَ وهو جلاد العدو ومصاولته ، ولا يتوقعون المغنم ، فلما انعكست الآية فى خيبر طلبوا ذلك فعاقبهم الله بطردهم من المغانم .

ثم أكد هذا المنع بقوله :

(كذلكم قال الله من قبل) أى هكذا قال الله لنا من قبل مرجعنا من الحديبية اليكم : إن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية معنا ، ولستم ممن شهدها ، فليس لكم أن تتبعونا لأن غنيمتها لغيركم .

ثم أخبر بأنهم سيردون عليك مقالك السابق « كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ » فقال :

(فسيقولون بل تحسدوننا) أى إن الله ما قال ذلك من قبل ، بل أنتم تحسدوننا أن نصيب معكم مغنما ، ومن ثم منعتمونا .

فردّ عليهم اتهام رسوله وصحبه بالحسد فقال :

(بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا) أى ما الأمر كما يقول هؤلاء المنافقون من الأعراب من أنكم تمنعونهم عن اتباعكم حسداً منكم لهم على أن يصيبوا معكم من العدو مغنما ، بل إنما كان لأنهم لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلا ، ولو فقهوا ما قالوا ذلك لرسوله وللمؤمنين ، بعد أن أخبرهم بأن الله منعهم غنائم خيبر .

وفى هذا إشارة إلى أن ردّهم حكم الله ، وإثبات الحسد لرسوله والمؤمنين — ناشىء من الجهل وقلة التدبر .

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ، فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧).

تفسير المفردات

قال الزهرى ومقاتل وجماعة : المراد بالقوم أولى البأس الشديد بنو حنيفه أصحاب مسيلمة الكذاب ، وقال قتادة : هم هوازن وغطفان ، وقال ابن عباس ومجاهد : هم أهل فارس ، وقال الحسن : هم فارس والروم ، قال ابن جرير : إنه لم يقم دليل من نقل ولا من عقل على تعيين هؤلاء القوم ، فلندع الأمر على إجماله دون حاجة إلى التعيين اهـ.
والبأس : النجدة وشدة المراس فى القتال ، والحرج : الإثم والذنب .

المعنى الجملى

بعد أن رفض سبحانه إشراك المتخلفين فى قتال خيبر عقابا لهم على تقاعدهم عن نصرة الله ورسوله فى الحديبية — أردف ذلك بيان أن باب القتال لا يزال مفتوحا أمامكم ، فإن شئتم أن تبرهنوا على مالكم من بلاء فى ميدان القتال فاستعدوا فستندبون إلى مواجهة قوم أولى بأس ونجدة ، فإما أن يسلموا وإما أن تبارزوهم حتى تبيدوا خضراءهم ولا تبقوا منهم ديّارا ولا نافخ نار ، فإن أجبتم داعى الله أثابكم على ما فعلتم جزيل الأجر ، وإن نكصتم على أعقابكم كما فعلتم من قبل فستجزون العذاب الأليم ،

ثم ذكر الأعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد، ومنها ماهو لازم كالعمى والعرج ، ومنها ماهو عارض يطرأ ويزول كالمرض ، ثم أعقب ذلك بالترغيب فى الجهاد والوعيد بالعذاب الأليم من مذلة فى الدنيا ، ونار موقدة فى الآخرة لمن نكل عنه وأقبل على الدنيا ، وترك ما يقرّبه من ربه .

الايضاح

(قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) أى قل لهؤلاء المخلفين الذين تقدم ذكرهم — إنكم ستندبون إلى قتال قوم من أولى البأس والنجدة ، فعليكم أن تخيّروهم بين أمرين : إما السيف ، وإما الإسلام . وهذا حكم عام فى مشركى العرب والمرتدين يجب اتباعه .

ثم وعدهم إذا أجابوا بقوله :

(فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا) أى فإن تستجيبوا وتنفروا للجهاد وتؤدوا ما طُلب منكم أداؤه — يؤتكم ربكم الأجر الحسن ، والثواب الجزيل ، فتنالوا المغانم فى الدنيا، وتدخلوا الجنة فى الآخرة.

كما أوعد من نكص على عقبه بقوله :

(وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) أى وإن تعصوا ربكم فتدْبِروا عن طاعته ، وتخالفوا أمره ، فتتركوا قتال أولى النجدة والبأس إذا دعيتم إلى قتالهم ، كما عصيتموه فى أمره إياكم بالمسير مع رسوله صلى الله عليه وسلم إلى مكة يعذبكم العذاب الأليم بالمذلة فى الدنيا ، والنار فى الآخرة .

ثم ذكر الأعذار المبيحة للتخلف عن القتال فقال:

(ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج) أى لا إثم على ذوى الأعذار إذا تخلفوا عن الجهاد وشهود الحرب مع المؤمنين إذا هم لقوا عدوهم للعلل التى بهم، والأسباب التى تمنعهم من شهودها كالعمى والعرج والمرض .

روى أنه لما نزل قوله « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ » الآية . قال أهل الزمانة : كيف بنا يا رسول الله ؟ فأنزل الله : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ » الآية .

وقال مقاتل : عذّر الله أهل الزمانة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية.

ثم رغّب سبحانه فى الجهاد وطاعة الله ورسوله ، وأوعد على تركه بقوله :

(ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتولّ يعذبه عذابا أليما) أى ومن يطع الله ورسوله فيجيب الداعى إلى حرب أعدائه أهل الشرك دفاعا عن دينه وإعلاء لكلمته — يدخله يوم القيامة جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يعص الله ورسوله فيتخلف عن القتال إذا دعى إليه — يعذبه عذابا موجعا فى نار جهنم .

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) .

تفسير المفردات

الرضا : ما يقابل السخط ، يقال رضى عنه ورضى به ورضيته ، والمراد بالمؤمنين أهل الحديبية ، ورضاه عنهم لمبايعتهم رسوله صلى الله عليه وسلم ، والشجرة : سَمُرة (شجرة طلح — وهى المعروفة الآن بالسنط) بايع المؤمنون تحت ظلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مافى قلوبهم : أى من الصدق والإخلاص فى المبايعة ، والسكينة : الطمأنينة والأمن وسكون النفس ، فتحاً قريباً : هو فتح خيبر عقب انصرافهم من

الحديبية كما علمت، مغانم كثيرة : هى مغانم خيبر ، وكانت خيبر أرضا ذات عقار وأموال قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المقاتلة فأعطى الفارس سهمين والراجل سهما ، عزيزاً : أى غالبا ، حكيما : أى يفعل على مقتضى الحكمة فى تدبير خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن بيّن حال المخلّفين فيما سلف — عاد إلى بيان حال المبايعين الذين ذكرهم فيما تقدم بقوله : « إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ » فأبان رضاه عنه لأجل تلك البيعة ، لما علم من صدق إيمانهم ، وإخلاصهم فى بيعتهم ، وأنزل عليهم طمأنينة ورباطة جأش وجازاهم بمغانم كثيرة أخذوها من خيبر بعد عودتهم من الحديبية ، وكان الله عزيزا : أى غالبا على أمره ، موجداً أفعاله وأقواله على مقتضى الحكمة .

عن سلمة بن الأكوع قال : « بينا نحن قائلون ، إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس : البيعةَ البيعةَ ، نزل روح القدس ، فثُرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قوله تعالى : « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ » الآية . فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس هنيئا لابن عفان ، يطوف بالبيت ونحن هنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف » أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه .

وأخرج البخارى عن سلمة أيضا قال : « بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، قيل على أىّ شىء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت » .

وعن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى .

الإيضاح

(لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة بيعة الرضوان ، وقد عرفت أنهم كانوا أربع عشرة مائة ، كما عرفت أسباب هذه البيعة .

ولما أراد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلّموا هذه الشجرة بعد ذلك كثر اختلافهم فيها ، فلما اشتبهت عليهم وصار كل واحد يشير إلى شجرة غير التى يشير إليها الآخر ، قال عمر : سيروا ذهبت الشجرة ، وقال ابن عمر : ما اجتمع منا اثنان على الشجرة التى بايعنا تحتها ، وكانت رحمة من الله .

وعن نافع قال : بلغ عمرَ أن أناسا يأتون الشجرة التى بويع تحتها فأمر بها فقطعت أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنَّف .

(فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا) أى فعلم مافى قلوبهم من الصدق والسمع والطاعة ، فأنزل عليهم الطمأنينة وسكون النفس ورباطة الجأش وأعطاهم جزاء ما وهبوه من الطاعة — فتح خيبرعقب انصرافهم من الحديبية كما علمت .

(ومغانم كثيرة يأخذونها) أى وعوّضهم فى العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم — فتح خيبر ، فأخذوا أموال يهودها وعقارهم وكان كثيرا ، وخصهم بأهل بيعة الرضوان لايشركهم فيه سواهم .

(وكان الله عزيزا حكيما) وكان الله ذا عزة فى انتقامه ممن انتقم من أعدائه ، حكيما فى تدبير أمور خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه .

وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللهُ بِهَا ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً (٢٣) وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) .

تفسير المفردات

المغانم الكثيرة : ما وُعد به المؤمنون إلى يوم القيامة ، فعجل لكم هذه : أى مغانم خيبر ، أيدى الناس : أى أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول منها إلى الحديبية ، آية : أى أمارة للمؤمنين يعرفون بها : (١) صدق الرسول صلى الله عليه وسلم . (٢) حياطة الله لرسوله وللمؤمنين وحراسته لهم فى مشهدهم ومغيبهم . (٣) معرفة المؤمنين الذين سيأتون بعدُ أن كلاءته تعالى ستعمهم أيضا ماداموا على الجادّة ، الصراط المستقيم : هو الثقة بفضل الله والتوكل عليه فيما تأتون وما تذرون ، وأخرى : أى مغانم أخرى هى مغانم فارس والروم ، أحاط الله بها : أى أعدها لكم وهى تحت قبضته يُظهر عليها من أراد ، لولّوا الأدبار : أى لانهزموا ، والولىّ الحارس الحامى ، والنصير : المعين والمساعد ، سنة الله : أى سنّ سبحانه غلبة أنبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الأمم كما قال : « لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » أيديهم عنكم : أى أيدى كفار مكة ، وأيديكم عنهم

ببطن مكة ، يعنى بالحديبية ، أظفركم عليهم : أى على كلته وجعلكم ذوى غلبة عليهم ، فإن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خمسمائة إلى الحديبية ؛ فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد .

المعنى الجملى

بعد أن وعدهم فيما سلف بمغانم خيبر — أردف ذلك بيان أن ما آتاهم من الفتح والمغانم ليس هو الثواب وحده ، بل الجزاء أمامهم ، وإنما عجل لهم هذه لتكون علامة عَلَى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم وحياطته له ، وحراسته للمؤمنين وليثبتكم على الإسلام ، وليزيدكم بصيرة ، وسيؤتيكم مغانم أخرى من فارس والروم وغيرهما ما كنتم تقدرون عليها لولا الإسلام ، فقد كانت بلاد العرب شبه مستعمرات لهذه الدول فأقدرهم الله عليها بعز الإسلام .

ثم ذكر أنه لوقاتلكم أهل مكة ولم يصالحوكم لانهزموا ولم يجدوا وليًّا ولا نصيرا يدافع عنهم ، وتلك هى سنة الله من غلبة المؤمنين ، وخذلان الكافرين ، ثم امتنّ على عباده المؤمنين بأنه كفّ أيدى المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدى المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، فصان كلاًّ من الفريقين عن الآخر ، وأوجد صلحا فيه خِيرة للمؤمنين ، وعافية لهم فى الدنيا والآخرة .

الايضاح

(وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجّل لكم هذه وكفّ أيدى الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما) أى وعدكم الله مغانم كثيرة من غنائم أهل الشرك إلى يوم القيامة ، ولكن عجل لكم مغانم خيبر ، وكف أيدى اليهود عن

المدينة بعد خروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية وخيبر قاله قتادة واختاره ابن جرير الطبرى ، لتشكروه ولتكون أمارة للمؤمنين يعلمون بها أن الله حافظهم وناصرهم على أعدائهم على قلة عددهم ، وليهديكم صراطا مستقيما بانقيادكم لأمره ، وموافقتكم رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويزيدكم يقينا بصلح الحديبية وفتح خيبر.

روى إياس بن سلمة قال : حدثنى أبى قال : « خرجنا إلى خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل عمّى عامرٌ يرتجز بالقوم ثم قال :

تاللهِ لولا اللهُ ما اهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صلّينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا ... فثبّت الأقدامَ إن لاقَيْنا

وأنزلَنْ سكينةً علينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من هذا ؟ قال: أنا عامر ، قال: غفر لك ربك (وما استغفر لأحد إلا استشهد) قال : فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له ، يانبى الله لو أمتعتنا بعامر ، فلما قدمنا خيبر خرج قائدهم مَرْحَبٌ يخطِر بسيفه ويقول :

قد علمت خَيْبَرَ أنى مرحبٌ ... شاكى السلاح بطل مُجَرَّب

إذا الحرب أقبلتْ تلتهب

فبرز له عامر بن عثمان فقال :

قد علمت خيبر أنى عامر ... شاكى السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب فى تُرْس عامر ، فرجع سيف عامر على نفسه ، فقطع أكحله (الأكحل : عرق فى اليد) فكانت فيها نفسه ، قال فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى فقلت يارسول الله بطل عمل عامر ، فقال من قال ذلك ؟ قلت ناس من أصحابك ، قال من قال ذلك ؟ بل له أجره مرتين ، ثم أرسلنى إلى علىّ وهو أرمد وقال : لأعطينّ الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فأتيت

عليًّا فجئت به أقوده وهو أرمد حتى أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فتفل فى عينيه فبرئ وأعطاه الراية فخرج مرحب وقال :

أنا الذى سمتنى أمى مرحب شاكى السلاح بطل مجرّب

فقال علىّ كرم الله وجهه :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره كليث غابات كريه المنْظَرَهْ
أكيلكم بالسيف كيل السَّنْدَرَه (١)

قال : فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه » .

(وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها) أى ووعدكم الله فتح بلاد أخرى لم تقدروا عليها ، قد حفظها لكم حتى تفتحوها ، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها كفارس والروم ، أقدركم عليهم بعز الإسلام وقد كنتم قبل ذلك مستضعفين أمامهم لا تستطيعون دفعهم عن أنفسكم .

(وكان الله على كل شىء قديرا) أى وكان الله على كل ما يشاء من الأشياء ذا قدرة لا يتعذر عليه شىء .

(ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لا يجدون وليًّا ولا نصيرا) يقول سبحانه مبشرا عباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصرهم عليهم ولانهزم جيش الكفر فارًّا مُدْبراً لا يجد وليًّا يتولى رعايته ويكلؤه ويحرسه ، ولا نصيراً يساعده ، لأنه محارب لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين .

(سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى هذه هى سنة الله فى خلقه ، ما تقابل الكفر والإيمان فى موطن فيصَل إلا نصر الله المؤمنين على الكافرين

(١) السندرة : مكيال واسع ، وكيلهم بها : قتلهم قتلا واسعا ذريعا .

ورفع الحق ووضع الباطل كما نصر يوم بدر أولياءه المؤمنين على قلة عَددهم وعُددهم ، وكثرة المشركين وكثرة عُددهم .

(وهو الذى كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) أى إن الله كفّ أيدى المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية يلتمسون غِرّتهم ليصيبوا منهم ، فبعث رسول الله سرِيّة ، فأتى بهم أسرى ، ثم خلى سبيلهم ولم يقتلهم منةً منه وفضلا .

روى أحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حُميد ومسلم وأبو داود والنسائى فى آخرين عن أنس قال : « لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح من جبَل التنعيم (التنعيم : موضع بين مكة وسَرِف) فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم فنزلت هذه الآية : « وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ » الخ .

وروى أحمد عن عبد الله بن مُغفَّل المزنى رضى الله عنهما قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصل الشجرة التى قال الله فى القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان على بن أبى طالب وسهيل بن عمرو بين يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ رضى الله عنه — اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فأخذ سهيل بيده وقال : مانعرف الرحمن الرحيم ، اكتب فى قضيتنا ما نعرف . قال اكتب باسمك اللهم — وكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة ، فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله ، اكتب فى قضيتنا مانعرف ، فقال اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ؛ فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابًّا عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . هل جئتم فى عهد أحد ؟ وهل جعل لكم أحد أمانا ؟

فقالوا لا ، فخلّى سبيلهم فأنزل الله تعالى : (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) الآية .

(وكان الله بما تعملون بصيرا) أى وكان الله بأعمالكم وأعمالهم بصيرا لايخفى عليه شىء منها ، وهو مجازيكم ومجازيهم بها .

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ، وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً (٢٦) .

تفسير المفردات

الهدى : مايقدّم قُرْبانا لله حين أداء مناسك الحج أوالعمرة ، معكوفا : أى محبوسا تقول عكفت الرجل عن حاجته : إذا حبسته عنها ، محله : أى المكان الذى يسوغ فيه نحره وهو منى ، والوطء : الدوس ، والمراد به الإهلاك ، وفى الحديث « اللهم اشدد وطأتك على مضر » ، والمعرة : المكروه والمشقة ، من عرّه إذا عراه ودهاه بما يكره والتزيل : التفرق والتميز ، والحميّة : الأنفة ، يقال حميتُ من كذا حميّة إذا أنفت منه وداخلك منه عار ، والمراد بها ثوران القوة الغضبية ، وحمية الجاهلية : حمية فى غير

موضعها لا يؤيدها دليل ولا برهان ، وكلمة التقوى هى : لا إله إلا الله ، وأهلها : أى المستأهلين .

المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف أن الله كف أيدى المؤمنين عن الكافرين ، وكف أيدى الكافرين عن المؤمنين — عيّن هنا مكان الكف وهو البيت الحرام الذى صدّوا المؤمنين عنه ، ومنعوا الهدْى معكوفا أن يبلغ محله ، والسبب الذى لأجله كفوهم هو كفرهم بالله ، ثم أخبرهم بأنه لولا أن يقتلوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لاعلم لهم بهم فيلزمهم العار والإثم — لأذن لهم فى دخول مكة ، ولقد كان الكف ومنع التعذيب عن أهل مكة ليُدخل الله فى دين الإسلام من يشاء منهم بعد الصلح وقبل دخولها ، وليمنعنّ الأذى عن المؤمنين منهم ، ولو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما بالقتل والسبى حين جعلوا فى قلوبهم أنفة الجاهلية التى تمنع من الإذعان للحق ، ولكن أنزل الله الثبات والوقار على رسوله وعلى المؤمنين فامتنعوا أن يبطشوا بهم ، وألزمهم الوفاء بالعهد وكانوا أحق بذلك من غيرهم إذ اختارهم الله لدينه وصحبة نبيه .

روى أنه لما همّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو وحُوَيْطب بن عبد العُزّى ومِكْرِز بن حفص ليسألوه أن يرجع فى عامه على أن تخلّى قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام فأجابهم وكتبوا بينهم كتابا ، فقال عليه الصلاة السلام لعلىّ ورضى الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم،فقالوا لانعرف هذا : اكتب باسمك الله ، ثم قال عليه السلام : اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة ، فقالوا لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك ، اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة ، فقال صلى الله عليه وسلم اكتب ما يريدون ،

فهمّ المؤمنون أن يأبَوْا ذلك وأن يبطشوا بهم ، فأنزل الله السكينة عليهم فتوقّروا واحتملوا كل هذا ، وقد تقدم ذلك برواية أخرى .

الإيضاح

(هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله) أى هم الذين جحدوا توحيد الله وصدوكم أيها المؤمنون بالله عن دخول المسجد الحرام وصدوا الهدى محبوسا أن يبلغ مَحِلّ نحره وهو الحرم عنادا منهم و بغيا ، وكان رسول الله ساق معه حين خرج إلى مكة فى سفرته تلك سبعين بدنة .

(ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم) أى ولولا هؤلاء الذين يكتمون إيمانهم خيفة على أنفسهم — وهم بين أظهرهم — لسلّطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم ، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات من لاتعرفونهم حين القتل ، ولو قتلتموهم للحقتكم المعرة والمشقة ، بما يلزمكم فى قتلهم من كفارة وعيب .

والخلاصة — إنه لولا وجود مؤمنين مختلطين بالمشركين غير متميزين منهم — لوقع ما كان جزاءهم لصدهم وكفرهم ، ولوحصل ذلك لزمكم العيب ؛ إذيقول المشركون إن المسلمين قتلوا أهل دينهم .

(ليدخل الله فى رحمته من يشاء) أى وقد حال بينكم و بين قتالهم لدخول مكة : إخراج المؤمنين من بين أظهرهم ، وليدخل فى دينه من يشاء منهم قبل أن تدخلوها .

عن أبى جمعة جنيد بن سبع قال : « قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم أول النهار كافرا وقاتلت معه آخر النهار مسلما ، وفينا نزلت : ولولا رجال الخ . وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين » ، وفى رواية ابن أبى حاتم : « كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة » أخرجه الطبرانى وأبو يعلى وابن مردويه .

(لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) أى لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم لسلطناكم عليهم فقتلتموهم قتلا ذريعا .

ولما بين شرط استحقاقهم للعذاب بيّن وقته فقال :

(إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) أى لعذبناهم حين جعلوا فى قلوبهم أنفة الجاهلية ، فامتنع سهيل بن عمرو أن يكتب فى كتاب الصلح الذى بين رسول الله والمشركين (بسم الله الرحمن الرحيم) وأن يكتب فيه (محمد رسول الله) وامتنع هو وقومه أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عامه هذا المسجد الحرام ، فأنزل الله الصبر والطمأنينة على رسوله ، ففهم عن الله مراده وجرى على ما يرضيه ، وأنزله على المؤمنين فألزمهم أمره وقبلوه ، وحماهم من همزات الشياطين ، وألزمهم كلمة التوحيد والإخلاص لله فى العمل ، وكانوا أحق بها ، وكانوا أهلها ، إذ هم أهل الخير والصلاح .

(وكان الله بكل شىء عليما) سواء أكان من المؤمنين أم من الكفار فيجازى كلا بما عمل .

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) .

تفسير المفردات

الرؤيا : هى رؤيا منام وحُلْم ، وصدق الله رسوله الرؤيا : أى صدّقه فى رؤياه ولم يكذِبه ، محلقين رءوسكم ومقصرين : أى يحلق بعضكم ويقصّر بعض آخر بإزالة بعض الشعر ، ليظهره على الدين كله : أى ليعليه على سائر الأديان حقها وباطلها ، وأصل الإظهار جعل الشىء باديا ظاهرا للرائى ثم شاع استعماله فى الإعلاء .

المعنى الجملى

رأى عليه الصلاة والسلام فى المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هووأصحابه آمنين ، منهم من يحلق ومنهم من يقصر ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم هذا ، فلما انصرفوا لم يدخلوا شق ذلك عليهم ، وقال المنافقون : أين رؤياه التى رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا فى العام المقبل .

ومما روى « أن عمر بن الخطاب قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلتُ : ألستَ نبى الله حقا ؟ قال بلى ، قلت فلم نعطَى الدنية فى ديننا إذن ؟ قال إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى ، قلتُ : أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر : أليس هذا نبى الله حقا ؟ قال بلى ، قلت ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت فلم نعطَى الدنية فى ديننا ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصِى ربه وهو ناصره ، فاستَمْسِكْ بغرْزِه (سر على نهجه) فوالله إنه لعلى الحق ، قلت : أليس كان يحدثنا أنه سيأتى البيت ويطوف به ؟ قال بلى . قال فأخبرَك أنه آتيه العام ؟ قلتُ لا ، قال فإنك تأتيه وتطوف به » .

الايضاح

(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون ، فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) أى لقد صدق الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم رؤياه التى أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه البيت الحرام آمنين لايخافون أهل الشرك ، محلقا بعضهم ومقصرا بعضهم الآخر، فعلم جل ثناؤه مالم تعلموا ، وذلك هو علمه تعالى بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين الذين لم يعلمهم المؤمنون ، ولو دخلوها هذا العام لوطئوهم بالخيل والرّجْلِ ، فأصابتهم منهم معرة بغير علم ، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك ، فجعل من دون دخولهم المسجد فتحا قريبا هو صلح الحديبية وفتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر اليوم الموعود.

ثم أكد صدق الرسول فى الرؤيا بقوله :

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) أى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ، ليبطل به الملل كلها بنسخ سائر الديانات ، وإظهار فساد العقائد الزائفات ، حتى لايكون دين سواه .

ولما كان هذا وعدا لابد من تحققه أعقبه بقوله :

(وكفى بالله شهيدا) على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان كائن لامحالة .

وفى هذا تسلية له على ما وقع من سهيل بن عمرو ، إذ لم يرض بكتابة « محمد رسول الله » وقال ما قال .

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ

السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) .

تفسير المفردات

أشداء : واحدهم شديد ، رحماء : واحدهم رحيم ، فضلا : أى ثوابا ، والسيماء والسيمياء من السومة (بالضم) وهى العلامة قال :

غلامٌ رماه الله بالحسن يافعا له سيمياء لا تشق على البصر

مثلهم : أى وصفهم العجيب الجارى مجرى الأمثال فى الغرابة ، والشطء : فروخ الزرع ، وهو ما خرج منه وتفرع فى شاطئيه : أى جانبيه وجمعه أشطاء ، وشطأ الزرع وأشطأ: إذا أخرج فراخه ، وهو فى الحنطة والشعير والنخل وغيرها ،وآزره : أعانه وقوّاه وأصله من المؤازرة وهى المعاونة ، واستوى على سوقه : أى استقام على قصبه وأصوله ، والسوق ، واحدها ساق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ، ليعلى شأنه على سائر الأديان أردف هذا بيان حال الرسول والمرسل إليهم ، فوصفهم بأوصاف كلها مدائح لهم ، وذكرى لمن بعدهم ، وبها سادوا الأمم ، وامتلكوا الدول ، وقبضوا على ناصية العالم أجمع ، وهى :

(١) إنهم غلاظ على من خالف دينهم وناوأهم العداء ، رحماء فيما بينهم .
(٢) إنهم جعلوا الصلاة والإخلاص لله دَيْدَنهم فى أكثر أوقاتهم .
(٣) إنهم يرجون بعملهم الثواب من ربهم والزلفى إليه ورضاه عنهم .

(٤) إنهم لهم سيمى يعرفون بها ، فلهم نور فى وجوههم ، وخشوع وخضوع يعرفه أولو الفطن .

(٥) إن الإنجيل ضرب بشأنهم المثل فقال : سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر .

ذاك أنهم فى بدء الإسلام كانوا قليلى العدد ثم كثروا واستحكموا وترقى أمرهم يوما فيوما حتى أُعْجِبَ الناس بهم ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قام وحده ثم قوّاه الله بمن معه كما يقوّى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتفّ بها مما يتوالد منها .

الإيضاح

(محمد رسول الله) أى إن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله بلا شك ولا ريب مهما أنكر المنكرون ، وافترى الجاحدون .

(والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) أى إن صحابته الذين معه غليظة قلوبهم على الكفار ، رقيقة قلوب بعضهم على بعض ، لينة أنفسهم لهم ، هينة عليهم .

ونحو الآية قوله : « فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » وقوله : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » وفى الحديث «مثل المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا ما اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمّى والسهر » وقوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وشبك بين أصابعه » وعلى هذا جاء قوله :

حليم إذا ما الحلم زين أهله		على أنه عند العدو مهيب

(تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) أي تراهم دائبين على الصلاة مخلصين لله محتسبين فيها الأجر وجزيل الثواب عنده طالبين رضاه عنهم « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » .

(سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) أى لهم سمت حسن وخشوع وخضوع يظهر أثره فى الوجوه ، ومن ثم قيل : إن للحسنة نوراً فى القلب ، وضياء فى الوجه وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الناس . وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه .

روى عن عمر أنه قال : من أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، وعن أبى سعيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوّة لخرج عمله للناس كائنا ما كان » .

والخلاصة — إن كل ما يفعله المرء أو يتصوره يظهر على صفحات الوجه ، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله عز وجل ظاهره للناس .

ثم أخبر سبحانه أنه نوّه بفضلهم فى الكتب المنزلة والأخبار المتداولة فقال :

(ذلك مثلهم فى التوراة) أى هذه الصفة التى وصفت لكم من صفات أتباع محمد صلى الله عليه وسلم هى صفتهم فى التوراة .

(ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع) أى إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يكونون قليلين ثم يزدادون ويكثرون ويستغلظون كزرع أخرج فراخه التى تتفرع على جانبيه كما يشاهد فى الحنطة والشعير وغيرهما ، فيقوى ويتحول من الدقة إلى الغلظ ، ويستقيم على أصوله ، فيُعْجَب به الزراعُ لقوّته وكثافته وغلظه وحسن منظره .

والخلاصة — إن هذا مثل ضربه الله لبدء الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم وأعجب الناس .

روى أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أرحم أمتى أبو بكر ، وأشدهم فى أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم علىّ ، وأفرضهم زيد ، وأقرؤهم أبىّ ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح » .

ثم بين أنه إنما جعلهم كذلك :

(ليغيظ بهم الكفار) أى إنه تعالى نمّاهم وأكثر عددهم ليغيظ بهم الكفار ، إذ يعتقدون أن الله متمّ بهم نوره ولو أبى الجاحدون .

[تنبيه] هذه أوصاف الأمة الإسلامية أيام عزها ، فانظر الآن وتأمل فى تخاذلها وجهلها حتى أصبحت مثلا فى الخمول والجهل ، وأصبحت زرعا هشيما تذروه الرياح ، فكيف يجتمع عصفه وتبنه ؟

ولعل الله يبدل الحال غير الحال ويخضرّ الزرع بعد ذبوله ، وتعود الأمة سيرتها الأولى مهيبة مرعية الجانب مخشية القوة .

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) أى وعد سبحانه هؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يغفر ذنوبهم ويجزل أجرهم بإدخالهم جنات النعيم ، ووعدُ الله حق وصدق لا يُخْلَف ولا يبدل .

وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو فى حكمهم ، ولهم السبق والفضل والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نَصِيفه (نصفه) » رضى الله عنهم وأرضاهم .

[خاتمة] هذه السورة آخر القسم الأول من القرآن الكريم وهو المطول ، وسيأتى القسم الثانى ، وهو المفصل :

خلاصة مقاصد هذه السورة

(١) بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بالفتح و إعزاز دين الله .

(٢) وعد المؤمنين ووعيد الكافرين والمنافقين .

(٣) ذم المخلَّفين من عرب أسْلَمَ وجُهينة ومُزينة وغِفار .

(٤) رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، ووعده إياهم بالنصر فى الدنيا ، و بالجنة فى الآخرة .

(٥) البشرى بتحقق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، وقد تمّ لهم ذلك فى العام المقبل .

(٦) وصف النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه بالرحمة والشدة .

(٧) وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والأجر العظيم .

سورة الحجرات

هى مدنية آيها ثمانى عشرة ، نزلت بعد سورة المجادلة .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) ذكر فى هذه قتال البغاة ، وفى تلك قتال الكفار .

(٢) إن السابقة ختمت بالذين آمنوا ، وافتتحت هذه بهم .

(٣) إن كلا منهما تضمن تشريفا وتكريما للرسول صلى الله عليه وسلم ولا سيما فى مطلعيهما .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) .

تفسير المفردات

لاتقدموا : أى لاتتقدموا ، من قولهم مقدمة الجيش لمن تقدم منهم ، قال أبو عبيدة : العرب تقول : لاتُقَدِّم بين يدى الإمام وبين يدى الأب : أى لاتعجل بالأمر دونه ، وقيل إن المراد لاتقولوا بخلاف الكتاب والسنة، ورُجِّح هذا ، لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى : أى إذا كلمتموه ونطق ونطقتم فلا تَبْلغوا بأصواتكم وراء

الحد الذى يبلغه بصوته، يغضون أصواتهم : أى يخفضونها و يُلينونها ، امتحن الله قلوبهم : أى طهّرها ونقاها كما يمتحن الصائغ الذهب بالإذابة والتنقية من كل غشّ.

المعنى الجملى

ذكرت سورة الفتح بعد سورة القتال لأن الأولى كالمقدمة والثانية كالنتيجة وذكرت هذه بعد الفتح ، لأن الأمة إذا جاهدت ثم فتح الله عليها والنبى صلى الله عليه وسلم بينها ، واستتبّ الأمر ، وجب أن توضع القواعد التى تكون بين النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكيف يعاملونه ؟ وكيف يعامل بعضهم بعضا ؟ فطلب إليهم ألا يقطعوا أمراً دون أن يحكم الله ورسوله به ولا أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبى صلى الله عليه وسلم ولا أن يجهروا له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ، لما فى ذلك من الاستخفاف الذى قد يؤدى إلى الكفر المحبط للأعمال .

الإيضاح

أدب الله المؤمنين إذا قابلوا الرسول بأدبين : أحدهما فعل ، وثانيهما قول ، وأشار إلى أولهما بقوله :

(١) (يأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) أى يأيها المؤمنون لاتعجلوا بالقضاء فى أمر قبل أن يقضى الله ورسوله لكم فيه ، إذ ربما تقضون بغير قضائهما ، وراقبوا الله أن تقولوا مالم يأذن لكم الله ورسوله به ، إن الله سميع لما تقولون ، عليم بما تريدون بقولكم إذا قلتم ، لايخفى عليه شىء من ضمائر صدوركم .

و بنحو هذا أجاب معاذ بن جبل رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن قال له « بم تحكم ؟ قال بكتاب الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم فإن لم تجد ، قال بسنة رسوله ، قال صلى الله عليه وسلم فإن لم تجد ، قال أجتهد رأيى ،

فضرب فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسوله لما يرضى رسوله» رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

فتراه قد أخر رأيه واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه لكان من المتقدمين بين يدى الله ورسوله .

والخلاصة — إنه طلب إليهم أن ينقادوا لأوامر الله ونواهيه ، ولا يعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول الرسول أو أن يفعل ، فلا يذبحوا يوم عيد الأضحى قبل أن يذبح ، ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهى عنه .

وأشار إلى ثانيهما بقوله :

(٢) (يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) أى إذا نطق ونطقتم فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته ، ولا تبلغوا بها وراء الحد الذى يبلغه ، لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام ، وترك الاحترام .

روى البخارى بسنده عن ابن أبى مُلَيْكة « أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه أخبره أنه قدم ركب من تميم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر رضى الله عنه: أمِّر القَعْقاع بن مَعْبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : ما أردتَ إلا خلافى ، فقال عمر رضى الله عنه : ما أردتُ خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت : (يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم) الآية . فكان أبو بكر بعدها لايكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأخى السرار ، وما حدّث عمر النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض صوته » .

ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) أى وإذا كلمتموه وهو صامت فإياكم أن تبلغوا به الجهر الذى يدور بينكم ، أو أن تقولوا يامحمد، ياأحمد ، بل خاطبوه بالنبوة مع الإجلال والتعظيم ، خشية أن يؤدى ذلك إلى الاستخفاف بالمخاطب فتكفروا من حيث لاتشعرون.

ولما نزلت هذه الآية تخلف ثابت بن قيس عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إليه صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : لقد أنزلت هذه الآية و إنى رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون عملى قد حبط ، فقال عليه الصلاة والسلام : لستَ هناك ، إنك تعيش بخير وتموت بخير ، و إنك فى أهل الجنة ، فقال : رضيت ببشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أرفع صوتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا ، فأنزل الله :

(إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) أى إن الذين ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة حتى طهرت وصفت بما كابدت من الصبر على المشاقّ ، لهم مغفرة لذنوبهم ، وأجر عظيم لغضهم أصواتهم ولسائر طاعاتهم .

روى أحمد فى الزهد عن مجاهد قال : كُتِب إلى عمر ، يا أمير المؤمنين رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر رضى الله عنه ، إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم).

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) .

تفسير المفردات

من وراء الحجرات : أى من خارجها سواء كان من خلفها أو من قدامها ، إذ أنها من المواراة وهى الاستتار ، فما استتر عنك فهو وراء ، خلفا كان أو قداما ، فإذا رأيته

لايكون وراءك . ويرى بعض أهل اللغة أن وراء من الأضداد فتطلق تارة على ما أمامك ، وأخرى على ما خلفك ، والحجرات (بضم الجيم وفتحها وتسكينها) واحدها حجرة : وهى القطعة من الأرض المحجورة ؛ أى الممنوعة عن الدخول فيها بحائط ونحوه، والمراد بها حجرات نسائه عليه الصلاة والسلام ، وكانت تسعة لكل منهن حجرة من جريد النخل على أبوابها المسوح من شَعَرَ أسود ، وكانت غير مرتفعة يتناول سقفُها باليد ، وقد أدخلت فى عهد الوليد بن عبد الملك بأمره فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى الناس لذلك .

وقال سعيد بن المسيِّب يومئذ : لودِدت أنهم تركوها على حالها لينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فيكون ذلك مما يزهد الناس فى التفاخر والتكاثر فيها .

المعنى الجملى

ذم الله تبارك وتعالى الذين ينادون رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات وهو فى بيوت نسائه كما يفعل أجلاف الأعراب ، ثم أرشدهم إلى مافيه الخير والمصلحة لهم فى دينهم ودنياهم ، وهو أن ينتظروا حتى يخرج إليهم .

روى ابن جرير بسنده عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : « اجتمع ناس من العرب فقالوا انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكا نعش بجناحه ، قال : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته يا محمد يامحمد، فأنزل الله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون) قال . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذنى فمدها وجعل يقول : لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد . لقد صدق الله قولك يا زيد » .

وقال قتادة : نزلت فى وفد تميم وكانوا سبعين رجلا منهم الزِّبْرِقان بن بدر وعطارد ابن حاجب وقيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم ، جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم للمفاخرة ، فنادَوْا على الباب : اخرج إلينا يامحمد ، فإن مدحنا لزَيْن ، وإن ذمنا لشَيْن ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : إنما ذلكم الله الذى مدحه زين ، وذمه شين ، فقالوا : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال رسول الله : ما بالشعر بُعِثْتُ ، ولا بالفَخَار أُمِرْت ، ولكن هاتوا فقام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه ، فقال صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن شماس وكان خطيب النبى صلى الله عليه وسلم ، قم فأجبه فأجابه ، وقام الزِّبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرامُ فلا حىٌّ يعادلنا ... منا الملوك وفينا تُنْصَبُ البِيَعُ

إلى أن قال :

فلا ترانا إلى حىّ يفاخرهم ... إلا استفادوا فكانوا الرأس يُقْتَطَعُ

فمن يفاخرُنا فى ذاك نعرفه ... فيرجع القوم والأخبارُ تُسْتَمع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت أجبه فقال :

إن الذوائب من فِهْرٍ وإخوتهم ... قد بيّنوا سنة للناس تُتَّبَعُ

يرضى بها كل من كانت سريرَتَهُ ... تقوى الإله وكل الخير يَصْطَنِعُ

قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

سجيّةٌ تلك منهمْ غير محدثة ... إنّ الخلائق فاعلمْ شرُّها البِدَعُ

فى قصيدة طويلة ، فلما فرغ حسان من قوله ، قال الأقرع بن حابس : وأبى إن هذا الرجل لمؤَتًى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، ثم دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أشهد

أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يضرك ما كان من قبل هذا ، ثم جوّزهم فأحسن جوائزهم .

الإيضاح

(إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) أى إن الذين ينادونك من وراء حجرات نسائك أكثرهم جهال بما يجب لك من الإجلال والتعظيم .

والمراد بالحجرات موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه .

(ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم) أى ولو أن هؤلاء الذين ينادونك من وراء الحجرات صبروا ولم ينادوك حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم عند الله ، لأنه قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك .

(والله غفور رحيم) أى والله ذو عفو عمن ناداك من وراء الحجاب إن هو تاب من معصيته بندائك كذلك ، وراجع أمر الله فى ذلك وفى غيره ، رحيم به أن يعاقبه على ذنبه ذلك من بعد توبته منه .

والخلاصة — إن الله سبحانه هجّن الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم فى حال خلوته من وراء الجُدُر كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه إلى فظاعة ما جسّروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يُجْهَر له بالقول يكون صنيع مثل هؤلاء معه من المنكر الذى يبلغ من التفاحش مبلغا لا يقدر قدره .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ (٦) وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ

الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨) .

تفسير المفردات

الفاسق: هو الخارج عن حدود الدين، من قولهم: فسق الرطب إذا خرج من قشره والتبين : طلب البيان ، والنبأ : الخبر ، قال الراغب : ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة وبه يحصل علم أو غلبة ظن بجهالة : أى جاهلين حالهم ، فتصبحوا : أى فتصيروا ، نادمين : أى مغتمّين غما لازما متمنين أنه لم يقع ؛ فإن الندم الغم على وقوع شيء مع تمنى عدم وقوعه ، لَعَنِتُّمْ : أى لوقعتم فى الجهد والهلاك ، والكفر: تغطية نعم الله تعالى بالجحود لها ، الفسوق : الخروج عن الحد كما علمت ، والعصيان : عدم الانقياد ، من قولهم : عصت النواة : أى صلبت واشتدت ، والرشاد : إصابة الحق واتباع الطريق السوىّ .

المعنى الجملى

أدب الله عباده المؤمنين بأدب نافع لهم فى دينهم ودنياهم — أنه إذا جاءهم الفاسق المجاهر بترك شعائر الدين بأىّ خبر ، لايصدقونه بادى ذى بدء حتى يتثبتوا ، ويتطلبوا انكشاف الحقيقة ولا يعتمدوا على قوله ، فإن من لايبالى بالفسق لايبالى بالكذب الذى هو من فصيلته — كراهة أن يُصيبوا بأذى قوما هم جاهلون حالهم ، فتندموا على ما فرط منكم ، وتتمنوا أنه لولم يكن قد وقع .

روى عن ابن عباس « أن الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وكان قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق ليأخذ الصدقات ، فلما أتاهم الخبر فرحوا به وخرجوا يستقبلونه ، فلما حُدِّث بذلك الوليد حسب أنهم جاءوا لقتاله ،

فرجع قبل أن يدركوه وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم منعوا الزكاة ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا ، و بينما هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا يا رسول الله : إنا حُدِّثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق ، و إنا خشينا أنه إنما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا ، و إنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فأنزل الله عذرهم فى الكتاب فقال : (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ) الآية » . أخرجه أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، وقال ابن كثير : وهذا من أحسن ما روى فى سبب نزول الآية .

وقال الرازى : هذه الرواية ضعيفة لأن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد بعيد ، لأنه توهم وظن فأخطأ ، والمخطىء لايسمى فاسقا ، كيف والفاسق فى أكثر المواضع يراد به من خرج من ربقة الإيمان لقوله : « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » اه .

ثم بين أن صحبه كانوا يريدون أن يتبع رأيهم فى الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعوا فى العنت والهلاك ، ولكن الله حبب إلى بعضهم الإيمان وزينه فى قلوبهم وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وهؤلاء أهل الرشاد والسالكون الطريق السوىّ .

الايضاح

(يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) أى يأيها المؤمنون إن جاءكم الفاسق بأى نبإ فتوقفوا فيه وتطلّبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا على قوله ، فإن من لايبالى بالفسق فهو أجدر ألا يبالى بالكذب ولا يتحاماه — خشية إصابتكم بالأذى قوما أنتم جاهلون حالهم ، فتندموا على ما فرّط منكم وتتمنّوا أن لو لم تكونوا فعلتم ذلك .

ثم وعظهم سبحانه بعظة هم أحرى الناس باتباعها فقال :

(واعلموا أن فيكم رسول الله) أى واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه

ووقروه وتأدبوا معه وانقادوالأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم كما قال تعالى: « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ » .

ثم بين أن رأيه أنفع لهم وأجدر بالرعاية فقال :

(لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم) أى لو سارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر وأجاب ما أشرتم به عليه من الآراء لوقعتم فى الجهد والإثم ، ولكنه لايطيعكم فى غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له ، ولا يسارع إلى العمل بما يبلُغه قبل النظر فيه .

عن أبى سعيد الخدرى أنه قرأ هذه الآية وقال : هذا نبيكم يوحَى إليه ، وخيار أئمتكم لو أطاعهم فى كثير من الأمر لعنتوا ، فكيف بكم اليوم ، أخرجه الترمذى .

ثم استدرك على ما سلف لبيان براءة بعضهم من أوصاف الأولين فقال :

(ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان) أى ولكنّ جمعا منكم بَرَآء مما أنتم عليه من تصديق الكاذب وتزيين الإيقاع بالبرىء وإرادة أن يتبع الحق أهواءهم ، لأن الله تعالى جعل الإيمان أحب الأشياء إليهم ، فلا يقع منهم إلا ما يوافقه ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع فى الأخبار ، وكرّه إليهم هذه الأمور الثلاثة : الكفر والفسوق والعصيان .

والخلاصة — إن الإيمان الكامل إقرار باللسان ، وتصديق بالجنان وعمل بالأركان ، فكراهة الكفر فى مقابلة محبة الإيمان ، وتزيينه فى القلوب هو التصديق بالجنان ، والفسوق وهو الكذب فى مقابلة الإقرار باللسان ، والعصيان فى مقابلة العمل بالأركان .

(أولئك هم الراشدون) أى هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم السالكون طريق السعادة ولم يميلوا عن الاستقامة .

(فضلا من الله ونعمة) أى هذا العطاء الذى منحكموه تفضل منه عليكم وإنعام من لدنه .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بمن يستحق الهداية ، ومن يستحق الغواية ، حكيم فى تدبير شئون خلقه وصرفهم فيما شاء من قضائه .

والخلاصة — إن رسول الله بين أظهركم وهو أعلم بمصالحكم ، لو أطاعكم فى جميع ما تختارونه لأدّى ذلك إلى عنتكم ووقوعكم فى مهاوى الردى ، ولكنّ بعضا منكم حبّب إليهم الإيمان فى قلوبهم ، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وأولئك هم الذين أصابوا الحق ، وسلكوا سبيل الرشاد .

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

تفسير المفردات

الطائفة : الجماعة أقل من الفرقة بدليل قوله : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ » فأصلحوا بينهما : أى فكفوهما عن القتال بالنصيحة أو بالتهديد والتعذيب ، بغت: أى تعدّت وجارت ، تفىء : أى ترجع ، وأمر الله : هو الصلح ، لأنه مأمور به فى قوله : « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » فأصلحوا بينهما بالعدل : أى بإزالة آثار القتال بضمان المتلفات بحيث يكون الحكم عادلا حتى لا يؤدى النزاع إلى الاقتتال مرة أخرى، وأقسطوا : أى واعدلوا فى كل شأن من شئونكم وأصل الإقساط : إزالة القَسْط (بالفتح) وهو الجور ، والقاسط : الجائر كما قال : « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا »

والإخوة فى النسب ، والإخوان فى الصداقة ، واحدهم أخ ، وقد جعلت الأخوّة فى الدين كالأخوّة فى النسب وكأن الإسلام أب لهم قال قائلهم :

أبى الإسلامُ لا أبَ لى سواهُ إذا افتخروا بقَيْسٍ أو تميم

المعنى الجملى

بعد أن حذر سبحانه المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق — بين هنا ما ربما ترتب على خبره من النزاع بين فئتين وقد يئول الأمر إلى الاقتتال ، فطَلب من المؤمنين أن يزيلوا ما نُتِج من كلامه ، وأن يصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى ترجع إلى الصلح بدفعها عن الظلم مباشرة إن أمكن ، أو باستعداء الحاكم عليها ، وإن كان الباغى هو الحاكم فالواجب على المسلمين دفعه بالنصيحة فما فوقها بشرط ألا تثير فتنة أشدّ من الأولى .

ثم تمم الإرشاد وأبان أن الصلح كما يلزم بين الفئتين — يجب بين الأخوين ، ثم أمرهم بتقوى الله ووجوب اتباع حكمه وعدم الإهمال فيه رجاء أن يرحمهم إذا هم أطاعوه ولم يخالفوا أمره .

روى قتادة أن الآية نزلت فى رجلين من الأنصار كان بينهما مدارأة فى حق ، فقال أحدهما للآخر : لآخذنّ حقى منك عَنْوَة ، لكثرة عشيرته ، ودعاه الآخر ليحاكمه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتّبعه ، فلم يزل الأمر بينهما حتى تدافعوا وتناول بعضهم بعضا بالأيدى والنعال ، ولم يكن قتال بالسيوف .

الايضاح

(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) أى وإن اقتتلت طائفتان من أهل الإيمان ، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم الله والرضا بما فيه ، سواء كان لهما أو عليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل .

(فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) أى فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم الله وتعدت ما جعله الله عدلا بين خلقه ، وأجابت الأخرى فقاتلوا التى تعتدى وتأبى الإجابة إلى حكمه حتى ترجع إليه وتخضع طائعة له .

(فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل) أى فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياها إلى الرضا بحكم الله — فأصلحوا بينهما بالإنصاف والعدل حتى لا يتجدد بينهما القتال فى وقت آخر .

ثم أمرهم سبحانه بالعدل فى كل أمورهم فقال :

(وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) أى واعدلوا فى كل ما تأتون وما تذرون ، إن الله يحب العادلين فى جميع أعمالهم ويجازيهم أحسن الجزاء .

وفى الصحيح عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قلت : يا رسول الله: هذا نصرته مظلوما ، فكيف أنصره ظالما ؟ قال: تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه » .

(إنما المؤمنون إخوة) أى إنهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للسعادة الأبدية ، وفى الحديث « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يعيبه ، ولا يخذُله ، ولا يتطاول عليه فى البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه ، ولا يؤذيه بقُتار قدره إلا أن يغرف له غَرفة، ولا يشترى لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يُطعمونهم منها ، ثم قال احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل » وفى الصحيح أيضا : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب : قال الملَك : آمين ولك بمثله » .

ولما كانت الأخوّة داعية إلى الإصلاح ولابد — تسبب عن ذلك قوله :

(فأصلحوا بين أخويكم) فى الدين كما تصلحون بين أخويكم فى النسب .

(واتقوا الله) فى كل ما تأتون وما تذرون ، ومن ذلك ما أمرتم به من إصلاح ذات البين .

(لعلكم ترحمون) أى رجاء أن يرحمكم ربكم ويصفح عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه واتبعتم أمره ونهيه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) .

تفسير المفردات

السخرية : الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يُضْحَك منه ، يقال سخر به وسخر منه ، وضحك به ومنه ، وهزىء به ومنه ؛ والاسم السخرية والسخرى (بالضم والكسر) وقد تكون بالمحاكاة بالقول أو بالفعل أو بالإشارة أو بالضحك على كلام المسخور منه إذا غلط فيه ، أو على صنعته ، أو على قبح صورته .

والقوم : شاع إطلاقه على الرجال دون النساء كما فى الآية وكما قال زهير :

وما أدرى وسوف إخالُ أدرى أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساء

ولا تلمزوا أنفسكم : أى لا يعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة باليد أو العين أو نحوهما، والمؤمنون كنفس واحدة فتى عاب المؤمنُ المؤمنَ فكأنما عاب نفسه ، والتنابز : التعاير والتداعى بما يكرهه الشخص من الألقاب ، والاسم : الذكر والصيت ، من قولهم : طار اسمه بين الناس بالكرم أو اللؤم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبى صلى الله عليه وسلم ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق ، بيّن ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ، فذكر أنه لاينبغى أن يسخر منه ولا أن يعيبه بالهمز واللمز ، ولا أن يلقبه باللقب الذى يتأذى منه ، فبئس العمل هذا ، ومن لم يتب بعد ارتكابه فقد أساء إلى نفسه وارتكب جرُما كبيرا .

روى أن الآية نزلت فى وفد تميم إذ كانوا يستهزئون بفقراء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كعمار وصُهَيْب و بلال وخبّاب وابن فُهَيْرة وسلمان الفارسى وسالم مولى أبى حذيفة فى آخرين غيرهم لما رأوا من رثاثة حالهم .

وروى أنها نزلت فى صفيَّة بنت حُيَىّ بن أخطب رضى الله عنها : أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « إن النساء يقلن لى : يايهودية بنت يهوديين ، فقال لها : هلاّ قلتِ: أبى هارون ، وعمى موسى، وزوجى محمد » .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم) أى لايهزأ ناس من المؤمنين بآخرين: ثم ذكر العلة فى ذلك فقال :

(عسى أن يكونوا خيراً منهم) أى فقد يكون المسخور منهم خيراً عند الله من الساخرين كما جاء فى الأثر « فربّ أشعث أغبر ذى طِمْرَين لايؤبه له ، لوأقسم على الله تعالى لأبرّه » .

فينبغى ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه لرثاثة حاله ، أو لكونه ذا عاهة فى بدنه ، أو لكونه غير لبق فى محادثته ، فلعله أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقّره الله تعالى .

(ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن) أى ولا يسخر نساء من نساء عسى أن يكون المسخور منهن خيرا من الساخرات ، وأتى بالجمع فى الموضعين ، من قِبَل أن الأغلب فى السخرية أن تكون فى مجامع الناس ، وكم من متلذذ بها ، وكم من متألم منها .

روى الترمذى عن عائشة قالت : حكيت للنبى صلى الله عليه وسلم رجلا فقال : « ما يسرنى أنى حكيت رجلا وأن لى كذا وكذا ، قالت فقلت يارسول الله إن صفية امرأة وقالت[1] بيدها هكذا تعنى أنها قصيرة ، فقال : لقد مزحتِ بكلمة لو مُزِجت بماء البحر لمزجته » .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وفى هذا إيماء إلى أن المرء لا يقطع بمدح أحد أو عيبه كما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة ، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفا مذموما لا تصح معه تلك الأعمال ، ولعل من رأينا منه تفريطا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يُغْفَرله بسببه ، فالأعمال أمارات ظنية ، لا أدلة قطعية .

(ولا تلمزوا أنفسكم) أى ولا يعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة على وجه الخِفْية .

وفى قوله : «أنفسكم» تنبيه إلى أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغى أن يعيب غيره لأنه كنفسه ، ومن ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى » وقال عليه الصلاة والسلام : « يبصر أحدكم القذاة[2] فى عين أخيه و يدع الجِذْع فى عينه » ؟

(١) تطلق العرب القول على جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان توسعا فى الاستعمال .
(٢) ما يقع فى العين والماء والتراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .

وقيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره . قال الشاعر :

لاتكشفنْ من مساوى الناس ماستروا ... فيهتك الله ســترا عن مساويكا

واذكر محاسن ما فيهـم إذا ذكروا ... ولا تعب أحــداً منهم بما فيكا

(ولا تنابزوا بالألقاب) أى لايَدْع بعضكم بعضا باللقب الذى يسوءه ويكرهه كأن يقول لأخيه المسلم : يا فاسق ، يا منافق ، أو يقول لمن أسلم : يا يهودى ، أو يا نصرانى .

قال قتادة وعكرمة عن أبى جبيرة بن الضحاك قال : فى بنى سلمة نزلت (ولاتنابزوا بالألقاب) قدم رسول الله صلى الله عليـه وسلم المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فـكان إذا دعا واحدا باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه يكرهه فنزلت . أخرجه البخارى فى الأدب وأهل السنن وغيرهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : التنابز بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب وراجع الحق ، فنهى الله تعالى أن يعيّر بما سلف من عمله .

أما الألقاب التى تكسب حمداً أو مدحا وتكون حقًّا وصدقا فلا تـكره كما قيل لأبى بكر : عَتِيق ، ولعمر : الفاروق ، ولعثمان : ذو النورين ، ولعلى : أبو تراب ، ولخالد سيف الله .

(بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) أى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يُذْكروا بالفسوق بعد دخولهم فى الإيمان واشتهارهم به .

وفى هذا إيماء إلى استقباح الجمع بين الأمرين كما تقول بئس الصبوة بعد الشيخوخة أى معها .

(ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) أى ومن لم يتب من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه من الألقاب، أو لمزه إياه، أو سخريته منه ، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم فأكسبوها عقاب الله بعصيانهم إياه .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢) .

تفسير المفردات

اجتنبوا : أى تباعدوا ، وأصل اجتنبته : كنت منه على جانب ، ثم شاع استعماله فى التباعد اللازم له ، والإثم : الذنب ، والتجسس : البحث عن العورات والمعايب والكشف عما ستره الناس ، والغيبة : ذكر الإنسان بما يكره فى غيبته، فقد روى مسلم وأبو داود والترمذى « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيتَ لو كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، و إن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه » .

المعنى الجملى

أدب الله عباده المؤمنين بآداب إن تمسكوا بها دامت المودة والوئام بينهم : منها ما تقدم قبل هذا ، ومنها ما ذكره هنا من الأمور العظام التى تزيد توثيق رباط المجتمع الإسلامى قوة وهى :

(١) البعد عن سوء الظن بالناس وتخوّنهم فى كل مايقولون وما يفعلون ، لأن بعض ذلك قد يكون إثما محضا فليجتنَبْ كثير منه ، وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : ولا تظننّ بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا ، وأنت تجد لها فى الخير محملا .

(٢) البحث عن عورات الناس ومعايبهم .

(٣) عدم ذكر بعضهم بعضا بما يكرهون فى غيبتهم ، وقد مثل الشارع المغتاب بآكل لحم الميتة استفظاعا له .

قال قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها ، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حىّ .

الايضاح

(يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن) أى يأيها الذين آمنوا ابتعِدوا عن كثير من الظن بالمؤمنين ، بأن تظنوا بهم السوء ما وجدتم إلى ذلك سبيلا ، ففى الحديث « إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء » .

ولا يحرم سوء الظن إلا ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة ، أما من يجاهر بالفجور كمن يدخل إلى الحانات أويصاحب الغوانى الفواجر فلا يحرم سوء الظن به .

أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن سعيد بن المسيِّب قال : كتب إلىّ بعض إخوانى من أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم . أن ضعْ أمر أخيك على أحسنه مالم يأتك مايغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت تجد لها فى الخير محملا، ومن عرّض نفسه للتهم فلا يلومنّ إلا نفسه ، ومن كتم سره كانت الخِيَرة فى يده ، وما كافأتَ من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وعليك بإخوان الصدق فكن فى اكتسابهم، فإنهم زينة فى الرخاء ، وعُدّة عند عظيم البلاء ، ولا تتهاون بالحلف فيهينك الله تعالى ، ولا تسألنْ عما لم يكن حتى يكون ، ولا تضع حديثك إلا عند من تشتهيه ، وعليك بالصدق و إن قتلك ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا مَنْ خَشِى الله ، وشاورْ فى أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب .

ثم علل الأمر باجتناب كثير من الظن بقوله :

(إن بعض الظن إثم) أى إن ظن المؤمن بالمؤمن الشرّ إثم ، لأن الله قد نهاه عنه ففعله إثم . ونحو الآية قوله : « وظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » .

قال ابن عباس فى الآية : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءا اهـ .

ثم لما أمرهم سبحانه باجتناب كثير من الظن نهاهم عن التجسس فقال :

(ولا تجسسوا) أى ولا يتتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره يبتغى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا أو ذموا ، لا على ما تعلمون من الخفايا .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » التجسس : البحث عما يكتم عنك ، والتحسس : طلب الأخبار والبحث عنها ، والتناجش : البيع على بيع غيرك (الزيادة عليه) والتدابر : الهجر والقطيعة .

وعن أبى بَرْزَة الأسلمى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لاتغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى عُقْر بيته » .

وروى الطبرانى عن حارثة بن النعمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث لازمات لأمتى : الطِّيَرَةُ والحسد وسوء الظن ، فقال رجل وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إذا حسدتَ فاستغفر الله ، وإذا ظننتَ فلا تحقّق ، وإذا تطيرت فامض » .

وقال عبد الرحمن بن عوف : حرست ليلة مع عمر بن الخطاب بالمدينة ، إذ تبين لنا سراج فى بيت بابُه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولَغَط ، فقال عمر : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شَرْب ، فما ترى ؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال تعالى : « وَلاَ تَجَسَّسُوا » وقد تجسسنا ، فانصرف عمر وتركهم .

وقال أبو قِلابة : حُدِّث عمر بن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثقفى يشرب الخمر مع أصحاب له فى بيته ، فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل ، فقال أبو محجن: إن هذا لا يحل لك ، قد نهاك الله عن التجسس . فخرج عمر وتركه .

(ولا يغتب بعضكم بعضا) أى ولا يذكر بعضكم بعضا بما يكره فى غيبته ، والمراد بالذكر الذكر صريحا أو إشارة أو نحو ذلك مما يؤدى مؤدى النطق، لما فى ذلك من أذى المغتاب ، وإيغار الصدور وتفريق شمل الجماعات ، فهى النار تشتعل فلا تُبْقى ولا تذر ، والمراد بما يكره ما يكرهه فى دينه أو دنياه أو خَلقه أو خُلُقه أو ماله أو ولده أو زوجته أو خادمه أو ملبسه أو غير ذلك مما يتعلق به .

قال الحسن : الغيبة ثلاثة أوجه كلها فى كتاب الله : الغيبة ، والإفك ، والبهتان .

(١) فأما الغيبة : فهى أن تقول فى أخيك ما هو فيه .

(٢) وأما الإفك: فأن تقول فيه ما بلغك عنه .

(٣) وأما البهتان : فأن تقول فيه ما ليس فيه .

ولا خلاف بين العلماء فى أن الغيبة من الكبائر وأن على من اغتاب أحدا التوبة إلى الله أو الاستغفار لمن اغتابه أو الاستحلال منه .

وعن شعبة قال : قال لى معاوية بن قُرَّة : لو مرَّ بك رجل أقطع (مقطوع اليد) فقلت هذا أقطع كان غيبة ، قال شعبة فذكرته لأبى إسحاق فقال صدق .

ثم ضرب سبحانه مثلا للغيبة للتنفير والتحذير منها فقال :

(أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) أى أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته؟ فإذا كنتم لا تحبون ذلك بل تكرهونه لأن النفس تعافه ، فكذلك فاكرهوا أن تغتابوه فى حياته .

والخلاصة — إنكم كما تكرهون ذلك طبعا فاكرهوا ذلك شرعا لما فيه من شديد العقوبة .

وقد شبهت بأكل اللحم لما فيها من تمزيق الأعراض المشابه لأكل اللحم وتمزيقه ، وقد جاء هذا على نهج العرب فى كلامهم . قال المُقَنّع الكِندى :

فإن أكلوا لحمى وفَرْتُ لحومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجداً

وقد زادت الآية فجعلت اللحم لحم أخ ميت تصويرا له بصورة بشعة تستقذرها النفوس جميعا .

سمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس ، وقيل لعمرو بن عُبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك ، قال : إياه فارحموا .

وقال رجل للحسن البصرى : بلغنى أنك تغتابنى ، فقال : لم يبلغ قدرك عندى أن أحكمك فى حسناتى .

وقد ثبت فى الصحيح من غير وجه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حين خطب فى حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

(واتقوا الله) أى فاكرهوا الغيبة ، واتقو الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ، وراقبوه واخشَوه .

ثم علل هذا بقوله :

(إن الله تواب رحيم) أى إن الله يتوب على من تاب إليه عما فرط منه من الذنب ، رحيم به أن يعذبه بعد توبته .

ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة حين صدورها منه ، بأن يُقْلِع عنها ويندم على ما فرط منه ، ويعزم عزما مؤكدا على ألا يعود إلى مثل ما فرط منه .

ولا تحرم الغيبة إذا كانت لغرض صحيح شرعا لا يتوصل إليه إلا بها ، وينحصر ذلك فى ستة أمور :

(١) التظلم ، فلمن ظُلم أن يشكو لمن يظن أنه يقدر على إزالة ظلمه أو تخفيفه .

(٢) الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته .

(٣) الاستفتاء، فيجوز للمستفتى أن يقول للمفتى : ظلمنى فلان بكذا فهل يجوز له ذلك .

(٤) تحذير المسلمين من الشر كجَرْح الشهود والرواة والمتصدّين للافتاء مع عدم أهليتهم لذلك ، وكأن يشير وإن لم يُستشَر على مريد التزوج أو مخالطة غيره فى أمر دينى أو دنيوى ويقتصر على ما يكفى ، فإن احتاج إلى ذكر عيب أو عيبين ذكر ذلك .

(٥) أن يجاهروا بالفسق كالمدمنين على شرب الخمور وارتياد محالّ الفجور ، ويتباهوا بما يفعلون .

(٦) التعريف بلقب أو نحوه ، كالأعور والأعمش ونحو ذلك إذا لم تمكن المعرفة بغيره .

والأمة مجمعة على قبح الغيبة وعظم آثامها مع ولوع الناس بها حتى إن بعضهم ليقولون : هى صابون القلوب ، وإن لها حلاوة كحلاوة التمر ، وضراوة كضراوة الخمر .

يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) .

تفسير المفردات

من ذكر وأنثى : أى من آدم وحواء ، قال إسحاق الموصلى :

الناس فى عالم التمثيل أكفاء	أبوهم آدم والأم حوّاء
فإن يكن لهم فى أصلهم شرف	يفاخرون به فالطين والماء

والشعوب : واحدهم شعب (بفتح الشين وسكون العين) وهو الحى العظيم المنتسب إلى أصل واحد كربيعة ومضر ، والقبيلة دونه كبكر من ربيعة ، وتميم من مضر . وحكى أبو عبيدة أن طبقات النسل التى عليها العرب سبع : الشعب ، ثم القبيلة ، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة، ثم العشيرة ، وكل واحد منها يدخل فيما قبله ، فالقبائل تحت الشعوب ، والعمائر تحت القبائل ، والبطون تحت العمائر ، والأفخاذ تحت البطون ، والفصائل تحت الأفخاذ ، والعشائر تحت الفصائل ، فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة (بفتح العين وكسرها) وقصىّ بطن ، وعبد مناف فخذ ، وهاشم فصيلة ، والعباس عشيرة ، وسمى الشعب شعبا لتشعب القبائل منه كتشعب أغصان الشجرة .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فيما سلف عن السخرية بالناس والازدراء بهم ، وعن اللمز والتنابز بالألقاب — ذكر هنا مايؤكد النهى ويؤيد ذلك المنع ، فبين أن الناس جميعا من أب واحد وأمّ واحدة ، فكيف يسخر الأخ من أخيه ؟ إلى أنه تعالى جعلهم شعوبا وقبائل مختلفة ، ليحصل بينهم التعارف والتعاون فى مصالحهم المختلفة ، ولا فضل لواحد على آخر إلا بالتقوى والصلاح وكمال النفس ، لا بالأمور الدنيوية الزائلة .

ذكر أبو داود أن الآية نزلت فى أبى هند وكان حجام النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نزوج بناتنا موالينا ؟ فأنزل الله عز وجل : « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ » الآية .

الايضاح

(يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى)أى إنا أنشأناكم جميعا من آدم وحواء، فكيف يسخر بعضكم من بعض، ويلمز بعضكم بعضا وأنتم إخوة فى النسب، وبعيد أن يعيب الأخ أخاه أو يلمزه أو ينبزه .

وعن أبى مُليكة قال: لما كان يوم فتح مكة رَقِيَ بلال فأذَّن على ظهر الكعبة فقال عتَّاب بن أسيد بن أبى العيص : الحمد لله الذى قبض أبى حتى لايرى هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : ماوجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيره ، فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا، فأنزل الله الآية زجرا لهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء ، وبين أن الفضل بالتقوى .

وروى الطبرى قال : « خطب رسول الله بمنى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال :

يأيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لافضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ قالوا نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب » .

وعن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه ، وإنما أنتم بنو آدم ، وأحبكم إليه أتقاكم » .

(وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) أى للتعارف لا للتناكر ، واللمزُ والسخرية والغيبة تفضى إلى ذلك .

ثم ذكر سبب النهى عن التفاخر بالأنساب بقوله :

(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أى إن الأكرم عند الله الأرفع منزلة لديه عز وجل فى الآخرة والدنيا هو الأتقى ، فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى ، فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بها .

روى ابن عمر رضى الله عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم فتح مكة وهو على راحلته فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ، ثم قال : أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عَيْبَةَ الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل برٌّ تقى كريم على الله ، ورجل فاجر شقى هيِّنٌ على الله تعالى ، إن الله عز وجل يقول : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ثم قال : أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

(إن الله عليم خبير) أى إن الله عليم بكم و بأعمالكم ، خبير بباطن أحوالكم ، فاجعلوا التقوى زادكم لدى معادكم .

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) .

تفسير المفردات

الأعراب : سكان البادية ، آمنّا : أى صدّقنا بما جئت به من الشرائع ، وامتثلنا ما أُمرنا به ، فالإيمان هو التصديق بالقلب . أسلمنا : أى انقدنا لك ، ودخلنا فى السِّلْم وهو ضد الحرب: أى فلسنا حربا للمؤمنين، ولاعونا للمشركين، لايلتكم: أى لاينقصكم ، يقال: لاته يليته إذا نقصه، حكى الأصمعى عن أم هشام السلولية « الحمد لله الذى لا يُفات ولا يُلات ولا تُصِمُّه الأصوات » يمنون عليك : أى يذكرون ذلك ذكر من اصطنع لك صنيعة ، وأسدى إليك نعمة .

المعنى الجملى

بعد أن حثّ الناس على التقوى — وبّخ من فى إيمانه ضعف من الأعراب الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم وَغِلَة ، لأنهم كانوا يريدون المغانم وعَرَض الدنيا ، إذ جاءوا فى سنة مجدبة ، وكانوا يقولون لرسوله صلى الله عليه وسلم : جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، يريدون بذكر ذلك الصدقة والمنّ على النبى صلى الله عليه وسلم ، فأطلع الله نبيه على مكنون ضمائرهم، وأنهم لم يؤمنوا إيمانا حقيقيا ، وهوالذى وافق القلب فيه اللسان ، وأمرهم أن يقولوا : استسلمنا وخضعنا ، ثم أخبرهم بأنهم إن اتقوا الله حق تقاته وفّاهم أجورهم كاملة غير منقوصة ، ثم بين أن من علامة الإيمان الكامل التضحية بالنفس والمال فى سبيل الله ببذلهما فى تقوية دعائم الدين وإعلاء شأنه وخضد شوكة العدو بكل السبل الممكنة ، ثم أعقب هذا بأن الله يعلم ماهم عليه من إيمان ضعيف

أو قوى ؛ إذ لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وأنه لا ينبغى للمؤمن أن يمتنّ على الرسول بإيمانه ، بل من حق الرسول أن يمتنّ عليه بأن وُفّق للهداية على يديه إن كان صادق الإيمان . ثم ختم الآيات بالإخبار عن واسع علمه ، وإحاطته بمكنون سرّ خلقه فى السموات والأرض لا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما ، وهو البصير بما يعمل عباده من خير أو شر ، قال مجاهد: نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة (وكانوا يجاورون المدينة) قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين حقًّا .

وقال السُّدِّىّ : نزلت فى الأعراب المذكورين فى سورة الفتح : أعراب مُزَيْنة وجُهينة وأسلم وغِفار والدِّيل وأشجع ، قالوا آمنا ليأمَنوا على أنفسهم وأموالهم ، فلما استُنفِروا إلى المدينة تخلفوا .

الايضاح

(قالت الأعراب آمنا) أى قالت الأعراب : صدقنا بالله ورسوله ونحن له مؤمنون فردّ الله عليهم مكذبا لهم مع عدم التصريح بذلك فقال :

(قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) أى قل لهم : إن الإيمان هو التصديق مع طمأنينة القلب والوثوق بالله ولم يحصل لكم بعدُ ، بدليل أنكم مننتم على الرسول بترك مقاتلته ، ولكن قولوا: انقدنا لك واستسلمنا ، ولا ندخل معك فى حرب ، ولا نكون عونا لعدوك عليك .

وجاءت الآية على هذا الأسلوب ، ولم يقل لهم كذبتم ، ولكن قولوا أسلمنا ، حملا له عليه السلام على الأدب فى التخاطب ليتأسّى به أتباعه ، فيلينوا لمن يخاطبونهم فى القول .

(ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) أى قولوا أسلمنا فحسب ، لأنه لم يدخل الإيمان

فى قلوبكم بعدُ ، إذ لم يوافق القلب ماجرى به اللسان ، ولم يكن لشرائع الدين ولا آدابه أثر فى أعمالـكم ، فلم تتغذَّ بها أرواحكم ، ولم تصطبغ بهديها نفوسكم .

قال الزجاج : الإسلام إظهار الخضوع وقبول ما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم و بذلك يحقن الدم ، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك هو الإيمان وصاحبه المؤمن اهـ .

(و إن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالـكم شيئا) أى و إن تطيعوا الله ورسوله وتخلصوا له فى العمل وتتركوا النفاق لاينقص سبحانه من أجوركم شيئاً ، بل يضاعف ذلك أضعافا كثيرة .

ولما كان الإنسان كثير الهفوات مهما اجتهد ـ ذكر أنه غفور لزلاته فقال :

(إن الله غفور رحيم) أى إنه ستار للهفوات، غفار لزلات من تاب وأناب وأخلص لربه ، رحيم به أن يعذبه بعد التوبة ، بل يزيد فى إكرامه ، و يصفح عن آثامه .

ثم بين سبحانه حقيقة الإيمان بقوله :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) أى إنما المؤمنون حق الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله ، ثم لم يشكوا ولم يتزلزلوا ، بل ثبتوا على حال واحدة ، وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم فى طاعة الله ورضوانه — أولئك هم الصادقون فى قولهم : آمنا ، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الايمان إلا الـكلمة الظاهرة ، وقد دخلوا الملة خوفا من السيف ، ليحقنوا دماءهم و يحفظوا أموالهم .

ثم أكد ما سبق من قوله : لم تؤمنوا بقوله :

(قل أتعلّمون الله بدينكم ؟) أى قل لهم : أتخبرون الله بما فى ضمائركم ، وما تنطوى عليه جوانحكم من صادق الإيمان بقولـكم : آمنا حقا .

(والله يعلم مافى السموات ومافى الأرض) فلا يخفى عليه مثقال ذرة فيهما .

وفى هذا تجهيل وتوبيخ لهم لايخفى أمره .

(والله بكل شىء عليم) فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائر صدوركم فتنالكم عقوبته ، إذ لايخفى عليه شىء .

(يمنون عليك أن أسلموا) أى يَعدّون إسلامهم ومتابعتهم لك ونصرتهم إياك مِنّة يطلبون منك أجرها ، فقد قالوا جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان و بنو فلان .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهم عند المنّ عليه بما يدّعونه من الإسلام فقال :

(قل لاتمنوا علىّ إسلامكم) أى لاتعدوا إسلامكم الذى سميتموه إيمانًا منة علىّ ، فإن الإسلام هو المنة التى لايطلب مُوليها ثوابا بالمن أنعم بها عليه ، ومن ثم قال :

(بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) أى بل الله هو الذى يمن عليكم ، إذ أمدكم بتوفيقه وهدايته للإيمان إن كنتم صادقين فى إيمانكم .

وفى هذا إيماء إلى أنهم كاذبون فى ادعائهم الإيمان .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للأنصار يوم حنين « يامعشر الأنصار ، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا بلى ، الله ورسوله أمنُّ وأفضل » .

والخلاصة — إن الله تعالى سمى ما كان منهم إسلاما وخضوعا لا إيمانا إظهارا لكذبهم فى قولهم آمنا ، ثم لما منّوا على رسول الله بما كان منهم قال سبحانه لرسوله : أيعتدّون عليك بما ليس جديرا أن يعتد به من إسلامهم الذى سموه إيمانا وليس بذاك ؟ بل الله هو الذى يعتد عليهم إيمانهم إن صدقوا ، فهو قد أمدّهم بهديه وتوفيقه . ثم أعاد الإخبار بعلمه بجميع الكائنات ، و بصره بأعمال المخلوقات فقال:

(إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون) أى إن الله يعلم ما غاب فيهما ، وهو بصير بسركم وعلانيتكم ، لايخفى عليه مافى ضمائركم .

وفى ذلك رمز إلى أنهم كاذبون فى إيمانهم ، و إعلان للنبى صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين بما فى أنفسهم .

خلاصة ما تضمنته السورة الكريمة

مباحث هذه السورة قسمان : قسم بين النبى صلى الله عليه وسلم وأمته ، وقسم يخص أمته وهو إما ترك للرذائل و إما تحلية بالفضائل : والقسم الأول هو :

(١) ألا يقضى المؤمنون فى أمر قبل أن يقضى الله ورسوله فيه .

(٢) الهيبة والإجلال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وألاتتجاوز أصواتهم صوته .

(٣) ألا يخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضا ، بل يخاطبونه بالنبى والرسول .

(٤) إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك هم المتقون .

(٥) إن من نادوه من وراء الحجرات كعُيينة بن حِصن ومن معه أكثرهم لا يعقلون .

(٦) ذمّ المنّ على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالإيمان .

والقسم الثانى هو :

(١) ألا نسمع كلام الفاسق حتى نتثبّت منه وتظهر الحقيقة .

(٢) إذا بغت إحدى طائفتين من المؤمنين على أخرى وجب قتال الباغية حتى تفىء إلى أمر الله .

(٣) حبب الله الصلح بين المؤمنين .

(٤) النهى عن السخرية واللمز والتنابز .

(٥) النهى عن سوء الظن بالمسلم وعن تتبع العورات المستورة وعن الغيبة والنميمة .

(٦) الناس جميعا سواسية مخلوقون من ذكر وأنثى ، لافضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

سورة قٓ

هى مكية إلا آية ٣٨ فمدنية ، وآيها خمس وأربعون ، نزلت بعد المرسلات .

ومناسبتها لما قبلها ــ أنه أشار فى آخر السورة السابقة إلى أن إيمان أولئك الأعراب لم يكن إيمانا حقا ، وذلك يقتضى إنكار النبوة وإنكار البعث ، وافتتح هذه السورة بما يتعلق بذلك .

حدّث مسلم وغيره عن جابر بن سَمُرة أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ هذه السورة فى الركعة الأولى من صلاة الفجر .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى عن أبى واقد الليثى «أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى العيد بقاف واقتربت» .

وأخرج أبو داود والبيهقى وابن ماجه عن أم هشام ابنة حارثة قالت «ما أخذت (قٓ والقرآن المجيد) إلا من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بها فى كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس» .

وكل ذلك دليل على أنه كان يقرأ بها فى المجامع الكبيرة كالعيدين والجُمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) .

تفسير المفردات

المجيد من المجد ، وهو كما قال الراغب : السعة فى الكرم من قولهم : مَجَدتِ الإبل إذا وقعت فى مرعى كثير واسع ، وُصف به القرآن لكثرة ما تضمنه من المكارم الدنيوية والأخروية ، رجع بعيد : أى بعث بعد الموت بعيد عن الأوهام ، ما تنقص الأرض : أى ما تأكل من لحوم موتاهم وعظامهم ، حفيظ : أى حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، بالحق : أى بالنبوة الثابتة بالمعجزات ، مريج : أى مضطرب من قولهم : مَرَجَ الخاتم فى إصبعه إذا قلق من الهزال .

الإيضاح

(قٓ) تقدم أن قلنا غير مرة إن الحروف المفردة . التى جاءت فى أوائل السور حروف لتنبيه السامع إلى ما يرد بعدها ، وأكثر ما جاء ذلك إذا ورد بعدها وصف القرآن كما هنا .

(والقرآن المجيد) أقسم الله سبحانه بكتابه الكثير الخير والبركة — إنك أيها الرسول جئتهم منذرا بالبعث ، يدل على ذلك قوله تعالى « يٰسٓ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ — إلى أن قال — لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ » .

(بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) أى إنك جئتهم منذرا بالبعث ، فلم يقبلوا ولم يكتفوا بالشك فى أمرك وردّ رسالتك ، بل جزموا بنفيها، وجعلوها من عجائب الأمور التى تستحق الدهشة ، وكثير التأمل والاعتبار .

ثم فسر تعجبهم وفصّل محل التعجب وهو إنذاره بالقرآن فقال :

(فقال الكافرون هذا شىء عجيب) أى فقال المكذبون بالله ورسوله من قريش إذ جاءهم منذر منهم : هـذا شىء عجيب، أى إن مجىء رجل منا برسالة من الله إلينا

أمر عجيب ، هلا أنزل إلينا ملكا فيكون لنا نذيرا ، كما حكى عنهم من قولهم : « أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ » وقوله حكاية عنهم « قالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا » .

و بعد أن أظهروا التعجب من رسالته أظهروا استبعاد ما جاء به فقالوا :

(أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) أى أحين نموت ونصير ترابا نرجع كما يقول النذير ؟ إن ذلك الرجوع بعد الموت لبعيد عن الأوهام ، لايصدّقه العقل وتحيله العادة .

ثم أشار إلى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه فقال :

(قد علمنا ماتنقص الأرض منهم) أى قد علمنا ما تأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم ، ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان ، وأين ذهبت ، و إلى أين صارت ؟ فلا يصعب علينا البعث ولا يستبعد .

ثم أكد علمه بجميع الأشياء فقال :

(وعندنا كتاب حفيظ) أى وعندنا كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، وهذا تمثيل لحال علمه تعالى للكائنات جميعا علما كاملا بعلم من عنده كتاب حفيظ يتلقى منه كل شيء ، فيضبط ما يعلم أتم الضبط و يحصيه أكمل الإحصاء .

ثم حكى عنهم ماهو أفظع من تعجبهم وهو تكذيبهم بالنبوة الثابتة بالمعجزات من أول وهلة بلا تدبر ولا تفكر فقال :

(بل كذبوا بالحق لما جاءهم) أى بل كذبوا ، بالنبوة التى قامت الأدلة على صدقها وأيدتها المعجزات الباهرة ، وهم إذا كذبوا بها فقد كذبوا بما أنبأ به الرسول من البعث وغيره ، ولا شك أن هذا الإنكار أعظم جرما وأشد بلية من الإنكار بما جاء به الرسول، إذ به أنكروا الصلة الروحية بين الله ومن يصطفيه من خلقه من ذوى النفوس الصافية ، وأر باب الأرواح العالية .

(فهم فى أمر مريج) أى فهم فى قلق واضطراب ، فتارة ينفون الرسالة عن البشر ،

وأخرى يزعمون أنها لاتليق إلا بأهل الجاه والرياسة كما ينبئ بهذا قولهم : « لَوْلاَ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » وثالثة يقولون : إنها سحر أو كهانة، إذ قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : ساحر أو كاهن إلى نحو ذلك من أقاويلهم التى تدل على اضطراب فى الأمر ، وقلق فى الفكر ، فهم لايدرون ماذا يفعلون حين جاءهم النذير الذى أقض مضاجعهم ، وجعلهم حيارى دهشين ، إلام هم صائرون ؟ وإلى أى منقلب ينقلبون ؟

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١) .

تفسير المفردات

بنيناها : أى أحكمنا بناءها ، فجعلناها بغير عمد ، وزيناها : أى بالكواكب ، فروج : أى شقوق ، مددناها : أى بسطناها ، رواسى : أى جبالا ثوابت تمنعها من المَيَد والاضطراب ، زوج : أى صنف ، بهيج : أى ذى بهجة وحسن ، تبصرة وذكرى : أى تبصيرا وتذكيرا ، منيب : من أناب إذا رجع وخضع ، حب الحصيد : أى حب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالبُرّ والشعير ، باسقات : أى طويلات ، والطلع ماينمو

ويصير بلحا ثم رطبا ثم تمرا ، ونضيد : أي منضود بعضه فوق بعض ، الخروج : أي من القبور .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر أنهم استبعدوا البعث فقالوا رجع بعيد — أردف ذلك الدليل الذي يدحض كلامهم ، فإن من خلق السماء وزينها بالكواكب ، وبسط الأرض وجعل فيها رواسي وأنبت فيها صنوف النبات ، وجعل ذلك تذكرة وتبصرة لأولى الألباب ، ونزل من السماء ماء فأنبت به ناضر الجنان ، والزرع المختلف الأصناف والألوان ، والنخل الباسق ذا الطلع المتراكم بعضه فوق بعض رزقا لعباده ، وأحيا به الأرض الموات — أفلا يستطيع من هذا شأنه أن يُخْرِج الناس من قبورهم بعد بلاهم ، وبعد أن يصيروا عظاما ورفاتا ، وينشئهم خلقا آخر في حياة أخرى وعالم غير هذا العالم ؟

الإيضاح

(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) أي أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت ، المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد البلى — إلى السماء فوقهم كيف رفعناها بلا عَمَد ، وزيناها بالكواكب وما لها من فتوق ، فهي ملساء متلاصقة الطباق ، وهذا هو الرأي الحديث في عالم السموات ، إذ يقولون : إن هناك عالما لطيفا أرق من الهواء وألطف من كل ما نراه وهو مبدأ كل شيء وأول كل شيء وهو العالم المسمى بالأثير ، وهذا العالم وإن لم يره الناس فقد عرفوه من وصول أضواء الكواكب إلينا ، فإن من الكواكب ما لا يصل ضوءه إلينا إلا فيما يزيد على ألف ألف سنة ، ونور الشمس (التي تبعد عنا مقدار سير القطار إليها لو أمكن في نحو خمس وستين وثلثمائة سنة) يصل إلينا في مدة ثمان دقاق وثماني عشرة ثانية .

فانظر كيف يكون بُعْد تلك الكواكب التى تحتاج بسير النور إلى مليون سنة ونصف مليون ؛ ألا يدل هذا على أن ذلك الضوء محمول على شىء موجود وهو الأثير فلو أن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير لانقطع سير النور إلى الأرض ولم نره .

وهذا ما يشير إليه الكتاب بقوله «وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ» فلو كان هناك فروج تتخلل السموات لانقطع سير النور إلينا .

وآراء الجهلة فى كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى و بينهما فضاء كما يظن لأول وهلة فيما بيننا و بين السماء ، فجاء الكتاب الكريم وعكس هذه القضية وقال لافروج فى السماء أى لاخلاء فى العالم .

(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) أى والأرض بسطناها وألقينا فيها جبالا ثوابت لئلا تميد وتضطرب ، وأنبتنا فيها من كل صنف من صنوف النبات ما حسن منظره ، وراق مخبره .

(تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) أى فعلنا ذلك لتبصرة العبد المنيب وادكاره فإن رفعنا السماء ، أوزيناها بالكواكب فلاستبصاره ، و إن بسطنا الأرض أو أرسيناها بالجبال أو أنبتنا النبات زينة للأرض فلاعتباره .

ثم شرع يبين كيفية ما ذكر من إنبات كل زوج بهيج فقال :

(ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحبَّ الحصيد) أى ونزلنا من السماء ماء كثير المنافع ، إذ أنبتنا به جنات غناء ، وحدائق فيحاء ، وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالشعير والقمح وغيرهما .

(والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد) أى وأنبتنا به النخل الطوال التى لها طلع منضود متراكم بعضه فوق بعض ، لأقوات العباد وأرزاقهم .

عن قطبة قال : « سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الصبح قٓ فلما أتى على هذه الآية ــ والنَّخْلَ باسِقَاتٍ ــ فجعلت أقول ما بسوقها ؟ قال طولها » أخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه .

ولم يقيد هنا العباد بالإنابة كما قيد به فى قوله : « تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ » لأن التذكرة لاتكون إلا لمنيب ، والرزق يعم كل أحد ، غير أن المنيب يأكل ذاكراً وشاكراً للإنعام ، وغيرُه يأكل كما تأكل الأنعام ، ومن ثم لم يخصص الرزق بقيد .

(وأحيينا به بلدة ميتاً) أى وأحيينا بذلك الماء الأرض الجدبة التى لا نبات فيها فتربو وتنبت من كل زوج بهيج .

ثم جعل ما سلف كالدليل على البعث لأنه شبيه به فقال :

(كذلك الخروج) أى ومثل هذه الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور .

وفى التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء ، وعن إحياء الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث : وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات و إحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس ، وتقريبه لأفهام الناس .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) .

تفسير المفردات

الرس : البئر التى لم تطو أى لم تبن ، وأصحابه هم من بعث إليهم شعيب عليه الصلاة والسلام ، والأيكة : الغيضة الملتفة الشجر ، تبّع : هو تبع الحِمْيَرى ، والعِىّ

عن الأمر . العجز عنه : قال الكسائى تقول أعييت من التعب ، وعييت من العجز عن الأمر وانقطاع الحيلة ، ولبس : أى شك شديد وحيرة واختلاط .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تكذيب المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم — أردف ذلك ذكر المكذبين للرسل من قبله و بيان ما آل إليه أمرهم ، تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وعبرة لهم ، وتنبيها إلى أن حاله معهم كحال من تقدمه من الرسل كُذِّبوا فصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونصرهم وأعلى كلمتهم كما قال : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » وقال : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

ثم ذكر الدليل على البعث الذى أنكرته الأمم التى كذبت رسلها بأن من خلق العالم بادىء ذى بدء فهو على إعادته أقدر .

الإيضاح

(كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود . وعاد وفرعون و إخوان لوط . وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد) هدد سبحانه كفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم من المكذبين قبلهم من النقم والعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، فقد أغرق قوم نوح بالطوفان ، وأهلك جميع من ذكروا بعدهم من الأمم التى كذبت رسلها بضروب شتى من العذاب ، وحق عليهم وعيده ، ونصر رسله ، وأعلى كلمتهم وكانت العاقبة لهم كما قال (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا) وقد تقدمت هذه القصص فى مواضع متفرقة من الكتاب الكريم .

ثم ذكر مايؤكد صحة البعث فقال :

(أفعيينا بالخلق الأول ؟ بل هم فى لبس من خلق جديد) أى أفأعجزنا ابتداء

الخلق حتى يشكّوا فى الإعادة ؟ أى إن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل من الابتداء ، فلا حق لهم فى تطرق الشبهة إليهم والشك فيه ، كما قال : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وقال : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وجاء فى الحديث القدسى : « يقول الله تعالى : يؤذينى ابن آدم يقول لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته » .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِى الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) .

تفسير المفردات

الوسوسة : الصوت الخفىّ ومنه وسواس الحلى ؛ والمراد بها هنا حديث النفس وما يخطر بالبال من شتى الشئون ، وحبل الوريد : عرق كبير فى العنق ، وللانسان وريدان مكتنفان بصفحتى العنق فى مقدمهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه ، وقعيد : بمعنى مقاعد كالجليس بمعنى المجالس ، والرقيب : ملك يرقب قوله ويكتبه ، فإن كان خيرا فهو صاحب اليمين ، وإن كان شرا فهو صاحب الشمال ، عتيد : أى مهيأ لكتابة ما يؤمر به من الخير والشر ، سكرة الموت : شدّته ، بالحق : أى بحقيقة الحال ، تحيد :

أى تميل وتعدل ، يوم الوعيد : أى يوم إنجاز الوعيد ، السائق والشهيد : ملكان أحدهما يسوق النفس إلى أمر الله ، والآخر : يشهد عليها بعملها ، والغطاء : الحجاب المغطى لأمور المعاد ، وهو الغفلة والانهماك فى اللذات وقصر النظر عليها ، حديد : أى نافذ ، لزوال المانع للابصار .

المعنى الجملى

بعد أن استدل على إمكان البعث بقوله : أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ — أردف ذلك دليلا آخر على إمكانه وهو علمه بما فى صدورهم وعدم خفاء شىء من أمرهم عليه ، فإن من كان كذلك لا يبعد أن يعيدهم كرة أخرى ، ثم أخبر بأنهم سيعلمون بعد الموت أن ما جاء به الدين حق لاشك فيه ، وأنه يوم القيامة تأتى كل نفس ومعها ملكان أحدهما سائق لها إلى المحشر والثانى شهيد عليها ، وأن الخزنة سيقولون لأهل النار : لقد كنتم فى غفلة عن حلول هذا اليوم الذى تُوَفَّى فيه كل نفس جزاء ما عملت ، والآن أزلنا عنكم هذه الغفلة فأبصرتم عاقبة أمركم .

الايضاح

(ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) أى إنه تعالى قادر على بعث الإنسان ، لأنه خالقه وعالم بجميع أموره حتى إنه ليعلم ماتوسوس به نفسه من الخير والشر ولا عقاب على حديث النفس ، وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تجاوز لأمتى ماحدّثت به أنفسها مالم تقل أو تفعل » .

(ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) أى ونحن أعلم به وبخفيات أحواله لايخفى علينا شىء من أمره ، من علمكم بحبل الوريد ، لأن العِرْق تحجبه أجزاء من اللحم ، وعلم الله لايحجب عنه شىء .

أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « نزل الله من ابن آدم أربع منازل ، هو أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو يحول بين المرء وقلبه ، وهو آخذ بناصية كل دابة ، وهو معهم أينما كانوا » .

قال القُشَيرى : فى هذه الآية — هيبة وفزع وخوف لقوم ، ورَوْح وأنس وسكون قلب لقوم .

ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يكتبان و يحفظان عليه عمله إلزاما للحجة فقال :

(إذ يتلقى المتلقيان) أى نحن أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقن الحفيظان مايتلفظ به ، مع أننا أغنياء عن استحفاظ الملكين لشدة قربنا منه .

(عن اليمين وعن الشمال قعيد) أى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد أى مقاعد ومجالس له يترصد ما يقول ويعمل ، فالذى عن اليمين يكتب الحسنات ، والذى عن الشمال يكتب السيئات .

قال الحسن وقتادة : المتلقيان ملكان يتلقيان عملك : أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك .

ثم ذكر عملهما واستعدادهما لأدائه فقال :

(مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أى لا يلفظ بكلمة من فيه إلا لديه ملك حاضر معه مراقب لأعماله ، يكتب مافيه ثوابه أو عقابه .

قال الحسن البصرى وتلا هذه الآية: « عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ » يابن آدم بُسِطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ماشئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مِتّ طويت صحيفتك وجعلت فى عنقك

معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول الله تعالى : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » ثم قال: عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك.

وروى أبو أسامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبّح أو يستغفر » .

والحكمة فى هذا أن الله لم يخلق الناس لتعذيبهم ، بل خلقهم لتربيتهم وتهذيبهم ، فكل ألم فهو لرقىّ النفس . والعالم المادى من طبعه أن يكون نفعه أكثر من ضره ، والله تعالى خلقنا لغاية شريفة لنا ، والحسنات هى الأصل والسيئات عارضة ؛ كما أن المنافع فى الطبيعة هى الأصل والمضارّ عارضة ، فالنار خلقت لنفعه ، والماء لنفعه ، والهواء لنفعه فإذا أُحرق ثوبُ الناسك ، أو أُغرق رب صبية لا عائل لهم ، فهذا عارض ، والأصل فى ذلك المنافع ، وهكذا خلق نوع الإنسان للخير ، والشر عارض ، ولفعل الحسنات ، والسيئات عارضة .

وبعد أن ذكر استبعادهم البعث للجزاء ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه ، أعلمهم بأنهم يلاقون صدق ذلك حين الموت وحين قيام الساعة فقال :

(وجاءت سكرة الموت بالحق) أى وكشفت لك سكرة الموت عن اليقين الذى كنت تمترى فيه ، وأن البعث لا شك فيه .

(ذلك ما كنت منه تحيد) أى ذلك الحق الذى كنت تفر منه قد جاءك ، فلا محيد ولا مناص ، ولا فكاك ولا خلاص .

ولما ثقل أبو بكر جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بقول حاتم :

لعَمرُكَ ما يُغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجتْ يوما وضاق بها الصدرُ

فكشف رضى الله عنه عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قولى : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » .

وفى الصحيح « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : سبحان الله ، إن للموت لسكرات » .

(ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد) أى ونفخ فى الصور نفخة البعث ، وذلك الزمان العظيم الأهوال هو اليوم الذى أوعد الله الكفار أن يعذبهم فيه .

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أنْعَم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يُؤْذَن له ؟ قالوا يا رسول الله ماذا نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

(وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) أى وجاءت فى هذا اليوم كل نفس ربها ومعها سائق يسوقها إليه ، وشهيد يشهد عليها بما عملت فى الدنيا من خير أو شر .

(لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) أى لقد كنت أيها الإنسان فى غفلة عن هذا الذى عاينت من الأهوال والشدائد ، فجلّينا ذلك لك ، وأظهرناه لعينيك حتى رأيته وعاينته ، فزالت عنك هذه الغفلة .

وقد جعل سبحانه الغفلة غطاء غَطَّى به الجسد كله ، أو غشاوة غَشَّى بها عينيه فلا يبصر شيئا ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها ، فأبصر مالم يكن يبصره من الحق .

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ : رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ

فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ : لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ
بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ
لِجَهَنَّمَ : هَلِ امْتَلَأْتِ ؟ وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ (٣٠) .

تفسير المفردات

القرين : هو الملك الموكّل بالمرء ، عتيد : أى معدّ مُحْضر ، عنيد : أى مبالغ فى العناد وترك الانقياد للحق ، مناع للخير : أى كثير المنع للمال فى الحقوق المفروضة عليه ، معتد : أى متجاوز للحق ظالم ، مريب : أى شاكّ فى الله وفى دينه ، القرين هنا: الشيطان المقيّض له ، بعيد : أى من الحق ، لاتختصموا لدىّ : أى لايجادل بعضكم بعضا عندى ، بالوعيد : أى على الطغيان فى دار الدنيا فى كتبى وعلى ألسنة رسلى ، ما يبدل القول لدى : أى لايقع فيه الخلف والتغيير فلا تطمعوا أن أبدل وعيدى ، مزيد : زيادة.

الايضاح

(وقال قرينه: هذا ما لدىّ عتيد) أى وقال الملك الموكل به: هذا الذى وكلتنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان أعماله .

(ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلها آخر) أى قال تعالى للسائق والشهيد: ألقيا فى جهنم كل من كفر بالله، أوأشرك به معبودا سواه من خلقه أوكذب الحق وعارضه بالباطل ، ومنع الحقوق المفروضة عليه ، واعتدى الناس بلسانه بالبَذاء والفحش ، و بيده بالسطوة والبطش ظلما .

ثم كرر ماسلف توكيداً فقال :

(فألقياه فى العذاب الشديد) أى فألقياه فى النار ذات العذاب الشديد .

(قال قرينه: ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد) أى قال الكافر معتذرا: رب إن قرينى من الشياطين أطغانى ، فقال الشيطان المقيّض له : ربنا ما أطغيته ، ولكن كان طبعه وديدنه الضلال والبعد عن الحق ، فسار على النهج الذى يشاكل أخلاقه .

وخلاصة ذلك — إنه فى ضلال بعيد المدى لايرجع عنه إلى الحق .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي » .

(قال : لاتختصموا لدىّ، وقد قدمت إليكم بالوعيد) أى قال عزاسمه للإنسى وقرينه من الجن حين اختصما — فقال الإنسى : رب إن هذا أضلنى عن الذكر بعد إذجاءنى، وقال الشيطان : ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد عن منهج الحق — لاتختصموا عندى ، فقد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل وأنزلت الكتب ، وقامت عليكم الحجج .

والخلاصة — إنهم اعتذروا بغير ما يصلح أن يكون عذرا ، فأبطل الله حجتهم وردّ عليهم بقوله :

(ما يبدل القول لدىّ) أى لا يغيّر قضائى الذى قضيته ، ووعيدى الذى أوعدته بتخليد الكفار فى النار ومجازاة العصاة على قدر ما يستحقون .

(وما أنا بظلام للعبيد) فلا أعذب أحدا بغير جُرم اجترمه ، ولا ذنب جناه ، ولا أعذب أحدا مكان أحد .

ثم ذكر مكان حلول الوعيد فقال :

(يوم نقول لجهنم : هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟) أى وأنذر قومك يوم نقول لجهنم : هل امتلأت بما ألقى إليك فوجا بعد فوج ؟ فتقول : لامزيد بعد ذلك .

وفى هذا بيان لأنها مع اتساعها وتباعد أقطارها ، يطرح فيها من الجنّة والناس جماعات بعد جماعات حتى تمتلئ ولا تقبل الزيادة .

وهذا السؤال والجواب جيء بهما للتمثيل وتصوير المعنى بإبرازه فى لباس المحسوس ليتضح أمره .

روى عن ابن عباس أنه قال : سبقت كلمته : لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين، فلما سيق أعداء الله إليها صارت لايلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها شيء فتقول ألستَ قد أقسمتَ لتملأنّى ؟ فيضع قدمه عليها فيقول : هل امتلأتِ ؟ فتقول : قَطْ قَطْ (كفى كفى) قد امتلأتُ لامزيد .

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) .

تفسير المفردات

أزلفت : أى أدنيت وقُرِّبت ، غير بعيد : أى فى مكان غير بعيد منهم بل هو بمرأى منهم ، هذا ما توعدون : أى هذا هو الثواب الذى وُعِدْتم به على ألسنة الرسل، أوّاب : أى رجاع عن المعصية إلى الطاعة ، حفيظ : أى حافظ لحدود الله وشرائعه ، خشى الرحمن بالغيب : أى خاف عقاب ربه وهو غائب عن الأعين حين لايراه أحد ، منيب : أى مخلص مقبل على طاعة الله ، بسلام : أى سالمين من العذاب وزوال النعم ، الخلود : أى فى الجنة إذ لاموت فيها ، مزيد : أى مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الحوار بين الكافر وقرينه من الشياطين ، واعتذار الكافر وردّ القرين عليه ، وأن الله سبحانه نهاهم عن الاختصام لديه ، لأنه لا فائدة فيه بعد أن أوعدهم على ألسنة رسله — أردف هذا ذكر حال المتقين ، فذكر أن الجنة تكون قريبة منهم بحيث يرونها رأى العين ، فتطمئن إليها نفوسهم وتُثْلَج لمرآها صدورهم ، و يقال لهم هذا هو الثواب الذى وُعِدتم به على ألسنة الأنبياء والرسل ، وهو دائم لا نفاد له ولا حصر ، فكل ما يريدون من لذة ونعيم فهو حاضر ، ولهم فوق هذا رضوان من ربهم « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » .

الإيضاح

(وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) أى وأدنيت الجنة للذين اتقوا ربهم ، واجتنبوا معاصيه ، بحيث تكون بمرأى العين منهم ، إكراما لهم ، واطمئنانا لنفوسهم ، فيرون ما أُعِدّ لهم من نعيم وحبور ، ولذة وسرور ، لا نفاد له ولا فناء .

(هذا ماتوعدون) أى وتقول لهم الملائكة : هذا هو النعيم الذى وعدكم به ربكم على ألسنة رسله ، وجاءت به كتبه .

ثم بين المستحق لهذا النعيم فقال :

(لكل أوّاب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب ، وجاء بقلب منيب) أى هذا الثواب للمتقين الذين يرجعون من معصية الله إلى طاعته تائبين من ذنوبهم و يلقون الله بقلوب منيبة إليه ، خاضعة له .

(ادخلوها بسلام) أى وتقول لهم الملائكة تكرمة لهم : ادخلوا الجنة سالمين من العذاب والهموم والأكدار ، فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

ثم يبشَّرُون و يقال لهم :

(ذلك يوم الخلود) أى فاطمئنوا وقرّوا عينا، فهذا يوم الخلود الذى لاموت بعده، ولا ظعن ولا رحيل .

ثم زاد فى البشرى فقال :

(لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) أى لهم إجابة لسؤالهم كل ما يشتهون ، ثم نزيدهم فوق ماسألوا مما لم تره أعينهم ولم يدر بخلدهم .

ونحو الآية قوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ، أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) .

تفسير المفردات

القرن : الجيل من الناس ، بطشاً : أى قوة ، فنقبوا فى البلاد : أى ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمكاسب ، و يقال لمن طوّف فى الأرض نقّب فيها ، قال امرؤ القيس :

فقد نقّبْتُ فى الآفاق حتى　　رضيتُ من الغنيمة بالإياب

محيص : أي مهرب ، لذكرى : أي لعبرة ، قلب : أي لُبٌّ يعي به ، أوألقى السمع: أي أصغى إلى ما يتلى عليه من الوحى، شهيد : أي حاضرفهو من الشهود بمعنى الحضور، والمراد به الفَطِن ، إذ غيره كأنه غائب ، لغوب : أي تعب ، سبح بحمد ربك : أي نزهه عن كل نقص ، أدبار السجود : أي أعقاب الصلوات ، واحدها دبر (بضم فسكون وبضمتين) واستمع أي لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ، يوم ينادى المنادى : أي يخرجون من القبور يوم ينادى المنادى، من مكان قريب : أي بحيث لايخفى الصوت على أحد ، والمنادى هوجبريل عليه السلام، على ما ورد فى الآثار ، يقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزّقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

والصيحة : النفخة الثانية . بالحق : أي بالبعث والجزاء ، يوم الخروج : أي من القبور ، تشقق : أي تتصدع ، بجبار : أي بمسيطر ومسلط ، إنما أنت داع ومنذر .

المعنى الجملى

بعد أن أنذرهم بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم — أنذرهم بما يعجل لهم فى الدنيا من ضروب العذاب ، سنة الله فيمن تقدمهم من المكذبين قبلهم ممن ساروا فى البلاد طولا وعرضا وكانوا ذوى قوة وأيد ، ولم يغن ذلك عنهم من الله شيئا ، ووسط بين ذلك ذكر المتقين وما يلاقونه من النعيم ، ليكون أمرهم بين الخوف والطمع ، ومن ثم ذكر حال الكفور المعاند ، وحال الشكور العابد ، ثم ذكر أن هذا عظة وذكرى لكل ذى لبّ واعٍ سميع لما يلقى إليه ، ثم أعاد الدليل مرة أخرى على إمكان البعث ، فأبان أنه قد خلق السموات والأرض فى ستة أطوار مختلفة وما أصابه تعب ولا لغوب كما قال : « أفَعَيِينَا بالخلقِ الأوّلِ؟ » ثم أمره بالصبر على ما يقولون، وتنزيه الله عن كلّ نقص آناء الليل وأطراف النهار ، فهاهو ذا قد اقترب يوم البعث والنشور ، وسُمِع صوت الداعي لذلك بعد النفخ فى الصور ، وتشققت الأرض سراعا وخرج الناس من

القبور ، وما ذلك بالصعب على رب العالمين ، خالق السموات والأرضين ، و إنا لنعلم مايقول المشركون فى البعث والنشور ، فدعهم فى غيّهم يعمهون ، فما أنت عليهم بجبار تلزمهم الإيمان بهذا اليوم ، وما فيه من هول ، إن أنت إلا نذير ، ولا يؤمن بك إلا من يخاف عقابى ، وشديد وعيدى ، ولا تنفع العظة إلا ذوى الأحلام الراجحة ، والقلوب الواعية .

الإيضاح

(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص؟) أى وكثير من الأمم التى قبلك أهلكناهم وكانوا أشد من قومك بطشا ، وأكثر منهم قوة ، كعاد وثمود وتبّع ، فتقلبوا فى البلاد وسلكوا كل طريق ابتغاء للرزق ، ولم يجدوا لهم من أمر الله مهربا ولا ملجأ حين حُمّ القضاء ، وهكذا حالكم ، فحذارِ أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب العاجل فى الدنيا ، والآجل يوم القيامة .

و بعد أن ذكر فى هذه السورة وما قبلها بارع الحكم ونفائس المعارف الإلهية جملة وتفصيلا ، فمن أدب للأمة مع نبيها ، إلى أدب للأمة بعضها مع بعض ، إلى حفظ للسلام بين الناس والصلح بينهم ، وصيانة اللسان من الهزؤ والسخرية والهمز واللمز ، ثم إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ، و بذا يحل التواصل محل التقاطع ، و يتعلم الجهال ، و يجتمع الشمل ، و يخيم الأمن فى ر بوع البلاد ، أبان أن تلك الزواجر لاينتفع بها إلا ذوو الألباب فقال :

(إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) أى إن فيما تقدم لتذكرة وعبرة لمن كان له قلب واع يتدبر به الحقائق ، و يعى ما يقال له

ثم أعقب ذلك بذكر ما هو كالدليل على ما سلف فقال :

(ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) أى قسما بربك إنا خلقنا السموات والأرض وملأناها بالعجائب فى ستة أطوار مختلفة

وما مسنا تعب ولا إعياء ، ولا تزال عجائبنا تترى كل يوم ، فانظروا إليها ، وتأملوا فى محاسنها ، فهى لاتحصى ، ولا يبلغها الاستقصا ، وكذّبوا اليهود الذين قالوا : إن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام أوّلها الأحد وآخرها الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش ، فنحن لايمسنا لغوب ولا إعياء .

ونحو الآية قوله : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

(فاصبر على ما يقولون) أى فاصبر على ما يقوله المشركون فى شأن البعث من الأباطيل التى لامستند لها إلا الاستبعاد ، فإن من خلق الخلق فى تلك المدة اليسيرة بلا إعياء — قادر على بعثهم وجزائهم على ما قدموا من الحسنات والسيئات .

(وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) أى ونزه ربك عن العجز عن كل ممكن كالبعث ونحوه ، حامداً له أنعمه عليك ، وقت الفجر ووقت العصر و بعض الليل ، وفى أعقاب الصلوات .

وقال ابن عباس : الصلاة قبل طلوع الشمس صلاة الفجر ، وقبل الغروب الظهر والعصر ، ومن الليل العشاءان ، وأدبار السجود النوافل بعد الفرائض .

روى البخارى عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسبح فى أدبار الصلوات كلها ، يعنى قوله : « وَأَدْبَارَ السُّجُودِ » وفى حديث مسلم تحديد التسبيح بثلاث وثلاثين ، والتحميد بثلاث وثلاثين ، والتكبير بثلاث وثلاثين ، وتمام المائة لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد يحيى و يميت وهو على كل شىء قدير ، دُبرَ كل صلاة .

(واستمع) أيها الرسول لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ، وفى إبهام أمره ، تعظيم لشأنه .

ثم بين ذلك الخبر وزمانه بقوله :

(يوم ينادى المنادى من مكان قريب) أى يوم ينادى المنادى من موضع قريب

فيصل نداؤه إلى كل الخلائق على السوية ، ويقول : هلموا إلى الحساب ، فيخرجون من قبورهم ويقبلون كأنهم جراد منتشر .

ثم زاد الأمر تفصيلا فقال :

(يوم يسمعون الصيحة بالحق) أى يوم يسمعون النفخة الثانية منذرة بالبعث والجزاء على ما قدموا من الأعمال .

ثم ذكر ما يقال لهم حينئذ فقال :

(ذلك يوم الخروج) أى هذا اليوم هو يوم الخروج من القبور .

ثم لخص ماتقدم من أول السورة إلى هنا فقال :

(إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير) أى إنا نحن نحيى فى الدنيا ونميت فيها حين انقضاء الآجال ، وإلينا الرجوع للحساب والجزاء فى الآخرة .

(يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير) أى إلينا المصير فى ذلك اليوم الذى تتصدع فيه الأرض فتخرج الموتى من صدوعها مسرعة ، وذلك جمع هين علينا ، لاعسر فيه ولا مشقة .

ثم سلى رسوله وهدد المشركين بقوله :

(نحن أعلم بما يقولون) أى نحن أعلم بما يقولون من فريتهم على ربهم وتكذيبهم بآياته ، وإنكارهم قدرته على البعث بعد الموت .

(وما أنت عليهم بجبار) أى وما أنت بمسلّط عليهم تَقْسِرهم على الإيمان وتسيرهم على ما تهوى وتريد ، إنما أنت نذير ، وما عليك إلا التبليغ وعلينا الحساب .

ثم أكد أنه مذكّر لا مسيطر وأن التذكير لاينفع إلا من خشى ربه فقال :

(فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) أى فذكر أيها الرسول بهذا القرآن الذى أنزلته عليك من يخاف وعيدى الذى أوعدته من عصانى وخالف أمرى ، أى بلغ رسالة ربك ، وما يتذكر بها إلا من يخاف وعيد الله وشديد عذابه .

ونحو الآية قوله : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ » وقوله : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ . وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ » .

وكان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا برُّ يا رحيم.

موجز لما تضمنته السورة الكريمة من الموضوعات

(١) إنكار المشركين للنبوة والبعث .

(٢) الحث على النظر فى السماء وزينتها وبهجة بنائها ، وفى الأرض وجبالها الشامخات ، وزروعها النضرات ، وأمطارها الثجّاجات .

(٣) العبرة بالدول الهالكات كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تُبّع وما استحقوا من وعيد وعذاب .

(٤) تقريع الإنسان على أعماله ، وأنه مسئول عن دخائل نفسه ، فى مجلس أنسه ، وعند إخوته ، وفى خلوته ، وأنه محوط بالكرام الكاتبين ، يحصون أعماله ، ويرقبون أحواله حتى إذا جاءت سكرته، وحانت منيته، حوسب على كل قول وكل عمل، وشهدت عليه الشهود وكُشفت له الحجب .

(٥) إنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا .

(٦) إن القرآن عظة وذكرى لمن كان له قلب واعٍ يستمع ما يلقى إليه .

(٧) تسلية رسوله على ما يقول المشركون من إنكار البعث وتهديدهم على ذلك .

(٨) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتسبيح آناء الليل وأطراف النهار .

(٩) أمر الرسول بالتذكير بالقرآن من يخاف وعيد الله ويخشى عقابه .

سورة الذاريات

هى مكية وآيها ستون ، نزلت بعد الأحقاف ، ومناسبتها لما قبلها :

(١) إنه قد ذكر فى السورة السابقة البعث والجزاء والجنة والنار ، وافتتح هذه بالقسم بأن ما وُعِدُوا من ذلك صدق وأن الجزاء واقع.

(٢) إنه ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال ، وهنا ذكر ذلك على وجه التفصيل.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣)
فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ
أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ
هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤).

تفسير المفردات

الذاريات : الرياح تذرو التراب وغيره : أى تفرقه ، والوقر : حمل البعير وجمعه أوقار : أى أثقال ، والحاملات وقراً : هى الرياح الحاملات للسحاب المُشْبَع ببخار الماء ، واليسر : السهولة ، والجاريات يسراً : هى الرياح الجارية فى مهابّها بسهولة ، والمقسمات أمراً : هى الرياح التى تقسم الأمطار بتصريف السحاب ، وما توعدون : هو البعث

والحشر للحساب والجزاء ، والدين : الجزاء ، وواقع : أى حاصل ، والحبك : الطرق واحدها حبيكة ، مختلف : أى متناقض مضطرب فى شأن الله ، فبينا تقولون إنه خالق السموات تقولون بصحة عبادة الأوثان معه ، وفى شأن الرسول فتارة تقولون إنه مجنون وتارة تقولون إنه ساحر ، وفى شأن الحشر فتارة تقولون لاحشر ولا بعث ، وأخرى تقولون : الأصنام شفعاؤنا عند الله يوم القيامة ، يؤفك عنه من أفك : أى يصرف عن القول المختلف : أى بسببه من صرف عن الإيمان ، والخرّاصون : أى الكذابون من أصحاب القول المختلف ، فى غمرة : أى فى جهل يشملهم ويغمرهم شمول الماء الغامر ، ساهون : أى غافلون عما أمروا به ، أيان يوم الدين : أى متى يوم الجزاء : أى متى حصوله ، يفتنون : أى يحرقون ، وأصل الفَتْن : إذابة الجوهر ليعرف غشه ، فاستعمل فى الإحراق والتعذيب ، فتنتكم : أى عذابكم المعدّ لكم .

المعنى الجملى

هاهنا أمور يجمل بك أن تتفهمها :

(١) بعد أن بين الحشر بدلائله وقال : « ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ » ثم أصروا على ذلك غاية الإصرار لم يبق إلا اليمين فقال « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا — إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ » .

(٢) إن الأيمان التى حلف بها الله تعالى فى كتابه كلها دلائل على قدرته أخرجها فى صورة الأيمان ، كما يقول القائل للمنعم عليه : وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك ، فيذكر النعم وهى سبب لدوام الشكر ويسلك بها مسلك القسم ، وجاءت الآية هكذا مصدّرة بالقسم ، لأن المتكلم إذا بدأ كلامه به علم السامع أن هاهنا كلاما عظيما يجب أن يصغى إليه ، فإذا وجّه همه لسماعه خرج له الدليل والبرهان المتين فى صورة اليمين .

(٣) فى السور التى أقسم الله فى ابتدائها بغير الحروف المقطعة كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة : الوحدانية والرسالة والحشر وهى التى يتم بها الإيمان ، فأقسم لإثبات الوحدانية فى سورة الصافات فقال : « إنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ » وأقسم فى سورتى النجم والضحى لإثبات الرسالة فقال فى الأولى : « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وما غَوَى » وقال فى الثانية : « والضُّحَى واللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَى » وأقسم فى سور كثيرة على إثبات البعث والجزاء ..

(٤) فى السورة التى أقسم فيها لإثبات الوحدانيـة أقسم بالساكنات فقال : « وَالصَّافَّاتِ صَفًّا » وفى السور التى أقسم فيها لإثبات الحشر أقسم بالمتحركات فقال : « والذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ـ والمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ـ والنَّازِعَاتِ غَرْقًا ـ والعَادِيَاتِ ضَبْحًا » لأن الحشر فيه جمع وتفريق ، وهو بالحركة أليق .

(٥) كانت العرب تحترز عن الأيمان الـكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع ، وقد جرى النبى صلى الله عليـه وسلم على سننهم ، فحلف بكل شريف ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتا ، وكانوا يعلمون أنه لا يحلف إلا صادقا ، وإلا أصابه شؤم الأيمان ، وناله المـكروه فى بعض الأيمان .

الايضاح

(والذاريات ذروا ، فالحاملات وقراً ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا . إن ماتوعدون لصادق وإن الدين لواقع) أقسم سبحانه بالرياح وذروها التراب ، وحملها السحاب ، وجريها فى الهواء بيسر وسهولة ، وتقسيمها الأمطار ، إن هذا البعث لحاصل، وإن هذا الجزاء لابد منه فى ذلك اليوم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وهنا أقسم سبحانه بالرياح وأفعالها ، لمـا يشاهدون من آثارها ونفعها العظيم لهم فهى التى ترسل الأمطار مبشرات برحمته ، ومنها تُسقَى الأنعام والزروع ، وبهاتنبت

البساتين والجنات وتصير الأرض القَفْرَ مرُوجا ، وعليها يعتمدون فى معاشهم ، فآثارها واضحة أمامهم ، ولا عجب أن تكون لها المنزلة العظمى فى نفوسهم .

وأفعال الرياح تخالف ناموس الجاذبية ، فإن ما على الأرض منجذب إليها ، واقع عليها ، ولكن هذه الرياح تتصرف تصرفا عجيبا تابعاً لسير الكواكب ، فبجريها وجرى الشمس تؤثر فى أرضنا وهوائها بنظام محكم ، فما ذرت الرياح التراب ، ولاحملت السحاب ، ولا قسمت المطر على البلاد إلا بحركات فلكية منتظمة، من أجل هذا جعل ذلك براهين على البعث والإعادة .

(والسماء ذات الحبك ، إنكم لفى قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك) أى والسماء ذات الجمال والبهاء ، والحسن والاستواء ، إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول ، لفى قول مختلف مضطرب ، لايلتئم ولا يجتمع ، ولا يروج إلا على من هوضالّ فى نفسه، لأنه قول باطل يُصرف بسببه من صرف عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به .

والخلاصة — قسما بالسماء وزينتها وجمالها ، إن أمركم فى شأن محمد وكتابه لعجب عاجب ، فهو متناقض مضطرب ، فحينا تقولون هوشاعر ، وحينا آخر تقولون هوساحر، ومرة ثالثة تقولون هو مجنون ، وبينا تقولون عن القرآن إنه سحر إذا بكم تقولون إنه شعر أو إنه كِهانة .

(قتل الخراصون، الذين هم فى غمرة ساهون) أى قتل الكذابون من أصحاب القول المختلف الذين هم فى جهل عميق وغفلة عظيمة عما أمروا به .

وهذا دعاء عليهم يراد به فى عرف التخاطب لعنهم ، إذ من لعنه الله فهو بمنزلة الهالك المقتول ، وقد جاء فى القاموس: قتل الإنسان ما أكفره : أى لعن ، وقاتلهم الله، أى لعنهم .

(يسألون أيان يوم الدين) أى يسألك المشركون استهزاء فيقولون : متى يوم الجزاء ، وقد كان لهم من أنفسهم لو تدبروا مايدفعهم إلى الاعتقاد بمجىء هذا

اليوم، فإن أحداً منهم لا يترك عبيده وأجراءه فى عمل دون أن يحاسبهم وينظر فى أحوالهم ، ويحكم بينهم فى أقوالهم وأفعالهم ، فكيف يترك أحكم الحاكمين عبيده الذين أبدع لهم هذا الكون وهيأ لهم كل ما يحتاجون إليه - سدى ويوجدهم عبثاً ؟ .

ثم أجاب عن هذا السؤال وذكر أنه يكون يوم القيامة فقال :

(يوم هم على النار يفتنون) أى يوم الجزاء هو يوم نعذب الكفار وتقول لهم الخزنة :

(ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون) أى ذوقوا هذا العذاب الذى كنتم تستعجلون وقوعه استهزاء وتظنون أنه غير كائن .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) .

تفسير المفردات

فى جنات وعيون : أى فى بساتين تجرى من تحتها الأنهار ، محسنين : أى مجوّدين لأعمالهم ، والهجوع : النوم ليلا ؛ والهجعة النومة الخفيفة ، والأسحار : واحدها سَحَر وهو السدس الأخير من الليل ، حق : أى نصيب وافر يوجبونه على أنفسهم تقربا إلى ربهم وإشفاقا على عباده ، والسائل : هو المستجدى الطالب العطاء ، والمحروم : هو المتعفف

الذى يحسبه الجاهل غنيا فيحْرَمُ الصدقة من أكثر الناس ، آيات : أى دلائل على قدرته تعالى من وجود المعادن والنبات والحيوان ، والدحو فى بعض المواضع والارتفاع فى بعضها الآخر عن الماء ، واختلاف أجزائها فى الكيفيات والخواص . للموقنين : أى للموحدين الذين سلكوا الطريق الموصل إلى معرفة الله ، فهم نظارون بعيون باصرة ، وأفهام نافذة ، وماتوعدون: أى والذى توعدونه من خير أو شر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال المفترين الذين أنكروا يوم الدين ، وكذبوا بالبعث والنشور ، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعبدوا مع الله غيره من وثن أو صنم ـ أردف ذلك ذكر حال المتقين وما يتمتعون به من النعيم المقيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار، جزاء إحسانهم فى أعمالهم ، وقيامهم بالليل للصلاة ، والاستغفار بالأسحار ، وإنفاقهم أموالهم للفقراء والمساكين ، ونظرهم فى دلائل التوحيد التى فى الآفاق والأنفس ، وتفكيرهم فى ملكوت السموات والأرض مصدقين قوله تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاقِ وفِي أنْفُسِهِمْ » .

ثم أقسم برب السماء والأرض إن ماتوعدون من البعث والجزاء حق لاشك فيه ، كما لاشك فى نطقكم حين تنطقون .

الايضاح

(إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ماآتاهم ربهم) أى إن الذين اتقوا الله وأطاعوه واجتنبوا معاصيه ، فى بساتين وجنات تجرى من تحتها الأنهار، قريرة أعينهم بما آتاهم ربهم ، إذ فيه ما يرضيهم و يغنيهم و يفوق ما كانوا يؤملون .

ثم ذكر الثمن الذى دفعوه لنيل هذا الأجر العظيم فقال :

(إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) أى إنهم كانوا فى دار الدنيا يفعلون صالح

الأعمال، خشية من ربهم وطلبا لرضاه ، ومن ثم نالوا هذا الفوز العظيم ، والمكرُمَة التى فاقت ما كانوا يؤملون ويرجون .

ونحو الآية قوله : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .

ثم فصل ما أحسنوا فيه فقال :

(كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) أى كانوا ينامون القليل من الليل ويتهجدون فى معظمه ، قال ابن عباس : ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلون فيها شيئاً إما من أولها أو من وسطها ، وقال الحسن البصرى : كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله ، وربما نَشِطُوا فجدّوا إلى السحر . وعن أنس قال : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء .

(وبالأسحار هم يستغفرون) أى فهم يحيون الليل متهجدين ، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم .

ولما ذكر أنهم يقيمون الصلاة ثنّى بوصفهم بأداء الزكاة والبر بالفقراء فقال :

(وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) أى وجعلوا فى أموالهم جزءا معينا ميزوه وعزلوه للطالب المحتاج ، والمتعفف الذى لا يجد ما يغنيه ، ولا يسأل الناس ، ولا يفطنون إليه ليتصدقوا عليه .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين الذى تردّه التمرة والتمرتان والأكلة والأكلتان ، قيل فمن المسكين؟ قال الذى ليس له ما يغنيه ، ولا يُعلم مكانه فيتصدق عليه ، فذلك المحروم » .

وبعد أن ذكر أوصاف المتقين بين أنه قد لاحت لهم الأدلة الأرضية والسماوية التى بها أخبتوا إلى ربهم وأنابوا إليه فقال :

(وفى الأرض آيات للموقنين) أى وفى الأرض دلائل على وجود الخالق وعظيم

قدرته ، استبانت لمن فكر وتدبر فى هذا الكون و بديع صنعه ، مما يشاهد من صنوف النبات والحيوان ، والمهاد والجبال ، والقفار والبحار ؛ إلى نحو أولئك مما بهر المخلوقات كما قال : « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » .

فالموقنون كلما رأوا آية عرفوا وجه تأويلها فازدادوا إيقانا ، وخصهم بالذكر لأنهم هم الذين يعترفون بذلك ، و يتدبرونه فينتفعون به .

(وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟) أى أفلا تنظرون نظر من يعتبر فى اختلاف الألسنة والألوان ، والتفاوت فى العقول والأفهام ، واختلاف الأعضاء ، وتعدد وظائف كل منها على وجه يحار فيه اللُّبُّ ، و يدْهَش منه العقل ؟

وخلاصة ما سلف — إن الله تعالى وصف المتقين بأنهم مجدّون فى العبادة البدنية وفى بذل المال للمستحقين من ذوى الحاجة والبائسين ، والإيمان بالله والعلم بقدرته بالنظر فى الآفاق والأنفس .

(وفى السماء رزقكم وما توعدون) أى وفى السماء أسباب رزقكم من النيّرَيْن (الشمس والقمر) والكواكب والمطالع والمغارب التى بها تختلف الفصول فتُنبت الأرض أنواع النبات وتسقى بماء الأمطار التى تحملها السحب وتسوقها الرياح لأسباب فلكية وطبيعية أوضحها علماء الفلك وعلماء الطبيعة . وكذلك ما توعدون من خير وشر، قاله مجاهد .

ثم أقسم ر بنا بعزته وجلاله إن البعث لحق فقال :

(فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) أقسم ر بنا جلت قدرته بجلاله وكبريائه : إن ما وعدكم به من أمر القيامة والبعث والجزاء حق لامرية فيه ، فلا تشكُّوا فيه كما لاتشكون فى نطقكم حين تنطقون ، وهذا كما يقول الناس: إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن أنه قال فيها : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قاتل الله قوما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا » .

عن الأصمعى قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود فقال ممن الرجل ؟ قلت من بنى أصمع ، قال من أين أقبلت ؟ قلت من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ، قال : اتل علىّ فتلوت والذّاريات فلما بلغت : وفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ قال حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى ، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق فالتفتّ فإذا بالأعرابى قد نحل واصفر فسلم علىّ واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت : فوَرَبِّ السَّماءِ والأَرْضِ إنَّهُ لَحَقٌّ . فصاح وقال : ياسبحان الله ، من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف ، لم يصدقوه حتى حلف (قالها ثلاثا) وخرجت معها نفسه .

وإنما قصصت عليك هذا القصص لما فيه من أدب بارع وظَرف وحسن فهم من ذلك الأعرابى لكتاب الله ، ولك بعد ذلك أن تصدقه أو تتشكك فيه ، فكم للأصمعى من مثله ، فهو الأديب البارع ، والراوية الحافظ ، فلا يعجزه أن يصنعه ويصنع أمثاله .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ ؟ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) .

تفسير المفردات

الضيف : لفظ يستعمل للواحد والكثير ، المكرمين : أى عند إبراهيم إذ خدمهم هو وزوجه وعجل لهم القِرى وأجلسهم فى أكرم موضع ، قوم منكرون: أى قوم لا عهد لنا بكم من قبل ، وقد قال ذلك إبراهيم عليه السلام للتعرف بهم كما تقول لمن لقيته وسلم عليك : أنا لا أعرفك ، تريد عرّف لى نفسك وصِفْها ، فراغ إلى أهله: أى ذهب إليهم خفْية من ضيفه ، سمين : أى ممتلىء بالشحم واللحم، فقربه إليهم : أى وضعه لديهم ، فأوجس منهم خيفة : أى أضمر فى نفسه الخوف منهم ، امرأته هى سارّة لما سمعت بشارتهم له ، صَرّة : أى صيحة ، فصكت وجهها : أى ضربت بيدها على جبهتها وقالت :يا ويلتا، عجوز عقيم : أى أنا كبيرة السن لا ألد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إنكار قومه للبعث والنشور حتى أقسم لهم بعزته أنه كائن لا محالة — سلى رسوله فأبان له أنه ليس ببدع فى الرسل ، وأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، وأنهم إن تمادَوْا فى غيهم وأصروا على كفرهم ولم يُقلعوا عما هم عليه ، فسيحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من الأمم الخالية .

وذكر إبراهيم من بين الأنبياء لكونه شيخ المرسلين ، وكون النبى صلى الله عليه وسلم على سنته كما قال تعالى : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ولأن العرب كانت تُجِلُّه وتحترمه وتدعى أنها على دينه .

وأتى بالقصص بأسلوب الاستفهام تفخيما لشأن الحديث كما تقول لمخاطبك هل بلغك كذا وكذا ، وأنت تعلم أنه لم يبلغه ، توجيها لأنظاره حتى يُصغى إليه ويهتم بأمره ، ولو جاء على صورة الخبر لم يكن له من الروعة والجلال مثل ما كان وهو بهذه الصورة ، وتنبيها إلى أن الرسول لم يعلم به إلا من طريق الوحى .

الايضاح

(هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام ؟) أى هل عندك نبأ بما حدث بين إبراهيم وضيوفه من الملائكة الذين وفدوا عليه وهم ذاهبون فى طريقهم إلى قوم لوط ، فسلموا عليه فرد عليهم التحية بأحسن منها.

ثم أراد أن يتعرف بهم فقال :

(قوم منكرون) أى إنكم قوم لاعهد لنا بكم من قبل فعرفونى أنفسكم - من أنتم ؟

واستظهر بعض العلماء أن هذه مقالة أسرّها فى نفسه أو لمن كان معه من أتباعه وجلسائه من غير أن يشعرهم بذلك ، لأن فى خطاب الضيف بنحو ذلك إيحاشا له ، إلى أنه لو كان أراد ذلك لكشفوا له أحوالهم ، ولم يتصد لمقدمات الضيافة ، ثم ذكر أنه أسرع فى قِرى ضيوفه فقال :

(فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم) أى فذهب خفية مسرعا وقدم لضيوفه عجلا سمينا أنضجه شيًّا ، كما جاء فى سورة هود « فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » أى مشوى على الرضَف .

(قال ألا تأكلون ؟) أى قال مستحثا لهم على الأكل : ألا تأكلون ؟ وفى هذا تلطف منه فى العبارة وعَرْض حسن ، وقد انتظم كلامه وعمله آداب الضيافة ، إذ جاء بطعام من حيث لا يشعرون ، وأتى بأفضل ماله ، وهو عجل فتىّ مشوى ، ووضعه بين أيديهم ، ولم يضعه بعيداً منهم حتى يذهبوا إليه ، وتلطف فى العرض فقال: ألا تأكلون؟

(فأوجس منهم خيفة) أى فأعرضوا عن طعامه ولم يأكلوا فأضمر فى نفسه الخوف منهم، ظنا منه أن امتناعهم إنما كان لشرّ يريدونه ، فإنّ أكل الضيف أَمَنَةٌ ودليل على سروره وانشراح صدره ، وللطعام حرمة ، وفى الإعراض عنه وحشة موجبة لسوء الظن، وقد جاء فى سورة هود : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهِمْ لاَتَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » .

ثم ذكر أنهم طمأنوه حينئذ فقال :

(قالوا لاتخف) منا إنا رسل ربك ، وجاء فى الآية الأخرى : « قَالُوا لاَتَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ » .

(وبشروه بغلام عليم) أى فبشروه بإسحاق بن سارّة كما جاء فى سورة هود : « فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » وجاءت البشارة بذكر لأنه أسرّ للنفس ، وأقر للعين ، ووصفه بالعلم لأنه الصفة التى يمتاز بها الإنسان الكامل ، لا الصورة الجميلة ولا القوة ولا نحوهما .

ثم أخبر عما حدث من امرأته حينئذ فقال :

(فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) أى فأقبلت امرأته سارّة حين سمعت بشارتهم (كانت فى ناحية من البيت تنظر إليهم) وهى تصرخ صرخة عظيمة وضربت بيديها على جبينها وقالت : أنا عجوز عقيم فكيف ألد ؟ وجاء فى الآية الأخرى : « قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا » فأجابوها عما قالت :

(قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم) أى قالوا لها : مثل الذى أخبرناك به قال ربك ، فنحن نخبرك عن الله ، والله قادر على ماتستبعدين ، وهوالحكيم فى أفعاله ، العليم الذى لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

والخلاصة — إنها استبعدت الولادة لسببين : كبر السن والعقم ، وقد كانت لا تلد في عنفوان شبابها والآن قد عجزت وأيست ، فأجْدِرْ بها الآن ألا تلد، فكأنها قالت: ليتكم دعوتم دعاء قريبا من الإجابة ، ظنا منها أن ذلك منهم كما يصدر من الضيف من الدعوات الطيبات كما يقول الداعي : أعطاك الله مالا ، ورزقك ولدا ، فردوا عليها بأن هذا ليس منا بدعاء ، و إنما ذلك قول الله تعالى .

قد تمّ ما أردنا تصنيفه فى تفسير هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية فى اليوم العاشر من شهر ربيع الثانى من سنة خمس وستين وثلثمائة بعد الألف من هجرة سيد ولد عدنان .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية

بكلية دار العلوم سابقا

الجزء السابع والعشرون

دار إحياء التراث العربي

بيروت

الجزء السابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) .

تفسير المفردات

الخطب : الشأن الخطير ، أى فما شأنكم الذى أرسلتم لأجله سوى البشارة ، إلى قوم مجرمين : هم قوم لوط ، من طين : أى من طين متحجر وهو السجيل ، مسومة : أى معلّمة من السُّومة وهى العلامة ، المسرفين : أى المجاوزين الحد فى الفجور ، من المؤمنين : أى ممن آمن بلوط ، غير بيت : أى غير أهل بيت ، والمراد بهم لوط وابنتاه آية : أى علامة دالة على ما أصابهم من العذاب .

المعنى الجملى

تقدم أن قلنا غير مرة إن الذين قسموا القرآن إلى أجزائه الثلاثين نظروا إلى العدّ اللفظى ولم يُعْنَوْا بالنظر إلى الترتيب المعنوى ، ومن ثم تجد جزءا قد انتهى و بدىء بآخر أثناء القصة كما هنا .

فبعد أن بشر الملائكةُ إبراهيم عليه السلام بالغلام — سألهم ما شأنكم وما الذى جئتم لأجله ؟ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، لنهلكهم بحجارة من سجيل بها علامة تدل على أنها أعدت لإهلاكهم ، ثم نأمر من كان فيها من المؤمنين بالخروج من القرية حتى لا يلحقهم العذاب الذى سيصيب الباقين ، وسنترك فيها علامة تدل على ما أصابهم من الرجز ، جزاء فسوقهم وخروجهم من طاعة ربهم .

الإيضاح

(قال فما خطبكم أيها المرسلون) أى قال إبراهيم لهؤلاء الملائكة : ما شأنكم ؟ وفيم أرسلتم ؟ وجاء فى سورة هود : « فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ . يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » .

فأجابوه عما سأل :

(قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين) أى قالوا له : إنا أرسلنا إلى قوم لوط بالعذاب لإجرامهم ، وسنلقى عليهم حجارة من طين مطبوخ كالآجرّ وهى فى الصلابة كالحجارة ، وفيها علامات أعدت لهلاك المسرفين .

ولما أراد سبحانه أن يهلك المجرمين ميّز عنهم المؤمنين وأبعدهم منهم كما قال :

(فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)

أى بعد أن ذهبت رسلنا إلى قوم لوط ووقعت بينهم و بينهم محاورات لم يدْعُ الحال إلى ذكرها هنا — أخرجوا من كان فى القرى من المؤمنين تخليصا لهم من العذاب ، ولم يجدوا فيها سوى بيت واحد أسلم وجهه لله ظاهرا و باطنا ، وانقاد لأوامره واجتنب نواهيه ، وهو بيت لوط ابن أخى إبراهيم عليه السلام .

عن سعيد بن جبير قال : كانوا ثلاثة عشر .

قال أبو مسلم الأصفهانى : الإسلام الاستسلام لأمر الله والانقياد لحكمه ، فكل مؤمن مسلم ، ومن ذلك قوله تعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » .

وقد أوضح الحديث الشريف الفرق بينهما ، فجاء فى الصحيحين وغيرهما من طرق عدة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الإسلام فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتحج البيت ، وتصوم رمضان . وسئل عن الإيمان ؟ فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره » .

(وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) أى وجعلناها عبرة بما أنزلنا بها من العذاب والنكال وحجارة السجيل ، وخسف الأرض بهم حتى صارت قريتهم بحيرة منتنة خبيثة وهى بحيرة طبرية ، لتكون ذكرى لمن يخشى الله ويخاف عذابه .

وفى الآية إيماء إلى أن الكفر متى غلب ، والفسق إذا انتشر ، لا تنفع معه عبادة المؤمنين ، أما إذا كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون و يفجرون ، فإن الله لا يأخذ الكثرة الصالحة بذنب العدد القليل من الفاجرين .

وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ

وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ
شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى
حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤)
فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦).

تفسير المفردات

بسلطان مبين: أي بحجة واضحة هي معجزاته الظاهرة كاليد والعصا، والركن: ما يركن إليه الشيء ويتقوّى به، والمراد هنا جنوده وأعوانه ووزراؤه كما جاء في سورة هود «أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»، فأخذناه: أي أخذ غضب وانتقام، نبذناهم: أي طرحناهم، في اليمّ: أي في البحر، مليم: أي آت بما يلام عليه، والعقيم: أي التي لاخير فيها ولا بركة، فلا تلقح شجرا ولا تحمل مطرا، سميت عقيما لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم، الرميم: البالى من عظم ونبات وغير ذلك، فعتوا: أي فاستكبروا عن الامتثال، والصاعقة: نار تنزل بالاحتكاكات الكهربية، منتصرين: أي ممتنعين من عذاب الله بغيرهم ممن أهلكهم، فاسقين: أي خارجين من طاعة الله، متجاوزين حدوده.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما كان من قوم لوط من الفسوق والعصيان، وما أصابهم من الهلاك جزاء وفاقا لما اجترحوا من السيئات تسلية لرسوله على مايرى من قومه — عطف على ذلك قصص جمع آخرين من الأنبياء لقُوا من أقوامهم من الشدائد مثل ما لقى هذا الرسول الكريم، فحقت على أقوامهم كلمة ربهم ونزل بهم عذاب الاستئصال وصاروا

كأمس الدابر عبرة ومثلا للآخرين ، فذكر أنه أرسل موسى إلى فرعون بشيرا ونذيرا فأبى واستكبر واعتزّ بقوته وجنده ، وقال أنا ربكم الأعلى ، فأغرق هو وقومه فى البحر. وأرسل شعيبا إلى عاد فكذبوه فأهلكهم بريح صرصر عاتية . وأرسل صالحا إلى ثمود فكذبوه فأخذتهم الصاعقة ولم تبق منهم أحدا ، وبعث نوحا إلى قومه فلم يستجيبوا لدعوته فأخذهم الطوفان وهم ظالمون .

الايضاح

(وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون) أى وفى قصص موسى عبرة لقوم يعقلون ، إذ أرسلناه إلى فرعون بحجج ظاهرة ، وآيات باهرة ، فأعرض ونأى، وكذب بما جاء به ، معتزا بجنده وقوته وجبروته، وقال حينا تحقيرا لشأن موسى : « إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » وقال حينا آخر: « إِنَّهُ لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ » . وما مقصده من هذا إلا صرفهم عن النظر والتأمل فيما جاء به من الآيات ، خوفا على ملكه أن ينهار ، وعلى دولته أن يلحقها الدمار ، وإبقاء على ماله من النفوذ والسلطان فى البلاد .

ثم ذكر جزاءه هو وقومه على ما صنع فقال :

(فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليمّ وهو مليم) أى فألقينا فرعون وجنوده فى البحر وهو آتٍ بما يلام عليه من الكفر والطغيان.

وفى هذا إيماء إلى عظمة القدرة على إذلال الجبابرة وسوء عاقبتهم ، جزاء عتوهم واستكبارهم وعصيانهم أمر خالقهم .

ثم ذكر قصص عاد فقال :

(وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) أى وفى عاد آية لكل ذى لبّ ، إذ أرسلنا عليهم ريحا صرصرا عاتية

لم تبق منهم ديّارا ولا نافخ نار ، ولا تركت شيئا من الأبنية والعروش إلا جعلته كالشيء الهالك البالى .

وبعدئذ ذكر قصص ثمود فقال :

(وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) أى وفى ثمود عظة لمن تدبر وفكر فى آيات ربه ، إذ قال لهم نبيهم : « تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ » ثم يحل بكم من العذاب مالا قبل لكم به ، فكذبوه واستكبروا وعتوا عن أمر ربهم ، فأرسل عليهم صاعقة من السماء أهلكتهم جميعا وهم ينظرون إليها — جزاء ما اكتسبت أيديهم من الآثام ، وارتكاب الخطايا والأوزار .

(فما استطاعوا من قيام . وما كانوا منتصرين) أى فما استطاعوا هربا ولم يجدوا مفرّا ولا نصيرا يدفع عنهم عذاب الله .

ثم ذكر موجزا لقصص قوم نوح فقال :

(وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين) أى وأهلكنا قوم نوح بالطوفان قبل هؤلاء ، بسبب فسقهم وفجورهم وانتهاكهم حرمات الله .

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) .

تفسير المفردات

الأيد والآد : القوة ، لموسعون : أى لذو سعة بخلقها وخلق غيرها ؛ من الوسع بمعنى الطاقة ، فرشناها : أى بسطناها ومهدناها من مهدتُ الفراشُ إذا بسطته ووطأته ،

وتمهيد الأمور: تسويتها وإصلاحها، ومن كل شىء : أى ومن كل جنس من الحيوان، زوجين : أى ذكر وأنثى، ففروا إلى الله : أى اعتصموا بحبل الله وأقروا بوحدانيته، إنى لكم منه نذير مبين : أى إنى لكم من عقابه منذر ومخوّف .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت الحشر وأقام الأدلة على أنه كائن لا محالة — أرشد إلى وحدانية الله وعظيم قدرته ، فبين أنه خالق السماء بغير عمد ، و بسط الأرض ودحاها ، لتصلح لسكنى الإنسان والحيوان ، وخلق من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين ذكرا وأنثى، ليستمر بقاء الأنواع إلى أن يشاء الله فناء العالم ، ثم أمرهم أن يعتصموا بحبل الله وأنذرهم شديد عقابه ، وحذرهم أن يجعلوا مع الله نِدًّا وشريكا .

الإيضاح

(والسماء بنيناها بأيد و إنا لموسعون) أى ولقد بنينا السماء ببديع قدرتنا ، وعظيم سلطاننا ، وإنا لقادرون على ذلك لا يمسنا نصب ولا لغوب .

وفى ذلك تعريض باليهود الذين قالوا : أن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع مستلقيا على عرشه .

(والأرض فرشناها) أى ومَهَدْنا الأرض ، وجعلناها صالحة لسكنى الإنسان والحيوان ، وجعلنا فيها الأرزاق والأقوات ، من الحيوان والنبات وغيرهما مما يكفل بقاءهما إلى حين ، ووضعنا فيها من المعادن فى ظاهرها و باطنها ما فيه زينة لكم ، فتبنون المساكن من حجارتها ، وتتخذون الحلىّ من ذهبها وفضتها وأحجارها الكريمة ، وتصنعون آلات الحرب والسفن والطائرات من حديدها ومعادنها الأخرى .

وفى الآية إشارة إلى أن دَحْو الأرض كان بعد خلق السماء ، لأن بناء البيت يكون قبل الفرش ، وهذا ما يثبته العلم الحديث الآن ، وقد تقدم ذكر ذلك غير مرة .

ثم مدح سبحانه نفسه على ما صنع فقال :

(فنعم الماهدون) أى فنعم مافعلنا ، وما أجمل ما خلقنا ، مما فيه عظة لمن يتذكر و يتدبر .

(ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) أى و إنا خلقنا لكل ماخلقنا من الخلق ثانيا له ، مخالفا له فى مبناه والمراد منه ، وكل منهما زوج للآخر ، فخلقنا السعادة والشقاوة ، والهدى والضلال ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، والسواد والبياض — لتتذكروا وتعتبروا فتعلموا أن الله ربكم الذى ينبغى لكم أن تعبدوه وحده لاشريك له — هو الذى يقدر على خلق الشىء وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شىء لا ما لا يقدر على ذلك .

(ففرّوا إلى الله) أى فالجئوا إلى الله واعتمدوا عليه فى جميع أموركم ، واتبعوا أوامره ، واعملوا على طاعته ، ثم علل الأمر بالفرار إليه بقوله :

(إنى لكم منه نذير مبين) أى إنى لكم نذير من الله أنذركم عقابه ، وأخوّفكم عذابه الذى أحله بهؤلاء الأمم التى قص عليكم قصصها ، و إنى مبيّن لكم مايجب عليكم أن تحذروه .

ثم ذكر أعظم ما يجب أن يفر المرء منه ، وهو الشرك فقال :

(ولا تجعلوا مع الله إلها آخر) أى ولا تجعلوا مع معبودكم الذى خلقكم معبودا آخر سواه ، فإن العبادة لاتصلح لغيره .

ثم علل هذا النهى بقوله :

(إنى لكم منه نذير مبين) أى إنى لكم نذير ومخوف من عقابه على عبادتكم غيره .

ونحو الآية قوله تعالى : « فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ، فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) .

تفسير المفردات

فتول عنهم : أى أعرض عن جدلهم ، وذكّر : أى دم على التذكير والموعظة ، إلا ليعبدون : أى إلا لآمرهم بعبادتى لا لاحتياجى إليهم ، المتين : أى الشديد القوة ، ذنوبا : أى نصيبا من العذاب ، وأصل الذنوب : الدلو العظيمة الممتلئة ماء ، أصحابهم : أى نظرائهم ، فويل للذين كفروا : أى هلاك لهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن هؤلاء المشركين فى قول مختلف مضطرب لا يلتئم بعضه مع بعض فبينما هم يقولون : خالق لسموات والأرض هو الله إذا بهم يعبدون الأصنام والأوثان، وطورا يقولون محمد ساحر، وطورا آخر يقولون هو كاهن إلى نحو ذلك .

قفىّ على ذلك بأن ذكر أن قومه ليسوا بدعا فى الأمم ، فكما كذبت قريش نبيها فعلت الأمم التى كذبت رسلها ، فأحل الله بهم نقمته كقوم نوح وعاد وثمود ، ثم عجّب من حالهم وقال : أتواصى بعضهم مع بعض بذلك ؟ ثم قال: لا بل هم قوم طغاة متعدّون حدود الله ، لا يأتمرون بأمره ولا ينتهون بنهيه ، ثم أمر رسوله أن يُعْرِض عن جدلهم ومرائهم ، فإنه قد بلّغ ماأُمِرَ به ولم يقصّر فيه ، فلا يلام على ذلك ، وأن يذكّرمن تنفعه الذكرى ولديه استعداد لقبول الإرشاد والهداية ، ثم أردف هذا أن ذكر أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليأمرهم ويكلفهم بعبادته ، لا لاحتياجه إليهم فى تحصيل رزق ولا إحضار طعام ، فالله هو الرزاق ذو القوة . ثم ختم السورة بتهديد أهل مكة بأنه سيصيبهم من العذاب مثل ماأصاب من قبلهم من الأمم السالفة ، فأولى لهم ألا يستعجلوه بقولهم : «مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » ، فقد حقت عليهم كلمة ربك فى اليوم الذى يوعدون ، وسيقع عليهم من العذاب مالامردّ له ، ولا يجدون له دافعاً .

الايضاح

(كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) أى كما كذبك قومك من قريش وقالوا ساحر أو مجنون — فعلت الأمم التى كذبت رسلها من قبلهم وقالوا مثل مقالتهم ، فهم ليسوا ببدع فى الأمم ، ولا أنت ببدع فى الرسل ، فكلهم قد كُذِّبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله .

وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم على احتمال الأذى والإعراض عن جدلهم ، فإنهم قد أبطرتهم النعمة وغرّهم الإمهال ، فلا تجدى فيهم العظة ولا تنفعهم الذكرى .

ثم تعجب من إجماعهم على إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقال :

(أتواصوا به ؟) أى أأوصى أولهم آخرهم بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم فقبلوا ذلك منهم ؟

ثم عدل عن أنّ الذى جمعهم على هذا القول هو التواصى ، إلى أن الذى جمعهم على ذلك هو الطغيان فقال :

(بل هم قوم طاغون) أى بل الذى جمعهم على ذلك هو الطغيان وتجاوز حدود الدين والعقل ، فقال متأخرهم مثل مقالة متقدمهم .

ثم سلى رسوله بقوله :

(فتول عنهم فما أنت بملوم) أى فأعرض عنهم أيها الرسول ، ولا تأسف على تخلفهم عن الإسلام فإنك لم تألُ جهدا فى الدعوة ، وهم ما زادوا إلا عتوا واستكبارا ، وطغيانا وإعراضاً .

(وذكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) أى دم على العظة والنصح ، فإن الذكرى تنفع من فى قلوبهم استعداد للهداية والرشاد .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى وجماعة من طريق مجاهد عن على كرم الله وجهه قال : لما نزلت « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ » لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة ، إذ أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يتولى عنا ، فنزلت « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » فطابت أنفسنا .

و بعد أن بين حالهم فى التكذيب ذكر سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الذى خلقهم للعبادة بقوله :

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) أى وما خلقتهم إلا ليعرفونى ، إذ لولا خلقهم لم يعرفوا وجودى ولا توحيدى ، يرشد إلى ذلك ما جاء فى الحديث القدسى « كنتُ كنزا مخفيا فأردت أن أعرَف ، فخلقت الخلق فبى عرفونى » قاله مجاهد ، وروى عنه أيضا أن المعنى : إلا لآمرهم وأنهاهم ، ويدل عليه قوله : « وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » واختاره الزجاج ،

ويرى جمع من المفسرين أن المعنى: إلا ليخضعوا لى ويتذللوا، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله، متذلل لمشيئته، منقاد لما قدره عليه، خلقهم على ما أراد، ورزقهم كما قضى، لا يملك أحد منهم لنفسه نفعا ولا ضرا.

وهذه الجملة مؤكدة للأمر بالتذكير وفيها تعليل له، فإن خلقهم لما ذكر يدعوه إلى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكر والاتعاظ.

ثم ذكر أن شأنه مع عبيده ليس كشأن السادة مع عبيدهم فقال:

(ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) أى إننى ما أريد أن أستعين بهم لجلب منفعة ولا دفع مضرة، فلا أصرّفهم فى تحصيل الأرزاق والمطاعم كما يفعل الموالى مع عبيدهم.

ثم علل هذا بقوله:

(إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) أى إنه تعالى غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم، لأنه خالقهم ورازقهم، وهو ذو القدرة والقوة الغالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

روى أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى: يابن آدم تفرّغْ لعبادتى أملأْ صدرك غنى وأسدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسدّ فقرك».

ولما أقسم سبحانه على الصدق فى وعيدهم — أخبر بإيقاع هذا الوعيد بهم يوم القيامة فقال:

(فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم) أى فإن للذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ما خلقوا له من العبادة، وإشراكهم بالله عز وجل وتكذيبهم رسوله نصيبا من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة التى كذبت رسلها.

(فلا يستعجلون) أى فلا يطلبوا منى أن أعجل بالإتيان به، فإنى لا أخاف

الفوت ، ولا يلحقنى عجز ، وهذا جواب عن قولهم : « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

ونحو الآية قوله : « أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » .

(فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) أى فويل لهم من حلول ذلك العذاب الذى وُعِدوه يوم القيامة حين لاتغنى نفس عن نفس شيئا ولا هم ينصرون .

خلاصة ما تضمنته السورة الكريمة

(١) دلائل البعث من العجائب الطبيعية والعلوم النفسية .

(٢) جزاء المتقين بما يلقونه من النعيم يوم القيامة .

(٣) أخبار الأمم السالفة التى كذبت رسلها .

(٤) تسلية النبى صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من أذى قومه .

(٥) الفرار إلى الله من هذه الدنيا المحفوفة بالمخاطر .

(٦) النهى عن الإشراك بالله .

(٧) إخبار رسوله بأن قومه ليسوا ببدع فى التكذيب بك فقد كذب رسل من قبلك .

(٨) أمره صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم ، وتذكير من تنفعه الذكرى من المؤمنين .

(٩) إخباره بأن الله ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه .

(١٠) وعيد الكافرين بأن العذاب سيحل بهم يوم القيامة .

(١١) إن المشركين سينالهم نصيب من العذاب مثل نصيب نظرائهم من المكذبين .

سورة الطور

هى مكية وعدد آياتها تسع وأربعون ، نزلت بعد السجدة .

عن أم سلمة «أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى إلى جنب البيت بالطور وكتاب مسطور» أخرجه البخارى وغيره .

ومناسبتها لما قبلها :

(١) إن فى ابتداء كل منهما وصف حال المتقين .

(٢) إن فى نهاية كل منهما وعيدا للكافرين .

(٣) إن كلا منهما بدئت بقسم بآية من آياته تعالى الكونية التى تتعلق بالمعاش أو المعاد ، ففى الأولى أقسم بالرياح الذاريات التى تنفع الإنسان فى معاشه ، وهنا أقسم بالطور الذى أنزل فيه التوراة النافعة للناس فى معادهم .

(٤) فى كل منهما أمر النبى بالتذكير والإعراض عما يقول الجاحدون من قول مختلف .

(٥) تضمنت كلتاهما الحجاج على التوحيد والبعث ، إلى نحو ذلك من المعانى المتشابهة فى السورتين .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ
الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ
الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ

يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ
بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا
فَاصْبِرُوا أَوْلاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)

تفسير المفردات

الطور بالسريانية : الجبل ، والمراد به طور سينين ، وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام ، والمراد بالكتاب هنا : ما كتب من الكتب السماوية كالقرآن والتوراة والإنجيل ، والمسطور: أى المكتوب على طريق منظم، والسطر ترتيب الحروف المكتوبة ، والرّق : (بالفتح والكسر) جلد رقيق يكتب فيه ، والمنشور : المفتوح الذى لاختم عليه ، والبيت المعمور : هو الكعبة المعمورة بالحجاج والمجاورين ، والسقف المرفوع : هو السماء ، والمسجور : أى الموقد المحمى ، من سجر النار أى أوقدها وعنى به باطن الأرض وهو الذى دل عليه الكشف الحديث ولم تعرفه الأمم قديما ، وقد أشارت إليه الأحاديث ، فعن عبد الله بن عمر : « لايركبنّ رجل البحر إلا غازيا أو معتمرا أو حاجا ، فإن تحت البحر نارا ، وتحت النار بحرا » .

وقد أثبت علماء طبقات الأرض (الجيلوجيا) أن الأرض كلها كبطيخة وقشرتها كقشرة البطيخة ؛ أى إن نسبة قشرة الأرض إلى النار التى فى باطنها كنسبة قشرة البطيخة إلى باطنها الذى يؤكل، فنحن الآن فوق نار عظيمة : أى فوق بحر مملوء نارا، وهذا البحر مغطى من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة السد عليه ، ومن حين إلى آخر تتصاعد من ذلك البحر نار تظهر فى الزلازل والبراكين كبركان فيزوف الذى هاج بإيطاليا سنة ١٩٠٩ م وابتلع مدينة مسّينا ، والزلزلة التى حدثت باليابان سنة ١٩٢٥ م وخربت مدنا بأكملها .

وتمور : أى تضطرب وترتج وهى فى مكانها ، وأصل المَوْر التردد فى الذهاب والمجىء ، وقد يطلق على السير مطلقا كما قال الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مَوْرُ السحابة لا رَيْثٌ ولا عَجَل

وأصل الخوض : السير فى الماء ثم استعمل فى الشروع فى كل شىء وغلب فى الخوض فى الباطل ، كالإحضار فإنه عام فى كل شىء ثم غلب استعماله فى الإحضار للعذاب ، يدعّون : أى يدفعون دفعا عنيفا شديدا بأن تغلّ أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعون إلى النار ويطرحون فيها .

المعنى الجملى

أقسم سبحانه بمخلوقاته العظيمة ، الدالة على كمال قدرته ، وبديع صنعته ، وعدّ منها أماكن ثلاثة : الطور، والبيت المعمور، والبحر المسجور ـ لأنبياء ثلاثة كانوا ينفردون للخلوة بربهم ، والخلاص من الخلق لمناجاة الخالق ، فانتقل موسى إلى الطور وخاطب ربه وقال « أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا » وقال «رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ » وانتقل محمد إلى البيت المعمور وناجى ربه وقال « سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ، وكلم يونس ربه فى البحر وقال : « لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » .

وقرن الكتاب بالطور لأن موسى كان ينزل عليه الكتاب وهو به ، وقرن السقف المرفوع بالبيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد صلى الله عليه وسلم ، وأقسم بكل هذا على أن العذاب يوم القيامة نازل بأعدائه الذين يخوضون فى الباطل ويتخذون الدين هزوا ولعبا ، فيدفعون إلى النار دفعا عنيفا ويقال لهم : هذه هى النار التى كنتم بها تكذبون ، ادخلوها وقاسوا شدائدها ، وسواء عليكم أجزعتم أم صبرتم مالكم منها مهرب ولا خلاص .

الإيضاح

(والطور . وكتاب مسطور . فى رقّ منشور) أقسم سبحانه بهذا الجبل العظيم الشأن الذى كلم فوقه موسى ، وأنزل عليه التوراة التى كتبت بنظام بديع ، مرتب الحروف ، فى رق منشور ، يسهل على كل أحد أن يطلع على ما فيها من حكم وأحكام، وآداب وأخلاق .

(والبيت المعمور) أى والكعبة التى يعمرها عشرات الآلاف الذين يُهْرَعون إليها كل عام من أرجاء المعمورة ، وينْسِلون إليها من كل حدَب ، كما يعمرها المجاورون لها تبركا بالعبادة فيها ، وطلبا لقبولها عند ربهم .

(والسقف المرفوع) أى والعالم العلوى وما حوى من شموس وأقمار ، وكواكب ثابتة وسيارات ، وما فيه من عرشه وكرسيه وملائكته الذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وما فيه من عوالم لايحصى عدتها إلاهو، ومن جنود لايعلم حقيقتها إلا من ذرأها كما قال « وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ » .

(والبحر المسجور) أى والبحر المحبوس من أن يفيض فيغرق جميع ما على الأرض ولا يبقى ولا يذر من حيوان ونبات، فيفسد نظام العالم وتعدم الحكمة التى لأجلها خلق.

وقد يكون المعنى — والبحر الموقد فى باطن الأرض بمنزلة التنُّور المُحْمَى، وقد بينا هذا فيما سبق .

ثم ذكر ما أقسم عليه فقال :

(إن عذاب ربك لواقع. ماله من دافع) أى إن عذاب يوم القيامة لمحيط بالكافرين المكذبين بالرسل ، لايدفعه عنهم دافع ، ولا يجدون من دونه مهربا ، جزاء ما دنّسوا به أنفسهم من الشرك والآثام ، ودسّوا به أرواحهم من التكذيب بالرسل واليوم الآخر .

(يوم تمور السماء مورا) أى ليس للعذاب دافع فى ذلك اليوم الذى ترتجّ فيه السماء وهى فى أماكنها، وتتحققون أنه لامانع من عذاب الله ولا مهرب منه.

(وتسير الجبال سيرا) أى وتزول الجبال من أماكنها، وتسير عن مواضعها كسير السحاب، وتطير فى الهواء ثم تقع على الأرض مفتتة كالرمل ثم تصير كالعهن (الصوف المندوف) ثم تطيرها الرياح فتكون هباء منثورا كما دل على ذلك ما جاء فى سورة النمل

والحكمة فى مور السماء وسير الجبال - الإعلام والإنذار بأن لا رجوع ولا عودة إلى الدنيا لخرابها وعمارة الآخرة.

ثم بين من سيقع عليه العذاب حينئذ فقال:

(فويل يومئذ للمكذبين. الذين هم فى خوض يلعبون) أى فإذا حدث ما ذكر من مور السماء وسير الجبال فهلاكٌ يومئذ للمكذبين الذين يخوضون فى الباطل، ويندفعون لاهين، لايذكرون حسابا، ولا يخافون عقابا.

(يوم يدعّون إلى نار جهنم دعًّا) أى يوم يدفعون ويساقون إلى نار جهنم دفعا عنيفا.

فإذا دَنَوْا منها قال لهم خزنتها تقريعا وتوبيخا:

(هذه النار التى كنتم بها تكذبون) أى هذه النار التى تشاهدونها هى التى كنتم بها تكذبون فى الدنيا، وتكذيبهم بها تكذيب للرسول الذى جاء بخبرها، وللوحى الناطق بها.

ثم تهكم بهم وأنّبهم فقال:

(أفسحرٌ هذا أم أنتم لاتبصرون؟) كان المشركون فى الدنيا ينسبون إلى محمد صلى الله عليه وسلم أنه يسحر العقول ويغطى الأبصار، فأنبهم على ما قالوا مستهزئا بهم وقال لهم: هل ما ترونه بأعينكم مما كنتم تنبئون به فى الدنيا من العذاب - حق، أو سحرتم أيضا كما كان يفعل بكم محمد فى الدنيا، أو قد غُطّيت أبصاركم فلا ترى شيئا؟ بلى إنه لحق فلم تُسْحَر أعينكم ولم تُغَطّ أبصاركم.

والخلاصة — هل فى المرئى شك أو فى أبصاركم علل ؟ لا واحد منهما بموجود ، فالذى ترونه حق .

(اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم) أى إذا لم يمكنكم إنكارها ، وتحقق أنها ليست بسحر ، ولا خلل فى أبصاركم فاصلوها ، وفى قوله : فاصبروا أولا تصبروا بيان لعدم الخلاص ، وانتفاء لعدم المناص ؛ فإن من لا يصبر على شىء يحاول دفعه عنه ، إما بإبعاده عنه ، وإما بمحقه وإزالته ؛ ولا شىء من ذلك بحاصل يوم القيامة ـ إلا أن عذاب الآخرة ليس كعذاب الدنيا ، فإن المعذب فيها إن صبر انتفع بصبره إما بالجزاء فى الآخرة وإما بالحمد فى الدنيا فيقال ما أشجعه ، وما أقوى قلبه ، وإن جزع ذم وقيل فيه يجزع كالصبيان والنسوان ، وأما فى الآخرة فلا مدح ولا ثواب على الص .

ثم علل استواء الصبر وعدمه بقوله :

(إنما تجزون ما كنتم تعملون) أى إنما تستوفون جزاء أعمالكم فى الدنيا ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر « وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » بل يجازى كل أحد بعمله ، وإذا كان الجزاء واقعا حتما كان الصبر وعدمه سواء .

والخلاصة — إن الجزاء محتم الوقوع ، لسبق الوعيد به فى الدنيا على ألسنة الرسل ، ولقضاء الله به بمقتضى عدله ، فالصبر وعدمه سيان حينئذ .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠)

تفسير المفردات

فاكهين : أى طيبة نفوسهم ، مسرورة بما هى فيه ، وقاهم : أى حفظهم ، والطعام الهنىء : ما لا يلحق المرء فيه مشقة ولا يعقبه تُخْمَة ولا سَقَم ، وزوّجناهم : أى قرنّاهم ، والحور : واحدتهن حوراء ، والحَوَر : اسوداد المقلة ، والعين : واحدتهن عيناء : أى واسعة العينين .

المعنى الجملى

بعد أن أبان ما يصيب الكافرين من العذاب الأليم الذى لا دافع له ولا مهرب منه ـ ذكر ما يتمتع به المؤمنون فى ذلك اليوم من صنوف اللذات فى المساكن والمآكل والمشارب والفُرُش والأزواج ، بحسب سنن القرآن من ذكر الثواب بعد العقاب ، ليتم أمر الترغيب بعد الترهيب حتى يكون المرء بين عاملين، عاملى الرهبة من بطش ربه، والرغبة فى رحمته ، وكلاهما لاغنى للمرء عنه ، ليكمل صلاحه ، ويرعوى عن غيه ، ولا يقنط من رحمة ربه .

الايضاح

(إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم) أى إن الذين خافوا ربهم وأخلصوا له العبادة فى السر والعلن ، وأدّوا فرائضه ، وتحلّوا بآداب دينه ، وانتهوا عن معاصيه ، ولم يدنّسوا أنفسهم بالآثام ، ولم يدسّوا أرواحهم بالذنوب ، يجازيهم ربهم جزاء وفاقا بجنات يتنعمون فيها ، ويجدون ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كِفاء ما قاموا به من جليل الأعمال فى الدنيا ، وما حرموا منه أنفسهم من لذاتها ، وما صبروا عليه من مكارهها ، ابتغاء رضوانه . وهم فيها قريرو الأعين طيبو النفوس ، لا يشغلهم شاغل ، ولا يجدون هما ولا نصبا ، ولا يكدّر صفو عيشهم مكدر .

وقوله فى جنات ونعيم لبيان أن حالهم كحال من يتمتع بالبستان ، وكالناطور الذى يحرسه وقوله: فاكهين ؛ إشارة إلى أن قلوبهم لايشغلها همّ ولا نصب ، بل هم فى لذة، وسرور، وفرح وحبور .

ثم ذكر أنهم تمتعوا بنعمة أخرى قبل هذه فقال :

(ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) أى وقد نجاهم ربهم من عذاب النار ، فلم يمسسهم لظاها ، ولم يحسوا بأذاها ، فهم قد لابسوا النعم ، وجانبوا النقم ، وذلك هوالفوز العظيم والنعيم المقيم .

ثم ذكر أنه يقال لهم حينئذ :

(كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون) أى كلوا مما رزقكم ربكم من الطيبات ، واشربوا ممـا لذ وطاب ، هنيئا : أى لاتخافون أذى ولا غائلة كما تشاهدون مثل ذلك فى طعام الدنيا وشرابها ، كفاء ما قدمتم من صالح الأعمال ، وآثرتم من تعب الدنيا لراحة الآخرة . قيل للربيع بن خُثَيْم وقد صلى طوال الليل : أتعبتَ نفسك ، فقال : راحتَها أطلب .

ونحو الآية قوله تعالى : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .

وفى قوله (هنيئا) إشارة إلى خلوّ المآكل والمشارب مما ينغصهما ، فإن الآكل قد يخاف المرض فلا يهنأ له الطعام ، أو يخاف النفاد فيحرص عليه ، أو يتعب فى تحصيله وتهيئته بالطبخ والإنضاج ، ولا يكون شىء من هذا فى الآخرة .

وفى قوله (بما كنتم تعملون) إيماء إلى أن هذا إنجاز لما وعدهم ربهم به فى الدنيا ، فلا منّ عليهم فيه ، بل كان المن عليهم فى الدنيا ، بهدايتهم للايمان ، وتوفيقهم لصالح الأعمال كما قال : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ » .

ثم ذكر ما يتمتعون به من الفرش فقال :

(متكئين على سرر مصفوفة) أى يجلسون على سرر مصفوف بعضها بجوار بعض جلسة المتكىء الذى لا كلفة عليه ، ولا تكلف لديه ، فإن من يكون عنده من يتكلف له يجلس ولا يتكىء ، ومن يكون فى مهمّ لا يتفرغ للاتكاء ، لحاله حال اطمئنان ورفع كلفة وخلوّ بال .

ونحو الآية قوله « عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ » .

ثم ذكر ما يتمتعون به من الأزواج فقال :

(وزوّجناهم بحور عين) أى وجعلنا لهم قرينات صالحات ، وزوجات حسانا واسعات العيون .

وهذا وصف يتمدح به العربى إذا ذكر جمال المرأة .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) .

تفسير المفردات

ألتناهم : أى أنقصناهم ، رهين : أى مرهون بعمله عند الله ، والعمل الصالح يفكّه ، والعمل الطالح يوبقه ، وأمددناهم : أى زدناهم ، مما يشتهون : أى من صنوف النعماء ، وضروب الآلاء ، يتنازعون : أى يتجاذبون تجاذب ملاعبة وسرور ، والكأس :

الإناء بما فيه من الشراب قاله الراغب ، وقد يسمى كل منهما على انفراد كأسا ، لا لغو فيها : أى فى شرابها ، فلا يتكلمون فى أثناء الشراب بلغو الحديث وَسَقَط الكلام ، ولا تأثيم : أى ولا يُفْحِشون فى القول كما هو دَيْدَن الندامَى فى الدنيا ، فإنهم كثيرو اللغو فعالون للآثام ، غلمان : أى مماليك مختصون بهم ، مكنون : أى مصون فى أصدافه لم تنله الأيدى فهو يكون أبيض صافى اللون ، والسموم: النار ، والبر : الواسع الإحسان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما يتمتع به أهل الجنة من المطاعم والمشارب والأزواج كرماً منه وفضلا ــ أردف ذلك ذكر ما زاده لهم من الفضل والإكرام ، وهو أن يُلحق بهم ذريتهم المؤمنة فى المنازل والدرجات ، وإن لم تبلغ بهم أعمالهم ذلك ، لتقرّ بهم أعينهم إذا رأوهم فى منازلهم على أحسن الأحوال ، فيُرْفع الناقص فى عمله إلى الكامل فيه ، ولا يُنْقَص من عمله هو ولا منزلته .

قال ابن عباس : إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته وإن كانوا دونه فى المنزلة ، لتقرّ بهم عينه ، وقرأ الآية ، ثم وصف حالهم إذ ذاك فى الطعام والشراب والفاكهة ، فأبان أنه مامن فاكهة أو طعام يطلبونه إلا وجدوه ؛ ثم أتبع هذا ببيان عظيم حبورهم وسرورهم ، فإنهم يتجاذبون الكؤوس ، ويتندّرون بأطيب الأحاديث التى لالغو فيها ولا يأثم بها قائلها لو كان فى الدنيا ، وتخدمهم مماليك غاية فى الحسن والجمال ، ويتحدثون بما كان لهم من شؤون وأحوال فى الدنيا كما هو شأن ناعمى البال قريرى الأعين .

ثم ذكر أن من أحاديثهم أنهم كانوا فى دنياهم يخشون ربهم ويخافونه ، ومن ثمّ وقاهم عذاب النار .

الإيضاح

(والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) أى إن المؤمنين إذا اتبعتهم ذريتهم فى الإيمان يلحقهم ربهم بآبائهم فى المنزلة فضلا منه وكرما وإن لم يبلغوا بأعمالهم منزلتهم ، لتقرّبهم أعينهم ، و يكمل بهم فرحهم وحبورهم ، لوجودهم بينهم .

روى ابن مردويه والطبرانى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده ، فيقال له إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك ، فيقول : رب قد عملتُ لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » .

(وما ألتناهم من عملهم من شىء) أى وما أنقصنا مثوبات الآباء وحططنا درجاتهم بل رفعنا منزلة الأبناء تفضلا منا وإحسانا .

و بعد أن أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل لهم ، أخبر عن مقام العدل وهو ألا يؤاخذ أحد بذنب أحد فقال :

(كل امرئ بما كسب رهين) أى كل امرئ مرتهن بعمله ، لايحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أبا أو ابنا، وقد جعل العمل كأنه دَيْنٌ والمرء كأنه رهن به ، والرهن لاينفك مالم يؤدّ الدين ، فإن كان العمل صالحا فقد أدى الدين ، لأن العمل الصالح يقبله الله و يصعد إليه ، و إن كان غير صالح فلا أداء ولا خلاص ، إذ لايصعد إليه غير الطيب .

ونحو الآية قوله « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ » أى إن كل نفس رهن بعملها عند الله لايفك رهنها إلا أصحاب اليمين ، فإنهم فكوا عنه رقابهم بما أطاعوه من عملهم وكسبهم .

و بعد أن ذكر وجوه النعيم فيما سلف ذكر أنه يزيدهم على ذلك حينا فحينا مما يشتهون من فنون النعماء فقال :

(وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) أى وزدناهم على ما سلف فواكه ولحوما من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى، وإن لم يقترحوا ولم يطلبوا.

وذكر الفاكهة واللحم دون أنواع الطعام الأخرى، لأنهما طعام المترفين فى الدنيا.

وبعد أن ذكر طعامهم أردفه ذكر شرابهم وسرورهم لدى احتسائهم له فقال:

(يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم) أى يتجاذبون الكؤوس فى الجنة هم وجلساؤهم تجاذب ملاعبة كما يفعل الندامى فيما بينهم لشدة سرورهم كما قال الأخطل:

نازعتُه طيّب الرّاح الشَّمُول وقد صاح الدجاجُ وحانتْ وقعة السارى

وليس فى الشراب فى الآخرة مافيه فى الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل، ومن الفحش فى القول، كما يتكلم به الشَّرْبُ فيها، وقد أخبر سبحانه فى موضع آخر عن حسن منظرها، وطيب مطعمها فقال «بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ» وقال: «لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ».

ثم ذكر مالهم من خدم وحشم فى الجنة فقال:

(ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) أى يطوف عليهم بالكؤوس مماليك لهم، يتصرفون فيهم بالأمر والنهى والاستخدام كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون فى الأصداف فى الحسن والبهاء.

ونحو الآية قوله تعالى: «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ. بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ».

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: «بلغنى أنه قيل يا رسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: والذى نفسى بيده إن فضل ما بينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

وروى «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجىء ألف ببابه لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ».

ثم بين أنهم فى الجنة يتذاكر بعضهم مع بعض فى أحوال الدنيا فقال :

(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) أى أقبلوا يسأل بعضهم بعضا فى الجنة عن حاله وما كان فيه من تعب الدنيا وخوف العاقبة ، ثم يحمدون الله الذى أذهب عنهم الحزن والخوف والهم وما كانوا فيه من الكدر والنكد لطلب المعاش وتحصيل الأرزاق وما وصلوا إليه ، تلذذا بالنعمة واعترافا بها .

أخرج البزار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، اشتاقوا إلى الإخوان ، فيجىء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا فيتحدثان فيتكىْ ذا و يتكىْ ذا فيتحدثان بما كانوا فى الدنيا فيقول أحدهما لصاحبه يا فلان أتدرى أىّ يوم غفر الله لنا ؟ اليوم الذى كنا فى موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا » .

ثم فصل ما يجيب به بعضهم بعضا فقال :

(قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين . فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم) أى قالوا : إنا كنا فى دار الدنيا ونحن بين أهلها خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه ، فتفضل علينا وأجارنا مما نخاف .

والمقصود إثبات خوفهم فى سائر الأوقات والأحوال بطريق الأولى ، فإن وجودهم بين أهليهم مظِنّة الأمن ، فإذا خافوا فى تلك الحال فلأن يخافوا فى غيرها بالأولى .

روى أن عائشة قالت : « لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر الأنملة لأحرقت الأرض ومن عليها » .

ثم تمموا العلة فى استحقاقهم للكرامة فى تلك الدار بقولهم :

(إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم) أى إنا كنا نعبده ونسأله أن يمنّ علينا بالمغفرة والرحمة ، فاستجاب دعاءنا وأعطانا سؤلنا ، لأنه هو المحسن الواسع الرحمة والفضل .

وكل من المؤمن والكافر لاينسى ما كان له فى الدنيا ، وتزداد لذة المؤمن إذا رأى نفسه قد انتقلت من سجن الدنيا إلى نعيم الجنة ، ومن الضيق إلى السعة ؛ وتزداد آلام الكافر إذا رأى نفسه انتقل من الترف إلى التلف ، ومن النعيم إلى الجحيم .

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) .

تفسير المفردات

فذكر : أى فاثبت على ما أنت عليه من التذكير ، والكاهن : من يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن ، والعرّاف : من يخبر بالأخبار المستقبلة كذلك قاله الراغب ، ونتربص : أى ننتظر ، والمنون : الدهر ، وريبه : حوادثه وصروفه قال أبو ذؤيب :

أمِنَ المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمُعْتِب من يجزع

وقال آخر :

تربَّصْ بها ريب المنون لعلها تُطَلَّقُ يوما أو يموتُ حليلُها

الأحلام : العقول ، والطغيان : تجاوز الحد فى المكابرة والعناد ، تقوّله : أى اختلقه من تلقاء نفسه ، إذ التقول لايستعمل غالبا إلا فى الكذب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن العذاب واقع بالكافرين لا محالة ، وأن الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيون بأعمالهم ، وأن الرسول على الحق المبين الذى من كذبه باء بغضب من الله ، ومن صدّقه استحق رضوانه ومغفرة من لدنه — أمر رسوله هنا بالثبات على التذكر والموعظة ، وعدم المبالاة بما يكيد به أولئك الكائدون ، فإنه هو الغالب حجة وسيفا فى هذه الدار ، ومنزلة ورفعة فى دار القرار؛ ثم ذكر تناقض أقوالهم لينبه إلى فساد آرائهم ، وإلى أنهم ما أعرضوا عن الحق إلا اتباعا للهوى لا اتباعا للدليل والبرهان ، وفى ذلك تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى ، إذ ما أبعد حال من كان أرجحهم عقلا ، وأبينهم قولا ، منذ ترعرع إلى أن بلغ الأشد ، من الجنون والكهانة ، إلى مافى هذا من التناقض والاضطراب ، فإن الكهان كانوا من الكملة وكان قولهم مقنعا ، فأين هذا من الجنون ، ثم ترقّوا فى نسبته إلى الكذاب ، فقالوا إنه شاعر ، وأعذب الشعر أكذبه ، ثم قالوا فلنصبر عليه ، ولنتربص به صروف الدهر وأحداثه ، فسيكون حاله حال زهير والنابغة وأضرابهم ممن انقرضوا وصاروا كأمس الدابر ، ثم أمره بتهديدهم بمثل صنيعهم بقوله : « قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ » ثم زاد فى تسفيه أحلامهم بأن مصدر هذا التكذيب إما كتاب أنزل عليهم بذلك وإما أن عقولهم تأمرهم بما يقولون ، لا بل الحق أنهم قوم طاغون يفترون ويقولون ما لا دليل عليه لا من كتاب ولا مقتضى له من عقل ، ثم زادوا فى الإنكار ونسبوه إلى التقول والافتراء ، فإن صح ما يقولون فليأتوا بمثل أقصر سورة من مثل هذا المفترَى إن كانوا صادقين ، لا بل هم قوم جاحدون لا يؤمنون فليقولوا ماتسوّله لهم أنفسهم فإن الله قد أعمى بصائرهم ، فهم لا أحلام لهم تميز الحق من الباطل ، والغث من السمين فامض لشأنك ، ولا تأبه لمقالهم فالله معك ، ولن يَتِرَك شيئا من أعمالك .

الايضاح

(فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) أى فذكّر أيها الرسول من أرسلت إليهم من قومك وغيرهم ، وعِظْهم بالآيات والذكر الحكيم ، ولا تكترث بما يقولون مما لاخير فيه من الأباطيل ، وقد انتفت عنك الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليك ، وهذا كما يقول القائل : ما أنا بمعسر بحمد الله وغناه ، والمراد بذلك الرد على القائلين بذلك و إبطاله ، فإن ما أوتيه من رجاحة العقل ، وعلو الهمة وكرم الفعال ، وصدق النبوة ، لكاف جد الكفاية فى دحض هذا وأشباهه . وممن قال إنه كاهن شَيْبة بن ربيعة ، وممن قال إنه مجنون عُقبة بن أبى مُعَيْط .

ثم ذكر أنهم ترقّوا فى الإنكار عليه فقال :

(أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) أى بل هم يقولون : هو شاعر نتربص به أحداث الدهر ونكباته من موت أو حادثة متلفة .

روى أن قريشا اجتمعت فى دار الندوة وذهبت مذاهب شتى فى صدّ دعوته صلى الله عليه وسلم ومقابلة هذا الخطر الداهم عليهم ، وماذا يفعلون فى الخلاص منه ، فقال قائل من بنى عبد الدار : تربصوا به ريب المنون ، فإنه شاعر وسيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى ، ثم افترقوا على هذه المقالة فنزلت الآية .

وخلاصة هذا — إنا نبتعد من إيذائه ، ونتقى لسانه ، مخافة أن يغلبنا بقوة شعره ، و إنما سبيلنا معه أن نصبر عليه ونتربص موته كما مات الشعراء من قبله .

فأمره الله أن يهددهم ويتهكم بهم بقوله :

(قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين) أى قل لهم : انتظروا وتمهّلوا فى ريب المنون ، فإنى متربص معكم منتظر قضاء الله فىّ وفيكم ، وستعلمون لمن يكون حسن العاقبة ، والظفر فى الدنيا والآخرة .

(أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أى بل أتأمرهم أحلامهم بهذا التناقض فى القول ،

فالشاعر غير الكاهن وغير المجنون ، وفرق عظيم بين من زال عقله ، ومن يقول الشعر الحكيم الرصين ، ومن يجعل قوله حجة فى معرفة أخبارالغيب ، ويعتقد أن الجن توحى إليه بما يقول :

وقصارى هذا : إنهم لا أحلام لهم ولا عقول :

ثم ذكر السبب الحق فى كل ما يعملون فقال :

(أم هم قوم طاغون) أى بل الحق أن الذى حملهم على أن يقولوا ما قالوا ، هو طغيانهم وعنادهم وضلالهم عن الحق .

(أم يقولون تقوّله) أى أيقولون كاهن أم يقولون شاعر أم يقولون إنه افترى القرآن واختلقه من تلقاء نفسه ؟ .

(بل لا يؤمنون) أى إن كفرهم هو الذى حملهم على هذه المطاعن وزين لهم أن أن يقولوا ما قالوا .

ثم رد عليهم جميع ما زعموا وتحداهم فى دحض ما قالوا فقال :

(فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) أى إن كان شاعرا فلديكم الشعراء الفصحاء ، أو كاهنا فلديكم الكهان الأذكياء ، وإن كان قد تقوله فلديكم الخطباء الذين يحبّرون الخطب ، ويجيدون القول فى كل فنون الكلام ، فهلمّ فليأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فيما يزعمون ، فإن أسباب القول متوافرة لديهم كما هى متوافرة لديه ، بل فيهم من طالت مزاولته للخطب والأشعار وكثرة الممارسة لأساليب النظم والنثر وحفظ أيام العرب ووقائعها أكثر من محمد صلى الله عليه وسلم .

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُون (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مبِينٍ (٣٨)

أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) .

تفسير المفردات

من غير شىء : أى من غير خالق ، خزائن ربك : أى خزائن رزقه ، المسيطرون : أى القاهرون المسلطون عليها ، من قولهم : سيطر على كذا . إذا راقبه وأقام عليه، سلّم : أى مرتقى إلى السماء ، بسلطان مبين : أى بحجة واضحة تصدق استماعه ، مغرم : أى التزام غرامة تطلبها منهم ، مثقلون : أى محملون ثقلا ، الغيب : أى علم الغيوب ، كيدا : أى شرا ، المكيدون: أى الذين يحيق بهم الشر ويعود إليهم وباله .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وردّ عليهم ما زعموه من أنه كاهن أو شاعر أو مجنون ، وأمره أن يمضى لطيته ويذكّر الناس ويبشرهم وينذرهم ولا يأبه لمقالتهم،فالله ناصره عليهم- انتقل إلى الرد عليهم فى إنكارهم للخالق كما هو شأن الدهريين أو لادعائهم لله شريكا كما هو شأن كثير من العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، وقالوا : ما نعبد الأوثان والأصنام إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

وبعد أن أقام عليهم الحجة فى كل ذلك ، وسد عليهم المسالك ، طلب إليه أن يتوكل عليه ، وأن يعلم أن كيدهم لا يضيره شيئا ، فالله ناصره عليهم ، وسيظهر دينه ، ويتمّ له الغلبة والفلج عليهم .

الايضاح

(أم خلقوا من غير شيء) أى كيف ينكرون الخالق الموجد؟ ، فهل هم خُلِقوا هذا الخلق البديع الصنع من غير خالق ولا موجد؟ والعقل يشهد بأن كل ما يوجد من العدم لابد له من موجد .

(أم هم الخالقون) أى بل أهم أوجدوا أنفسهم؟ والضرورة والعقل يكذبان ذلك، إذ يلزم من هذا أن الشيء يكون مقدما فى الوجود على نفسه ، فهم باعتبار أنهم خالقون مقدّمون على أنفسهم فى الوجود باعتبار أنهم مخلوقون ، وهذا بيِّن البطلان .

(أم خلقوا السموات والأرض) أى لوفرض أنهم خلقوا أنفسهم ، فهل هم يجرءون ويقولون إنهم خلقوا هذه الأجرام العظيمة التى تتوقف عليها حياتهم ، وفيها أسباب معاشهم وهى السموات والأرض؟ — أظن أنهم لايدّعون ذلك .

(بل لايوقنون) أى ليس واحد مما تقدم يمكن أن يدّعوه ، بل حقيقة أمرهم أنهم لايوقنون بما يقولون إذا سئلوا : من خلقكم وخلق السموات والأرض؟ فقالوا الله ، إذ لو أيقنوا بذلك ما أعرضوا عن عبادته .

(أم عندهم خزائن ربك) أى بل أهم يتصرفون فى الملك وبيدهم مفاتيح الخزائن؟ فيعطوا النبوة لمن يشاءون ، ويصطفوا لها من يختارون .

(أم هم المصيطرون) أى أم هم الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر العالم ويَبْنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم ، والمراد أنه ليس الأمر كذلك ، بل الله هو المالك المتصرف الفعال لما يريد .

روى البخارى عن لزهرى عن محمد بن جُبير بن مُطْعم عن أبيه قال : « سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية : « أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ، أَمْ خَلَقُوا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ، أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ » كاد قلبى يطير ، وكان جبير بن مطعم

قد قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بعد وقعة بدر فى فداء الأسارى ، وكان إذ ذاك مشركا ، فكان سماعه هذه الآية من جملة ما حمله على الدخول فى الإسلام بعد ذلك .

(أم لهم سلّم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين) أى أم لهم مرتقى إلى السماء يستمعون فيه كلام الملائكة ومايوحَى إليهم من علم الغيب، فهم لذلك مستمسكون بما هم عليه ، فإن كانوا يدّعون ذلك فليأتوا بحجة تبين أنهم على الحق ، كما أتى محمد صلى الله عليه وسلم بالبرهان الدالّ على صدق قوله فيما جاءهم به من عند ربه .

و بعد أن رد على الذين أنكروا الألوهية بتاتا ردَّ على من قالوا : الملائكة بنات الله ، وسفه أحلامهم ؛ إذ اختاروا له البنات ولأنفسهم البنين فقال :

(أم له البنات ولكم البنون) أى بل أله بكم البنات ولكم البنون ؟ « تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى » .

وفى هذا إيماء إلى أن من كان هذا رأيه لايعدّ من العقلاء فضلا عن الترقى إلى عالَم الملكوت ، وسماع كلام رب العزة والجبروت .

(أم تسألهم أجراً فهم من مغرَم مثقلون) أى بل أتسأل هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم على ما تدعوهم إليه من توحيد الله وطاعته — أجراً تأخذه من أموالهم فهم من ثقل ما حملتهم من المغرم لايقدرون على إجابتك إلى ما تدعوهم إليه ؟ .

(أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟) أى أم عندهم علم فهم يكتبون ذلك للناس ، فينبئونهم بما شاءوا و يخبرونهم بما أرادوا — ليس الأمر كذلك ، إذ لايعلم غيب السموات والأرض إلا الله .

قال قتادة : وهذا جواب لقولهم : نتربص به ريب المنون ، فيقول الله : أم عندهم الغيب حتى علموا أن محمدا صلى الله عليه وسلم يموت قبلهم .

أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون) أى بل يريد هؤلاء المشركون

بقولهم هذا فى الرسول وفى الدين غرورَ الناس وكيد الرسول ، فإن كان هذا ما يريدون فكيدهم راجع إليهم ووباله على أنفسهم ، فثق بالله وامض لما أمرك به .

قال فى فتح البيان : والظاهر أنه من الإخبار بالغيب ، فإن السورة مكية ، وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة ، ثم أهلكهم الله تعالى ببدر عند انتهاء سنين عدتها عدة ما هنا من كلمة (أم) وهى خمس عشرة ، فإن بدرا كانت فى الثانية من الهجرة وهى الخامسة عشرة من النبوة ، وأذلهم فى غير موطن، ومكر سبحانه بهم (وَمَكَرُوا ، وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ) اهـ .

(أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون) أى بل ألهم إله غير الله يعينهم ويحرسهم من عذاب الله ؟ تنزه ربنا عن الشريك وعما يعبدونه سواه .

وفى هذا إنكار شديد على المشركين فى عبادتهم للأصنام والأنداد مع الله تعالى .

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩) .

تفسير المفردات

كسفا : أى قطعة ، مركوم : أى متراكم ملقى بعضه على بعض ، يصعقون : أى يُقتلون ، دون ذلك : أى قبله ، وهو ما أصابهم من القحط سبع سنين ، بأعيننا : أى

فى حفظنا وحراستنا ، وإدبار النجوم : أى وقت إدبارها من آخر الليل أى غيبتها بضوء الصباح .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مزاعمهم فى النبوة وبيّن فسادها بما لم يبق بعده وجه للعناد والمكابرة ثم أعقبه بالرد عليهم فى جحودهم للألوهية إما بإنكارها بتاتا، وإما بادعاء الشريك لله، أو باتخاذه الولد ، سبحانه وتعالى عما يصفون — أردف هذا بيان أن هؤلاء قوم بلغوا حدا فى العناد أصبحوا به يكابرون فى المحسات فضلا عن المعقولات ، فدعهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى لامرد له ، يوم لاتنفعهم حبائلهم وشراكهم التى كانوا ينصبون مثلها فى الدنيا ، ولا يجدون لهم إذ ذاك وليًّا ولا نصيرا ، وأن الله سيصيبهم بعذاب من عنده فى الدنيا قبل ذلك اليوم، وأنه ناصرك عليهم وكالئك بعين رعايته ، واذكر ربك حين تقوم من منامك ، ومن مجلسك ، وحين تغيب النجوم ، ويُصْبِح الصباح ، وتغرّد الأطيار مُسَبِّحة منزهة خالق السموات والأرض ، قائلة: سُبُّوحٌ قُدُّوس ، ربُّ الملائكة والرُّوح .

الايضاح

(وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم) أى إن هؤلاء قوم ديدنهم العناد والمكابرة ، فلو رأوا بعض ماسألوا من الآيات، فعاينوا كسفا من السماء ساقطا — لكذبوا وقالوا : سحاب بعضه فوق بعض ، لأن الله قد ختم على قلوبهم ، وأعمى أبصارهم ، فأصبحوا ينكرون ما تبصره الأعين ، وتسمعه الآذان .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتركهم وشأنهم فقال :

(فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) أى فدعهم وشأنهم ، ولا تكترث بهم حتى يأتى اليوم الذى يجازَوْن فيه بسيئات أعمالهم وهو يوم بدر ، قاله البقاعى وهو الظاهر فى الآية .

(يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون) أى وفى هذا اليوم لاتنفعهم الحيل التى دبروها لمناصبته صلى الله عليه وسلم العداء ، ولا يجدون لهم نصيرا ولا معينا يدفع عنهم ما يحيق بهم من العذاب .

(وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك) أى وإن لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى عذابا بالقحط والجوع سبع سنين قبل يوم بدر لأنه كان فى السنة الثانية للهجرة والقحط وقع لهم قبلها .

(ولكن أكثرهم لايعلمون) ما سيصيرون إليه من عذاب الله ، وما أعده لهم فى الدنيا والآخرة ، وإنا سنبتليهم بالمصايب ، لعلهم يرجعون وينيبون إلينا .

ونحو الآية قوله : « وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

(واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) أى واصبر على أذاهم ولا تبال بهم ، وامض لأمر الله ونهيه ، وبلِّغ ما أرسلت به ، فإنك بمرأى منا نراك ونرى أعمالك ، ونحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك منهم أذى .

(وسبح بحمد ربك حين تقوم) أى ونزِّه ربك عما لايليق به لإنعامه عليك ، واعبده بالتلاوة والصلاة حين تقوم من مجلسك ، قال عطاء وسعيد وسفيان الثورى وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه فيقول : سبحان الله وبحمده أوسبحانك اللهم وبحمدك عند قيامه من كل مجلس يجلسه .

وعن أبى بَرْزَة الأسلمى قال: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بآخرعمره إذا قام

من المجلس يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، فقال رجل يا رسول الله : إنك لتقول قولا ما كنتَ تقوله فيما مضى ، قال كفارة لما يكون فى المجلس » أخرجه أبو داود والنسائى والحاكم وابن مردويه وابن أبى شيبة .

وروى « أن جبريل عَلّم النبى صلى الله عليه وسلم إذا قام من مجلسه أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

(ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) أى وسبحه فى صلاة الليل ؛ لأن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد من الرياء ، وحين إدبار الليل بظهور ضوء الصبح ، وقيل المراد من التسبيح من الليل صلاة المغرب والعشاء ، ومن إدبار النجوم ركعتا الفجر .

وقد روى ذلك عن عمر وعلىّ وأبى هريرة والحسن رضى الله عنهم أجمعين .

ونحو الآية قوله : « وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » .

خلاصة ما حوته السورة الكريمة

من العظات والزواجر

(١) القسَم بالعالَم العلوى والسفلى أن العذاب آتٍ لا محالة .

(٢) وصف عذاب النار وما يلاقيه المكذبون حينئذ من الذلة والمهانة .

(٣) وصف نعيم أهل الجنة وما يتمتعون به من اللذات فى مساكنهم ومطاعمهم ومشاربهم وأزواجهم وخدمهم وحشمهم .

(٤) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالثبات على تبليغ الرسالة والإعراض عن سفاهتهم من نحو قولهم : هو شاعر ، هو كاهن ، هو مجنون ، هو مفتر .

(٥) إثبات الألوهية بالبراهين التى لاتقبل جدلاً .

(٦) النعى على المشركين فى قولهم : الملائكة بنات الله .
(٧) بيان أنهم بلغوا فى عنادهم حدا ينكرون معه المحسوسات التى لاشك فيها .
(٨) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتركهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى كانوا يوعدون .
(٩) الإخبار بأن الظالمين فى كل أمة وكل جيل يعذبون فى الدنيا قبل عذابهم فى الآخرة .
(١٠) الإخبار بأن الله حارس نبيّه وكالئه ، فلا يصل إليه أذى من خلقه كما قال سبحانه : « واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » .
(١١) أمره صلى الله عليه وسلم بالذكر والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار ، وفى كل موطن ومجلس يقوم فيه .

سورة النجم

هى مكية إلا آية ٣٢ فمدنية ، نزلت بعد سورة الإخلاص ، وآيها ثنتان وستون .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إن السورة قبلها ختمت بقوله : و إدبار النجوم ، و بدئت هذه بقوله : والنجم إذا هوى .

(٢) إن السورة قبلها ذُكِر فيها تقوُّلُ القرآن وافتراؤه ، وذُكِر هذا فى مفتتح هذه السورة .

(٣) إنه ذكر فى التى قبلها أن ذرية المؤمنين تبع لآبائهم ، وفى هذه ذكر ذرية اليهود فى قوله : « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ » .

(٤) إنه قال هناك فى المؤمنين : « أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » وقال هنا فى الكفار « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

وهى كما أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أول سورة أعلن النبى صلى الله عليه وسلم قراءتها ، فقرأها فى الحرم والمشركون يسمعون ، وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى « أن أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد الناس كلهم إلا رجلا رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه فرأيته بعد ذلك قتل كافرا وهو أمية بن خلف » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥)

ذو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ
قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ
مَا رَأَى (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣)
عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ
مَا يَغْشَى (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ
الْكُبْرَى (١٨) .

تفسير المفردات

المراد بالنجم : جنس النجوم إذا غربت أو صعدت ، يقال هوى النجم هَوِيّا (بالفتح) أى سقط وغرب ، وهُويا : (بالضم) إذا علا وصعد ، ما ضلّ : أى ما حاد عن الطريق المستقيم ، صاحبكم : أى مصاحبكم ، والتعبير عنه صلى الله عليه وسلم بعنوان المصاحبة لهم إيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم خُبرا ببراءته مما نسب إليه ، و باتصافه بالهدى والرشاد ، فإن طول صحبتهم له ، ومشاهدتهم لشئونه العظيمة تقتضى ذلك ، ففى هذا تأكيد لإقامة الحجة عليهم ، وما غوى : أى وما اعتقد باطلا ، والخطاب فى هذا لقريش ، وما ينطق عن الهوى : أى ما يتكلم بالباطل ، والمراد بشديد القوى جبريل عليه السلام ، ذو مرة : أى ذو حصافة عقل وقوة عارضة ، قال قُطْرب : العرب تقول لكل من هو جزل الرأى حصيف العقل : هو ذو مرة . من قولهم أمررت الحبل : أى أحكمت فتله ، فاستوى : أى فاستقام على صورته التى خلقه الله عليها عند حراء فى مبادى النبوة ، وهو بالأفق الأعلى : أى بالجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، ثم دنا : أى ثم قرب ، فتدلى : أى فنزل من قولهم تدلت الثمرة،

ومنه الدوالى وهى الثمر المعلق كعناقيد العنب ، والقاب مقدار ما بين المقبض والسِّيَة ، ولكل قوس قابان ، والعرب تقدر الأطوال بالقوس والرمح و بالذراع والباع والخطوة والشبر والإصبع ، أو أدنى : أى أقرب من ذلك ، والمراد بالفؤاد فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ، مارأى أى مارآه ببصره ، أفتمارونه على ما يرى : أى أفتجادلونه على مايراه معاينة ، نزلة أخرى : أى مرة أخرى ، سدرة المنتهى: هى شجرة نبق قالوا إنها فى السماء السابعة عن يمين العرش ، جنة المأوى : أى الجنة التى يأوى إليها المتقون يوم القيامة ، يغشى : يغطى ، ما زاغ البصر : أى ما عدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومُكّن منها وما مال يمينا ولا شمالا ، وما طغى : أى ما جاوز ما أمر به ، آيات ربه الكبرى : أى عجائبه الملكية والملكوتية فى ليلة المعراج .

المعنى الجملى

أقسم ربنا بخلق من مخلوقاته العظيمة التى لايعلم حقيقتها إلا هو ، وهى نجوم السماء التى تهدى السارى فى الفلوات ، وترشده إلى البعيد من المسافات — إن محمدا صاحبكم نبىّ حقا ، وما ضلّ عن طريق الرشاد ، ولا اتبع الباطل ، ولا يتكلم إلا بوحى يوحيه الله إليه ، و يعلمه إياه جبريل شديد القوى ، ولقد رآه مرتين على صورته التى خلقه الله عليها بأجنحته وأوصافه الملكية : مرة بغارحراء فى بدء النبوة ، وأخرى ليلة المعراج حين عُرِج به إلى السماء ، ورأى من عجائب صنع الله مارأى، مما استطاع أن يخبركم به ، ومما لم يستطع ذلك ، فكيف بكم تجادلونه فيما أخبركم به ، وتقولون طورا : إنه مجنون ، وطورا آخر إنه كاهن ، وطورا ثالثا إنه شاعر ، وما كل هذا بالذى ينطبق على أوصافه ، وهو صاحبكم وأنتم أعلم بحاله ، فحق عليكم أن تسمعوا قوله ، وأن تطيعوا أمره ، فتفوزوا برضوان من ربه .

الايضاح

(والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى) أى قسما بمخلوقاتى العظيمة وهى النجوم التى تسير فى مداراتها ، ولا تعدو أفلاكها ، والتى تهتدون بها فى الفيافى والقفار ، فى حلكم وترحالكم ، فى سفركم وحضركم ، وفى البحار ، ولهـا لديكم منزلة عظمى فى حياتكم المعيشية — إن محمدا نبى حقا ، وما حاد عن سبيل الحق ، ولا سلك سبيل الباطل .

وقد خاطب سبحانه بهذا القَسَم العرب الذين يعرفون ما للنجوم من جزيل الفضل عليهم ، فى تعيين المواسم والفصول ، ليستعدوا للنُّجْعة ، ويرتادوا الكلأ بعد سقوط المطر ، ويزرعوا ما يتسنى لهم أن يزرعوه ، وهم يتيامنون ببعضها ويتشاءمون ببعض آخر .

إلى أن القَسَم بها ينبهنا إلى أن هناك عوالم وأجراما عُلْوِيَّة يجب علينا أن نتعرّف أمرها ، لنستدل بها على عظيم قدرة مبدعها وبديع صنعه .

ولقد أثبت العلم حديثا ما يدعو إلى العجب من أحوال هذه الأجرام ، وسرعة سيرها ، وكبير حجمها ، فقد علم أن سير نور الكوكب ٣٠٠ ألف كيلو م فى الثانية ، ومثله سير الأمواج اللاسلكية ، وكلاهما يجرى حول الأرض فى سبع ثانية مرة واحدة ، ويجرى حول الكون كله فى نحو مائة مليون سنة ، فنسبة محيط الكرة الأرضية إلى محيط ما عرف من الكون كنسبة سبع ثانية إلى مائة مليون سنة .

والنظام الشمسى يشتمل على الشمس وتسعة سيارات تدور حول أكثرها أقمار ، وهذه الشمس وعالمها جزء من عالم المجرّة ، والمجرّة فيها نجوم تبلغ نحو ٣٠ ألف مليون نجم كلهن شموس كشمسنا أو أكبر أو أصغر . ويقدرون عمر الشمس بنحو خمسة ملايين مليون سنة ، وعمر الأرض بنحو ألفى مليون سنة ، وعمر المياه عليها بنحو ٣٠٠ مليون سنة ، وعمر الإنسان بنحو ٣٠٠ ألف سنة .

وإن شمسنا التي تزيد على أرضنا ألف ألف مرة وثلثمائة ألف مرة هي كوكب له توابع وسيارات ، وهذا الكوكب وتوابعه واحد من ثلاثين ألف مليون شمس ، وهذه كلها تكوّن مجرّتنا ، وهذه المجرة لها نظائر ، فسبحان الخلاق العليم الذي لا يعلم جنوده إلا هو .

والخلاصة — إن الرسول صلى الله عليه وسلم راشد مرشد تابع للحق ، ليس بضالّ ولا هو بسالك للطريق بغير علم ، ولا هو بغاوٍ يعدل عن الحق قصدا إلى غيره ، وبهذا نزه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال من اليهود والنصارى الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه ، فهو في غاية الاستقامة والاعتدال والسّداد .

ثم بين السبب في عدم ضلاله وغوايته فقال :

(وما ينطق عن الهوى) أي كيف يضل ويغوى ، وهو لا ينطق عن الهوى ، وإنما يضل من كان كذلك ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » .

ثم أكد هذا بقوله :

(إن هو إلا وحى يوحى) أي إنما يقول ما أُمر أن يبلغه إلى الناس كاملا موفورا بلا زيادة ولا نقصان .

روى أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : « كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه ، فنهتني قريش فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب ، فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق » .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا أقول إلا حقا » قال بعض أصحابه فإنك تداعبنا يا رسول الله ، قال : « إني لا أقول إلا حقا » .

ويرى بعض المفسرين أن قوله : ما ضل صاحبكم — ردٌّ لقولهم : إنه مجنون ،

وقوله : وما غوى ـ ردّ لقولهم إنه شاعر : أى ليس بينه و بين الغواية تعلق وارتباط ، وقوله : والشعراء يتبعهم الغاوون ، وقوله : وما ينطق عن الهوى ـ ردّ لقولهم كاهن، وقوله : إن هو إلا وحى يوحى تأكيد لما تقدم ، أى فلا هو بقول كاهن ، ولا هو بقول شاعر .

(علّمه شديد القوى) أى علّم صاحبَكم جبريلُ عليه السلام وهو شديد القوى العلمية والعملية ، فيعلم ويعمل، ولا شك أن مدح المعلِّم مدح للمتعلم .

وفى هذا رد عليهم فى قولهم : إن هو إلا أساطير الأولين ، سمعها وقت سفره إلى الشام .

والخلاصة — إنه لم يعلمه أحد من الناس ، بل علمه شديد القوى ، والإنسان خلق ضعيفا لم يؤت من العلم إلا قليلا ـ إلى أنه موثوق بقوله ، لأن قوة الإدراك شرط الوثوق بقول القائل ، وكذلك هو موثوق بحفظه وأمانته ، فلا ينسى ولا يحرّف .

(ذو مِرّة) أى ذو حصافة فى العقل ، فالوصف الأول إشارة إلى قوة الفعل ، وهذا وصف بقوة النظر وظهور الآثار البديعة منه .

والخلاصة — إنه يجمع بين القوى النظرية والقوى الجسمية كما روى أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود الذى تحت الثرى وحملها على جناحيه ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح بثمود فأصبحوا جاثمين .

وإنا لنؤمن بهذا على أنه من عالَم الغيب ونكتفى بما جاء فى كتابه تعالى ولا نزيد عليه .

وإن علماء الأرواح فى أوروبا الآن أصبحوا يؤمنون بقوى عالم الروح و بما لها من خوارق العادات بالنظر إلى عالمنا . قال أوليفر لودج : إنى أصبحت موقنا بأنا محوطون بعالم نحن بالنسبة إليه كالنمل بالنسبة لنا ، وهم يساعدوننا و يحافظون علينا ، ثم قال : وقفت على هذا بطريق علمى (يريد تحضير الأرواح) ثم قال : فإذا ما قال القدّيسون إنهم رأوا الملائكة أو أنهم رأوا الله ، فكل ذلك حق لامرية فيه اهـ .

هذا ولا شك من عجائب القرآن ، فإن ما جاء فيه مما يتعلق بعالم الأرواح أصبح علوما تدرس وتذاع بين الناس باعتبارها علوما روحية وكشفا حديثا ، صدق ربنا « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » .

فالقوى الجسمية والعقلية للعالم الروحى ظهرت بطريق استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسى ، إذ فيه انخلاع للنفس عن البدن انخلاعًا جزئيا أو كليا وهى مربوطة به ولها اتصال بالعوالم الروحية .

(فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى) أى فاستقام جبريل على صورته التى خلقه الله عليها حين أحب رسوله صلى الله عليه وسلم أن يراه كذلك ، فظهر له فى الأفق الأعلى وهو أفق الشمس ، فملأه ثم أخذ يدنو من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتدلى : أى يزيد فى القرب والنزول حتى كان منه مقدار قوسين أو أقرب على تقديركم وعلى مقدار فهمكم ، فأوحى إلى عبده ورسوله ما شاء أن يوحيه إليه من شئون الدين . ولا غرو فإن ظهور الأرواح فى صورة مرئية أصبح الآن معروفا ، وقد قص علماء الروح عجائب وغرائب وأصبح فى طوقهم أن يظهروا الروح فى صور بشرية وصور نورية وتخاطبهم حين التنويم المغناطيسى ، وإذا صح ذلك للعامة فليكن ذلك للقدّيسين والأنبياء بالأولى بطريق يشاكل مقامهم ، ولا تتجلى الأرواح إلا بالمناسبة بين المتجلِّى والمتجلَّى عليه ، وظهوره فى صورة مرئية يرجع إلى قوته وشدته ، وقوله : فأوحى إلى عبده ما أوحى ، يرجع إلى قوته العلمية .

ولما كان الإنسان كثيرا مايظن أنه قد تخيل ما رآه ويكذب قلبه ما ظهر له ، حتى قال علماء الأرواح : إنهم لما خاطبوا الأرواح قالت لهم ، إنكم كثيرا مايظهر لكم عجائب روحية فتظنونها من الوهم وتنسبونها إلى خداع الحواس — أعقب سبحانه هذا بما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يقم بنفسه أن هذا تخيل ولا أنه وَهْم فقال :

(ما كذب الفؤاد ما رأى) أى ما كذَب فؤادُه ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام : أى إن فؤاده صلى الله عليه وسلم ما قال لما رآه ببصره لم أعرفك ، ولو قال ذلك لكان كاذبا لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصره .

والخلاصة — إنه لما قال : إن هو إلا وحى يوحى أكد هذا المعنى وفصله بقوله : علّمه شديد القوى ، ليبين أنه ليس من الشعر ولا من الكهانة فى شىء ، ولما قال : فاستوى وذكر قيامه بصورته الحقيقية أكد أن مجيئه بصورة دِحْيَة الكلبى لا يعمّى وصفه ، إذ قد عرفه بشكله الحقيقى من قبل ، فلا يشتبه عليه ، وقوله : ثم دنا فتدلى تتميم لحديث نزوله عليه السلام وإتيانه بالمنزّل، وقوله: ما كذب الفؤاد ما رأى ، بين به أنه لما عرفه وحققه لم يكذّبه فؤاده بعد ذلك فى أنه جبريل ، ولو تصور بغير تلك الصورة .

(أفتمارونه على ما يرى ؟) أى أفتكذبونه وتجادلونه فيما رآه بعينه من صورة جبريل عليه السلام له .

(ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى) أى ولقد رأى النبيُّ صلى الله عليه وسلم جبريلَ فى صورته التى خلقه الله عليها عند شجرة النبق التى ينتهى إليها علم كل عالم وما وراءها لا يعلمه إلا الله قاله ابن عباس .

وقد يكون المراد بالمنتهى الله عز وجل أى سدرة الله الذى إليه المنتهى كما قال سبحانه « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » وعند هذه السدرة الجنة التى تأوى إليها المتقون يوم القيامة قاله الحسن البصرى .

وعلينا أن نؤمن بهذه الشجرة كما وصفها الله ، ولا نعين مكانها ولا نصفها بأوصاف أكثر مما وصفها به الكتاب الكريم ، إلا إذا ورد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ما يبين ذلك ويثبت لدينا بالتواتر ، لأن ذلك من علم الغيب الذى لم يؤذن لنا بعلمه .

روى أحمد ومسلم والترمذى وغيرهم أنها فى السماء السابعة ، نبتها كقِلال هَجَر ، وأوراقها مثل آذان الفيلة ، يسير الراكب فى ظلها سبعين خريفا لا يقطعها .

والمشاهد فى الدنيا أن النبات يعيش إذا وجد التراب والماء والهواء ، ولكن لاعجب فالله يخلقه فى أى مكان شاء ، كما أخبر عن شجرة الزقوم أنها تنبت فى أصل الجحيم .

وقُصارى ماسلف — إن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صورته الحقيقية مرتين : مرة وهو فى غار حراء فى بدء النبوة ، والثانية فى ليلة المعراج ولم يكن ذلك فى الأرض بل كان عند شجرة نبق عن يمين العرش وهى فى منتهى الجنة : أى آخرها ، وعلم الملائكة ينتهى إليها .

وقد تقدم أن الصحيح أن الصعود إلى الملإ الأعلى كان روحيا لاجسمانيا كما روى عن جمع من الصحابة رضوان الله عليهم .

(إذ يغشى السدرة ما يغشى) أى رآه حين غطى السدرة ما غطاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ، ومن الإشراق والحسن ، ومن الملائكة ؛ وقد أبهم ذلك الكتاب الكريم ، فعلينا أن نكتفى بهذا الإبهام ولا نزيده إيضاحا بلا دليل قاطع ، ولا حجة بينة ، ولو علم الله الخير لنا فى البيان لفعل .

(ما زاغ البصر وما طغى) أى ما مال بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومُكّن منها ، وما جاوزها إلى رؤية مالم يؤمر برؤيته .

والخلاصة — إنه رأى رؤية المستيقن المحقق لما رأى .

(لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أى ولقد رأى الآيات الكبرى من آيات ربه وعجائبه الملكوتية .

روى البخارى وابن جرير وابن المنذر فى جماعة آخرين عن ابن مسعود أنه قال

فى الآية : رأى رفرفا أخضر من الجنة قد سد الأفق ، وعن ابن زيد أنه رأى جبريل بالصورة التى هو بها .

وعلينا ألا نحصر ما رآه فى شىء بعينه بعد أن أبهمه القرآن ، إذ هو قد رأى من الآيات الكبرى ما يجل عنه الحصر والاستقصاء .

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ
الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ
سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا
الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ
مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (٢٥) وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ
لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦)

تفسير المفردات

اللات والعزى ومناة : أصنام كانت تعبدها العرب فى جاهليتها ، فاللات كانت لثقيف . وأصل ذلك أن رجلا كان يلت السويق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ثم صنعوا له صورة وعبدوها ، والعزى : شجرة بغطفان كانوا يعبدونها ، و بعث النبي صلى الله عليه وسلم بعد الإسلام خالد بن الوليد ليقطعها ، فجعل يضربها بفأسه و يقول :

يا عزّ كفرانكِ لاسبحانكِ إنى رأيت الله قد أهانكِ

ومناة : صخرة كانت لهذيل وخزاعة ، وكانت دماء النسائك تُمْنَى عندها : أى تراق ، والأخرى : أى المتأخرة الوضيعة القدر كما جاء فى قوله : « وَقَالَتْ أُخْرَاهُمْ

لِأُولاَهُمْ » أى وقال وضعاؤهم لأشرافهم ورؤسائهم ، وقد جاء لفظ (الأخرى) بهذا المعنى بين المصريين فيقول : هو الآخر وهى الأخرى ، يريدون الضعة وتأخر القدر والشرف ، ضيزى : من ضزته حقه (بالضم والكسر) أى نقصته ، والمراد أنها قسمة جائرة غير عادلة، قال امرؤ القيس :

ضازت بنو أسـد بحكمِهِمُ إذ يجعلون الرأس كالذنب

المعنى الجملى

بعد أن بين مارآه محمد صلى الله عليه وسلم من العجائب ليلة المعراج ـ قال للمشركين ماذا رأيتم فى هذه الأصنام ؟ وكيف تحصرون أنفسكم فى العالم المادى وأصنامه ، وتقطعون على أنفسكم طريق التقدم والارتقاء ، وإن النفس لاترق إلا بما استعدت له ، فإذا وقفت النفوس عند هذه المادة وتلك الأصنام لم يكن لها عروج إلى السماء ، ولا سيما أن هذه الأصنام لاتشفع لهم عند ربهم ولا تجديهم نفعا .

الايضاح

(أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى؟) أى أفبعد أن سمعتم ماسمعتم من آثار كمال الله عز وجل وعظمته فى ملكه وملكوته ، وجلاله وجبروته ، وأحكام قدرته ونفاذ أمره ، وأن الملائكة على رفعة مقامهم وعلوّ قدرهم ينتهون إلى السدرة ويقفون عندها ـ تجعلون هذه الأصنام على حقارة شأنها شركاء لله مع ما علمتم من عظمته .

وفى هذا تقريع شديد ، وتوبيخ عظيم ، وتأنيب لا إلى غاية ، وإن عاقلا لاينبغى أن يخطر بباله مثل هذا ، ويمتهن رأيه إلى هذا الحد .

روى أن أبا سفيان قال يوم أحد : لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم .

وبعد أن أنّبهم على سخف عقولهم ، وسفاهة أحلامهم ، بعبادتهم الأصنام التى كانوا يزعمون أنها هياكل للملائكة ، والملائكة بنات الله ـ وبخهم على نسبة البنات إليه سبحانه وهم لا يرضونها لأنفسهم فقال :

(ألكم الذكر وله الأنثى ؟) أى أتجعلون له ولدا وتجعلون هذا الولد أنثى ؟ وتختارون لأنفسكم الذكران، على علم منكم أن البنات ناقصات والبنين كاملون ، والله كامل العظمة، فكيف تنسبون إليه الناقص ، وأنتم على نقصكم تنسبون إلى أنفسكم الكامل .

(تلك إذاً قسمة ضيزى) أى تلك قسمة جائرة غير مستوية ، ناقصة غير تامة ، لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضون لها .

ثم أنكر عليهم ما ابتدعوه من الكذب والافتراء فى عبادة الأصنام وتسميتها آلهة فقال :

(إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) أى إن هذه الأصنام التى تسمونها آلهة ـ هى أسماء فحسب وليس لها مسميات هى آلهة البتة ، كما تزعمون وتعتقدون أنها تستحق أن يُعْكَف على عبادتها وتقديم القرابين إليها ، وليس لكم من حجة ولا برهان تؤيدون به ما تقولون ، وإنما قلّد فيها الآخر الأول ، وتبع فى ذلك الأبناء الآباء .

ولا يخفى مافى ذلك من التحقير ، كما تقول : ماهو إلا اسم إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة لها شأن وقدر .

ونحو الآية قوله تعالى « ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلا أَسْماءً » الآية .

ثم أكد ماسلف بقوله :

(إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) أى ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظوظ نفوسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين .

والخلاصة — إنكم تعبدون هذه الأصنام توهما منكم أن ما عليه آباؤكم حق ، وإشباعا لشهوات أنفسكم.

ثم بين أنه ما كان ينبغى لهم ذلك ، لأنه قد جاءهم ما ينبههم إلى سوء رأيهم وعظيم غفلتهم فقال :

(ولقد جاءهم من ربهم الهدى) أى هم يتبعون ما كان عليه أسلافهم وينقادون إلى آرائهم ، وقد أرسل الله إليهم الرسول بالحق المنير ، والحجة الواضحة ، وقد كان ينبغى أن يكون لهم فى ذلك مزدجر ، لكنهم أعرضوا عنه وتولوا « كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » .

وبعد أن بين أن جعلهم الأصنام شركاء لله لا يستند إلى دليل ، بل لا يستند إلا إلى التشهى والهوى واتباع الظن — ذكر أنها مع هذا لا تجديهم نفعا ، فهى لا تشفع لهم عند الله ، ولا يظفرون منها بجدوى فقال :

(أم للانسان ما تمنى ؟ فلله الآخرة والأولى) أى بل ألهم ما يتمنونه من شفاعة الآلهة يوم القيامة كلا إن هذا لن يكون ، ولن يُجديكم ذلك فتيلا ولا قطميرا ، فإن كل ما فى الدنيا والآخرة فهو ملك له تعالى ، ولا دخل لهذه الأصنام فى شىء منه.

وهذا تيئيس لهم من أن ينالوا خيرا من عبادتها والتقرب إليها ، ولا تكون وسيلة لهم عند ربهم .

ثم حرمهم فائدة عبادتها من وجه آخر فقال :

(وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) أى وكثير من الملائكة لا تفيد شفاعتهم شيئا إلا إذا أذن بها ربهم لمن يشاء ويرضى عنهم ممن أخلصوا له فى القول والعمل ، وإذا كان هذا حال الملائكة وهم عالم روحى لهم القرب من ربهم والزلفى لديه ، فما بالكم بأصنام أرضية ميتة لا روح فيها ولا حياة ، فهى بعيدة كل البعد عن الذات الأقدس .

وخلاصة ذلك — إنه لامطمع لهم فى شفاعة هذه الأصنام ، ولا تجديهم نفعا فى هذا اليوم .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى (٢٧)
وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ
شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (٣٠) .

المعنى الجملى

بعد أن عاب عليهم عبادتهم للأصنام والأوثان، وادعاءهم أن لله ولدا من الملائكة، ورد عليهم بأن هذه الأصنام التى جعلوها آلهة لاتملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، فما هى إلا أسماء ليس لها مسميات هى آلهة كما تدّعون ، فلا هى تشفع لهم ، ولا تجديهم فتيلا ولا قطميرا ، فإن الملائكة الكرام لايشفعون عند ربهم إلا إذا أذن لهم ، ورضى عمن يشفعون له ، فأجدر بمثل هؤلاء ألا يستطيعوا شفاعة عنده .

عاد فعاب عليهم هَنة أخرى ، وهى تسميتهم الملائكة بنات الله ، وأبان لهم أن هذه مقالة شنعاء لاتصدر إلا عمن لايؤمن بالآخرة والحساب والعقاب ، فمن أين أتاهم أن لله أولادا هن ملائكته؟ والولد إنما يطلب للمساعدة وقت الحاجة، ولحسن الأحدوثة، ولحفظ الصيت ، والله غنى عن كل ذلك ، ولو صح ما يقولون ، فلم اختاروا له البنات دون البنين ؟ أفلا يساوونه بأنفسهم ويجعلون له ولدا من الذكور لا من الإناث ؟ فما هذا منهم إلا أباطيل لاتغنى عن الحق شيئا ، وعليك أيها الرسول أن تعرض عن هؤلاء

الذين لاهمّ لهم إلا جمع حطام الدنيا ، والتمتع بزخرفها ، وإن ربك هو العليم بحالهم ، وما تُخْفى صدورهم ، وسيحاسبهم على النقير والقطمير ، ويجازيهم بما يقولون ويعتقدون جزاء وفاقا .

الايضاح

(إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى) أى إن هؤلاء الذين لايؤمنون بالبعث وما بعده من أحوال الدار الآخرة على الوجه الذى بيَّنَته الرسل يضمون إلى كفرهم مقالة شنعاء وجهالة جهلاء وهى قولهم : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وإنما جعلها مقالة من لايؤمن ، للاشارة إلى أنها بلغت من الفظاعة حدا لا يمكن معه أن تصدر من موقن بالجزاء والحساب ، فقد اشتملت على جريمتين أولاهما نسبة الولد إلى الله ، ثانيتهما أن الولد أنثى تفضيلا لأنفسهم على بارئهم وموجدهم من العدم .

(ومالهم به من علم) أى وليس لهم بذلك برهان ، ولا أتى لهم به وحى حتى يقولوا ما قالوا .

ثم أكد نفى علمهم الحق بذلك فقال :

(إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لايغنى من الحق شيئا) أى إن معرفة الشىء معرفة حقيقية يجب أن تكون عن يقين لاعن ظن وتوهم ، وأنتم لاتتبعون فيما تقولون فى هذه التسمية إلا الظن والتوهم ، وليس هذا من سبيل العلم فى شىء ، وقد جاء فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث » .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثًا ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » .

والخلاصة — إن مثل هذا الاعتقاد إما أن يكون عن دليل عقلى والعقل لا يركن إليه فى مثل هذا ، وإما عن وحى ولم يصل إليهم شىء منه يخبرهم بما يقولون .

ثم أمر رسوله بالإعراض عنهم فقال :

فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) أى فأعرض عن مثل هؤلاء الذين أعرضوا عن كتابنا ولم يأخذوا بما فيه مما يوصل إلى سعادتهم فى المعاش والمعاد من المعتقدات الحقة وقصص الأولين المذكّرة بأمور الآخرة وما فيها من نعيم مقيم أو عذاب أليم ، واقتصروا على شئون الدنيا ورضوا بزخرفها وجدّوا فى بلوغ أسمى المراتب فيها كما فعل النضر بن الحارث والوليد بن المغيرة وأضرابهما .

والخلاصة — لا تبالغْ فى الحرص على هدى من تولى عن ذكرنا وانهمك فى أمور الدنيا ، وجعلها منتهى همته ، وأقصى أمنيته ، وقصارى سعيه ، فلا سبيل إلى إيمان مثله ، فلا تبخع نفسك على مثله أسفا وحزنا كما قال : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَنْ لاَ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » .

ثم أكد ما مضى من أن همتهم مقصورة على الحياة الدنيا بقوله :

(ذلك مبلغهم من العلم) أى إن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا ، ويتمتعوا باللذات ، ويتصرفوا فى التجارات ، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة فى المال ، وسعة فى الرزق ، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان ، وما به يذكرون لدى الناس ، ولا يُعْنَوْن بما وراء ذلك ، فشئون الآخرة دَبْرَ أذنهم ، ووراء ظهورهم ، لا يعرفون منها قبيلا من دَبير .

روى أحمد عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » وفى الدعاء المأثور « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » .

ثم ذكر السبب فى الأمر بالإعراض عنهم فقال :

(إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) أى إن ربك هو العليم بمن واصل ليله بنهاره ، وصباحه بمسائه ، مفكرا فى آياته فى الكون ، وفيما جاء على ألسنة رسله ، حتى اهتدى إلى الحق الذى يُنْجيه فى آخرته ، ويبلغه رضوان ربه ، ويبلغه سعادة الدنيا بالسير على السنن التى وضعها فى خليقته ، فاحتذى حذوها ، وسار على إثرها — وبمن حاد عن طريق النجاة وجعل إلهه هواه وركب رأسه ، فلم يلو على شىء مما جاء به الداعى الناصح الأمين ، وإنه لمجاز كلاًّ بما كسب واكتسب ، وسيجزيه على الجليل والحقير ، والصغير والكبير ، بحسب ما أحاط به واسع علمه ، وبمقدار فضله على من أحبت إليه كما قال : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » ونكاله بمن دسّى نفسه واجترح السيئات ، مصداقا لقوله : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

والخلاصة — إن هؤلاء قوم لاتجدى فيهم الذكرى ، ولا تؤثر فيهم العظة ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) .

تفسير المفردات

بما عملوا : أى بالعقاب على عملهم ، بالحسنى : أى بالمثوبة الحسنى وهى الجنة ، كبائر الإثم : ما يكبر عقابه كالزنا وشرب الخمر ، والفواحش : واحدها فاحشة وهى ما عظم قبحها من الكبائر ، واللمم : ما صغر من الذنوب كالنظرة والقُبْلة ، وهو فى اللغة اسم لما قلّ قدره ومنه لِمّة الشعر ، وقيل اللمم : الدنو من الشىء دون ارتكابه من قولهم ألممت بكذا : أى قاربت منه ، وعليه فالمراد به الهمّ بالذنب وحديث النفس دون حدوث فعل ، ومن ثم قال سعيد بن المسيِّب : هو ما خطر على القلب ، والأجنة : واحدها جنين ، وهو الولد ما دام فى البطن .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه رسوله بالإعراض عن المشركين مع شدة ميله إلى إيمانهم، وتطلعه إلى هدايتهم ، وتعلقه بصلاحهم و إرشادهم وهم قومه وعشيرته ، وأبان له أن هؤلاء قوم انصرفوا عن النظر إلى الحق ، ووجهوا همّهم إلى زخرف الدنيا ، وأن منتهى علمهم التصرف فى شئونها ، فهى قبلتهم التى إليها يحجون ، ومطمح أنظارهم الذى إليه يَرْنُون، وذكر أنه هو العليم باستعدادهم ، وأنهم قوم ضالون لايصل الحق إلى شغاف قلوبهم ، ولا يلتفتون إليه بعيونهم .

ذكر هنا أنه لايهملهم ، بل سيجزيهم بسوء صنيعهم ، وهو العليم بما فى السموات والأرض ، فلا يترك عباده هَمَلا ، بل يجازيهم بعدله ، فيثيب المحسن بالجنة ، ويعاقب المسىء على سوء صنيعهم بما هو أهله ، ثم أردف ذلك ذكر أوصاف المحسنين وأنهم هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، ولا يقع منهم إلا اللمم من صغائر الذنوب الفَيْنَة بعد الفَيْنَة ، ويتوبون منه ولا يصرّون عليه ، ثم حذّر عباده بأنه لاتخفى عليه خافية من أمورهم من حين أن كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم إلى أن يموتوا ، فيعلم المطيع من العاصى ، فلا حاجة للعبد إذاً إلى مدح نفسه بفعل الطاعات ، واجتناب السيئات .

الإيضاح

(ولله ما فى السموات ومافى الأرض) أى إن مافى السموات ومافى الأرض تحت قبضته وسلطانه ، وله التصرف فيه خلقا وملكا وتدبيرا ، فهو العليم به لاتخفى عليه خافية من أمره ، فلا تظنوا أنه يهمل أمركم ، كلا ، فإنه مجازٍ كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) أى فهو يجازى بحسب علمه المحيط بكل شىء — المحسنَ بالإحسان ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويمتعه بنعيم لايخطر على قلب بشر ، والمسىء بصنيع ما أساء ، وبما دسّى به نفسه من ضروب الشرك والمعاصى ، وبما ران على قلبه من كبائر الذنوب والآثام ، وقد أضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

ثم ذكر أوصاف المحسنين فقال :

(الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) أى إن المحسنين هم الذين يبتعدون عما عظُم شأنه من كبائر المعاصى كالشرك بالله وقتل النفس التى حرم الله بغيرحق والزنا ، ولا تقع منهم إلا صغائرها ، فيتوبون إلى ربهم ويندمون على ما فرط منهم .

ونحو الآية قوله : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » .

والمشهور أن الكبائر سبع وروى ذلك عن علىّ كرم الله وجهه واستدلوا عليه بما روى فى الصحيحين « اجتنبوا السبع الموبقات : الإشراك بالله تعالى والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وروى الطبرانى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلا قال له : الكبائر سبع ، فقال هى إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع ، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار اهـ .

وقيل الكبيرة : كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب أو حدّ فى الدنيا ، أو أقدم صاحبه عليه من غير استشعار خوف أو ندم ، أو ترتب عليه مفاسد كبيرة ، ولو كان فى نظر الناس صغيرا ، فمن أمسك إنسانا ليقتله ظالم، أودل العدو على عورات البلاد فقد فعل أمرا عظيما ، فيكون أكل مال اليتيم إذا قيس على هذين قليلا مع أنه من الكبائر .

ثم ذكر ما يدفع اليأس عن صاحب الكبيرة فى غفران ذنبه فقال :

(إن ربك واسع المغفرة) فيغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، وله أن يغفر مايشاء من الذنوب بعد التوبة الصادقة ، والندم على ما فرط من مرتكبها إذا أخبت لربه ، وتجافى عن ذنبه .

ونحوه قوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

ثم أكد ما قبله وقرره بقوله :

(هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) أى هو بصير بأحوالكم ، عليم بأقوالكم وأفعالكم حين ابتدأ خلقكم من التراب ، وحين صوّركم فى الأرحام ، على أطوار مختلفة ، وصور شتى .

(فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) أى فإذا علمتم ذلك فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة من المعاصى ، أو بزكاة العمل وزيادة الخير ، بل اشكروا لله على فضله ومغفرته ، فهو العليم بمن اتقى المعاصى ، ومن وَلَغ فيها ودنّس نفسه باجتراحها .

والنهى عن تزكية النفس إنما يكون إذا أريد بها الرياء أو الإعجاب بالعمل ، وإلا فلا بأس بها ولا تكون منهيا عنها ، ومن ثم قيل : المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا » .

أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن مردويه وابن سعد عن زينب بنت أبى سلمة أنها سُمِّيَتْ (بَرَّة) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزكّوا أنفسكم ، الله أعلم بأهل البرّ منكم ، سمّوها زينب » .

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤) .

تفسير المفردات

تولى : أى أعرض عن اتباع الحق والثبات عليه ، وأكدى : أى قطع العطاء من قولهم : حفر فأكدى . أى بلغ إلى كُدْية أى صخرة تمنعه من إتمام العمل ، ينبأ : أى يخبر ، وصحف موسى هى التوراة ، وصحف إبراهيم ما نزل عليه من الشرائع ، ووفّى : أى أتم ما أمر به ، أن لاتزر وازرة وزر أخرى : أى لاتحمل نفس حمل نفس أخرى ، يُرى : أى يراه حاضرو القيامة ويطلعون عليه تشريفا للمحسن ، وتوبيخا للمسىء ، يجزاه : أى يجزى سعيه يقال جزاه الله بعمله ، وجزاه على عمله ، وجزاه عمله ، المنتهى : أى المعاد يوم القيامة والجزاء حين الحشر ، تمنى : أى تدفع فى الرحم من قولهم : أمنى الرجل وَمَنَى: أى صبّ المنىّ، والنشأة الأخرى: هى إعادة الأرواح إلى الأجساد حين البعث ، أغنى وأقنى : أى أغنى من شاء وأفقر من شاء ، والشعرى : هى الشعرى العبور وهى ذلك النجم الوضاء الذى يقال له مِرْزم الجوزاء وقد عبدته طائفة من العرب ، وعاد الأولى : هم قوم هود وهم ولد عاد بن إرم بن عوف بن سام بن نوح ، وعاد الأخرى : من ولد عاد الأولى ، والمؤتفكة هى قرى قوم لوط ، سميت بذلك ، لأنها ائتفكت بأهلها : أى انقلبت بهم، ومنه الإفك لأنه قلب الحق ، أهوى : أى أسقط فى الأرض ، غشاها: أى غطّاها .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه علمه وقدرته ، وأن الجزاء واقع على الإساءة والإحسان ، وأن المحسن هو الذى يجتنب كبائر الإثم ، وهذا لايعرف إلا بالوحى من الله تعالى . ذكر هنا أن من العجب العاجب بعد هذا أن يسمع سامع ، ويرجو عاقل أن غيره يقوم مقامه

فى تحمل وزره و يعطيه جُعلا ، لـكنه ما أعطاه إلا قليلا حتى وقف عن العطاء ، ومن ثم وبخه على ذلك ، بأن علم هذا لايكون إلا بوحى ، فهل علم منه صحة ما اعتقد ؟ كلا فجميع الشرائع المعروفة لـكم كشريعة موسى و إبراهيم على غير هذا ، وأنه لاتزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، فمن أين وصل له أن ذلك مجزٍ له .

قال مجاهد وابن زيد : إن الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاس إليه ووعظه فلان قلبه للإسلام فطمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين وقال له : أتترك ملة آبائك ؟ ارجع إلى دينك ، واثبت عليه ، وأنا أتحمل عنك كل شىء تخافه فى الآخرة لـكن على أن تعطينى كذا وكذا من المال ، فوافقه الوليد على ذلك ، ورجع عما همّ به من الإسلام ، وضل ضلالا بعيدا ، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشح .

وقد ذكر سبحانه ما تضمنته صحف إبراهيم وموسى :

(١) ألا يؤاخذ امرؤ بذنب غيره .

(٢) ألا يثاب امرؤ إلا بعمله .

(٣) إن العامل يرى عمله فى ميزانه، خيرا كان أو شرا .

(٤) إنه يجازى عليه الجزاء الأوفى فتضاعف له حسناته إلى سبعمائة ضعف ، ويجازى بمثل سيئاته .

(٥) إن الخلائق كلهم راجعون يوم المعاد إلى ربهم ، ومجازَوْن بأعمالهم .

(٦) إنه تعالى خلق الضحك والبكاء والفرح والحزن .

(٧) إنه سبحانه خلق الذكر والأنثى من نطفة تصب فى الأرحام .

(٨) إنه تعالى خلق الموت والحياة .

(٩) إنه هو الذى أعطى الغنى والفقر ، وكلاهما بيده وتحت قبضته .

(١٠) إنه هو رب الشعرى ، وكانت خزاعة تعبدها .

(١١) إنه أهلك عادا الأولى ، وقد كانوا أول الأمم هلاكا بعد قوم نوح .

(١٢) إنه أهلك ثمود فما أبقاهم ، بل أخذهم بذنوبهم .

(١٣) إنه أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، وقد كانوا أظلم من الفريقين .

(١٤) إنه أهلك المؤتفكة وهى قرى قوم لوط وقد انقلبت بأهلها، وغطّاها بحجارة من سجيل .

الايضاح

(أفرأيت الذى تولى : وأعطى قليلا وأكدى . أعنده علم الغيب فهو يرى ؟) أى أعلمت شأن هذا الكافر ؟ وهل بلغك شأنه العجيب ، فقد أشرف على الإيمان واتباع هدى الرسول ، فوسوس له شيطان من شياطين الإنس بألا يقبل نصح الناصح ، ويرجع إلى دين آبائه ، ويتحمل ما عليه من وزر إذا هو أعطاه قليلا من المال ، فقبل ذلك منه ، لكنه ما أعطاه إلا قليلا حتى امتنع من إعطائه شيئا بعد ذلك ، أفعنده علم بأمور الغيب ، فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه ما يخاف من أوزاره يوم القيامة ؟ .

وقصارى ذلك — أخبرنى بأمر هذا الكافر وحاله العجيبة ، إذ قبل أن سواه يحمل أوزاره إذا أدّى له أجرا معلوما ، أأنزل عليه وحى فرأى أن ما صنعه حق ؟

ثم أكد هذا الإنكار فذكر أن الشرائع التى يعرفونها على غير هذا فقال :

(أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفّى) أى ألم يُخبَر بما نصت عليه التوراة ، وما ذكر فى شرائع إبراهيم الذى وفّى بما عاهد الله عليه ، وأتم ما أُمِر به ، وأدى رسالته على الوجه المرضى ، يدل على ذلك قوله : « وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا » .

قال ابن عباس : وفّى بسهام الإسلام كلها وهى ثلاثون سهما لم يوفّها أحد غيره ، منها عشرة فى براءة « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » الآيات . وعشرة فى الأحزاب « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ » الآيات ، وستة فى « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » الآيات ، وأربعة فى سأل سائل « وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ » الآيات .

وتخصيصه عليه السلام بهذا الوصف لاحتماله مالم يحتمل غيره ، وفى قصة الذبح مافيه الغَناء فى ذلك .

وإنما ذكر ما جاء فى شريعتى هذين النبيين فحسب ، لأن المشركين كانوا يدّعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم ، وأهل الكتاب كانوا يدعون أنهم متبعون مافى التوراة وصحفها قريبة العهد منهم .

ثم فصل ما جاء فى هاتين الشريعتين فقال :

(١) (أن لا تزر وازرة وزر أخرى) أى لاتحمل نفس ذنوب نفس أخرى ، فكل نفس اكتسبت إثمًا بكفر أو معصية فعليها وزرها لايحمله عنها أحد كما قال : « وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » ،

(٢) (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) أى كما لايحمل على الإنسان وزر غيره ، لايحصل له من الأجر إلا ما كسب لنفسه ، ومن هذا استنبط مالك والشافعى ومن تبعهما أن القراءة لايصح إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، وهكذا جميع العبادات البدنية كالصلاة والحج والتلاوة ، ومن ثم لم يندب إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته ولا حثهم عليها ولا أرشدهم إليها بنص ولا إيماء ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولو كان خيرا لسبقونا إليه ، أما الصدقة فإنها تقبل؛ وما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة من قوله صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم

انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعوله ، وصدقة جارية من بعده ، وعلم ينتفع به» فهى فى الحقيقة من سعيه وكدّه وعمله ، كما جاء فى الحديث : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولد الرجل من كسبه » والصدقة الجارية كالوقف ونحوه على أعمال البر هى من آثار عمله ، وقد قال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » الآية ، والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدوا به واتبعوه — هو من سعيه ، فقد ثبت فى الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه من غير أن ينقُص ذلك من أجورهم شيئا » .

ومذهب أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء أن ثواب القراءة يصل إلى الموتى إن لم تكن القراءة بأجر ، أما إذا كانت به كما يفعله الناس اليوم من إعطاء الأجر للحفاظ للقراءة على المقابر وغيرها — فلا يصل إلى الميت ثوابها ، إذ لا ثواب لها حتى يصل إليهم، لحرمة أخذ الأجر على قراءة القرآن وإن لم يحرم على تعليمه .

(٣) (وأن سعيه سوف يرى) أى إن عمله سيعرض يوم القيامة على أهل المحشر ويطلعون عليه ، فيكون فى ذلك إشادة بفضل المحسنين ، وتوبيخ للمسيئين .

ونحو هذا قوله : « وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

(٤) (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) أى ثم يجزى بعمله أوفى الجزاء وأوفره ، فيضاعف الله له الحسنة ويبلغها سبعمائة ضعف ، ويجازى بالسيئة مثلها أو يعفو عنها كما قال : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

(٥) (وأن إلى ربك المنتهى) أى وأن مرجع الأمور يوم الميعاد إلى ربك ، فيحاسبهم على النقير والقطمير ، ويثيبهم أو يعاقبهم بالجنة أو النار .

وفى هذا تهديد بليغ للمسىء ، وحث شديد للمحسن ، وتسلية لقلبه صلى الله عليه وسلم ، كأنه يقول له : لا تحزن أيها الرسول ، فإن المنتهى إلى الله .

ونحو الآية قوله : « فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ . إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ » إلى أن قال فى آخر السورة « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » وأمثال ذلك كثيرة فى القرآن .

(٦) (وأنه هو أضحك وأبكى) أى وأنه خلق فى عباده الضحك والبكاء وسببهما ، والمراد أنه خلق ما يسرّ وما يحزن من الأعمال الصالحة ، والأعمال الطالحة .

(٧) (وأنه هو أمات وأحيا) أى وأنه خلق الموت والحياة كما جاء فى قوله : « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ » فهو يميت من يشاء موته ، ويحيي من يشاء حياته ، فينفخ الروح فى النطفة الميتة فيجعلها حية .

(٨) (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى) أى وأنه خلق الذكر والأنثى من الإنسان وغيره من الحيوان من المنى الذى يُدْفَق فى الأرحام .

(٩) (وأن عليه النشأة الأخرى) أى وأن عليه الإحياء بعد الإماتة ، ليجازَى كل من المحسن والمسىء على ما عمل .

(١٠) (وأنه هو أغنى وأقنى) أى وأنه تعالى يغنى من يشاء من عباده ، ويفقر من يشاء بحسب ما يرى من استعداد كل منهما ومقدرته على كسب المال بحسب السنن المعروفة فى هذه الحياة .

وفى هذا تنبيه إلى كمال القدرة ، فإن النطفة جسم متناسب الأجزاء فى الظاهر ، ويخلق الله تعالى منها أعضاء مختلفة ، وطباعا متباينة من ذكر وأنثى ، ومن ثم لم يدّع أحد خلق ذلك ، كما لم يدّع خلق السموات والأرض كما قال : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » .

ونحو الآية قوله : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ؟ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ؟ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ » .

(١١) (وأنه هو رب الشعرى) أى وأنه تعالى رب هذا الكوكب الوهاج الذى تطلع خلف الجوزاء فى شدة الحر .

وإنما خصها بالذكر من بين الأجرام السماوية ، وفيها ماهو أكبر منها جرما وأكثر ضوءا ، لأنها عُبِدَت من دون الله فى الجاهلية ، فقد عبدتها حِمْيَر وخُزاعة ، وأول من سن عبادتها أبو كبشة وكان من أشراف العرب، وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبى كبشة تشبيها له به ، لمخالفته دينهم كما خالفهم أبو كبشة ، وكان من أجداد النبى صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ، ومن ذلك قول أبى سفيان حين دخوله على هِرَقْل : لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبى كبشة .

ومن العرب من كانوا يعظمونها ، ويعتقدون أن لها تأثيرا فى العالم ويتكلمون على المغيبات حين طلوعها .

وهى شعريان إحداهما شامية ، وثانيتهما يمانية وهى المرادة هنا وهى التى كانت تعبد من دون الله .

(١٢) (وأنه أهلك عاد الأولى) وهى قوم هود عليه السلام ، وعاد الأخرى هى إرم بن سام بن نوح كما قال : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ؟ » وقد كانوا من أشد الأمم وأقواهم وأعتاهم على الله ورسوله ، فأهلكهم « بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » أى متتابعة .

وقال المبرد : وعاد الأخرى هى ثمود ، وقيل عاد الأخرى من ولد عاد الأولى .

(١٣) (وثمود فما أبقى) أى وأهلك ثمود فما أبقى عليهم ، بل أخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر .

ونحو الآية قوله : « فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » .

(١٤) (وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) أى وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود ، وكانوا أظلم من هذين ، لأنهم بدءوا بالظلم ، و « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها» وأطغى منهما وأكثر تجاوزا للحد ، لأنهم سمعوا المواعظ

وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم بقوله : «رَبِّ لاتَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » .

وقد كان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه ويمشى إلى نوح يحذره منه ويقول يابنى إن أبى مشى بى إلى هذا وأنا مثلك يومئذ، فإياك أن تصدّقه ، فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على وصية أبيه ، لايتأثر من دعائه له .

(١٥) (والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشى) أى وأهلك قوم لوط بانقلاب قريتهم عليهم وجعل عاليها سافلها ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود كما قال : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ » وهذا ما عناه سبحانه بقوله : فغشاها ما غشى .

وفى هذا الأسلوب تهويل للأمر الذى غشاها به ، وتعظيم له .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢) .

تفسير المفردات

الآلاء : النعم واحدها ألى (بالفتح والكسر) وتمارى : تمترى وتشك ، والخطاب للانسان ، هذا نذير من النذر : أى إن محمدا بعض من أنذر ، أزفت : قربت، والآزفة : الساعة ، وسميت بذلك لقرب قيامها ، أو لدنوها من الناس كما جاء فى قوله : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » من دون الله : أى من غيره ، كاشفة : أى نفس تكشف وقت وقوعها

وتبينه ، لأنها من أخفى المغيبات ، والحديث : القرآن ، سامدون : أى لاهون غافلون من سمد البعير فى سيره إذا رفع رأسه ، فاسجدوا : أى اشكروا على الهداية ، واعبدوا : أى اشتغلوا بالعبادة والطاعة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قبلُ ما جاء فى صحف موسى وإبراهيم ، من أن الإحياء والإماتة بيد الله ، وأنه هو الذى يصرّف أمور العالم خلقا وتدبيرا وملكا ، فيُفقر قوما ويغنى آخرين ، وأن أمر المعاد تحت قبضته ، وأن الخلق إذ ذاك يرجعون إليه ، وأن بعض الأمم كذبت رسلها وأنكرت الخالق فأصابها ما أصابها — قفى على هذا بالتعجيب من أمر الإنسان ، وأنه كيف يتشكك فى هذا ويجادل فيه منكرا له ، وقد جاء النذير به ، فعليكم أن تصدّقوه وتؤمنوا به قبل أن يحل بكم عذاب يوم عظيم قد أزف ، ولا يقدر على كشفه أحد إلا هو ، فلا تعجبوا من القرآن منكرين ، ولا تضحكوا منه مستهزئين، وابكوا حزنا على ما فرّطتم فى جنب الله ، وعلى غفلتكم عن مواعظه وحكمه التى فيها سعادتكم فى دنياكم وآخرتكم ، واسجدوا شكرا لبارئ النسم ، الذى أوجدها من العدم، واعبدوه بكرة وعشيا شكرا على آلائه ، وتقلبكم فى نعمائه .

الإيضاح

(فبأى آلاء ربك تتمارى) أى فبأى نعم ربك عليك أيها الإنسان تمترى وتشك ؟

ونحو الآية قوله : « يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ؟ » وقوله : « وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً » وقوله : « فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ».

والمراد بالنعم ما عدده من قبل ، وجعلت كلها نعما ، و بعضُها نقمٌ ، لما فى النقم من المواعظ والعبر للمعتبرين ، من الأنبياء والمؤمنين .

والخلاصة — إنها كلها دالة على وحدانية ربك وربوبيته ، ففى أيها تتشكك على وضوحها للناظرين ، ووجوه دلالتها للمعتبرين ؟ .

(هذا نذير من النذر الأولى) أى إن محمدا صلى الله عليه وسلم منذر من حاد عن طريق الهدى ، وسلك طريق الضلال والهوى ، بسىء العواقب ، فى العاجل والآجل، وهو كمن قبله من الرسل الذين أرسلهم ربهم لهداية خلقه، فكذبوهم فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وحل بهم البوار والنكال ، كِفاء تكذيبهم وجحودهم آلاء ربهم ، ونعمه التى تترى عليهم .

ونحو الآية قوله : « إِنِّى نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » وقوله صلى الله عليه وسلم « أنا النذير العُرْيان » أى الذى أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبس شيئا ، وبادر إلى إنذار قومه وجاءهم مسرعا .

(أزفت الآزفة) أى اقتربت الساعة ، ونُصِب الميزان ، وستجازى كل نفس بما عملت من خير أوشر ، فاحذروا أن تكونوا من الهالكين ، يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون .

ونحو الآية قوله : « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ، لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » وفى الحديث « مثلى ومثل الساعة كهاتين » وفرق بين إصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام .

(ليس لها من دون الله كاشفة) أى ليس هناك من يعرف وقت حلول الآزفة إلا هو ، فاستعدوا لهذا اليوم قبل أن تأخذكم الساعة بغتة وأنتم لاتشعرون ، فتندموا ولات ساعة مندم ، وجِدّوا للعمل قبل حلول الأجل .

وقد أشار فى هذه الآيات إلى أصول الدين الثلاثة .

(١) وحدانية الله بقوله : (فبأى آلاء ربك تتمارى ؟) .

(٢) إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : (هذا نذير) .

(٣) إثبات الحشر والبعث بقوله : (أزفت الآزفة) .

ثم أنكر على المشركين تعجبهم من القرآن واستهزاءهم به و إعراضهم عنه فقال :

(أفمن هذا الحديث تعجبون . وتضحكون ولاتبكون . وأنتم سامدون) أى أفينبغى لـكم بعد ذلك أن تعجبوا من هذا القرآن وقد جاءكم بما فيه هدايتكم إلى سواء السبيل، و إرشادكم إلى الطريق المستقيم ، وكيف تسخرون منه وتستهزئون به ، ولا تـكونوا كالموقنين الذين وصفهم الله بقوله : « وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا » وكيف تلهون عن استماع عِبَره ، وتغفُلون عن مواعظه ، وتتلقونها تلقى اللاهى الساهى المعرض عما يسمع ، غير المـكترث بما يُلْقَى إليه .

أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى هريرة قال : لما نزلت « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ » الآية بكى أصحاب الصُّفَّة حتى جرت دموعهم على خدودهم ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينهم بكى معهم ، فبكينا ببكائه ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يلج النار من بكى من خشية الله تعالى، ولا يدخل الجنة مصرّ على معصية، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

ثم بيّن ما يجب عند سماع القرآن من الإجلال والتعظيم فقال :

(فاسجدوا لله واعبدوا) أى فاخضعوا وأخلصوا له العمل حنفاء غير مشركين به ، فهو الذى أنزله على عبده ورسوله هاديا و بشيرا لـكم لعلـكم ترحمون ، ودعوا ما أنتم فيه من عبادة الأوثان والأصنام التى لاتغنى عنكم شيئا ، فلاتدفع عنكم ضرًّا ، ولاتجديكم نفعا كما قال آمرا رسوله أن يقول لهم : « قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ؟ » .

ما تضمنته السورة الكريمة من الأسرار والأحكام

(١) إنزال الوحى على رسوله .

(٢) إن الذى علمه إياه هو جبريل شديد القوى .

(٣) قرب رسوله من ربه .

(٤) إن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل على صورته الملكية مرتين .

(٥) تقريع المشركين على عبادتهم للأصنام .

(٦) توبيخهم على جعل الملائكة إناثا وتسميتهم إياهم بنات الله .

(٧) مجازاة كل من المحسن والمسىء بعمله .

(٨) أوصاف المحسنين .

(٩) إحاطة علمه تعالى بما فى السموات والأرض .

(١٠) النهى عن تزكية المرء نفسه .

(١١) الوصايا التى جاءت فى صحف إبراهيم وموسى .

(١٢) النعى على المشركين فى إنكارهم الوحدانية والرسالة والبعث والنشور .

(١٣) التعجب من استهزاء المشركين بالقرآن حين سماعه، وغفلتهم عن مواعظه.

(١٤) أمر المؤمنين بالخضوع لله والإخلاص له فى العمل .

سورة القمر

هى مكية إلا قوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) فمدنية .

وآيها خمس وخمسون، نزلت بعد الطارق .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) مشاكلة آخر السورة السابقة لأول هـذه فقد قال هناك : أزفت الآزفة ، وقال هنا : اقتربت الساعة .

(٢) حسن التناسق بين النجم والقمر .

(٣) إن هذه قـد فصلت ما جاء فى سابقتها ، ففيها إيضاح أحوال الأمم التى كذبت رسلها ، وتفصيل هلاكهم الذى أشار إليـه فى السابقة بقوله : (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى . وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى . وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى) فما أشبهها مع سابقتها بالأعراف بعد الأنعام ، والشعراء بعد الفرقان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) .

تفسير المفردات

اقتربت : أى دنت وقربت ، وانشق القمر : أى انفصل بعضه من بعض وصار فرقتين ، آية : أى دليلا على نبوتك ، مستمر : أى مطرد دائم ، أهواءهم : أى ما زينه لهم الشيطان من الوساوس والأوهام ، مستقر : أى منته إلى غاية يستقر عليها لامحالة ، الأنباء أخبار القرون الماضية وما حاق بهم من العذاب جزاء تكذيبهم للرسل ، واحدها نبأ ، بالغة : أى واصلة غاية الإحكام والإبداع ، تغنى : أى تفيد وتنفع ، والنذر: واحدهم نذير بمعنى منذر، فتولّ عنهم : أى لاتجادلهم ولا تحاجهم، نكر: أى أمر تنكره النفوس إذ لاعهد لها بمثله ، خشعا : واحدهم خاشع : أى ذليل ، والأجداث : القبور، مهطعين : أى مسرعين منقادين ، عسر : أى صعب شديد الهول .

المعنى الجملى

يخبر سبحانه باقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها وأن الأجرام العلوية يختل نظامها على نحو ما جاء فى قوله : (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ) روى أنس « أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب أصحابه ذات يوم وقد كادت الشمس تغرب ولم يبق منها إلا شَفٌّ يسير ، فقال : والذى نفسى بيده ما بقى من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » .

وروى أحمد عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بُعِثْت أنا والساعةَ هكذا ، وأشار بإصبعيه السبّابة والوسطى » .

ثم ذكر أن الكافرين كلما رأوا علامة من علامات نبوتك أعرضوا وكذبوا بها وقالوا إن هذا إلا سحر منك يتلو بعضه بعضا ؛ ثم أخبر أن أمرهم سينتهى بعد حين

وسيستقر أمرك ، وسينصرك الله عليهم نصرا مؤزّرا ، ثم أعقب هذا بأن عبر الماضين وإهلاك الله لهم بعد تكذيبهم أنبياءهم كانت جدّ كافية لهم لو أن لهم عقولا يفكرون بها فيما هم قادمون عليه ، ولكن أنّى تغنى الآيات والنذر عن قوم قدأضلهم الله على علم وختم على قلوبهم وجعل على سمعهم و بصرهم غشاوة ؟ . ثم أمر رسوله بالإعراض عنهم وسيخرجون من قبورهم أذلاء ناكسى الرءوس مسرعين إلى إجابة الداعى ، يقول الكافرون منهم هذا يوم شديد حسابه ، عسر عقابه .

الايضاح

(اقتربت الساعة) أى دنت الساعة التى تقوم فيها القيامة ، وقرب انتهاء الدنيا وهذا كقوله : « أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » وقوله : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ » .

(وانشق القمر) أى وسينشق القمر و ينفصل بعضه من بعض حين يختل نظام هذا العالم وتبدل الأرض غير الأرض ، ونحو هذا قوله : « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ » وقوله : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » وكثير غيرها من الآيات الدالة على الأحداث الكبرى التى تكون حين خراب هذا العالم وقرب قيام الساعة .

و يرى جمع من المفسرين أن هذا حدث قد حصل ، وأن القمر صار فرقتين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بنحو خمس سنين ، فقد صح من رواية الشيخين وابن جرير عن أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شُقتين حتى رأوا حراء (جبل بمكة) بينهما ، وفى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود : «انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فرقة على الجبل وفرقة دونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا » .

وجاء عنه أيضا : « انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت قريش : هذا سحر بن أبى كبشة ، فقال رجل انتظروا مايأتيكم به السفّار ، فإن محمدا لايستطيع أن يسحر الناس ، فجاء السفار فأخبروهم بذلك » رواه أبو داود والطيالسى ، وفى رواية البيهقى « فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا رأيناه ، فأنزل الله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر » .

والذى يدل على أن هذا إخبار عن حدث مستقبل لاعن انشقاق ماض ـ أمور :

(١) إن الإخبار بالانشقاق أتى إثر الكلام على قرب مجىء الساعة ، والظاهر تجانس الخبرين وأنهما خبران عن مستقبل لاعن ماض .

(٢) إن انشقاق القمر من الأحداث الكونية الهامة التى لو حصلت لرآها من الناس من لايحصى كثرة من العرب وغيرهم، ولبلغ حدا لايمكن أحدا أن ينكره ، وصار من المحسوسات التى لاتدفع ، ولصار من المعجزات التي لايسع مسلما ولا غيره إنكارُها .

(٣) ما ادعى أحد من المسلمين إلا من شذ أن هـذه معجزة بلغت حد التواتر ، ولو كان قد حصل ذلك ما كان رواته آحادا ، بل كانوا لايعدّون كثرة .

(٤) إن حذيفة بن اليمان وهو ذلكم الصحابى الجليل خطب الناس يوم الجمعة فى المدائن حين فتح الله فارس فقال: ألا إن الله تبارك وتعالى يقول: اقتربت الساعة وانشق القمر ، ألا و إن الساعة قد اقتربت ، ألا و إن القمر قد انشق ، ألا و إن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا و إن اليوم المضمار وغدا السباق ، ألا و إن الغاية النار ، والسابق من سبق إلى الجنة ، فهذا الكلام من حذيفة فى معرض قرب مجىء الساعة وتوقع أحداثها ، لافى كلام عن أحداث قد حصلت تأييدا للرسول و إثباتا لنبوته ، لأن ذلك كان فى مَعْرِض العظة والاعتبار .

و بعد أن ذكر قرب مجىء الساعة وكان ذلك مما يستدعى انتباههم من غفلتهم ، والتفكير فى مصيرهم ، والنظر فيما جاءهم به الرسول من الأدلة المثبتة لنبوته ، والمؤيدة

لصدقه ، لكنهم مع كل هذا ما التفتوا إلى الداعى لهم إلى الرشاد ، والهادى لهم إلى سواء السبيل ، بل أعرضوا وتولوا مستكبرين كما قال :

(وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) أى وإن ير المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوتك ، وترشدهم إلى صدق ماجئت به من عند ربك ، يعرضوا عنها ويولوا مكذبين بها ، منكرين أن يكون ذلك حقا ، ويقولوا تكذيبا منهم بها : هذا سحر سحرنا به محمد ، وهو يفعل ذلك على مرّ الأيام .

وفى هذا إيماء إلى ترادف الآيات ، وتتابع المعجزات .

وقال الكسائى والفرّاء واختاره النحاس : إن المراد بالمستمر الذاهب الزائل عن قرب ، إذ هم قد عللوا أنفسهم ومنّوها بالأمانى الفارغة ، وكأنهم قالوا : إن حاله عليه السلام وما ظهر من معجزاته إن هى إلا سحابة صيف عن قريب تقشع ، ولكن أيهات أيهات ، فقد غرّتهم الأمانى : « وَيَأْبَى اللهُ إلاَّ أنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » .

ثم أكد ما سبق بقوله :

(وكذبوا واتبعوا أهواءهم) أى وكذبوا بالحق إذ جاءهم ، واتبعوا ما أمرتهم به أهواؤهم ، لجهلهم وسُخْف عقولهم .

والخلاصة — إنهم كذبوا النبى صلى الله عليه وسلم وتركوا حججه وقالوا : هو كاهن يقول عن النجوم ويختار الأوقات للأفعال ، وساحر يسترهب الناس بسحره ، إلى أشباه هذا من مقالاتهم التى تدل على العناد وعدم قبول الحق .

ثم سلّى رسوله وهدد المشركين بقوله :

(وكل أمر مستقر) أى وكل شىء ينتهى إلى غاية تشاكله ، فأمرهم سينتهى إلى الخذلان فى الدنيا والعذاب الدائم فى الآخرة ، وأمرك سينتهى إلى النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة .

وهذه قاعدة عامة تنضوى تحتها حركات الكواكب والأفلاك ونظم العمران وأعمال الأفراد والأمم .

وقصارى ذلك — إن أمر محمد صلى الله عليه وسلم سيصل إلى غاية يتبين عندها أنه الحق ، وأن ما سواه هو الباطل ، فقد جرت سنة الله بأن الحق يثبت ، والباطل يزهق بحسب ما وضعه فى نظم الخليقة (البقاء للأصلح) .

ثم ذكر أنهم فى ضلال بعيد ، فإن ما جاء فى القرآن من أخبار الماضين قد كان فيه مزدجر لهم لو كانوا يعقلون ، قال :

(ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر) أى ولقد جاء هؤلاء المشركين الذين كذبوا بك واتبعوا أهواءهم ـ من الأخبار عن الماضين الذين كذبوا الرسل فأحل الله بهم من العقوبات ما قصه فى كتابه ـ ما يردعهم ويزجرهم عما هم فيه من القبائح ، إذ أبادهم فى الدنيا وسيعذبهم يوم الدين جزاء وفاقا لما دنسوا به أنفسهم من الشرك بربهم وعصيان رسله ، واجترائهم للسيئات .

ثم بين الذى جاءهم به فقال :

(حكمة بالغة) أى هذه الأنباء غاية الحكمة فى الهداية والإرشاد إلى طريق الحق لمن اتبع عقله وعصى هواه .

(فما تغنى النذر) أى إن النذر لم يبعثوا ليلجئوا الناس إلى قبول الحق ، وإنما أرسلوا مبلغين فحسب ؛ فليس عليك ولا على الأنبياء قبلك الإغناء والإلجاء إلى اتباع سبيل الهدى ، فإذا بلّغت فقد أتيت بما عليك من الحكمة البالغة التى أمرت بها فى نحو قوله « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » وتول عنهم بعدئذ .

ونحو الآية قوله « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً »

ثم أمر رسوله ألا يجادلهم ولا يناظرهم فإن ذلك لايجدى نفعا فقال :

(فتول عنهم) أى فأعرض عن هؤلاء المشركين المكذبين ولا تحاجهم ،

فإنهم قد بلغوا حدا لا يقنعون معه بحجة ولا برهان ، فأحرى بك ألا تلتفت إلى نصحهم وإرشادهم ، فقد عييت بأمرهم ، وبَرِمْتَ بعنادهم .

(يوم يدعو الداع إلى شىء نكر) أى واذكر حين ينادى الداعى إلى شىء فظيع تنكره نفوسهم ، إذ لا عهد لها بمثله ، وهو موقف الحساب وما فيه من أهوال .

وقد جرت العادة أن من ينصح شخصا لا يؤثر فيه النصح أن يعرض عنه ويقول لسواه ما فيه نصح للمعرَض عنه ، وهدايته وإرشاده لو أراد .

ثم ذكر حال الكافرين فى هذا اليوم فقال :

(خشّعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر) أى يخرجون من قبورهم ذليلة أبصارهم من هول ما يرون ، كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهمُ إلى موقف الحساب إجابة للداعى ــ جراد قد انتشر فى الآفاق .

وجاء تشبيهم فى الآية الأخرى بالفراش فى قوله « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » .

وهم يكونون أولا كالفراش حين يموجون فزعين ، لا يهتدون أين يتوجهون ، لأن الفراش لا جهة لها تقصدها ، ثم يكونون كالجراد المنتشر إذا توجهوا للحشر ، فهما تشبيهان باعتبار وقتين ، وحكى ذلك عن مكى بن أبى طالب .

(مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) أى مسرعين إلى الداعى لا يخالفون ولا يتأخرون ، ويقولون هذا يوم شديد الهول سيء المنقلب .

ونحو الآية قوله : « فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » . وفى هذا إيماء إلى أنه هين على المؤمن لا عسر فيه ولا مشقة .

قصص بعض الأنبياء مع أممهم

(١) قصص قوم نوح

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩)
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١)
وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ
أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا
آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧) .

تفسير المفردات

وازدجر : أى وزُجِر عن التبليغ بأنواع الأذى والتخويف ، فانتصر : أى فانتقم لى منهم ، منهمر : أى كثير كما قال :

أعيناى جودا بالدموع الهوامِرِ		على خير بادٍ من معَدّ وحاضر

فالتقى الماء : أى ماء السماء وماء الأرض ، على أمر : أى على حال ، قد قدر : أى قد قدّره الله فى الأزل ، ذات ألواح : أى ذات خُشُب عريضة ، دسر: أى مسامير واحدها دسار ككتب وكتاب، بأعيننا : أى بمرأى منه والمراد بحراستنا وحفظنا ، كفر: أى جحد به وهو نوح عليه السلام ، تركناها : أى أبقينا السفينة ، آية : أى علامة ودليلا ، مدكر : أى متذكر ومعتبر ، ونذر : واحدها نذير بمعنى إنذار ، يسرنا : أى سهلنا ، للذكر : أى للعظة والاعتبار ، مدكر : أى متعظ بمواعظه .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه جاءهم من الأخبار ما فيه زاجر لهم لو تذكروا لكن لم تغنهم تلك الزواجر شيئا ـ أردف هذا ذكر قصص من قبلهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود، ليبين لرسوله أنهم ليسوا ببدع فى الأمم، بل كثير منهم فعلوا فعلهم بل كانوا أشد منهم عتوا واستكبارا، وأن الأنبياء قبله قد لاقوا منهم من البلاء ما لاقيت، فلا تأس على ما فرط منهم، ولا تبتئس بما كانوا يفعلون كما جاء فى قوله سبحانه: « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ».

وفى هذا وعيد للمشركين من أهل مكة وغيرهم على تكذيبهم رسولهم، وأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم فسيحل بهم من العذاب مثل ما حل بمن قبلهم، وينجّى نبيه والمؤمنين كما نجّى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمه التى أحلها بأممهم.

الايضاح

(كذبت قبلهم قوم نوح) أى كذب قبل قومك قومُ نوح فكانوا أسوة لمن بعدهم من المكذبين للرسل.

ثم فصّل هذا التكذيب بقوله:

(فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر) أى فكذبوا عبدنا نوحا ونسبوه إلى الجنون، وزجروه وتوعدوه، لئن لم ينته ليكونن من المرجومين.

وأضاف العبد إليه فى قوله « عَبْدَنَا » للاشارة إلى أنه لم يعبد سواه، فهو فى جميع أفعاله لله؛ وإلى أنه صادق فى دعواه النبوة، فهو لا ينطق عن الهوى، فتكذيبهم له قبيح غاية القبح، بالغ نهاية العتوّ والإنكار.

ثم بين أنه عيل بهم صبرا، وضاق بهم ذرعا فدعا عليهم فقال:

(فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) أى فدعا نوح ربه قائلا إن قومى قد غلبونى لتمردهم وعتوهم، ولا طاقة لى بهم، فانتصر منهم بعقاب من عندك على كفرهم بك.

وقصارى ذلك — انتصرلك ولدينك ، فإنى قد غُلبت وعجزت عن الانتصار لهما .

ثم أخبر سبحانه أنه قد أجاب دعاءه فقال :

(ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) أى فصببنا عليهم ماء ثجاجا من السماء ، وتقول العرب فى المطر الوابل : جرت ميازيب السماء . روى أنهم طلبوا المطر سنين فأهلكهم الله بما طلبوا .

وفى الآية إيماء إلى أن الله انتصر منهم ، وانتقم بماء لا بجند أنزله .

(وفجرنا الأرض عيونا) أى وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة .

(فالتقى الماء على أمر قد قدر) أى فالتقى الماء أى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدره الله وهو هلاكهم بالطوفان .

والخلاصة — إن الله أرسل ماء السحاب مدرارا ، وأخرج من الأرض ماء ثجاجا فالتقى الماءان فأحدثا طوفانا على وجه الأرض ، فأغرق به قوم نوح ، ونجا نوح بركوب سفينته التى بناها كما أشار إلى ذلك فى هود بالتفصيل وأشار إليه هنا بقوله :

(وحملناه على ذات ألواح ودسر) أى وأنقذناه من الطوفان ، فحملناه على سفينة ذات خشب ومسامير .

وجاء فى سورة العنكبوت « فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ » .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى يوجد الأسباب لتحقيق ما يريد من المسببات ، بحسب السنن التى وضعها فى الخليقة ، وأنه يمهل الظالمين ، ولا يهملهم كما جاء فى الحديث « إن ربك لا يهمل ولكن يمهل » .

ثم أشار إلى أنه كان محروساً بعناية الله وكلاءته فقال :

(تجرى بأعيننا) أى تجرى محفوظة بحراستنا ، فقد كانت بمرأى منا فنحن نكلؤها ونرعاها ، كما يرعى المرء مايراه بعينه ، ويقع تحت سمعه وبصره ، ويقول القائل إذا وصّى آخر بأمر وشدد عليه : اجعله نُصْب عينيك أى اهتمّ به ، ولا تهمله .

ثم بين أن هذا هو الجزاء العادل على سوء صنيعهم ، وكفرهم بربهم فقال :

(جزاء لمن كان كفر) أى فعلنا ذلك بهم جزاء كفرهم بآياتنا، وجحودهم بنعمائنا، وتكذيبهم برسولنا .

ثم ذكر أنه أبقى السفينة عبرة لمن بعدهم على كر الدهور والأعوام فقال :

(ولقد تركناها آية) أى ولقد جعلنا السفينة التى حملنا فيها نوحا ومن معه — عبرة لمن بعده من الأمم ، ليدّبروا ويتعظوا ، ويرعووا أن يسلكوا مسلكهم وينهجوا نهجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله ، فيصيبهم مثل ماأصابهم من العقوبة ؛ وقد رووا أن الله حفظها آمادا طويلة بأرض الجزيرة على جبل الجودىّ . وقال قتادة: أبقاها الله بباقِرْدَى من أرض الجزيرة حتى أدركتها أوائل هذه الأمة .

ونحو الآية قوله تعالى: « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ » .

(فهل من مدّكر ؟) أى فهل من معتبر بتلك الآية الحريّة بالاعتبار ، الجديرة بطويل التفكير والتأمل فى عواقب المكذبين برسل الله ، الجاحدين بوحدانيته ، المتخذين له الأنداد والأوثان .

ثم بين سبحانه شديد نكاله وعقابه فقال :

(فكيف كان عذابى ونذر ؟) أى ما أشد ما أنزلته بهم من البوار والهلاك ، وما أفظع إنذارى لهم بما أحللته بهم من النقمة بعد النعمة ، وهكذا عاقبة كل مكذب جبار .

ولا يخفى مافى هذا من شديد الوعيد ، وعظيم التهديد ، لكل باغ عنيد ، ساخط على الرسل ، مكذب بربه .

والخلاصة — انظر كيف كان عذابى لمن كفر بى ، وكذب رسلى ، وكيف انتصرت لهم ، وأخذت أعداءهم بما يستحقون ؟ .

ثم ذكر أن هذا القصص وأمثاله إنما ذكر فى القرآن للعبرة ، لا ليكون قصصا تاريخيا يتلى ، فقال :

(ولقد يسرنا القرآن للذكر) أى ولقد سهلنا لفظه ، ويسرنا معناه ، وملأناه بأنواع العبر والمواعظ ، ليتعظ به من شاء ، ويتدبر من أراد « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » .

ونحو الآية قوله: « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » وقوله : « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا »

روى الضحاك عن ابن عباس قال : لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل .

(فهل من مدّكر) أى فهل من متعظ به ، مزدجر عن معاصيه ، أى ما أقل من تذكر به ، واتعظ بأمره ونهيه .

---

(٢) قصص عاد قوم هود

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢) .

تفسير المفردات

الريح الصرصر : الباردة أشد البرد ، والنحس : الشؤم ، منقعر : أى مقتلع من أصوله ؛ يقال قعرتُ النخلة : أى قلعتها من أصلها فانقعرت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص قوم نوح وما فيه من العبرة لمن تدبر وفكر، أعقبه بقصص عاد قوم هود، ليبين للمكذبين أن عاقبة كل مكذب الهلاك والبوار و إن تعددت أسبابه.

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تعددت الأسباب والموت واحد

فقد أرسل الله عليهم ريحا عاصفا، لصوتها صرير حين هبوطها فى يوم شؤم عليهم، واستمر بهم البلاء حتى حل بهم الدمار، وكانت الريح لشدتها تقتلع الناس من الأرض وترفعهم إلى السماء ثم ترمى بهم على رءوسهم، فتندق رقابهم، وتبين من أجسامهم، فانظروا أيها المكذبون إلى ما حل بهم من العذاب جزاء تكذيبهم لرسوله، كما هى سنة الله فى أمثالهم من المكذبين.

الايضاح

(كذبت عاد) أى كذبت عاد نبيهم هودا فيما أتاهم به عن الله، كما كذبت قوم نوح من قبلهم نبيهم.

(فكيف كان عذابى ونذر) أى فانظروا معشر قريش، كيف كان عذابى إياهم، وعقابى لهم على كفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله هودا، وإنذارى من سلك سبيلهم وتمادى فى الغىّ والضلال بحلول مثل ذلك العقاب به.

وفى هذا توجيه لقلوب السامعين إلى الإصغاء لما يلقى عليهم قبل ذكره، وتعجيب من حالهم بعد بيانه، كأنه قيل: كذبت عاد فانظروا كيف كان عذابى و إنذارى لهم به قبل نزوله.

ثم فصّل ما أجمله أولا فقال:

(إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر) أى إنا بعثنا إلى عاد إذ تمادَوْا فى طغيانهم وكفرهم بربهم ريحا شديدة العصوف فى برد ، لصوتها صرير ، فى زمن شؤم ونحس عليهم ، إذ ما زالت مستمرة حتى أهلكتهم .

ونحو الآية قوله : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ » وقوله : « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » أى متتابعة . وما روى من شؤم بعض الأيام فلا يصح شىء منه ، فالأيام كلها لله ، لاضرر فيها لذاتها ، ولا محذور منها ، ولا سعد فيها ولا نحس ، فما من يوم يمر إلا وهو سعد على قوم ونحس على آخرين ، باعتبار ما يحدثه الله فيه من الخير والشر لهم ، فكل منها يتصف بالأمرين :

ألا إنما الأيام أبناء واحد وهذى الليالى كلها أخوات

وتخصيص كل يوم بعمل كما يزعم بعض الناس وينسبون فى ذلك أبياتا إلى على كرم الله وجهه ، لايصح منه شىء ، وإنما هو نزغات شيعيّة لاتستند إلى ركن من الدين ركين .

(تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) أى تقتلعهم حتى يصيروا كأنهم أعجاز نخل قد انقلع من مغارسه فى الأرض .

وفى الآية إيماء إلى أن الريح كانت تقتلع رءوسهم فتبقى الأجسام ولا رءوس لها ، وإلى أنهم كانوا ذوى جثث عظام طوال كالنخل ، وإلى أنهم أعملوا أرجلهم فى الأرض وقصدوا بذلك مقاومة الريح ، وإلى أن الريح جعلتهم كأنهم خشب يابسة لشدة بردها .

ثم هوّل من أمر العذاب والإنذار بعد بيانهما فقال :

(فكيف كان عذابى ونذر) أى فانظروا كيف كان عذابى وإنذارى ، وقد كرره تعظيما لشأنه ، وهذه سنة فى بليغ الكلام ، فى باب النصح والإرشاد ، وباب

التهديد والوعيد ، وقد يكون الأول إشارة إلى عذاب الدنيا ، والثانى إلى عذاب الآخرة كما جاء فى قصصهم فى آية أخرى «لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ» .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) الكلام فيه كسابقه فلا نعيده .

---

(٣) قصص ثمود

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢) .

تفسير المفردات

بالنذر : أى بالرسل ، وتكذيب صالح تكذيب لهم جميعا لاتفاقهم على أصول الشرائع ، وسعر : أى جنون ، ومنه ناقة مسعورة : إذا كانت تفرط فى سيرها كأنها مجنونة ، والذكر : الوحى ، والمراد بالغد وقت نزول العذاب بهم ، والأشر : شديد البطر ، والبطر : دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها ، فتنة : أى

امتحانا واختبارا ، فارتقبهم : أى فانتظرهم، واصطبر : أى واصبر على أذاهم ، والشِّرْب: النصيب ، محتضر: أى يحضره صاحبه فى نوبته ، فتحضر الناقة مرة ويحضرون أخرى، صاحبهم : هو قدار بن سالف أحَيْمر ثمود ، فتعاطى : أى فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث به ، فعقر : أى فضرب قوائم الناقة بالسيف ، صيحة واحدة : هى صيحة صاحها جبريل عليه السلام ، والهشيم : ما تهشم وتفتت من الشجر ، والمحتظِر : الذى يعمل الحظيرة فتتساقط منه بعض أجزاء وتتفتت حال العمل .

المعنى الجملى

قص الله علينا قصص ثمود مع نبيها صالح ، إذ قالوا : أنحن العدد الجمُّ ، والكثرة الساحقة ، نتبع واحدا منا لا امتياز له عنا ؟ إنا إذا فعلنا ذلك لفى ضلال وبعد عن محجة الصواب ، وإنه لكاذب فيما يدّعيه من الوحى عن ربه ، وما هو إلا بشر وليس بملك، فقال لهم ربهم ، ستعلمون بعد حين قريب من الكذاب البطر ؟ وقد جعلنا ناقته فتنة واختبارا لهم ، فأمرناه أن يخبرهم بأن ماء البئر يقسم بينها وبينهم ، فلها يوم ولهم آخر ، فما ارتضَوْا هذا وقام فاسقهم قُدار وعقر الناقة فخرت صريعة ، فجازاهم الله فأرسل عليهم العذاب فصاروا كالهشيم الذى يتفتت حين بناء حظيرة الماشية .

الإيضاح

(كذبت ثمود بالنذر) أى كذبت ثمود بنذر الله ورسله الذين بعثهم لخلقه ، وهم وإن كذبوا صالحا فحسب ، فإن تكذيبه تكذيب لهم جميعا ، لاتفاقهم على الأصول العامة للتشريع ، وهى التوحيد ومجىء الرسل واليوم الآخر .

ثم فصل تكذيبهم وحكى عنهم مقالهم فقال :

(فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه ؟) أى أنتبع واحدا من الدهماء ، لامن عِلْيَةِ

القوم ولا من أشرافهم ، وليس له ميزة عن امرىء منا بعلم ظاهر ، ولا ثروة وغنى ، تجعله يدّعى أن يكون الزعيم لنا .

ثم ذكروا وجه إصرارهم على تكذيبه بقولهم :

(إنا إذا لفى ضلال وسعر) أى إنا لو اتبعناه نكون قد ضللنا الصراط السوىّ ، وجانبنا الصواب ، وصرنا لا محالة إلى الجنون الذى لا يرضى به عاقل لنفسه .

روى أن صالحا كان يقول لهم : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق وسعر ، فعكسوا عليه مقاله بعتوّهم واستكبارهم فقالوا : إنا إن اتبعناك كنا كما تقول :

ثم بالغوا فى العتو والإنكار وتعجبوا من أمره ونسبوه إلى الاختلاق والكذب فقالوا :

(أألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر) أى أأنزل عليه الوحى من بيننا وأوتى النبوة وهو واحد منا ؟ ولم اختصه الله بإنزال الشرائع عليه وهو ليس بملك مكرّم ؟ الحق إنه لكذاب متجبر ، يريد أن تكون له السيطرة والسلطان علينا ، ويودّ أن يكون الرئيس المطاع ، وماذاك إلا بما زينته له نفسه ، وأغواه به الشيطان ، ولا يستند إلى وحى سماوى ، ولا أمر إلهى .

ثم حكى سبحانه ماقالهُ لصالح وعدا له ووعيدا لقومه فقال :

(سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ؟) أى سيعلمون عن قريب حين يحل بهم الهلاك الدنيوى — من الكذاب البطر الذى حمله بطره على ما فعل ، أصالح فى دعواه الرسالة من ربه ، وأنه أمره بالتبليغ لهداية قومه إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، أم هم فى تكذيبهم إياه ودعواهم عليه الاختلاق والكذب ؟ .

وقصارى ذلك — سيتبين لهم أنهم هم الكذابون الأشرون .

وأورد الكلام على طريق الإبهام للإشارة إلى أنه مما لا يخفى ، جريا على أساليبهم كقوله تعالى آمرا رسوله أن يقول للمشركين : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » وقوله :

فلئن لقيتك خاليَيْن لتعلمنْ أيّى وأيك فارسُ الأحزاب

ثم ذكر مقدمات العذاب الموعود به فقال :

(إنا مرسلو الناقة فتنة لهم) أى إنا مخرجو الناقة من الهضْبة التى طلبوا من نبيهم بعثها منها ، لتكون آية لهم ، وحجة على صدقه فى ادعائه النبوة ، وتكون فتنة واختبارا لهم ، أيؤمنون بالله ويتبعونه فيما أمرهم به من توحيد ، أم يكذبونه ويكفرون به ؟ .

(فارتقبهم واصطبر) أى فانتظر ماذا يفعلون ؟ وأبصر ماذا يصنعون ؟ واصبر على أذاهم ولا تعجل حتى يأتى أمر الله ، فإن الله ناصرك ، ومهلك عدوك .

(ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) أى وأخبرهم أن ماء بئرهم مقسوم بينهم وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم ، وكل حصة منه يحضر صاحبها ليأخذها فى نوبته ، فتحضر الناقةُ تارة ، ويحضرون هم أخرى .

وقد جعلت القسمة على هذا الوجه لمنع الضرر ، لأن حيوان القوم كانت تنفر منها ، ولا ترد الماء وهى عليه ، فصعب ذلك عليهم .

(فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) أى فملّت ثمود هذه القسمة ، وأرادوا الخلاص منها ، فنادَوْا قُدار بن سالف وكان أشقاهم ليعقِرها وحضّوه على ذلك ، فلبّى طلبهم وتناولها بيده وأهوى بالسيف ضربا على قوائمها ، فخرت صريعة .

ثم ذكر عقابهم الفظيع فقال :

(فكيف كان عذابى ونذر ؟) قد سبق تفسير هذا .

ثم فصل هذا العذاب بقوله :

(إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) أى إنا أرسلنا جبريل فصاح بهم صيحة فصاروا كالحشيش البالى الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته ، وكأنهم هلكوا من أمد بعيد .

وقصارى ذلك — إنهم بادوا عن آخرهم ولم تبق منهم باقية ، وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟) مرّ بيان هذا .

(٤) قصص قوم لوط

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠) .

تفسير المفردات

حاصبا : أي ريحا ترميهم بالحصباء وهي الحصا ، قال في الصحاح : الحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصباء ، والحصَبَ (بفتحتين) ما تحصب به النار : أي تُرْمى ، وكل ما ألقيته في النار فقد حصبتها به ، والسحر : السدس الأخير من الليل ، وقال الراغب : السحر والسُّحْرة : اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار ، والبطش : الأخذ الشديد بالعذاب ، فتماروا بالنذر : أي فشكوا في الإنذارات ولم يصدقوها ، راودوه عن ضيفه : أي صرفوه عن رأيه فيهم فطلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ليفجُروا بهم ، فطمسنا أعينهم : أي فحجبناها عن الأبصار فلم تر شيئا ، بكرة : أي أول النهار ، مستقرّ : أي دائب بهم إلى أن يهلكوا .

المعنى الجملى

ذكر هنا تكذيب قوم لوط لنبيهم ومخالفتهم إياه ، واجتراحهم من السيئات مالم يسبقهم به أحد من العالمين ، بإتيانهم الذكران دون النساء ، ثم أردفه ذكر عذابهم بإرسال حجارة من سجيل عليهم إلا من آمن منهم ، فقد نجاهم بسحر ، وما أهلكهم إلا بعد أن أنذرهم عذابه على لسان رسوله فكذبوه .

الإيضاح

(كذبت قوم لوط بالنذر) أى كذبت قوم لوط بآيات الله التى أنذرهم بها .

ثم أعقبه بذكر جزائهم على هذا التكذيب ونجاة من آمن منهم فقال :

(إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر) أى إنا عاقبناهم بإرسال ريح تحمل الحصباء ، وما زالت بهم حتى دمرتهم ، إلا من آمن منهم ، فإنا أمرناهم بالخروج آخر الليل لينجوا من الهلاك .

ثم بين أن سبب إنجاء المؤمنين هو شكرانهم للنعمة فقال :

(نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر) أى أنعمنا عليهم بالنجاة كرامة لهم منا، وهكذا نجزى من شكرنا على نعمتنا وأطاعنا فائتمر بأمرنا ، وانتهى عما نهينا عنه .

ثم ذكر أنه ما أهلك من أهلك إلا بعد أن أنذرهم عذابه وخوفهم بأسه فقال :

(ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) أى ولقد أنذرهم نبيهم بأس الله وعذابه، قبل حلوله بهم ، فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغَوْا إليه ، بل شكّوا فيه وتمارَوْا به .

ثم بين جُرمهم الذى استحقوا به العذاب فقال :

(ولقد راودوه عن ضيفه) أى طلبوا منه ضيوفه وهم الملائكة الذين جاءوا فى صورة شباب مُرْد حسان ، محنة من الله لهم ، إذ قد بعثت إليهم امرأته العجوز السوء

فأعلمتهم بأضيافه ، فأقبلوا إليه يُهرَعون من كل مكان ، فأغلق لوط عليهم الباب ، فجعلوا يعالجونه ليكسروه ، وهو يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه ويقول لهم : هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فقالوا له : لقد علمت مالنا فى بناتك من أرب ، وإنك لتعلم ما نريد ، فلما اشتد بينهم الصراع وأبَوْا إلا الدخول — طمس الله أبصارهم فلم يروا شيئا ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(فطمسنا أعينهم) فجعل بعضهم يجول فى بعض ولا يرون شيئا ، ويقولون : أين ضيوفك ؟ وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة هود .

(فذوقوا عذابى ونذر) أى فقلنا لهم على ألسنة ملائكتنا : ذوقوا هذا العذاب عذاب طمس الأعين وما بعده بعد أن أنذرتكم على سوء أفعالكم ، وقبيح خلالكم .

ثم بين وقت مجىء العذاب فقال :

(ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) أى ولقد نزل بهم العذاب وقت البكور وما زال مُلِحًّا عليهم حتى أخمدهم ، وبلغ غايته فى دمارهم وهلاكهم .

ثم حكى ما قيل لهم بعد التصبيح من جهته تعالى تشديدا للعذاب فقال :

(فذوقوا عذابى ونذر) أى فذوقوا جزاء أفعالكم من عذاب عاجل ، وما لزم من إنذاركم من عذاب آجل .

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ؟) هذه الجملة القسمية وردت فى آخر كل قصة من القصص الأربع ، تقريرا لمضمون ما سبق من قوله : (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر) وتنبيها إلى أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادّكار ، كافية فى الازدجار ، ولم يحصل بها مع هذا عظة واعتبار .

وقد جاء هذا التكرير فيما سيأتى فى سورة الرحمن من قوله : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » وقوله فى سورة المرسلات : « فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

وهذا كثير فى كلام العرب إذا أرادوا العناية بما فيه من هامّ الأمور، كقول مهلهل فى رثاء أخيه كليب حين قتل :

قرّبا مربط النعامة منّى　　لقِحَت حرب وائل عن حِيالى

قرّبا مربط النعامة منّى　　شاب رأسى وأنكرتنى عيالى

وهى طويلة جارية على هذا السنن ، والنعامة فرسه ، ولقحت : أى حملت .

(٥) قصص آل فرعون

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) .

تفسير المفردات

النذر : واحدها نذير بمعنى إنذار ؛ وهى الآيات التسع التى أنذرهم بها موسى صلوات الله عليه ، عزيز : أى لا يغالَب ولا يُغلَب ، مقتدر : أى لا يعجزه شىء .

الإيضاح

(ولقد جاء آل فرعون النذر) أى تالله لقد توالت عليهم الإنذارات ، وجاءتهم الآية تلو الآية فكذبوا بها .

ثم أبان ما فعلوه على توالى النذر فقال :

(كذبوا بآياتنا كلها) أى كذبوا بأدلتنا وبرهاناتنا التى أرسلناها إلى موسى ، وقد تقدم ذكرها فى سورة الأعراف .

ثم ذكر جزاءهم على ذلك فقال :

(فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) أى فعاقبناهم بكفرهم بالله ـ عقوبة مقتدر على ما يشاء غير عاجز ولا ضعيف .

توبيخ قريش على كفرهم بربهم

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣)
أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)
بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦) .

تفسير المفردات

براءة : أى صك مكتوب بالنجاة من العذاب ، والزبر: الكتب السماوية واحدها زبور ، يولون : أى يرجعون ، والدبر : أى الأدبار هاربين منهزمين ، والساعة : هى القيامة ، موعدهم : أى موعد عذابهم ، أدهى : أى أعظم داهية وهى الأمر الفظيع الذى لايهتدى للخلاص منه ، يقال دهاه أمر كذا : أى أصابه ، وأمرّ : أى أشد مرارة فى الذوق ؛ والمراد الشدة والهول .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون ، وفصّل ما أصيبوا به من عذاب الله الذى لامرد له ، بسبب كفرهم بآياته وتكذيبهم لرسله ـ أعقب هذا بتنبيه كفار قريش إلى أنهم إن لم يثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيهم فستحل بهم سنتنا ، ويحيق بهم من البلاء مثل ما حل بأضرابهم من المكذبين من قبلهم ، ولا يجدون عنه محيصا ولا مهربا ، ثم خاطبهم خطاب إنكار

وتوبيخ فقال لهم : علام تتكلون ، وماذا تظنون ؟ أأنتم خير ممن سبقكم عددا وكثرة مال وبطشا وقوة ، أم لديكم صكٌّ من ربكم بأنه لن يعذبكم مهما أشركتم واجترحتم من السيئات ؟ أم أنكم تظنون أنكم جمع كثير لا يمكن أن ينال بسوء ، ولا تصل إلى أذاكم يدٌ مهما أوتيت من القوة ؟ كلا إن شيئا من هذا ليس بكائن ، وإنكم ستهزمون وتولون الأدبار فى الدنيا وسيحل بكم قضاء الله الذى لا مفر منه ، وما سترونه فى الآخرة أشد نكالا ، وأعظم وبالا ، فأفيقوا من غفلتكم ، وأنيبوا إلى ربكم ، عسى أن يرحمكم .

الايضاح

(أكفاركم خير من أولئكم) أى أكفاركم يامعشر قريش خير من أولئكم الذين أحللت بهم نقمى من قوم نوح وعاد وثمود ؟ فيأملوا أن ينجوا من عذابى ونقمتى ، على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى .

وتلخيص المعنى — ما كفاركم خير ممن سبقهم ، فهم ليسوا بأكثر منهم قوة ، ولا أوفر عددا ، ولا ألين شكيمة فى الكفر والعصيان والضلال والطغيان ، وقد أصاب من هم خير منهم ما أصابهم ، فكيف يطمعون فى المهرب من مثل ذلك ، فليثوبوا إلى رشدهم ، وليرجعوا عن غيّهم قبل أن يندموا ولات ساعة مندم .

ثم انتقل من توبيخهم الأول إلى توبيخ أشد منه فقال :

(أم لكم براءة فى الزبر) أى أم لكم صك بالبراءة من تبعات ما تجترحون من السيئات ، وأن ربكم لن يعاقبكم على ما تدسّون به أنفسكم من الشرور والآثام ؟ فأنتم على هذا الصك تعتمدون ، وبهذا الوعد آمنون ، حقا إنكم لتطمعون فى غير مطمع ، وليس بين أيديكم ولا قُلامة ظُفْر من هذا ـ فعلام تتكلون ؟ وإلام تستندون ؟

(أم يقولون نحن جميع منتصر) أى بل هم يقولون نحن واثقون بشوكتنا ، فنحن قوم أمرنا مجتمع ، لانرام ولا نضام ، وإنا منصورون على من قصدنا بسوء ، أو أراد حربنا وتفريق جمعنا .

وجماع القول — إنه تعالى سدّ عليهم المسالك ، ونقض جميع المعاذير التى ربما تعللوا بها فى عدم تصديقهم بالرسول ، وفى كفرهم بآيات ربهم، فقال لهم: لم لاتخافون أن يحل بكم مثل ما حل بمن قبلكم ؟ أأنتم أقل كفرا وعنادا منهم ، فيكون ذلك سبب الأمن من حلول مثل عذابهم بكم ؟ أم أعطاكم الله براءة من عذابه ؟ أم أنتم أعز منهم جندا فأنتم تنتصرون على جند الله ؟

ثم رد عليهم مقالهم وأبان لهم أنهم يعيشون فى بحر من الأوهام ، وأن قضاء الله سيحل بهم ، وسيهزمون ويولون الأدبار متى جاء قضاؤه فقال :

(سيهزم الجمع ويولون الدبر) أى سيتفرق شملهم ويُغْلَبُون حين يلتقى جيشهم وجيش المؤمنين ، وقد صدق الله وعده ، فانهزموا وولوا الأدبار يوم بدر ، وكان هذا دليلا من دلائل النبوة ، فإن الآية نزلت بمكة ولم يكن له صلى الله عليه وسلم يومئذ جيش ، بل كان أتباعه مشرّدين فى الآفاق ، يلاقون العذاب من المشركين فى كل صوب، حتى لقد قال عمر رضى الله عنه : لما نزلت لم أعلم ماهى ؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع ويقول : سيهزم الجمع فعلمتهُ — ثم استمر انهزامهم بعد .

روى البخارى عن ابن عباس : « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال وهو فى قُبَّة له يوم بدر : أنْشُدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تُعْبَد بعد اليوم فى الأرض أبدا ؛ فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله ، ألححتَ على ربك ، فخرج وهو يثب فى الدرع ويقول : « (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) » .

ثم بين أن هذا عذاب الدنيا وسيلاقون يوم القيامة ماهو أشد منه نكالا فقال :

(بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمرّ) أى إن ما سيلاقونه من العذاب فى الدنيا من الهزيمة والقتل والأسر — هيّن إذا قيس على ما سيلاقونه من العذاب فى الآخرة ، فإن ذا أشد وآلم ، فهو عذاب خالد دائم ، وسيأتى بعدُ وصف ما فيه من فظاعة ونُكر .

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥) .

تفسير المفردات

المراد بالمجرمين : المشركون كما جاء فى قوله : « يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ » . فى ضلال : أى فى الدنيا عن الحق ، وسعر : أى نيران واحدها سعير ، يسحبون : أى يجرّون ، سقر : اسم لجهنم ، ومسها : حرها ، بقدَر : أى مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ ، أمرنا : أى شأننا ، واحدة : أى كلمة واحدة وهى قوله (كن) كلمح البصر : أى فى اليسر والسرعة ، أشياعكم : أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة ، واحدهم شيعة ، وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع ، مدكر : أى متعظ ، فى الزبر : أى فى كتب الحفظة ،

مستطر : أي مسطور مكتوب فى اللوح بتفاصيله ، نهر : أى أنهار ، فى مقعد صدق : أي فى مكان مرضى ، عند مليك مقتدر : أى عند ملك عظيم القدرة واسع السلطان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تكذيب الأمم الماضية لرسلها كما كذبت قريش نبيها، وأعقبه بذكر ما أصابهم فى الدنيا من العذاب والهوان — أردف ذلك ذكر ما سينالهم من النكال والوبال فى الآخرة ، فبين أنهم سيساقون على وجوههم إلى جهنم سوقا ، إهانة وتحقيرا لهم، ويقال لهم حينئذ توبيخا وتعنيفا : ذوقوا عذاب النار وشديد حرها . ثم أعقبه ببيان أن كل شىء فهو بقضاء الله وقدره ، وإذا أراد الله أمرا فإنما يقول له كن فيكون ، ثم نبههم إلى ما كان يجب عليهم أن يتنبهوا له من هلاك أمثالهم من الأمم التى كذبت رسلها من قبل ، وفعلت فعلها فأخذها أخذ عزيز مقتدر؛ ثم ختم السورة بذكر ما يتمتع به المتقون فى جنات النعيم، من إجلال وتعظيم، ويرون ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

الايضاح

(إن المجرمين فى ضلال وسعر) أى إن المشركين بالله المكذبين لرسله — فى ضلال عن الصراط المستقيم ، وعماية عن الهدى فى الدنيا ، وعذاب أليم فى نار جهنم يوم القيامة .

ثم بين ما يلحقهم من الإهانة والإذلال حينئذ فقال :

(يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) أى يعذبون ويهانون يوم يُجرُّون على وجوههم فى النار، ويقال لهم إيلاما وتعنيفا : ذوقوا حر النار وآلامها جزاء وفاقا لتكذيبكم رسل ربكم فى كل ما جاءوا به من الإنذار بهذا اليوم، والتحذير مما يقع فيه للكافرين من العذاب ، والتبشير بما للمتقين فيه من ثواب .

ثم بين أن كل مايوجد فى هذه الحياة فهو لايحدث اتفاقا ، وإنما يحصل بقضاء الله وقدره فقال :

(إنا كل شىء خلقناه بقدر) أى إن كل كائن فى هذه الحياة ، فهو بتقدير الله وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة والنظام الشامل ، وبحسب السنن التي وضعها فى الخليقة .

ونحو الآية قوله : « وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً » وقوله : « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى » وفى الحديث الصحيح « استعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك أمر فقل : قَدَرُ الله وما شاء فعل ، ولاتقل لوأنى فعلت لكان كذا ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » وفى حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « ... واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، جفت الأقلام ، وطُويت الصحف » .

وبعد أن بين نفاذ قدره فى خلقه بين نفاذ مشيئته فيهم فقال :

(وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) أى إنا إذا أردنا أمرا قلنا له كن فإذا هو كائن ولا يحتاج إلى تأكيد الأمر بثانية ولا ثالثة ، ولله در القائل :

إذا أراد الله أمرا فإنما يقول له (كن) قولة فيكون

وهذا تمثيل لسرعة نفاذ المشيئة فى إيجاد الخلق ، فهى كلمح البصر أو هى أقرب .

وجماع القول - ما أمرنا للشىء إذا أردنا إيجاده إلا قولة واحدة (كن) فيكون لا مراجعة فيها ولا ردّ ، فهى فى السرعة كلمح البصر لا إبطاء ولا تأخير .

ثم أنبهم على ماهم فيه من غفلة وعماية عن الحق بعد وضوحه فقال :

(ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدّكر ؟) أى ولقد أهلكنا أشباهكم يامعشر قريش من المكذبين لأنبيائهم من الأمم الخالية ، واستأصلنا شأفتهم بحسب سنتنا فى أمثالهم ، بشتى العقوبات ، ومختلف الوسائل «وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ.

وَ بِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ؟ » أفما كان لكم فى ذلك مزدجر تعتبرون به ، فتنيبوا إلى ربكم وتُسْلِمُوا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون ؟ .

ونحو الآية قوله: «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ»

ثم بين لهم أن كل أعمالهم محصاة عليهم وسيحاسبون على النقير والقطمير فقال :

(وكل شىء فعلوه فى الزبر . وكل صغير وكبير مستطر) أى وكل شىء يفعلونه ، فيُدَسون به أنفسهم من الكفر والمعاصى ، ويُدنسونها به من الأرجاس والآثام فهو مقيَّد لدى الكرام الكاتبين كما قال : « ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » فما من صغيرة ولا كبيرة إلا وهى مسطورة فى دواوينهم ، وصحائف أعمالهم ، فليحذروا ماهم عليه قادمون من الحساب العسير على الجليل والحقير ، يوم لايغنى مولى عن مولى شيئا ولاهم ينصرون ، يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: « ياعائشة إياكِ ومحقَّراتِ الذنوبِ ، فإن لها من الله طالبا » .

وقيل :

لاتحقرنّ من الذنوب صغيرا إن الصغير غـدا يعود كبيرا
إن الصغير وإن تقادم عهده عند الإله مسـطّر تسطيرا
فاسأل هدايتـك الإله فتتئد فـكفى بربك هاديا ونصيرا

وبعد أن ألمع إلى ما يصيب الكافرين من الإهانة فى ذلك اليوم — أردفه ما يناله المتقون من الكرامة عند ربهم ، وما يحظون به من الشرف والزلفى ، بحسب سنة القرآن من ذكر الثواب إثر العقاب والعكس بالعكس فقال :

(إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) أى إن الذين اتقوا عقاب ربهم فأطاعوه ، وأدوا فرائضه واجتنبوا معاصيه ، وأخلصوا له العمل فى السر والعلن ، يثبهم بما عملوا جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور

من ذهب ، ويجلسون على فرش بطائنها من إستبرق ، ويجدون فيها من النعيم مالا يخطر على قلب بشر ، كفاء ما بذلوا من الصبر على شاقّ الطاعات ، وحرموا منه أنفسهم من اللذات ، كما قيل للربيع بن خُثَيْم وقد صلى حتى ورِمَتْ قدماه ، وتهجد حتى غارت عيناه : أتعبت نفسك ، فقال : راحتَها أطلُب .

كما ينالون الزلفى عند ربهم القادر على جزائهم بإحسانه وجوده ، وفضله ومنّته فكل شىء تحت قبضته وسلطانه ، لا يمانَع ولا يغالَب ، وهو العزيز الحكيم .

اللهم احشرنا فى زمرتهم واجعلنا ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنك أنت السميع المجيب ، ذو الطَّوْل العظيم .

خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

(١) الإخبار بقرب مجىء الساعة .

(٢) تكذيب المشركين للرسول وقولهم فى معجزاته : إنها سحر مفترى .

(٣) غفلتهم عما فى القرآن من الزواجر .

(٤) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم حتى يأتى قضاء الله فيهم .

(٥) إنذارهم بأنهم سيحشرون أذلاء ناكسى الرءوس مسرعين كأنهم جراد منتشر .

(٦) قصص المكذبين من سالفى الأمم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون ، وما لاقوه من الجزاء على تكذيبهم .

(٧) توبيخ المشركين على ماهم فيه من الغفلة عن الاعتبار بهذه النذر .

(٨) ما يلاقونه من الجزاء فى الآخرة إهانة وتحقيرا لهم .

(٩) بيان أن كل مافى الوجود فهو بقضاء الله وقدره .

(١٠) نفاذ مشيئة الله وسلطانه فى الكون .

(١١) بيان أنّ كل أعمال المرء فى كتاب قد خطه الكرام الكاتبون .

(١٢) ما أوتيه المتقون من الكرامة عند ربهم ومالهم من الزلفى لديه .

سورة الرحمن

هى مكية وآيها ثمان وسبعون ، نزلت بعد سورة الرعد .

ووجه صلتها بما قبلها :

(١) إن فيها تفصيل أحوال المجرمين والمتقين التى أشير إليها فى السورة السابقة إجمالا فى قوله: «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ» وقوله: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ »

(٢) إنه عدّد فى السورة السابقة ما نزل بالأمم التى قد خلت من ضروب النقم و بين عقب كل ضرب منها أن القرآن قد يُسِّر لتذكر الناس و إيقاظهم ، ثم نعى عليهم إعراضهم ـ وهنا عدد ما أفاض الله على عباده من ضروب النعم الدينية والدنيوية فى الأنفس والآفاق ، وأنكر عليهم إثر كل فن منها إخلالهم بموجب شكرها .

(٣) إن قوله : « الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » كأنه جواب سائل يقول : ماذا صنع المليك المقتدر ، وما أفاد برحمته أهل الأرض ؟ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا
وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ
وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) .

تفسير المفردات

الرحمن : اسم من أسماء الله الحسنى ، والإنسان هو هذا النوع ، البيان: تعبير الإنسان عما فى ضميره و إفهامه لغيره ، بحسبان : أى بحساب دقيق منظم ، والنجم : ما لا ساق له من النبات كالحنطة والفول ، والشجر : ما له ساق كالنخل والبرتقال ، يسجدان : أى ينقادان لله طبعا كما ينقاد المكلفون اختيارا ، رفعها : أى خلقها مرفوعة المحل والمرتبة ، والميزان : العدل والنظام ، وأقيموا الوزن بالقسط : أى قوّموا وزنكم بالعدل، ولا تخسروا الميزان : أى لا تنقصوه ، للأنام : أى للخلق ، والأكمام : واحدها كِمّ (بالكسر) وعاء الثمر ، والعصف : ورق النبات الذى على السنبلة ، والريحان : كل مشموم طيب الرائحة من النبات ، والآلاء : النعم واحدها إِلًى (بفتح الهمزة وكسرها) و إِلْىٌ وَ إِلْوٌ .

المعنى الجملى

بين سبحانه ما صنعه المليك المقتدر من النعم لعباده ، رحمة بهم فأفاد :

(١) أنه علم القرآن وأحكام الشرائع لهداية الخلق و إتمام سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

(٢) أنه خلق الإنسان على أحسن تقويم وكمله بالعقل والمعرفة .

(٣) أنه علمه النطق و إفهام غيره ، ولا يتم هذا إلا بنفس وعقل .

(٤) أنه سخر له الشمس والقمر والنجوم على نظام بديع ووضع أنيق لحاجته إليها فى دنياه ودينه .

(٥) أنه سخر له النجم والشجر ليقتات منهما .

(٦) أنه رفع السماء وأقامها بالحكمة والنظام .
(٧) أنه أوجد الأرض وما فيها من نخل وفاكهة وحب ذى عصف وريحان .

الإيضاح

(الرحمن علم القرآن) أى الله سبحانه علم محمدا صلى الله عليه وسلم القرآن ، ومحمد علمه أمته .

وهذه الآية نزلت جوابا لأهل مكة حين قالوا : « إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ » .

ولما كانت هذه السورة لتعديد نعمه التى أنعم بها على عباده ـ قدّم النعمة التى هى أجلّها قدرا وأكثرها نفعا، وأتمها فائدة ، وهى نعمة تعليم القرآن الكريم، فباتباعه تكون سعادة الدارين ، وبالسير على نهجه تنال الرغائب فيهما وهو سنام الكتب السماوية ، وقد نزل على خير البرية .

ثم امتنّ بعد هذه النعم بنعمة الخلق التى هى مناط كل الأمور ومرجع جميع الأشياء فقال :

(خلق الإنسان علمه البيان) أى خلق هذا الجنس وعلمه التعبير عما يختلج بخاطره ويدور بخلده ، ولولا ذلك ما علم محمد القرآن لأمته .

ولما كان الإنسان مدنيا بطبعه لايعيش إلا مجتمعا بسواه ـ كان لابد له من لغة يتفاهم بها مع سواه من أبناء جنسه ويكتب إليه فى الأقطار النائية ، والبلاد النازحة ، ويحفظ علوم السلف ، لينتفع بها الخلف ، ويزيد فيها اللاحق ، على ما فعل السابق .

وهذه منة روحية كبرى لاتعدلها منة أخرى فى هذه الحياة ، ومن ثم قدمها على النعم الأخرى الآتية .

وقد بدأ أوّلا بما يُتَعَلَّمُ وهو القرآن الذى به السعادة ، ثم ثنّى بالتعلم ، ثم ثلّث بطريق التعلم وكيفيته ، ثم انتقل إلى ذكر الأجرام العلوية التى ينتفع بها الناس فى معاشهم فقال :

(الشمس والقمر بحسبان) أى إن الشمس والقمر وهما من أعظم الأجرام يجريان فى بروجهما ومنازلهما بحساب مقدر معلوم ، وبهما تنتظم أمور المخلوقات الأرضية ، وتختلف الفصول ، وبهذا الحسبان انتفع بهما الناس فى شئون الزراعات كمواعيد البذر والحصاد ، وما ينفع منها فى كل فصل من الفصول ، وفى الأمور المالية من بيع وشراء لآجال محدودة من شهور وسنين ، وفى تقدير الأعمار والآجال التى تقدمت ، وجاءت فى أخبار الماضين ، والتى ستكون للحاضرين .

وبعد أن ذكر أن الشمس والقمر طوع قدرته وقد جعل لهما النظم الدقيقة فى الحسبان ـ أردفه انقياد العوالم الأرضية له فقال :

(والنجم والشجر يسجدان) أى والزرع والشجر ينقادان لله فيما أراد بهما طبعا كما ينقاد المكلف اختيارا ، فما اختلاف ثمرهما فى الشكل والهيئة واللون والمقدار والطعم والرائحة ، إلا انقياد للقدرة التى أرادت ذلك .

(والسماء رفعها ووضع الميزان) أى وجعل العالم العلوى رفيع القدر ، إذ هو مبتدأ أحكامه ، ومتنزّل أوامره ونواهيه لعباده ، وسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحى على أنبيائه، وجعل نظم العالم الأرضى تسير على نهج العدل ، فعدْلٌ فى الاعتقاد كالتوحيد ، إذ هو وسط بين إنكار الإله والشرك به ، وعدل فى العبادات والفضائل والآداب ، وعدل بين القوى الروحية والبدنية ، فأمر عباده بتزكية نفوسهم وأباح لهم كثيرا من الطيبات لحفظ البدن ، ونهى عن الغلوّ فى الدين والإسراف فى حب الدنيا ، وهكذا ترى أن عدله شامل لكل ما فى هذا العالم لا يغادر الصغير ولا الكبير منه .

(ألا تطغوا فى الميزان) أى فعل ذلك لئلا تعتدوا وتتجاوزوا ما ينبغى من العدل والنَّصَفة وجرى الأمور وفق ما وُضع لكم من سنن الميزان فى كل أمر ، فترقى شئونكم ، وتنتظم أعمالكم وأخلاقكم .

ثم أكد هذا بقوله :

(وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) أى وقوّموا وزنكم بالعدل ، ولا تنقصوه شيئا ؛ وفى هذا إشارة إلى مراعاته فى جميع أعمال الإنسان وأقواله .

والتكرير للتوصية به ، وتأكيد الأمر باستعماله والحث عليه ، وقد أمر سبحانه أوّلا بالتسوية ، ثم نهى عن الطغيان الذى هو مجاوزة الحد ، ثم نهى عن الخسران الذى هو النقص والبخس .

وقال قتادة فى الآية : اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يُعْدل لك ، وأوْفِ كما تحب أن يوفَّى لك ، فإن فى العدل صلاح الناس .

وبعد أن ذكر نعمه الدالة على قدرته برفع السماء ذكر مقابلها وهو الأرض فقال :

(والأرض وضعها للأنام) أى والأرض بسطها لسكنى الحيوان من كل ما له روح وفيه حياة ، لينتفع بما فى ظاهرها وما فى باطنها فى معايشه على ضروب مختلفة وأشكال لا حصر لها .

ثم فصل ما تقدم بقوله :

(فيها فاكهة) أى فيها ما يتفكه به من ألوان الثمار طازجة ومطبوخة ومجففة على شتى الأشكال وضروب الألوان .

(والنخل ذات الأكمام) أى والنخل ذات الأوعية لثمرها حين ظهوره .

وأفردها بالذكر لكثرتها بالبلاد العربية ، وكثرة فوائدها ، لأنه ينتفع بثمارها رطبة ويابسة ، وينتفع بجميع أجزائها ، فيتخذ من خوصها السلال والزنابيل، ومن ليفها الحبال ، ومن جريدها سقف البيوت ، ويؤكل جُمَّارها ، ومن ثم ذكرها باسمها ، وذكر الفاكهة دون أشجارها .

(والحب ذو العصف والريحان) أى وجميع الحبوب التى يقتات بها كالحنطة والشعير ، ولها عصف من الورق على سنابلها ، وكل مشموم من النبات تطيب رائحته .

وذكر أولا الفاكهة ، لأنها للتفكهة فحسب ، ثم النخل لأن ثمرها فاكهة وغذاء

ثم الحب الذى عليه المعول فى الغذاء فى جميع البلاد ، فهو أتم نعمة لموافقته لمزاج الإنسان، ومن ثم خلقه الله فى سائر البلاد ، وجعل النخل فى البلاد الحارة دون غيرها .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى النعم المتقدمة يامعشر الثقلين من الجن والإنس تكذبان ؟ والمراد من تكذيب آلائه كفرهم بربهم ، لأن إشراكهم آلهتهم به فى العبادة دليل على كفرانهم بها ، إذ من حق النعم أن تشكر ، والشكر إنما يكون بعبادة من أسداها إليهم .

والتعبير (بالرب) للاشارة إلى أنها نعم صادرة من المالك المربّى لهما الذى ينميهما أجساما وعقولا ، فهو الحقيق بالحمد والشكر على ما أولى وأنعم ، والعبادة له دون سواه.

وقد كررت هذه الآية فى واحد وثلاثين موضعا من السورة تقريرا للنعمة ، وتأكيدا للتذكير بها ، فتراه عدّد نعمه على الخلق وفصل بين كل نعمتين بما يذكرهم و يقررهم بها .

وهذا أسلوب كثير الاستعمال فى كلام العرب ، فترى الرجل يقول لمن أحسن إليه بنعمة وهو يكفر بها : ألم تكن فقيرا فأغنيتك، أفتنكر هذا ؟ ألم تكنْ عُرْيانا فكسوتك؟ أفتنكر هذا ، ألم تكن خاملا فرفعت قدرك ، أفتنكر هذا ؟ .

فكأنه سبحانه قال : ألم أخلق الإنسان . وأعلمه البيان . وأجعل الشمس والقمر بحسبان . وأنوّع الشجر . وأبدع الثمر . وأعممها فى البدو والحضر ، لمن آمن بى وكفر . وأسقيها حينا بالمطر ، وآونة بالجداول والنّهَر . أفتنكران ذلك أيها الإنس والجن ؟ .

وقد جاء مثل هذا فى أشعارهم : انظر قول مهلهل يرثى أخاه كليبا :

على أنْ ليس عِدْلا من كليب		إذا ما ضيم جيران المجير
على أنْ ليس عدلا من كليب		إذا خرجت مخبَّأةُ الخدور
على أن ليس عدلا من كليب		إذا خيف المخوف من الثغور
على أن ليس عدلا من كليب		إذا ما خار جأش المستجير

وهى قصيدة طويلة على هذا النسق ، ولها نظائر أيضا فى رثائه ، ولولا خشية التطويل لأوردنا شيئا منها . وعدلا أى مثلا ونظيرا .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ
مِنْ نَارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ
الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ
يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)
يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)
وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٢٥) .

تفسير المفردات

الصلصال : الطين اليابس الذى له صلصلة وصوت إذا نُقِر ، والفخار : الخزف وهو الطين المطبوخ ، والجان : نوع من الجن ، والمارج : اللهب الخالص الذى لا دخان فيه ، رب المشرقين : أى مشرقى الشمس صيفا وشتاء ، ورب المغربين : أى مغربيهما كذلك ، مرج البحرين : أى أرسلهما وأجراهما من قولك مرجتُ الدابة فى المرعى : أى أرسلتها فيه ، يلتقيان : أى يتجاوران وتتماس سطوحهما لا فصل بينهما فى رأى العين ، برزخ : أى حاجز ، لايبغيان : أى لا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة و إبطال خاصته ، واللؤلؤ : الدر المخلوق فى الأصداف، والمرجان: الخرز الأحمر، الجوارى : السفن الكبار، المنشئات : أى المصنوعات ، والأعلام : الجبال واحدها علم وهو الجبل العالى .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه كثيرا من النعم وكان بعضها يحتاج إلى زيادة إيضاح و بيان كخلق الإنسان ، وحساب الشمس والقمر ، وأسباب نمو الزرع والشجر ـ فصل أحوالها على الترتيب السابق .

الايضاح

(خلق الإنسان من صلصال كالفخار) أى خلق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين يابس له صلصلة إذا نُقِر ، وهو كالخزف المطبوخ فى صلابته .

إيضاح هذا أن الطين المطبوخ مركب من الطين والحرارة التى أنضجته وسوّته لتحفظ كيانه ؛ وهكذا الإنسان له شهوة الطعام والشراب والتزاوج ، لتبقى بنيته وتدوم حياته بالمادة الأرضية التى اجتذبها النبات من الأرض ، وله قوة غضبية تورثه الشجاعة والقوة ، ليحافظ على بقائه وحياته ، ويمنع عن نفسه عاديات الكواسر ، ومهاجمات الجيوش والأعداء المحيطة به من كل جانب ، وهذه القوة فى الإنسان تقابل طبخ الطعام ليصير فخارا ، فتتماسك أجزاؤه ، ولولاها لما استطاع المحافظة على هيكله المنصوب ، وجسمه المحبوب ، من الكواسر وأهل القسوة من بنى الإنسان ، ولأصبح قتيلا فى الفلوات تأكله الطير ، أو تهوى بأجزائه الريح فى مكان سحيق ، كما أن الطين إذا لم يطبخ يتفتت وتذروه الرياح أو يذوب فى أجزاء الأرض .

وقد جاء فى الكتاب الكريم عبارات مختلفة فى خلق الإنسان باعتبار مراتب الخلق ، فمرة قال إنه خلقه من تراب وأخرى قال إنه من طين لازب : أى لاصق باليد لما اختلط به من الماء ، وهنا قال من صلصال .

(وخلق الجانّ من مارج من نار) أى وخلق الجن من النار الصافية المختلط بعضها ببعض ، فمن لهب أصفر إلى أحمر إلى مشوب بالخضرة ، فكما أن الإنسان من عناصر مختلفات ، فالجانّ من أنواع من اللهب مختلطات .

ولقد أظهر الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة ، ولفظ (المارج) يشير إلى ذلك ، وإلى أن اللهب مضطرب دائما .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) مما أفاض عليكما فى تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم .

روى نافع عن ابن عمر قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة الرحمن أو قرئت عنده فقال : مالى أسمع الجن أحسن جوابا لربها منكم ؟ قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال ما أتيت على قول الله (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) إلا قالت الجن : لا بشىء من نعمة ربنا نكذب » .

ولما فرغ من إيضاح خلق الإنسان شرع يوضح خلق الشمس والقمر بحسبان قال:

(رب المشرقين ورب المغربين) أى رب مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما ، اللذين يترتب عليهما تقلب الفصول الأربعة ، وتقلب الهواء وتنوعه ، وما يلى ذلك من الأمطار والشجر والنبات والأنهار الجاريات .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى نعمة من هذه النعم تكذبان ؟ أفتنكران الأمطار وفوائدها ؟ أم تنكران ما لاختلاف الفصول من منافع ، فبها تختلف صنوف المزروعات من صيفية إلى شتوية ، أم تنكران ما لاختلاف الأجواء من مزايا فى تنظيم مزاج الإنسان والحيوان .

ولما ذكر نعمه التى تترى على عباده فى البر أعقبها بنعمه عليهم فى البحر فقال :

(مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان) أى أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين لا يبغى أحدهما على الآخر ، فلا الملح يطغى على العذب فيجعله ملحا ، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله ، فقد حجز بينهما ربهما بحاجز من

قدرته ، أو بحاجز من الأجرام الأرضية ، فترى نهر النيل بمصر يخرج من جبال الحبشة، ويجرى شمالا حتى يصب فى البحر الأبيض المتوسط ، ولا يبغى أحدهما على الآخر .

(فبأىّ آلاء ربكما تكذبان ؟) أى فبأى هذه المنافع تكذبان ؟ إذ لو بغى الملح على العذب لم نجد ماء للشرب ولا لسقى الحيوان والنبات ولم نجد ما نقتات به فنهلك جوعا ، ولو بغى العذب على الملح لم نجد ما يُصلِح الهواء ويمنع عاديات الجراثيم التى فيه .

(يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وقد ثبت فى الكشف الحديث أن اللؤلؤ كما يستخرج من البحر الملح يستخرج من البحر العذب ، وكذلك المرجان وإن كان الغالب أنه لا يستخرج إلا من الماء الملح .

(فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟

(وله الجوارى المنشئات فى البحر كالأعلام) أى وله السفن الكبار التى رُفِعَت شُرُعها فى الهواء كالجبال الشاهقة ، تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، فتنقل المتاجر من بلد إلى آخر ، والأقوات من إقليم هى كثيرة فيه إلى آخر هو محروم منها ، وبذا يتمّ تبادل السلع ، وسدّ حاجات الأمم فى أقواتها ومشاربها .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى هذه النعم تكذبان ـ أبخلق موادّ السفن أم بكيفية تركيبها ، أم بإجرائها فى البحر بأسباب لا يقدر عليها غيره سبحانه .

أىْ عبادى ، هل ظننتم أن مجرد الإيمان كافٍ لكم فى شكر هذه النعم ، فهل خلقتُ الشمس والقمر والنجم والشجر والزرع والحب ، والأنهار والبحار ، والدّر والمرجان لقوم لا يعقلون ، أو خلقتها لقوم يقبلون منى النعمة ، وكيف يقبلونها دون أن يعرفوها ؟

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) .

تفسير المفردات

فان : أى هالك ، وجه ربك : أى ذاته ، ذو الجلال والإكرام : أى ذو العظمة والكبرياء ، يسأله من فى السموات والأرض : أى يطلبون منه ما يحتاجون إليه فى ذواتهم حدوثا وبقاء وفى سائر أحوالهم بلسان المقال أو بلسان الحال ، هو فى شأن : أى فى أمر من الأمور ، فيحدث أشخاصا ويجدد أحوالا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر النعم التى أنعم بها على عباده فى البر والبحر ، فى السماء والأرض أردف ذلك بيان أن هذه النعم تفنى ولا تبقى ، فكل شىء يفنى إلا ذاته تعالى ، وكل من فى الوجود مفتقر إليه ، فهو المدبر أمره ، والمتصرف فيه ، فهو يحيى قوما ويميت آخرين ، ويرفع قوما ويخفض آخرين .

الإيضاح

(كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) أى إن جميع أهل الأرض يذهبون ويموتون ، وكذلك أهل السموات ، ولا يبقى سوى وجه ربك الكريم ، فإنه الحى الذى لا يموت أبدا .

قال قتادة : أنبأ بما خلق ، ثم أنبأ أن ذلك كله فان ، وقد ورد فى الدعاء المأثور يا حى يا قيوم ، يابديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت ،

برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك .

ثم وصف سبحانه نفسه بالاستغناء المطلق ، والفضل العام ، وأنه ذو الجود والكبرياء ، يعطى خلقه من النعم والإكرام ما يليق بحالهم ، ولا يحجب فضله عن مخلوق خَلَقَه :

انظر إلى هذه النجوم الثواقب فى ظلمات الليل ، تَرها مشرقة ساطعة تتلألأ نورا تنشرح له الصدور، وتقرّ به العيون ، فتتجلى لك عظمة الخالق وكبرياؤه ، تموت الأحياء وتلك النجوم باقية ، والأرض لم تتغير على ما نشاهد ، وهذا مظهر الجلال والعظمة ، جمال فى النجوم ، بهجة فى الإشراق ، مناظر باهرة ، أنوار ساطعة ، أجسام عظيمة ؛ أحوال تتقلب ، وأهوال تتعاقب ، والناس من بينها يخرون صعقين ، فهذا لعمرك هو الجلال والعظمة ، فسبحان الخلاق العظيم .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ فالفناء باب للبقاء وللحياة الأبدية ، والنعم السرمدية ، ولولا تحليل أجسامنا بالموت لتعطلت الحياة ، إذ المادة الأرضية إذا بقيت على حال واحدة كانت قواها محدودة ، لكن انبعاث الصور الكثيرة وتعاقبها جيلا بعد جيل يلبس المادة جميع الصور والأشكال ويجعل العالَم فى تجدد مستمر .

انظر إلى بنى الإنسان مثلا إذا توالدوا جيلا بعد جيل ولم يمت منهم أحد ، فلا تمضى إلا أجيال معدودة حتى يكون على القدم ألف قدم ، وتمتلئ الأرض بالآدميين ، فلا يكفيهم حيوان أرضى ولا نبات مأكول ولا يجدون وسيلة للعيش إلا أن يأكل بعضهم بعضا ، وتمتلىء الأرض رمما آدمية من السغَب والمخْمَصة .

والخلاصة — إن فى الفناء نعمتين : نعمة الرحمة بتعاقب الأجيال ، ونعمة الخروج من سجن المادة إلى فسيح العالم الروحى و إلى التمتع بنعيم آخر بعد الموت .

ولما كان ما ذكر يتضمن الافتقار المتجدد إليه تعالى أوضحه بقوله :

(يسأله من فى السموات والأرض) لأن المادة دائما تلبس جديدا وتخلع قديما ، فأجسامنا وأجسام الحيوان على هذا المنوال ، فهما فى حاجة إلى بقاء الأجسام وتغذيتها وإذا انحل جسم افتقر إلى شىء يعوّض ما ذهب ، فالتغيرات المستمرة افتقار ، وهذا الافتقار مستمر فى كل لحظة ، وذلك يدعو إلى السؤال من الواهب المعْطِى إما بالنطق وإما بتوجه النفس وطلبها العون والمدد والفيض من فضله .

وجماع القول — أن المادة مفتقرة إلى بقاء ما يناسبها ، فالنبات فى كل لحظة مفتقر إلى ما يبقيه من ماء وهواء وموادّ أخرى ، والحيوان يطلب ما يحتاج إليه ، والإنسان يسأل ماهو فى حاجة إليه : إما سؤال حال ، وإما سؤال مقال فى كل وقت وآن .

(كل يوم هو فى شأن) فمن شئونه أنه يحيى ويميت ويرزق ، ويعزّ ويذل ، ويُمرض ويَشْفِى ، ويعطى ويمنع ، ويغفر ويعاقب ، ويرحم ويغضب ، إلى نحوأولئك.

ومن شئونه إعطاء أهل السموات والأرض ما يطلبون منه على اختلاف حاجاتهم وتباين أغراضهم .

عن عبد الله بن منيب قال : « تلا علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقلنا يا رسول الله وما ذلك الشأن ؟ قال : أن يغفر ذنبا ، ويُفَرِّج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين » أخرجه الحسن بن سفيان والبزاروابن جرير والطبرانى وأبو نعيم وابن عساكر . وقال ابن عيينة : الدهر عند الله يومان : يوم الدنيا وشأنه فيه الأمر والنهى ، والإماتة والإحياء . ويوم القيامة وشأنه فيه الجزاء والحساب ، وسأل عبد الله بن طاهر الحسين بن الفضل عن الجمع بين هذه الآية ، وما صح من قوله صلى الله عليه وسلم « جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » فقال : شئون يبديها، لاشئون يبتديها .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ فكم من سؤال

أجبته ، وكم من جديد أحدثته ، وكم من ضعيف فى الحياة أرحته ، إما بصحة تسْعده ، أو بموت من سجن المادة يخرجه .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ، لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) .

تفسير المفردات

سنفرغ لكم : أى سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة ، والمراد التوفر على الجزاء والانتقام منهما .

قال الزجاج : الفراغ فى اللغة على ضربين : أحدهما الفراغ من الشغل ، والآخر القصد للشىء والإقبال عليه كما هنا اهـ .

والثقلان : الجن والإنس كما علمت ، أن تنفذوا : أى تخرجوا ، والأقطار : الجوانب واحدها قطر، والسلطان : القوة والقهر، والشواظ : اللهب الخالص ، والنحاس: الدخان الذى لا لهب فيه ، قال النابغة الذبيانى :

تضىء كضوء السراج السليـــط لم يجعل الله فيـه نحاسا

فلا تنتصران : أى فلا تمتنعان من الله ولا يكون لكما منه ناصر .

المعنى الجملى

بعد أن عدّد سبحانه نعماءه على عباده فى البر والبحر وفى الأرض والسماء ، ليشكروه على ما أنعم ، ويعبدوه وحده على ما أعطى وتمم ، وذكر أنهم مفتقرون إليه آناء الليل

وأطراف النهار ، ثم أرشد إلى أن هذه النعم لاتدوم ، بل هى إلى زوال ، فكل ماعلى وجه الأرض سيفنى ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات نبههم إلى أنه فى يوم القيامة سيلقى كل عامل جزاء ماعمل، وثواب ما اكتسب، ولامهرب حينئذ من العقاب، ولا سبيل إلى الامتناع منه ، وسيكون جزاء المشركين به العاصين لأوامره ، نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كفر به وكذب برسله ، فاستعدوا لهذا اليوم قبل أن تندموا ، ولات ساعة مندم .

الايضاح

(سنفرغ لكم أيها الثقلان) أى سنقصد لحسابكم ومجازاتكم على أعمالكم ، وهذا وعيد شديد وتهديد من الله لعباده ، كما يقول القائل لمن يهدده : إذاً أتفرغ لك : أى أقصد قصدك .

هذا، وإن شأن الآخرة ماهو إلا شأن من الشئون ، فلا يشغله شأن عن شأن وهو القائل : «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» والقائل : «وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ» .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فبأى نعم ربكما تكذبان يامعشر الثقلين ، ومن جملتها التنبيه إلى ما ستلقونه من الجزاء فى هذا اليوم ، تحذيراً مما سيؤدى إلى سوء الحساب ، وشديد العقاب .

ثم ذكر أنه لامهرب فى هذا اليوم من جزاء كل عامل على عمله فقال :

(يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا) أى إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من عقاب الله ، فارّين من عذابه فافعلوا، والمراد أنكم لاتستطيعون ذلك ، فهو محيط بكم لاتقدرون على الخلاص منه ، فأينما ذهبتم أحيط بكم .

ثم بين السبب فى عدم إمكان المهرب فقال :

(لاتنفذون إلا بسلطان) أى إن المهرب إنما يكون بالقوة والقهر ، وأنى لكم بهما ؟ وممن تستمدونهما وأنتم لاتجدون إذ ذاك حولا ولا طولا ؟

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) ومن جملتها النعمة الحاصلة بالتحذير والتهديد ، فإنها تزيد المحسن إحسانا ، وتكف المسىء عن إساءته ، مع أن من حذركم وأنذركم قادر على الإيقاع بكم دون مهلة ، والعفو عن المذنب مع كمال القدرة عليه من أجلّ النعم التى يسديها الله إلى عباده .

ثم بين السبب فى طلب المهرب فقال :

(يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) أى يصب عليكما ألوان من النيران ، فمن لهب خالص يضىء كضوء السراج ، إلى نار مختلطة بالدخان، فلاتستطيعان المهرب منها ، بل يسوقكم إلى الحشر سوقا .

(فبأىّ آلاء ربكما تكذبان ؟) أى فبأى هذه النعم تكذبان ، فإن التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصى بالإنعام على الأول والانتقام من الثانى ، من أجلّ نعم الإله القادر على جزاء عباده .

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) .

تفسير المفردات

انشقت : تصدعت ، وردة : أى كالوردة فى الحمرة ، والدهان : مايدهن به : أى كانت مذابة كالدهان ، والسيما : العلامة ، والنواصى : واحدها ناصية وهى مقدم الرأس ، والأقدام : واحدها قدم ، وهى قدم الرجل المعروفة ، والحميم : الماء الحارّ ، وآن : أى متناهٍ فى الحرارة لايستطاع شر به من شدة حرارته .

المعنى الجملى

بعد أن عدد عزت قدرته نعماءه على عباده ، وما يجب من شكرهم عليها ، ثم أرشدهم إلى أن هذه النعم لا بقاء لها ولا ثبات ، ثم ذكر أن الناس محاسبون على الصغير والكبير من أعمالهم ، وسيلقون الجزاء عليها ، ولا مهرب حينئذ منها ، ولا نصير لهم ينقذهم مما سيحل بهم من العذاب — ذكرهنا أنه إذا جاء ذلك اليوم اختل نظام العالم ، فتتصدع السموات ، ويحمر لونها ، وتصير مذابة غير متماسكة ، كالزيت ونحوه مما يدّهن به ، ويكون للمجرمين حينئذ علامات يمتازون بها عن سواهم ، فيتعرفهم الرائى لهم دون حاجة إلى سؤال نكالا وخزيا لهم ، ثم يجرّون إلى جهنم من نواصيهم وأرجلهم ، ويقال لهم توبيخا وتقريعا : هذه جهنم التى كنتم تكذبون بها ، ويُنْتقَل بهم من جهنم إلى ماء حار كالمهل يشوى الوجوه ؛ ومن عذاب إلى ماهو أشد منه .

الإيضاح

(فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) أى فإذا جاء يوم القيامة تصدعت السموات واختلت نُظُمها ، وتبعثرت أجرامها وكواكبها عن مداراتها ، واحمر لونها وأذيبت حتى صارت كأنها الزيت ونحوه مما يدّهن به .

ونحو الآية قوله : « إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ » .

وقوله : « إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ » وقوله : « وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ » .

والخلاصة — إنها تذوب كما يذوب دردئ الزيت والفضة حين السبك ، وتتلوّن كما تتلون الأصباغ التى يدّهن بها ، فتارة تكون حمراء وأخرى صفراء وثالثة زرقاء .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) فإن الإخبار بنحو ما ذكر مما يزجر عن الشر ، فهو لطف أىُّ لطف ، ونعمة أيّما نعمة .

(فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جانّ) لأنهم يعرفون بسيماهم حينما يخرجون من القبور ويحشرون إلى الموقف .

ونحو الآية قوله تعالى : « هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » ثم يسألون بعدئذ كما يدل على ذلك قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) أى فبأى هذه النعم تكذبان ، فإن تخويف المجرم نعمة عليه ، حتى يرتدع عن ذنبه ، ويثوب إلى رشده ، ويتوب إلى ربه .

ثم ذكر السبب فى عدم سؤال الإنس والجان عن ذنوبهم فقال :

(يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام) أى يعرف المجرمون حينئذ بعلامات يمتازون بها عن سواهم ، فلا حاجة حينئذ إلى السؤال والجواب ، لأن السيما ميزت كل مجرم بنوع جُرْمه .

ولقد اهتدى الإنسان بعقله إلى فوائد هذه العلامات فى الدنيا ، فأنشأت الحكومات إدارات خاصة لعلامات المشتبه فى سلوكهم ومعتادى الأجرام ، فتأخذ إبهاماتهم وتحفظها فى أضابير خِصِّيصَى بهم ، ولكل امرئٍ خطوط فى إبهامه لاتشابه خطوط غيره فيه ولا يحصل فيها التباس ، فمتى أحدث أحدهم حدثا وجاء بجُرْم روجع مِلَفّه الخاص ،

واستخرجت صورة إبهامه من ملفه ، وطبقت على الصورة الخارجية ولاقى فى المحاكم ما يستحقه من عقاب .

والخلاصة — إن لكل امرئ أحوالاً تخصه فى جسمه وعقله وأخلاقه ، يعرف الناس منها الآن قليلا ، و بقية علمها عند الله يُعْلِمها ملائكته يوم القيامة فيعرفون المجرمين بها .

ثم تسحبهم الملائكة تارة بأخذ النواصى ، وأخرى بأخذ الأقدام ، روى عن الضحاك « أن الملك يجمع بين ناصية أحدهم وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره ، ثم يكسر ظهره و يلقيه فى النار ، وقيل : تأخذ الملائكة عليهم السلام بعضهم سحبا بالناصية ، و بعضهم سحبا بالقدم ، ولا نجزم بشىء من ذلك إلا بالنص القاطع .

وهذا الوضع معهم سبيل من سبل الإهانة والإذلال والنكال .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) يقال هنا مثل ما سلف حذو القُذّة بالقذّة .

(هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها و بين حميم آنٍ) أى و يقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ : هذه جهنم التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا ، فهأنتم الآن قد شاهدتموها ورأيتموها رأى العين ، فذوقوا عذابها واشربوا من الحميم الذى يقطّع الأمعاء والأحشاء فأنتم بين الجحيم والحميم .

والخلاصة — إنهم إذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الآنى الذى صار كالمهل (دردىء الزيت : أى عكره) .

ونحو الآية قوله : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » .

(فبأى آلاء ربكما تكذبان) يقال هنا مثل ما قيل فيما سلف .

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧)
ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ
تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ
زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ
بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ
جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ
وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ
إِلاَّ الْإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) .

تفسير المفردات

الخوف فى الأصل : توقع المكروه عند ظهور أمارة مظنونة أو محققة ، وضده الأمن ؛ ويراد به هنا الكفّ عن المعاصى مع فعل الطاعات ، ومقام ربه : أى قيامه عليه واطلاعه على أعماله ، جنتان : أى جنة روحية لقلبه ، وجنة جسمانية على شاكلة ما عمل فى الدنيا ، وقيل إنهما منزلان ينتقل بينهما لتتوافر دواعى لذته ، وتظهر آثار كرامته ، ذواتا : مثنى ذات بمعنى صاحبة ، والأفنان : الأنواع واحدها فنّ : أى ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ، زوجان : أى صنفان رطب ويابس ولا يقصر يابسه عن رطبه فى الفضل والطيب ، والفرش : واحدها فراش ، والبطائن : واحدها بطانة ، والإستبرق : الديباج أى الحرير الثخين ، والجنى : الثمر ، دان : أى قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع ، قاصرات الطرف : أى نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن

لاينظرن إلى غيرهم ، لم يطمثهن : أى لم يمسسهن ، وأصل الطمث : خروج الدم ، ويراد به قربان النساء ، كأنهن الياقوت : أى فى الصفاء ، والمرجان : أى صغار اللؤلؤ فى البياض .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما يراه المشركون بربهم ، والعاصون لأوامره ونواهيه من الأهوال ، من إرسال الشواظ من النار عليهم ، ومن أخذهم بالنواصى والأقدام ، إهانة لهم واحتقارا ومن التنقل بهم بين النار والحميم الآنى الذى يشوى الوجوه — ذكر هنا ما أعده من النعيم الروحى والجسمانى لمن خشى ربه ، وراقبه فى السر والعلن ، فمن جنات متشابهة الثمار والفواكه تجرى من تحتها الأنهار ، جناها دانٍ لمن طلبه وأحب نيله ، يجلس فيها على فرش بطائنها من الديباج ، ومن نساء حسان لم يقرب منهن أحد لامن الإنس ولامن الجن ، وهن كالياقوت صفاء واللؤلؤ بياضا ، وذلك كفاء ما قدموا من صالح العمل ، وما أسلفوا فى الأيام الخالية ، وهل جزاء الاحسان إلا الإحسان ؟ .

الايضاح

(ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) أى ولمن خشى ربه وراقبه فى أعماله ، وأيقن بأنه مجازيه عليها يوم العرض والحساب ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، فإذا هوهمّ بمعصية ذكر الله وأنه عليم بسره ونجواه ، فتركها مخافة عقابه ، وشديد حسابه ، ففعل الخير وأحب الخير للناس — جنتان : جنة روحية تصل به إلى حظيرة القدس ، وجمال الملكوت ورضا الله عنه « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » وجنة جسمانية بمقدار ما عمل فى الدنيا من خير ، وقدم من صالح عمل ، فبأى نعم ربكما

أيها الثقلان تكذبان ، فإثابته المحسن منكم بما وصف ، وعقابه العاصى بما عاقب من النعم العظمى ، والمنن الكبرى .

(ذواتا أفنان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى ذواتا أنواع وألوان من الأشجار والثمار من قولهم « افتن فلان فى حديثه إذا أخذ فى فنون منه وضروب مختلفة ، والمتنوقون فى الدنيا يتنقلون من فاكهة إلى أخرى فيكون ذلك أدعى إلى زيادة اللذة ، وأكثر شهوة للطعام ، كما قال قائلهم :

ومن كل أفنان اللذاذة والصِّبا		لهوتُ به والعيشُ أخضر ناضرُ

(فيهما عينان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فيهما عينان تسرحان وتسقيان تلك الأشجار والأغصان ، إحداهما يقال لها التسنيم ، والأخرى السلسبيل قاله الحسن البصرى . وقال أبو بكر الوراق : تجريان لمن كانت عيناه فى الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل ، فتجريان فى كل مكان شاء صاحبهما وإن علا مكانه ، كما تصعد المياه فى الأشجار فى كل غصن منها وإن زاد علوها .

(فيهما من كل فاكهة زوجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فيهما من كل فاكهة صِنْفان : رطب ويابس ، لاينقص أحدهما عن الآخر لذة وطيبا ، بخلاف ثمار الدنيا فإن الطازج فيها ألذ طعما وأشهى مأكلا .

وبعد أن ذكر طعامهم ذكر فراشهم فقال :

(متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) أى مضطجعين على فرش بطائنها من الديباج الغليظ ، وإذا كانت هذه حال البطائن فما ظنكم بالظهائر ؟ ومن ثم روى عن ابن مسعود أنه قال : أخبرتم بالبطائن ، فكيف لو أخبرتم بالظهائر ؟ وقيل لسعيد بن جبير : البطائن من إستبرق فما الظواهر ؟ قال : هذا مما قال الله فيه « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » وبمثله قال ابن عباس .

وفى هذا دليل على شرف هذه الفرش، وتمتع أهلها بالثواب العظيم، والنعيم المقيم.

وإنما ذكر الاتكاء، لأنه هيئة تدل على صحة الجسم، وفراغ القلب، إذ العليل لا يستطيع أن يستلقى أو يستند إلى شىء، وهو مشغول القلب يتحرك تحرك المحضر للعقاب.

(وجنى الجنتين دان. فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى وثمرهما قريب منهم متى شاءوا، ونحو الآية قوله: «قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ» وقوله: «وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً» فهى لا تمتنع ممن أرادها، بل تنحط إليه من أغصانها.

ثم ذكر أوصاف النساء اللواتى يمتعون بهن فقال:

(فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان. فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فى تلك الجنات نساء غضيضات الطرف عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئا فيها أحسن منهم، وهن أبكار لم يمسسهن أحد قبل أزواجهن لا من الجن ولا من الإنس.

(كأنهن الياقوت والمرجان، فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى كأنهن الياقوت صفاء وصغار اللؤلؤ بياضا.

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة أنه قال فى الآية: فى صفاء الياقوت وبياض اللؤلؤ.

ثم بين السبب فى هذا الجزاء فقال:

(هل جزاء الإحسان إلا الإحسان، فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى ما جزاء الإحسان فى العمل إلا الإحسان فى المثوبة.

ونحو الآية قوله: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ».

وعن أنس بن مالك قال: «قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: هَلْ جَزَاء

الْإِحْسَانِ إِلاَّ الْإِحْسَانُ ، وقال : هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى ، وروى عن ابن عباس « هل جزاء من قال : لا إله إلا الله فى الدنيا إلا الجنة فى الآخرة ؟ » .

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلاَلِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) .

تفسير المفردات

ومن دونهما : أى من ورائهما وأقل منهما ، مدهامتان : أى خضراوان بسواد ؛ لأن الخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد من كثرة الرى بالماء ونحوه ، نضاختان : أى فوارتان بالماء ، والنضخ : فوران الماء ، حور . واحدتهن حوراء : أى بيضاء . قال ابن الأثير : الحوراء هى الشديدة بياض العين والشديدة سوادها ، خيرات : أى

خيّرات بالتشديد فخفف كما جاء فى الحديث « هينون لينون » ، مقصورات فى الخيام : أى مخدَّرات ، يقال امرأة قصيرة ومقصورة : أى مخدرة ملازمة بيتها لاتطوف فى الطرق . قال قيس بن الأسلت :

وتكسل عن جاراتها فيزرنها وتعتلُّ من إتيانهن فتُعذَر

والخيام : واحدها خيمة وهى أربعة أعواد تنصب وتسقف بشىء من نبات الأرض ، وما يتخذ من شعر أو وبر فهو خباء ، والرفرف واحده رفرفة : وهى الوسادة (المخدّة) أو ما تدلّى من الأسرّة من غالى الثياب ، والعبقرىّ : منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه بلد يسكنه الجن ويسندون إليه كل شىء عجيب ، والمراد العجيب النادر الموشى من البسط ، تبارك اسم ربك : أى تقدس وتنزه ربنا الذى أفاض على عباده نعمه .

المعنى الجملى

هذا تتميم لوصف الجنات بما يشوق الراغبين فيها ، ليعملوا ما يوصلهم إليها ، ويُرْضِى ربهم عنهم ، يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الإيضاح

(ومن دونهما جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . مدهامتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى ومن وراء هاتين الجنتين وأقل منهما فضلا جنتان تنبتان النبات والرياحين الخضراء التى تضربُ إلى السواد من شدة خضرتها ، لكثرة الرى ، وأما الجنتان السابقتان ففيهما أشجار وفواكه ، وفرق مابين الحالين ، فبأى هذه النعم تكذبان وهى نعم واضحة لاتجحد ولا تنكر ؟

قال الحسن : الأوليان للسابقين والأخريان للتابعين لهم .

وعن أبى أيوب الأنصارى قال : « سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله مدهامتان؟ قال : خضراوان » أخرجه الطبرانى وابن مردويه .

(فيهما عينان نضاختان. فبأى آلاء ربكما تكذبان) النضح كالرش فهو دون الجرى، ومن ثم قال البَرَاء بن عازب فيما أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبى حاتم : « العينان اللتان تجريان خير من النضاختين » .

أى فيهما عينان تفوران بالماء . وقال مجاهد : نضاختان بالخير والبركة .

(فيهما فاكهة ونخل ورمان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) خص النخل والرمان مع دخولهما فى الفاكهة ، تنبيها إلى مالهما من ميزة عن غيرهما من الفواكه ، لأنهما يوجدان فى الخريف والشتاء ، ولأنهما فاكهة وإدام ، وقد جاء مثل هذا فى قوله تعالى : « حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » وقوله : « وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » .

(فيهن خيرات حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى فى تلك الجنات نساء خيّرات الأخلاق ، حسان الوجوه .

روى الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت : « قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله أخبرنى عن قوله تعالى خيرات حسان ؟ قال : خيّرات الأخلاق حسان الوجوه » .

وقال الرازى : فى باطنهن الخير ، وفى ظاهرهن الحسن . وروى أن الحور يغنّين : نحن الخيّرات الحسان ، خلقن لأزواج كرام .

(حور مقصورات فى الخيام . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى وهؤلاء الخيّرات الحسان واسعات العيون مع صفاء البياض حول السواد ، محبوسات فى الحجال ، فلسنَ بطوّافات فى الطرقات ، والعرب يمدحون النساء الملازمات للبيوت للدلالة على شدة الصيانة .

(لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) تقدم الكلام فى نظيره قبلُ .

(متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان) أى وهم يتكئون على ثياب ناعمة وفرش رقيقة النسج من الديباج ، ووسائد عظيمة ، و بسط لها أطراف فاخرة ، غاية فى كال الصنعة وحسن المنظر .

(تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام) أى تعالى ربك ذو الجلال والعظمة والتكريم على ما أنعم به وتفضل من نعم غوال ، ومنن عظام .

وهذا تعليم منه لعباده بأن كل هذا من رحمته ، فهو قد خلق السماء والأرض والجنة والنار ، وعذّب العاصين ، وأثاب المطيعين ، وآتاهم من فضله ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

سورة الواقعة

هى مكية إلا قوله : « أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ . وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» فمدنية ، وآيها ست وتسعون ، نزلت بعد طه .

ووجه مناسبتها ما قبلها :

(١) أن فى كل منهما وصف القيامة والجنة والنار .

(٢) أنه ذكر فى السورة السابقة عذاب المجرمين ونعيم المتقين ، وفاضل بين جنتى بعض المؤمنين وجنتى بعض آخر منهم ، و بين هنا انقسام المكلفين إذ ذاك إلى أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة وسابقين .

(٣) أنه ذكر فى سورة الرحمن انشقاق السماء ، وذكر هنا رجّ الأرض ، فكأنّ السورتين لتلازمهما واتحادهما موضوعا سورة واحدة مع عكس فى الترتيب ، فقد ذكر فى أول هذه مافى آخر تلك ، وفى آخر هذه مافى أول تلك .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦) وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢).

تفسير المفردات

وقعت : حدثت ، والواقعة القيامة ، لوقعتها : أى لوقوعها ، كاذبة : أى كذب، ورجت: زلزلت وحركت تحريكا شديدا بحيث ينهدم مافوقها من بناء وجبال ، و بست: أى فتتت وصارت كالسويق الملتوت ، من قولهم بس فلان السويق : أى لتّه ، وهباء: أى غبارا ، منبثا : أى متفرقا ، أزواجا : أى أصنافا . قال الراغب : الزوج يكون لكل من القرينين الذكر والأنثى فى الحيوانات المتزاوجة ، ولكل قرينين منها ومن غيرها كالخف والنعل ، ولكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا اه والميمنة ناحية اليمين ، والمشأمة ناحية الشمال ؛ والعرب يتيمنون بالميامن و يتشاءمون بالشمائل ، والمراد أصحاب المرتبة السنية الرفيعة القدر، والسابقون: هم الذين سبقوا إلى الخيرات فى الدنيا، والمقربون: هم أرباب الحظوة والكرامة عند ربهم .

المعنى الجملى

حين تقع الواقعة و يجىء يوم القيامة لاتكذب نفس على الله فتنكره ، إذ تحقق بالمعاينة وشهده كل أحد ، أما فى الدنيا فما أكثر النفوس المكذبة به ، المنكرة له ،

لأنهم لم يذوقوا العذاب كما عاينه المعذبون فى الآخرة .

ثم وصف هذه الواقعة بأنها تخفض أقواما وترفع آخرين ، وأن الأرض حينئذ تزلزل فيندك ما عليها من جبال وأبنية ، وأن الجبال تتفتت وتصير كالغبار المنتشر فى الجو، وأن الناس إذ ذاك ينقسمون أفواجا ثلاثة : أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون .

الايضاح

(إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة) أى إذا قامت القيامة لايكون لوقعتها ارتداد ولا رجعة كالحملة الصادقة من ذى سطوة قاهر قاله الحسن وقتادة ؛ وقد يكون المعنى - ليس فى وقت وقوعها كذب ، لأنه حق لاشبهة فيه .

ثم هوّل شأنها وعظم أمرها فقال :

(خافضة رافعة) أى هى خافضة لأقوام ورافعة لآخرين قاله ابن عباس ، إذ الوقائع العظيمة شأنها الخفض والرفع كما يشاهد فى تبدل الدول من ذل الأعزة وعزّ الأذلة .

وفى هذا إيماء إلى ما يكون يومئذ من حط الأشقياء إلى الدركات ، ورفع السعداء إلى درجات الجنات ، ومن ثم قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : خفضت أعداء الله إلى النار ، ورفعت أولياءه إلى الجنة .

(إذا رجت الأرض رجا) أى إذا وقعت الواقعة تزلزل الأرض زلزالا وتضطرب اضطرابا شديدا طولا وعرضا ، فتندكّ الحصون والجبال ، وتهدم البيوت والصياصى ؛ قال الربيع بن أنس : ترجّ بما فيها كرجّ الغربال بما فيه .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا » وقوله : « يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » .

(وبست الجبال بسّا) أى وتفتت الجبال تفتتا ، وصارت كثيبا مهيلا بعد أن كانت شامخة .

(فكانت هباء منبثا) أى فصارت كالهباء المنبث الذى ذرّته الريح وفرقته . وقال قتادة : صارت كيبيس الشجر الذى تذروه الرياح .

والخلاصة — إن الجبال تزول عن أماكنها حينئذ، وتنسف نسفا ، وتكون كالعهن المنفوش .

(وكنتم أزواجا ثلاثة) أى وصرتم أصنافا ثلاثة ، وكل صِنْف يذكر أو يوجد مع صنف آخر يسمى زوجا كالعينين والرجلين ، فكل منهما يسمى زوجا ، وهما معا زوجان ، فهاهنا أزواج ثلاثة لا زوجان .

ثم فصل هذه الأزواج فقال :

(فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة) أى فأصحاب الميمنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، أىُّ شىء هم فى حالهم وصفتهم وسعادتهم ؟ والمراد أنهم فى حال هى الغاية فى الحسن والكمال .

ولا يخفى مافى هذا من تفخيم شأنهم ، وتعظيم أمرهم ، وأنهم بلغوا حدا لا يقدر قدره من السعادة .

(وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) أى وأصحاب المشأمة الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، أى شىء هم فى حالهم ؟ والمراد أنهم بلغوا الغاية فى سوء الحال .

وقال المبرد : أصحاب الميمنة أصحاب التقدم ، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر، والعرب تقول اجعلنى فى يمينك ، ولا تجعلنى فى شمالك ، أى اجعلنى من المتقدمين ولا تجعلنى من المتأخرين اهـ .

أخرج أحمد عن معاذ بن جبل « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ثم قبض بيديه قبضتين وقال هذه فى الجنة ولا أبالى وهذه فى النار ولا أبالى » .

(والسابقون السابقون) أى والسابقون الذين يتقدمون غيرهم إلى الطاعات — هم الذين اشتهرت أحوالهم ، وعرفت فخامة أمورهم ، وقد يكون المعنى والسابقون إلى طاعة الله تعالى هم السابقون إلى رحمته سبحانه ، فمن سبق فى هذه الدنيا إلى فعل الخير كان فى الآخرة من السابقين إلى دار الكرامة ، فالجزاء من جنس العمل وكما تدين تدان .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون من السابقون إلى ظل الله يوم القيامة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ،قال : الذين إذا أُعْطُوا الحق قبلوه ، و إذا سئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم » أخرجه أحمد .

(أولئك المقربون . فى جنات النعيم) أى أولئك المتصفون بذلك الوصف الجليل (السبق) هم الذين نالوا حظوة عند ربهم ، وهم فى جنات النعيم ، يتمتعون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا (٢٦) .

تفسير المفردات

الثلة : الجماعة قلّت أو كثرت ، وقيل الجماعة الكثيرة من الناس كما قال :

وجاءت إليهم ثُلّةٌ خِنْدِفِيّةٌ		بجيش كتيّار من السيل مُزْبِد

موضونة من الوضن وهو : النسج ، والولدان : واحدهم ولد ، مخلدون : أى مبقَوْن أبدا على هذه الصفة ، أكواب : أى آنية لاعرا لها ولا خراطيم ، أباريق : واحدها إبريق وهو إناء له خرطوم . قال عدىّ بن الرِّقاع :

ودعَوْا بالصَّبوح يوما فجاءت		به قَيْنَةٌ فى يمينها إبريق

كأس من معين : أى خمر جارية من العيون كما قال ابن عباس وقتادة ، والمراد أنها لم تعصر كخمر الدنيا ، لايصدّعون عنها ، أى لايلحقهم صداع بسببها كما يحدث ذلك فى خمر الدنيا ، ولا ينزفون : أى ولا تذهب عقولهم بالسكر منها ، يقال نُزِف الشارب إذا ذهب عقله ، ويقال للسكران نزيف ومنزوف ، يتخيرون : أى يختارون ويرضون ، حور : واحدتهن حوراء : أى بيضاء ، عين : واحدتهن عيناء : أى واسعة العينين ، المكنون : المصون الذى لم تمسسه الأيدى وهو أصفى وأبعد من التغير قال :

قامت تراءى بين سِجْفَىْ كِلّةٍ		كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

أو دُرّةٍ صَدَفِيّةٍ غوّاصُها		بهِجٌ متى يرها يُهِلّ ويسجد

لغوا : أى هُرَاء لاخير فيه ، ولا تأثيما : أى ما يقال حين سماعه وقعتم فى الإثم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الناس يوم القيامة أصناف ثلاثة : سابقون وأصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة — أعقب ذلك بذكر مايتمتع به السابقون من النعيم فى فرشهم وطعامهم وشرابهم ونسائهم وأحاديثهم التى تدل على صفاء النفس ، وأدب الخلق ، وسمو العقل .

الايضاح

(ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين) أى هم جماعة كثيرة من سالفى الأمم وقليل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويستأنس لهذا بقوله صلى الله عليه وسلم : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » .

(على سرر موضونة) أى على سرر منسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت ، قال الأعشى فى وصف الدرع :

ومن نسج دَاودَ مَوْضونَة تسير مع الحىِّ عيراً فعيرا

(متكئين عليها متقابلين) أى متكئين على السرر ينظر بعضهم إلى وجوه بعض، فهم فى صفاء وعيش رغد وحسن معاشرة ، لايوجد فى نفوسهم من الشحناء والبغضاء ما يوجب الافتراق .

ثم ذكر ماهم فيه من ترف ونعيم ، وأنهم مخدومون فى شرابهم وطعامهم ، مكفيون مئونة ما يريدون فقال :

(يطوف عليهم ولدان مخلدون) أى يطوف عليهم غلمان وخدم على صفة واحدة لا يكبرون ولا يتغيرون ، فهم دائما على الصفة التى تسر المخدوم إذا رأى الخادم .

(بأكواب وأباريق وكأس من معين . لايصدعون عنها ولا ينزفون) أى يطوفون عليهم بأداة الشراب كاملة من أكواب وأباريق وخمر تجرى من العيون ولا تعصر عصرا فهى صافية نقية لاتنقطع أبدا ، وهم يطلبون منها ما يريدون ، ولاصداع فى شرابها ، ولا ذهاب منها للعقل كما فى خمور الدنيا .

روى عن ابن عباس أن فى خمر الدنيا أربع خصال : السكر والصداع والقىء والبول، نزه الله خمر الجنة عنها» .

وبعد أن وصف الشراب وصف الطعام فقال :

(وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون) أى ويطوفون بألوان من الفاكهة

المختلفة المطاعم ، يختارون منها ماتميل إليه نفوسهم ، و بأنواع من لحوم الطير مما لذّ وطاب ، فيأخذون منها ما يشتهون ، وفيه يرغبون .

و بعد أن ذكر طعامهم وشرابهم أعقبه بذكر نسائهم فقال :

(وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) أي و يتمتعون بنساء بيض مشرقات الوجوه تبدو عليهم نضرة النعيم ، وكأنهن اللآلىء صفاء و بهجة .

ثم ذكر السبب فى متعتهم بكل هذا النعيم فقال :

(جزاء بما كانوا يعملون) أى جازاهم ربهم على ما عملوا ، وأثابهم بما كسبوا فى الدنيا ، وزكّوا به أنفسهم من صالح الأعمال ، ونصبوا له بأداء فروض دينهم على أتم الوجوه وأكملها ، فهم كانوا قوّامين لليل ، صوّامين للنهار « كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَ بِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ والْمَحْرُومِ »

و بعد أن وصف النساء وصف حديثهم حينئذ فقال :

(لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما) أى لا يسمعون اللغو الهُراء من الحديث ، ولا هُجْر القول وماتقزز منه النفوس الراقية ، ذات الأخلاق العالية ، ولكن يسمعون أطيب السلام ، وسامى الكلام ، مما يستساغ كما قال سبحانه : « تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ » .

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا

أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧)
لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠).

تفسير المفردات

السدر : شجر النبق ، مخضود : أى خُضِد شوكه أى قُطِع ، والطلح : شجر الموز ، منضود : أى نضد حمله من أسفله إلى أعلاه فليست له سوق بارزة ، ممدود : أى منبسط ممتد لا يتقلص ولا يتفاوت ، مسكوب : أى مصبوب يسكب لهم كما يشاءون بلا نصب ولا تعب ، فرش : واحدها فراش كسُرُج وسِرَاج ، مرفوعة : أى عالية منضدة ، عربا : واحدتهن عُروب كصبر وصبور ، أترابا : أى متساويات فى السن واحدتهن تِرْب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال السابقين و بين مالهم من نعيم مقيم ، فى جنات النعيم — أردف ذلك ذكر حال أصحاب اليمين ، فبين أنهم فى جنات يتخللها السدر المخضود ، والمَوْز المنضّد بعضه فوق بعض ، والفاكهة الكثيرة التى لا تنقطع أبدا ، ولا تمتنع عنهم متى شاءوا ، وفيها فرش وثيرة مرتفعة عالية ، ونساء حسان أبكار فى سن واحدة .

الايضاح

(وأصحاب اليمين ماأصحاب اليمين) أى وأصحاب اليمين هم الغاية فى فخامة شأنهم، ورفعة قدرهم ، وعلوّ منزلتهم ؟

وقد جاء هذا الأسلوب فى كلام العرب لإفادة المبالغة فى مدح أو ذم فيقولون فلان ما فلان ؟

ثم فصل ما أبهم من حالهم بقوله :

(فى سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة) أى هم يتمتعون بجنات فيها السدر الذى قطع شوكه لا كسدر البرية فى الدنيا ، وفيها الموز الذى ملىء ثمرا ، فلاتظهر له سيقان ، وفيها ظل ظليل يقيهم شديد الحر ووهج الشمس ، وفيها ماء مصبوب لايحتاج أهلها إلى تعب ونصب للحصول عليه ، وفيها ضروب من الفاكهة التى لاتنقطع أبدا ، ولا تمتنع عنهم فى وقت ، فهم يجدونها متى شاءوا وأحبوا .

ثم ذكر ما يتمتعون به من الفرش فقال :

(وفرش مرفوعة) أى وهم يجلسون على فرش وثيرة عاليـة وطيئة لاتتعب الجالس عليها .

وبعدئذ ذكر ما يتمتعون به من النساء فقال :

(إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا . لأصحاب اليمين) أى إنا أعددناهن نساء أبكارا متحببات إلى أزواجهن ، إذ هن يحسن التبعّل ، كلهن فى سن واحدة ، لاتمتاز واحدة عن أخرى ، وأعطيناهن لأصحاب اليمين .

وأعاد ذكر (لأصحاب اليمين) للتأكيد والتحقيق .

(ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين) أى أصحاب اليمين جماعة من مؤمنى الأمم السالفة ، وجماعة من مؤمنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وإنما لم يقل فى حق هؤلاء جزاء بما كانوا يعملون كما قال ذلك فى حق السابقين إشارة إلى أن عملهم لقصوره عن عمل السابقين لم يعتبر اعتباره .

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ

مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا
مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ
إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ
إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢)
فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ
شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦).

تفسير المفردات

السموم : حر نار ينفذ فى المسامّ ، والحميم : الماء الشديد الحرارة ، واليحموم : دخان أسود كما قال ابن عباس وابن زيد ، لا بارد ولا كريم : أى لا هو بارد كسائر الظلال ، ولا دافع أذى الحر لمن يأوى إليه ، مترفين : أى منعمين مقبلين على لذات أنفسهم لا يلوون على شىء مما جاء به الرسل ، يصرون : أى يقيمون ولا يقلعون ، والحنث العظيم : أى الذنب العظيم وهو الشرك بالله وجعل الأوثان والأنداد أربابا من دون الله ، والميقات : ما وقت به الشىء والمراد به يوم القيامة ، وسمى به لأنه وقتت به الدنيا ، وشجر الزقوم : شجر ينبت فى أصل الجحيم ، والهيم : واحدها أهيم وهو الجمل الذى يُصيبه الهيام (بالضم) وهو داء يشبه الاستسقاء يصيب الإبل فتشرب حتى تموت أو تسقم سقما شديدا ، والنزل : مايقدم للضيف إذا نزل تكرمة له، ويوم الدين: يوم الجزاء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر زوجين من الأزواج الثلاثة ، وبين ما يلقاه كل منهم من عز مقيم ، وشرف عظيم ، فى جنات ونعيم ، فى جملة شئونهم ، فى مآكلهم ومشاربهم وفرشهم

وأزواجهم ـ أردف ذلك ذكر الزوج الثالث ، وبين ما يلقاه من النكال والوبال وسوء الحال ، فهو يتظلى فى السموم ، ويشرب ماء كالمهل يشوى الوجوه ، ثم أعقبه بذكر السبب فى هذا ، بأنهم كانوا فى دنياهم مترفين غارقين فى ذنوبهم ، منكرين هذا اليوم يوم الجزاء ؛ ثم أمره أن يخبرهم بأن هذا اليوم واقع حتما وأن ما كلهم سيكون من شجر الزقوم يملئون منه بطونهم ، ثم يشربون ولا يرتوون كالإبل الهيم ، وهذا ما أعد لهم من كرم وحسن وفادة فى هذا اليوم .

الايضاح

(وأصحاب الشمال ، ما أصحاب الشمال) أى أصحاب الشمال فى حال لا يستطاع وصفها، ولا يقدر قدرها من نكال ووبال وسوء منقلب .

ثم فسر هذا المبهم بقوله :

(فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم) أى هم فى حرّ ينفذ فى المسامّ ، وماء متناه فى الحرارة ، وظل من دخان أسود ، ليس بطيِّب الهبوب ، ولا حسن المنظر ، لأنه دخان من سعير جهنم يؤلم من يستظل به .

قال ابن جرير : العرب تُتْبِع هذه اللفظة (الكريم) فى النفى فيقولون هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، وهذا اللحم ليس بسمين ولا كريم ، وهذه الدار ليست بواسعة ولا كريمة اهـ .

وذكَرَ السموم والحميم ولم يذكر النار ، إشارة بالأدنى إلى الأعلى ، فإن هواءهم إذا كان سموما ، وماءهم الذى يستغيثون به حميما ، مع أن الهواء والماء من أبرد الأشياء وأنفعها ، فما ظنك بنارهم ، فكأنه قال : إن أبرد الأشياء لديهم أحرها ، فما بالك بحالهم مع أحرّها ؟ .

ونحو الآية قوله تعالى : « انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ . لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ . إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ .

كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ » .

والخلاصة — إن السموم تضربهم فيعطشون ، وتلتهم تارة أحشاءهم ، فيشربون الماء فيُقَطِّع أمعاءهم ، ويريدون الاستظلال بظل ، فيكون ظل اليحموم .

ثم ذكر السبب فى تعذيبهم فقال :

(إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرّون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون ؟) أى إنهم كانوا فى الدنيا منعمين بألوان من المآكل والمشارب ، والمساكن الطيبة ، والمقامات الكريمة ، منهمكين فى الشهوات ، فلا جرم عذّبوا بنقائضها ، إلى أنهم كانوا ينكرون هذا اليوم ويقولون : أنُبْعث نحن وآباؤنا الأولون ونعود كرّة أخرى ، وقد صرنا أجسادا بالية ، وعظاما نخرة ؟ .

والخلاصة — إنهم كانوا يُمَتَّعون بوافر النِّعم وجزيل المنن ، وهم مع ذلك أصروا على كفرانهم ، ولم يشكروا أنعم الله عليهم ، فاستحقوا عقاب ربهم ، وكانوا مكذبين بهذا اليوم ، مستبعدين وقوعه ، وركبوا رءوسهم فلم يلووا على شىء ، وهاموا فى أودية الضلالة ، وساروا فى سبيل الغواية ، لا رقيبَ ولا حسيبَ .

وقد جرت سنة القرآن أن يذكر أسباب العقاب ، ولا يذكر أسباب الثواب ، لأن الثواب فضل ، والعقاب عدل ، والفضل إن ذكر سببه أولم يذكر لا يتوهم فى المتفضل به نقص ولا ظلم ، أما العدل فإن لم يعلم سببه فربما يظن أنه ضرب من الظلم .

وقد ذكروا لاستبعاد هذا البعث أسبابا :

(١) الحياة بعد الموت .

(٢) طول العهد بعد الموت حتى صارت اللحوم ترابا والعظام رفاتا .

(٣) بلغ الأمر منهم أن قالوا متعجبين : أو يبعث آباؤنا الأولون ؟

فرد الله عليهم كل هذا وأمر رسوله أن يجيبهم .

(قل إن الأولين والآخرين . لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) أى أجبهم أيها الرسول الكريم قائلا لهم: إن الأولين الذين تستبعدون بعثهم أشد الاستبعاد، والآخرين الذين تظنون أن لن يبعثوا - ليجمعون فى صعيد واحد فى ذلك اليوم المعلوم ، ولا شك أن اجتماع عدد لا يحصى كثرة أعجب من البعث نفسه .

ونحو الآية قوله فى سورة الصافات : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » .

ثم بين ما يلقاه أولئك المكذبون من الجزاء فى مآكلهم ومشاربهم فقال :

(ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم) أى أيها الذين ضللتم فأصررتم على الذنب العظيم ، إذ لم توحّدوا الله ولم تفعلوا ما يوجب تعظيمه ، ثم كذبتم رسله ، فأنكرتم البعث والجزاء فى هذا اليوم - إنكم لآكلون من شجر الزقوم ، فمالئون منها بطونكم ، فشاربون بعد ذلك من ماء حارّ لغلبة العطش عليكم ، ولكنه شرب لا يشفى الغليل ، ومن ثم تشربون ولا ترتوون ، فكأنكم الإبل التى أصيبت بداء الهيام ، فلا يروى لها الماء غليلا .

وخلاصة ذلك — إنه لزيادة العذاب لا ترتوون من شرب هذا الماء المنتن الحار فلا تمسكوا عنه ، بل يكون شربكم كشرب الإبل التى تشرب ولا تروى .

ثم بين أنه ليس هذا كل العذاب بل هو أوله وقطعة منه فقال :

(هذا نزلهم يوم الدين) أى هذا الزقوم المأكول ، والحميم المشروب ، أول الضيافة التى تقدم لهم كما يقدم للنازل مما حضر ، فما بالك بهم بعد ما يستقر بهم المقام فى النار؟ .

ولا يخفى ما فى هذا من التهكم بهم ، والتوبيخ لهم كما قال :

وكنّا إذا الجبّار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نُزْلا

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنْتُمْ
تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ
بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١)
وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣)
ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا
فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧)
أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ
الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ
النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢)
نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)

تفسير المفردات

تمنون : أى تقذفونه فى الأرحام من النطف ، تخلقونه أى تقدرونه وتصوّرونه بشرا سويا تام الخلق ، قدرنا: أى قسمنا ووقتنا موت كل أحد بوقت ، نبدل أمثالكم: أى نميتكم دفعة واحدة ونخلق أشباهكم ، فيما لاتعلمون : أى من الخلق والأطوار التى لاتعهدونها ، فلولا تذكرون : أى فهلا تتذكرون ذلك ، تحرثون : أى تبذرون حبه ، وتعملون فى أرضه ، تزرعونه : أى تنبتونه وتجعلونه نباتا يرفّ ، حطاما : أى هشيما متكسرا متفتتا لشدة يبسه بعد ما أنبتناه ، تفكهون : أى تتعجبون من سوء حاله ، مغرمون : أى معذبون مهلكون من الغرام وهو الهلاك قال :

إن يعذّب يكن غراما وإن يُعْـــط جزيلا فإنه لايبـــــالى

محرومون: أى غير مجدودين ، فليس لنا جَدّ وحظ، المزن: السحاب واحدته مزنة ، أجاجا : أى ملحا زعاقا لا يصلح لشرب ولا فى زرع ، لولا : بمعنى هلا ، وهى كلمة تفيد الحث على فعل ما بعدها ، تورون: أى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد، تذكرة: تذكيرا بالبعث ، ومتاعا : أى منفعة ، للمقوين : أى للمسافرين الذين يسكنون القَواء : أى القفر والمفاوز ، فسبح : أى تعجب من أمرهم ، وقل : سبحان الله العظيم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأزواج الثلاثة ، وبين مآل كل منها ، وفصل ما يلقاه السابقون وأصحاب الميمنة من نعيم مقيم ، وذكر ما يلقاه أصحاب المشأمة من عذاب لازب فى حميم وغساق ، وذكر أن ذلك إنما نالهم ، لأنهم أشركوا بربهم وعبدوا معه غيره وكذبوا رسله ، وأنكروا البعث والجزاء ـ أردف ذلك إقامة الأدلة على الألوهية من خلق ورِزْق لطعام وشراب ، وأقام الدليل على البعث والجزاء ، ثم أثبت الأصل الثالث وهو النبوة فيما بعد .

الايضاح

(نحن خلقناكم فلولا تصدقون) أى نحن بدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا ، أفليس الذى قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى ؟ فهلا تصدقون بالبعث .

وفى هذا تقرير للمعاد ، ورد على المكذبين به ، المستبعدين له من أهل الزيغ والإلحاد، الذين قالوا : « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ » .
ثم أعاد الدليل فقال :

(أفرأيتم ما تمنون ، ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟) أى أخبرونى عما قذفتم به في الأرحام من النطف : ءأنتم تقدرونه بشرا سويا تام الخلق أم الله الخالق لذلك ؟ .

ولا شك أنهم لايجدون إلا جوابا واحدا لا ثانى له .

والخلاصة — أخبرونى أيها المنكرون قدرة الله على إحيائكم بعد مماتكم — عن النطف التى تمنون فى أرحام نسائكم ، ءأنتم تخلقونها أم نحن الخالقون لها ؟ .

(نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون) أى نحن قسمنا الموت بينكم ، ووقتنا موت كل واحد بميقات معيّن لايعدوه بحسب ما اقتضته مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة ، وما نحن بعاجزين عن أن نذهبكم ونأتى بأشباهكم من الخلق ، وننشئكم فيما لاتعلمون من الأطوار والأحوال التى لاتعهدونها.

والخلاصة — نحن قدرنا بينكم الموت لأن نبدل منكم أمثالكم بعد مهلككم ، ونجىء بآخرين من جنسكم ، فنحن نميت طائفة ونبدلها بطائفة أخرى قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل .

ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال :

(ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) أى لقد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلاتتذكرون وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة وهى البداية قادر على النشأة الأخرى وهى الإعادة بطريق الأولى كما قال : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وقال: « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى؟ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى؟ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى؟ » .

وفى الحديث « عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور » .

ثم أردف ذلك دليلا آخر فى الرزق فى المطعوم فقال :

(أفرأيتم ما تحرثون . ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) أى أخبرونى عن الحرث الذى تحرثونه ، ءأنتم تنبتونه أم نحن الذين ننبته ؟ أى ءأنتم تصيرونه زرعا أم نحن الذين نصيّره كذلك ؟ .

وروى عن حُجْر المنذرى أنه كان إذا قرأ (ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) وأمثالها يقول : بل أنت يارب .

(لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون) أى نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا ، وأبقيناه لكم ، ولو شئنا لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده، فأصبح لاينتفع به فى مطعم ولا فى غذاء ، فصرتم تعجبون من سوء حاله إثر ما شاهدتم فيه من الخضرة والنضرة والبهجة والرُّواء ، وتقولون : حقا إنا لمعذبون مهلكون لهلاك أرزاقنا ، لا بل هذا أمر قدر علينا لنحس طالعنا ، وسوء حظنا .

والخلاصة — لو نشاء لجعلناه هشيما متكسرا لشدة يبسه ، فأقمتم تعجبون مما نزل بكم، و يعجّب بعضكم بعضا لذلك وتقولون إنا لمعذبون ، لا بل نحن محرومون غير مجدودين ، لنحس طالعنا ، وسوء حظنا .

ثم أعقبه بدليل آخر فى المشروب فقال :

(أفرأيتم الماء الذى تشربون . ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) أى أفرأيتم أيها الناس الماء العذب الذى تشربونه ، ءأنتم أنزلتموه من السحاب الذى فوقكم إلى قرار الأرض أم نحن منزلوه لكم ؟ .

(لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون) أى لونشاء لجعلناه ملحا زعاقا لاتنتفعون به فى شرب ولا غرس ولا زرع ، فهلا تشكرون ربكم على إنزاله المطر عذبا زلالا ؟ « لَكُمْ مِنهُ شَرَابٌ وَمِنهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى جعفر رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا شرب الماء قال : الحمد لله الذى سقانا عذبا فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا » .

(أفرأيتم النار التى تورون . ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) أى أفرأيتم النار التى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، ءأنتم أنشأتم شجرتها التى منها الزناد أم نحن المنشئون لها بقدرتنا ؟ .

وكانت العرب توقد النار بطريق احتكاك المَرْخ بالعَفَار (نوعان من الشجر) فيأتون بعود من العفار و بقطعة عريضة من المرخ يحفرون فى وسطها حفرة ثم يضعون عود العفار فى هذه الفجوة ، ويأتى فتى من فتيان القبيلة و يحرك عود العفار فيها بالتوالى، ويأتى بعده آخر و يصنع صنيع سابقه ، ولا يزالون يفعلون هكذا حتى تشتعل النار من كثرة الاحتكاك .

وهذه عملية شاقة عسرة ، ومن ثم كان البيت فى القبيلة إذا رأى النار موقدة استعار جذوة منها ، و إلى هذا أشار فى قوله سبحانه فى قصص موسى « إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ » .

ثم بين منافع هذه النار فقال :

(نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) أى نحن جعلنا النار تبصرة فى أمر البعث حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها، ويذكروا بها ماأوعدوا به ؛ لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر المضادّ لها فهو قادر على إعادة ما تفرقت مواده ، ومنفعة لمن ينزلون القَوَاء والمفاوز من المسافرين ، فكم من قوم سافروا ثم أرملوا فأجّجوا نارا فاستدفئوا وانتفعوا بها ، وقد كان من لطف الله أن أودعها الأحجار ، وخالص الحديد ، فيتمكن المسافر من حملها فى متاعه و بين ثيابه ، و إذا احتاج إليها فى منزله أخرج زنده وأورى ، وأوقد نارا فطبخ بها واصطلى ، واشتوى واستأنس بها ، وانتفع بها فى وجوه المنافع المختلفة .

وفى الحديث « المسلمون شركاء فى ثلاثة : النار والكلإ والماء » .

وقد يكون المعنى : وجعلناها تذكرة وأنموذجا من نار جهنم لما فى الصحيحين وغيرهما عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » .

(فسبح باسم ربك العظيم) الذى خلق هذه الأشياء بقدرته ، فخلق الماء العذب البارد ، ولو شاء لجعله ملحا كالبحار والمحيطات ، وخلق النار وجعل فيها منافع للناس فى معايشهم ، وجعلها تبصرة لهم فى معادهم .

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) .

تفسير المفردات

لا أقسم : هذا قسم تستعمله العرب فى كلامها ، ولا مزيدة للتأكيد مثلها فى قوله : « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ » ، ومواقع النجوم : مساقط كواكب السماء ومغاربها ، مكنون : أى مصون عن التغيير والتبديل ، المطهرون : أى المنزهون عن دنس الحظوظ النفسية ، مدهنون : أى متهاونون كمن يدهن فى الأمر: أى يلين جانبه ولا يتصلب فيه.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على الألوهية والبعث والجزاء — أعقب هذا بذكر الأدلة على النبوة وصدق القرآن الكريم ، وأقسم على هذا بما يرونه فى مشاهداتهم من

مساقط النجوم ، إنه لكتاب كريم لايمسه إلا المطهرون ، وأنه نزل من لدن حضرة القدس على يد جبريل عليه السلام ، فكيف تتهاونون فى اتباع أوامره ، والانتهاء عن نواهيه ، وتجعلون شكركم على هذا تكذيبكم بنعم الله وجزيل فضله عليكم؟ .

الإيضاح

(فلا أقسم بمواقع النجوم) أى أقسم بمساقط النجوم ومغاربها ، وإنما خص القسم بهذه الحال ، لما فى غروبها من زوال أثرها ، والدلالة على وجود مؤثر دائم ، ومن ثم استدل إبراهيم عليه السلام بالأفول على وجود الإله جلت قدرته .

وقد أقسم سبحانه بكثير من مخلوقاته العظيمة ، دلالة على عظم مبدعها ، فأقسم بالشمس والقمر ، والليل والنهار ، ويوم القيامة ، والتين والزيتون ، كما أقسم بالأمكنة فأقسم بطور سينين ومكة المكرمة .

ويرى أبو مسلم الأصفهانى وشِرْذِمةٌ من المفسرين : أنّ لا ليست مزيدة والكلام على ظاهره المتبادر منه ، والمعنى : لا أقسم بهذه : إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم ما ، فضلا عن هذا القسم العظيم .

(وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) أى وإن هذا القسم عظيم لو تعلمون ذلك .

وفى هذا تفخيم للمقسم به ، لما فيه من الدلالة على عظيم القدرة ، وكمال الحكمة ، وفرط الرحمة ، ومن مقتضيات رحمته ، ألا يترك عباده سدى .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال :

(إنه لقرآن كريم) أى إن هذا القرآن جم المنافع ، كثير الفوائد ، فقد اشتمل على مافيه صلاح البشر فى دنياهم وآخرتهم .

قال الأزهرى : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبينات ، والعلم والحكمة ، فالفقيه يستدل به ويأخذ منه ، والحكيم يستمد منه

ويحتج به ، والأديب يستفيد منه ويتقوى به ، فكل عالم يطلب أصل علمه منه اهـ .

(فى كتاب مكنون) أى فى لوح محفوظ مصون عن غير المقرّبين من الملائكة الكرام .

(لايمسه إلا المطهرون) أى لايمس هذا اللوح إلا المنزهون عن دنس الأرجاس والحظوظ النفسية ؛ وقد يكون المراد : لاينزل به إلا المطهرون وهم الملائكة الكرام ، أو لايمس هذا القرآن إلا المطهرون من الحدث الأصغر والحدث الأكبر ، والمراد بذلك النهى : أى لاينبغى أن يمس القرآن إلا من هو على طهارة .

أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر والحاكم عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان الفارسى فانطلق إلى حاجة فتوارى عنا ثم خرج إلينا ، فقلنا لو توضأت فسألناك عن أشياء من القرآن ، فقال : سلونى فإنى لست أمسه ، إنما يمسه المطهرون ، ثم تلا (لايمسه إلا المطهرون) .

وقد ذهب جمهور العلماء إلى منع المحدث عن مس المصحف ، وبذلك قال على وابن مسعود وسعد بن أبى وقاص وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعى .

وروى عن ابن عباس والشعبى فى جماعة منهم أبو حنيفة أنه يجوز للمحدث مسه ، يراجع شرح المنتقى للشوكانى .

وقال الحسين بن الفضل : المراد أنه لايعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق .

(تنزيل من رب العالمين) أى وهو منزل نجوما من لدن رب العالمين ، فليس بالسحر ولا الكهانة ولا الشعر ، وهو الحق الذى لامرية فيه ، وليس وراءه شىء نافع .

وبعد أن بين مزاياه وأنه من لدن عليم خبير ذكر أنه لاينبغى التهاون فى أوامره ونواهيه ، بل ينبغى التمسك به فقال :

(أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) أى أفبهذا القرآن تتهاونون ، وتمالئون من يتكلم منه ، ولا تظهرون له المخالفة وعدم الرضا ؟.

قال البقاعى : فهو على هذا إنكار على من سمع أحدا يتكلم فى القرآن بمالا يليق به ، ثم لايجاهره بالعداوة . وابن العربى الطائى صاحب كتاب الفصوص ، وابن الفارض صاحب التائية أول من صوّبت إليهما هذه الآية ، فإنهما تكلما فى القرآن على وجه يبطل الدين أصلا ورأسا ويحلّه عروة عروة ، فهما من أضر الناس على هذا الدين ، ومن يتأول لهما أو ينافح عنهما أو يعتذر لهما أو يحسن الظن بهما مخالفا إجماع الأمة — فهو أعجب حالا منهما ، فإن مراده إبقاء كلامهما الذى لا أفسد للاسلام منه من غير أن يكون لإبقائه مصلحة مّا بوجه من الوجوه اه بتصرف .

(وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) أى وتجعلون الشكر على هذا أنكم تكذبون بمن منح هذا الرزق ، فتنسبونه إلى الأنواء وتقولون مُطِرنا بنَوْء كذا ، دون أن تقولوا أفاض الله علينا الرزق من لدنه ، ومنحنا الفضل برحمته .

والخلاصة — إنكم تضعون الكذب مكان الشكر ، وهذا على نحو ما جاء فى قوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً » أى لم يكونوا يصلون ، لكنهم كانوا يصفرون ويصفقون مكان الصلاة .

قال القرطبى : وفى هذا بيان لأن ما يصيب العباد من خير فلا ينبغى أن يَرَوْه من قبل الوسائط التى جرت العادة بأن تكون أسبابا ، بل ينبغى أن يروه من قبل الله تعالى ، ثم يقابلونه بالشكر إن كان نعمة ، وبالصبر إن كان مكروها ، تعبدا له وتذللا اه .

فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ
أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ
مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ
الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ
أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلاَمٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ
مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤)
إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) .

تفسير المفردات

لولا : حرف يفيد الحث على حصول ما بعده على سبيل الاستحسان أو الوجوب، والحلقوم : مجرى الطعام ، ونحن أقرب إليه منكم : أى علما وقدرة ، مدينين : أى محاسبين مجزيين ، أو مملوكين مقهورين من قولهم دان السلطان الرعية إذا استذلهم واستعبدهم ، والروح : الاستراحة ، ريحان : أى رزق ، من المكذبين الضالين : هم أصحاب الشمال ، فنزل : أى فجزاؤه نزل ، وتصلية جحيم : أى إدخال فى النار ، حق اليقين : أى حق الخبر اليقين الذى لاشك فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه جحود الكافرين بآياته وتكذيبهم رسوله وكتابه ، وقولهم فيه : إنه سحر أو افتراء ، واعتقادهم أن رزقهم من الأنواء — أردف ذلك توبيخهم على ما يعتقدون ، فإنه إذا كان لابد للفعل من فاعل ، وقد جحدتم الله وكذبتم رسوله فالفاعل لهذا كله أنتم ، لأن الخالق إما الله وإما أنتم ، فإذا نفيتم الله فأنتم الخالقون ،

و إذاً فلماذا لا ترجعون الروح لميتكم وهو يعالج سكرات الموت، فإن كنتم صادقين فارجعوها، الحق أنكم لا تعقلون الدليل والبرهان ، بل لا تفهمون إلا المحسوسات ، فلمّا لم تروا الفاعل كذبتم به ، وهذا من شيمة الجهال ، إذ للعلم وسائل عديدة ، فليس عدم رؤية الشيء دليلا على عدم وجوده .

ثم بين حال المتوفى ، ومن أيّ الأزواج الثلاثة هو ، فإن كان من السابقين فله روح واطمئنان نفس ، علما منه بما سيلقاه من الجزاء ، ورزق طيب فى جنات النعيم فيرى فيها ما تلذ الأنفس ، وتقرّ به الأعين، و إن كان من أصحاب اليمين فتسلم عليه الملائكة، وتعطيه أمانا من ربه ، و إن كان من أصحاب الشمال فضيافته ماء حميم وعذاب فى النار أبدا .

ثم بين لرسوله صلى الله عليه وسلم أن الخبر الذى أُخبر به هو الحق اليقين ، وعليه أن يُنزّه ربه العظيم عن كل ما لا يليق به .

الايضاح

(فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) أى فهلا إذا بلغت النفوس عند خروجها من أجساد موتاكم حلاقيمهم وأنتم ومن حضركم من أهليكم تنظرون إليهم ، ورسلنا الذين يقبضون أرواحهم أقرب إليهم منكم ولكن لا تبصرون — وجواب لولا هو ما سيأتى بعد وهو (ترجعونها) .

وخلاصة المعنى — إذا لم يكن لكم خالق وأنتم الخالقون ، فهلا ترجعون النفوس إلى أجسادها حين خروجها من حلاقيمها ؟

ثم كرر الحث والتحضيض مرة أخرى فقال :

(فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين) أى فهلا تُرْجِعون النفس التى قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ، ومقرها من الجسد ، إن كنتم غير مصدقين أنكم تبعثون وتحاسبون وتجزون .

وبعد أن ذكر حال المحتضرين فى الدنيا أردفها ذكر حالهم بعد الوفاة وقسمهم أزواجا ثلاثة فقال :

(١) (فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم) أى فإن كان المتوفَّى من الذين قرّبهم ربهم من جواره فى جناته ، لفعله ما أمر به ، وتركه ما نهى عنه ، فراحة واطمئنان لنفسه ، ورزق واسع من عنده ، وتبشره الملائكة بجنات النعيم ، وقد جاء فى حديث البَرَاء بن عازب : « إن ملائكة الرحمة تقول : أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب ، كنت تَعْمُرِينه ، فاخرجى إلى رَوْح ورَيْحَان ، ورب غيرغضبان » .

(٢) (وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين) أى وإن كان المتوفَّى من أصحاب اليمين فتبشره الملائكة وتقول له : سلام لك من إخوانك أصحاب اليمين .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ » .

(٣) (وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم) أى وإن كان المتوفى من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى ، فيقدم ضيافة له ماء حميم يصهر به ما فى بطنه والجلود ، ويُدخل فى النار التى تغمره من جميع جهاته .

(إن هذا لهو حق اليقين) أى إن هذا الذى ذكر فى هذه السورة من أمر البعث الذى كذبوا به ، ومن قيام الأدلة عليه ، ومن حال المقربين وأصحاب اليمين ، وحال المكذبين الضالين — لهو حق الخبر اليقين الذى لاشك فيه ، لتظاهر الأدلة القاطعة عليه ، كأنه مشاهد رأى العين .

(فسبح باسم ربك العظيم) أى فبعد أن استبان لك الحق ، وظهر لك اليقين ، فنزه ربك عما لا يليق به ، مما ينسبه الكفار إليه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه عن عقبة بن عامر الجهنى قال : « لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » قال اجعلوها فى ركوعكم ولما نزلت « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلَى » قال اجعلوها فى سجودكم » .

والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

خلاصة موضوعات هذه السورة

(١) اضطراب الأرض وتفتت الجبال حين قيام الساعة .

(٢) إن الناس عند الحساب أزواج ثلاثة ، وذكر مآل كل زوج منها .

(٣) اجتماع الأولين والآخرين فى هذا اليوم .

(٤) إقامة الأدلة على وجود الخالق .

(٥) إقامة البرهانات على البعث والنشور والحساب .

(٦) إثبات أن هذه الأخبار حق لاشك فيها .

(٧) تبكيت المكذبين على إنكار الخالق .

سورة الحديد

هذه السورة مدنية ، وآيها تسع وعشرون ، نزلت بعد الزلزلة .

ووجه مناسبتها لما قبلها :

(١) إن هذه بدئت بالتسبيح ، وتلك ختمت به .

(٢) إن أول هذه واقع موقع العلة لآخر ما قبلها من الأمر بالتسبيح فكأنه قيل: سبح باسم ربك العظيم ، لأنه سبح له ما فى السموات والأرض .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) .

تفسير المفردات

جاء فى الكتاب الكريم سبّح ويسبّح وسبّح ، ويقال : سبّحته وسبّحت له كما يقال: نصحته ونصحت له ، وتسبيح العقلاء أن يقولوا ما يدل على تنزيهه من كل نقص،

و إبعاده عما لا يليق به من صفات المحْدثات، كإثبات شريك له أو ندّ ، وكون الملائكة بنات له ، وكون عيسى ابنا له ، وتسبيح غيرهم دلالة وجوده على عظم خالقه ، وانقياده له فى كل آن .

وما مثل هذا إلا مثل إشارتك لصاحبك على وضع خاص يفهم منها تأنَّ واصبِرْ ، و إشارتك له على هيئة أخرى يفهم منها أنك لاتفعل هذا .

فهذه الدلالة فى الحالين أفهمت صاحبك إفهاما كإفهام الكلام ، بل أقوى وأبلغ أثرا ، وكم للانسان فى حركاته من معان يفهمها الآخرون بطريق لا لبس فيها .

و إذا كان هذا حال الإنسان المحدود العلم والإدراك ، فما بالك بما أطلعنا الله عليه من بدائع القدرة والعلم والحكمة ، وقد فهمنا منها ما لا نفهم بالقول ، فلو أنك وقفت فى الخلوات ، وراقبت المزارع والجنات ، والأشجار مترنحات ، وأنواع الكلأ متحركات ، والأوراق تغنّى بموزون الأصوات ، وقد أرخى الليل سدوله ، وأرسل من الخافقَيْن جحافل جنوده ، تلمع من بينها الكواكب ، فتضىء من بينها السباسب لتجلت لك العبر ، وقرأت علوم المبتدإ والخبر ، ولعلمت أنها تحت قبضة ذى الملك والملكوت ، الحى الذى لا يموت ، الفرد الصمد ، المنزّه عن الصاحبة والولد ، سُبُّوح قُدُوس ، رب الملائكة والروح .

العزيز: أى الذى لاينازعه فى ملكه شىء، الحكيم : أى الذى يفعل أفعاله وَفْق الحكمة والصواب ، يحيي و يميت : أى يحيي النطف فيجعلها أشخاصا عقلاء فاهمين ناطقين ، و يميت الأحياء ، وهو على كل من الإحياء والإماتة قدير ، وهو الأول : أى السابق على سائر الموجودات ، والآخر : أى الباقى بعد فنائها ، والظاهر والباطن : أى وهو الذى ظهرت دلائل وجوده وتكاثرت ، وخفيت عنا ذاته فلم ترها العيون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله، و باطن بذاته ، ومشرق بجماله وكماله ، وهوظاهر بغلبته على مخلوقاته وتسخيرها لإرادته و باطن بعلمه بما خفى منها ، فلا تخفى عليه خافية ، والمراد بستة الأيام ستة الأطوار ، كما تقدم ذلك فى سورة الأعراف ، والاستواء على العرش تقدم تفسيره

فى سورتى يونس وهود ، يلج فى الأرض : أى يدْخُل فيها من كنوز ومعادن وبذور ، وما يخرج منها : كالزرع والمعادن لمنفعة الناس ، وما ينزل من السماء : كالمطر والملائكة ونحوهما ، وما يعرج فيها : كالأبخرة المتصاعدة والأعمال والدعوات ، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل تقدم تفسير هذا فيما تقدم ، ذات الصدور : أى مكنونات النفوس وخفيات السرائر .

الإيضاح

(سبح لله مافى السموات والأرض) أى إن ما دونه من خلقه ينزّه عن كلّ نقص ، تعظيما له وإقرارا بربوبيته ، وإذعانا لطاعته كما قال : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ والْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلَـكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُـورًا » .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو القادر الغالب الذى لا ينازعه شىء ، الحكيم فى تدبير أمور خلقه ، وتصريفها فيما شاء وأحب .

(له ملك السموات والأرض) أى له التصرف والسلطان فيهما ، وهو نافذ الأمر ، ماضى الحكم ، فلا شىء فيهن يمتنع منه .

(يحيى ويميت) أى يحيى ما يشاء من الخلق كيف شاء ، فيحدث من النطفة الميتة حيوانا ينفخ فيه الروح ، ويميت ما يشاء من الأحياء حين بلوغ أجله .

(وهو على كل شىء قدير) أى وهو ذو قدرة لا يتعذر عليه شىء أراده من إحياء وإماتة ، وإعزاز وإذلال إلى نحو أولئك .

(هو الأول والآخر) أى هو الأول قبل كل شىء بغير حدّ كما جاء فى الحديث القدسى : « كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن أُعرَف فخلقت الخلق فبى عرفونى »

وهو الآخر بعد كل شيء بغير نهاية كما قال : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ » .

(والظاهر والباطن) أي وهو العالي فوق كل شيء ، فلا شيء أعلى منه ، وهو الباطن بذاته ، فلا تحوم حوله الظنون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله ، وباطن بعلمه بما بطن وخفى ، فلا شيء إليه أقرب من شيء كما قال: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ».

(وهو بكل شيء عليم) أي وهو ذو علم تام بكل شيء ، فلا يخفى عليه شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

(هو الذي خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) أي هو الذي أنشأ السموات السبع والأرضين ، فدبرهن وما فيهن فى ستة أطوار مختلفات ، ثم استوى على عرشه فارتفع عليه .

(يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها) أي يعلم ما يدخل فى الأرض من خلقه ، فلا تخفى عليه خافية منه ، وما يخرج منها من نبات وزرع وثمار ومعادن كما قال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ، وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

(وما ينزل من السماء) من شيء كالمطر والملائكة .

(وما يعرج فيها) أي وما يصعد إليها من الأرض كالأبخرة المتصاعدة ، والأعمال الصالحة كما قال : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » .

(وهو معكم أينما كنتم) أي وهو مطلع على أعمالكم أينما كنتم ، ويعلم متقلبكم ومثواكم .

(والله بما تعملون بصير) أي وهو رقيب عليكم ، سميع لكلامكم ، يعلم سركم ونجواكم كما قال : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ

مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل لما سأله عن الإحسان « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وقال عمر : «جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : زوّدنى حكمة أعيش بها، فقال : استحِ الله كما تستحى رجلا من صالحى عشيرتك لايفارقك » .

وكان الإمام أحمد كثيرا ما ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوما فلاتقل   خلوتُ ولكن قل علىّ رقيب
ولا تحسبنّ الله يغفلُ ساعة   ولا أنّ ما تُخْفِى عليه يغيب

(له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور) أى هو المالك لما فيهما ، والمدبر لأمورهما ، والنافذ حكمه فيهما ، وإليه مصير جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه كما قال « وإنّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى » وقال : « وهُوَ اللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْأولَى والآخِرَةِ ولَهُ الْحُكْمُ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

(يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يقلب الليل والنهار ويقدّرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطوّل الليل ويقصر النهار والعكس بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين ، وحيناً يجعل الفصل شتاء أو ربيعا أو قيظا أو خريفا ، وكل ذلك بتدبيره وفائدة خلقه .

(وهو عليم بذات الصدور) أى وهو عليم بالسرائر وإن دقت وخفيت، فهو يعلم نوايا خلقه كما يعلم ظواهر أعمالهم من خير أو شر .

وفى ذلك حث لنا على النظر والتأمل ثم الشكر على ما أولى وأنعم .

آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ

وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ
أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ
بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا
الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) .

تفسير المفردات

مستخلَفين فيه : أى جعلكم سبحانه خلفاء عنه فى التصرف من غير أن تملكوه . أخذ الميثاق : نصب الأدلة فى الأنفس والآفاق والتمكين من النظر فيها ، والآيات البينات : هى القرآن ، والفتح : هو فتح مكة ، والحسنى : أى المثوبة الحسنى ، وهى النصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة ، يقرض الله : أى ينفق ماله فى سبيله رجاء ثوابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنواعا من الأدلة تثبت وحدانيته وعلمه وقدرته ، فبين أن كل ما فى السموات والأرض فهو فى قبضته يصرّفه كما يشاء على ما تقتضيه حكمته ، ثم ذكر أنواعا من الظواهر فى الأنفس ترشد إلى هذا وأومأ إلى النظر والتأمل فيها ، أعقب هذا بذكر التكاليف الدينية ، فأمر بدوام الإيمان الكامل الذى له آثاره العملية من إخبات النفس لله ، وإخلاص العمل له ، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ،

ثم طلب إنفاق المال فى سبيله ، وأبان أن المال عارية مستردّة فهو ملك له وأنتم خلفاؤه فى تثميره فى الوجوه التى فيها خير لكم ولأمتكم ولدينكم ، ولكم على ذلك الأجر الجزيل الذى يضاعفه إلى سبعمائة ضعف ، ثم حث على ذلك بأن جعل هذا صفوة دعوة الرسول وقد أخذ عليكم العهد به ، وآيات كتابه هادية لكم تخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، والله رءوف بكم إذ أنقذكم من هاوية الشرك وهداكم إلى طاعته ، ثم ذكر فضل السابقين الأولين الذين أسلموا قبل فتح مكة ، و بذلوا أنفسهم وأموالهم فى إعلاء كلمة الله حين عز النصير وقلّ المعين ، فهؤلاء لا يستوون مع من فعل ذلك بعد الفتح و بعد أن دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وهؤلاء وأولئك لهم المثوبة الحسنى والأجر الكريم عند ربهم ؛ ثم حث على الإنفاق مرة أخرى وسماه قرضا له ، وأنه سيردّ هذا القرض و يجازى به أجمل الأجر يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه .

الايضاح

(آمنوا بالله ورسوله) أى أقروا بوحدانية الله وصدقوا رسوله فيما جاءكم به عن ربكم ـ تنالوا الفوز برضوانه ، وتدخلوا فراديس جناته ، وتسعدوا بمالم يدُرْ لكم بخَلَد ، ولم يخطر لكم ببال .

(وأنفقوا مما جعلكم مستخلَفين فيه) أى وأنفقوا مما هو معكم من المال على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيدى من قبلكم ثم صار إليكم ، واستعملوه فى طاعته و إلا حاسبكم على ذلك حسابا عسيرا ، ولله درّ لبيد إذ يقول :

وما المالُ والأهلونَ إلا وَدائعٌ		ولا بد يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ

وفى هذا ترغيب أيّما ترغيب فى الإنفاق ، لأن من علم أن المال لم يبق لمن قبله وانتقل إليه ـ علم أنه لا يدوم له بل ينتقل إلى غيره ، وبذا يسهل عليه إنفاقه .

قال شُعْبة : سمعت عن قتادة يحدّث عن مطرِّف بن عبد الله عن أبيه قال :

« انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ » يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أولبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » رواه مسلم .

ثم حث على ما تقدم من الإيمان والإنفاق فى سبيل الله فقال :

(فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) أى فالذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله منكم ، وأنفقوا مما خوّلهم الله عمن قبلهم — فى سبيل الله ، لهم الثواب العظيم عند ربهم ، وهناك يرون من الكرامة والمثوبة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ثم وبخهم على ترك الإيمان الذى أمروا به ، وأبان أنه ليس لهم فى ذلك من عذر فقال :

(وما لكم لاتؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ؟) أى وأىّ شىء يمنعكم من الإيمان ، والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به ؟ .

روى البخارى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوما لأصحابه : أىّ المؤمنين أعجب إليكم إيمانا ؟ قالوا الملائكة ، قال : ومالهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ، قالوا فالأنبياء ، قال : وما لهم لايؤمنون والوحى ينزل عليهم ، قالوا فنحن : قال : وما لكم لاتؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها » .

(وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) أى وقد أخذ الله عليكم الميثاق بما نصب لكم من الأدلة على وحدانيته فى الكون ، أرضه وسمائه ، برّه وبحره ، وفى الأنفس بما تشاهدون فيها من بديع صنعها ، وعظيم خلقها ، إن كنتم تؤمنون بالدليل العقلى والنقلى وصفوة القول : إن الأدلة تظاهرت على وجوب الإيمان بالله ورسوله ، فقد نصب

فى الكون ما يرشد إلى وجوده ، وأرسل الرسل يدعون إلى ذلك ، وأقاموا البراهين على صدق ما يقولون ، فما عذركم ، وإلام تستندون فى رد هذا ؟ .

الآن قد تبين الرشد من الغى ، وأفصح الصبح لذى عينين ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فهل من مدّكر ؟

ثم قطع عليهم الحجة وأزال معذرتهم فقال :

(هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرءوف رحيم) أى هو الذى ينزل على رسوله دلائل واضحات ، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن الضلالة إلى الهدى ، ولرأفته بكم مكّن لكم من النظر فى الأنفس والآفاق ، لتهتدوا إلى معرفته على أتم وجه ، وأهون سبيل .

وبعد أن وبخهم على ترك الإيمان ، وبخهم على ترك الإنفاق ، وأبان أنه لامعذرة لهم فى ذلك فقال :

(وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض) أى وما لكم أيها الناس لاتنفقون مما رزقكم الله فى سبيله ؟ وأموالكم صائرة إليه إن لم تنفقوها فى حياتكم ، لأن له مافى السموات والأرض ميراثا .

والخلاصة — أنفقوا أموالكم فى سبيل الله قبل أن تموتوا ، ليكون ذلك ذخرا لكم عند ربكم ، فبعد الموت لاتقدرون على ذلك ، إذ تصير الأموال ميراثا لمن له السموات والأرض .

ثم بين تفاوت درجات المنفقين بحسب تفاوت أحوالهم فى الإنفاق فقال :

(لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) أى لايستوى من آمن وهاجر وأنفق ماله فى سبيل الله قبل فتح مكة ، ومن أنفق من بعد الفتح ـ ذاك أنه قبل فتحها كان الناس فى جهد وضيق ولم يؤمن إذ ذاك إلا الصديقون ، أما بعد الفتح فقد انتشر الإسلام ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، ومن ثم قال :

(أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) .

قال قتادة : كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة من قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك .

(وكلاًّ وعد الله الحسنى) أى وكل من المنفقين قبل الفتح و بعده لهم ثواب على ما عملوا ، وإن كان بينهم تفاوت فى مقدار الجزاء كما قال فى آية أخرى : « لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيماً » .

أخرج أحمد عن أنس قال : « كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أُحُد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم » .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتسبُّوا أصحابى ، فوالذى نفس محمد بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نَصِيفه » .

ثم وعد وأوعد فقال :

(والله بما تعملون خبير) أى والله عليم بظواهر أحوالكم و بواطنها ، فيجازيكم بذلك ، ولخبرته تعالى بكم فضَّل أعمال من أنفق من قبل الفتح وقاتل على من أنفق بعده وقاتل ، وما ذاك إلا لعلمه بإخلاص الأول فى إنفاقه فى حال الجهد والضيق .

ولأبى بكر الصديق الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيد من عمل بها ، إذ أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ، ولم يكن لأحد عنده من نعمة يجزيه بها .

ثم ندب إلى الإنفاق فى سبيله ، ووبخ على تركه فقال :

(من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم) أى من هذا

الذى ينفق أمواله فى سبيل الله محتسبا أجره عند ربه ، فيضاعف له ذلك القرض ، فيجعل له بالحسنة الواحدة سبعمائة ، وله بعد ذلك جزاء كريم بمثوبته بالجنة ؟ .

وعن ابن مسعود قال « لما نزلت هذه الآية : « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ؟ » قال أبو الدَّحْدَاحِ الأنصارى يارسول الله وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرنى يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده ، قال : إنى أقرضت ربى حائطى (بستانى) وكان له حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها ، قال أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح ، قالت لبيك ، قال اخرجى فقد أقرضته ربى عزوجل ، قالت له : ربح بيعك ياأبا الدحداح ونقلت منه متاعها وصبيانها فقال رسول الله : كم من عذق رَدَاح فى الجنة لأبى الدحداح » وهذا الأسلوب يستعمل فى الأمر العزيز النادر فيقال : من ذا الذى يفعل كذا ، إذا كان أمرا عظيما ، وعلى هذا جاء قوله : « مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ » .

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى ، وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِىُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ

وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) .

تفسير المفردات

المراد بالنور هنا : ما يوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة من علم وعمل ، بشراكم : أى ماتبشرون به ، انظرونا: أى انتظرونا ، وأصل الاقتباس طلب القَبَس: أى الجذوة من النار ، والسور : الحاجز ، من قِبَله : أى من جهته ، بلى : أى كنتم معنا ، فتنتم أنفسكم : أى أهلكتموها بالمعاصى والشهوات ، وتربصتم : أى انتظرتم بالمؤمنين مصايب الزمان ، وارتبتم : أى شككتم فى أمر البعث ، والأمانى : الأباطيل من طول الآمال والطمع فى انتكاس الإسلام واحدها أمنية ، والغرور (بالفتح) الشيطان ، والفدية والفداء : ما يبذل لحفظ النفس أو المال من الهلاك ، مأواكم : أى منزلكم الذى تأوون إليه ، مولاكم : أى أولى بكم ، والمصير : المآل والعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر بالإيمان والإنفاق فى سبيل الله ، وحث على كل منهما بوجود موجباته فحث على الإيمان بوجود الأسباب التى تساعد عليه وهى وجود الرسول بين أظهرهم ، وكتابه الذى يتلى بين أيديهم ، وحث على الإنفاق فأبان أن المال مال الله وهو عارية بين أيديهم ثم يُردُّ إليه ، وأنهم ينالون على إنفاقه الأجر العظيم فى جنات النعيم ، ثم ذكر أن المنفقين أول الإسلام لهم من الأجر أكثر ممن أنفقوا من بعدُ حين كثر النصير والمعين ـ ذكر هنا حال المؤمنين المنفقين يوم القيامة ، فبين أن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ليرشدهم إلى الجنة ، وأنهم يبشرون بجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ثم أردفه ذكر حال المنافقين إذ ذاك ، وأنهم يطلبون من المؤمنين

شيئا من الضوء يستنيرون به ليهديهم سواء السبيل ، فيتهكم بهم المؤمنون ويخيّبون آمالهم ويقولون لهم : ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نورا بتحصيل العلوم والمعارف ، فلا نور إلا منها ثم أرشد إلى أنه يضرب بين الفريقين حاجز باطنه مما يلى المؤمنين فيه الرحمة ، ومما يلى المنافقين فيه العذاب ، لأنه فى النار ، ثم ذكر السبب فيما صاروا إليه ، وهو أنهم أهلكوا أنفسهم بالنفاق والمعاصى ، وانتظروا أن تدور على المؤمنين الدوائر ، فينطفىء نور الإيمان ، وشكّوا فى أمر البعث وغرهم الشيطان فأوقعهم فى مهاوى الردى ، ثم أعقبه ببيان أنه لا أمل فى النجاة لهم إذ ذاك ، فلا تجدى الفدية كما كانت تنفع فى الدنيا ، فلا مأوى لهم إلا النار وبئس القرار .

الإيضاح

(يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) أى لهم الأجر الكريم حين ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى بين أيديهم مايكون السبب فى نجاتهم وهدايتهم إلى سبيل الجنة من العلوم التى كملوا بها أنفسهم فى الدنيا كالاعتقاد بالتوحيد وخلع الأنداد والأوثان ، والأعمال الصالحة التى زكوا بها أنفسهم ، وبها أخبتوا لربهم وأنابوا إليه مخلصين له الدين ، وبأيمانهم تكون كتبهم كما جاء فى آية أخرى : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً » .

(بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى وتقول لهم الملائكة : أبشروا بجنات تجرى من تحتها الأنهار جزاء وفاقا لما قدمتم من صالح الأعمال ، وجاهدتم به أنفسكم فى ترك الشرك والآثام ، وكنتم تذكرون الله بالليل والناس نيام ، فطوبى لكم وهنيئا بما عملتم .

ونحو الآية قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

(ذلك هو الفوز العظيم) أى ذلك الخلود فى الجنات التى سمعتم أوصافها هو النجح العظيم الذى كنتم تطلبونه بعد النجاة من عقاب الله .

و بعد أن ذكر حال المؤمنين فى موقف القيامة أتبعه ببيان حال المنافقين فقال :

(يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم) أى فى هذا اليوم يقول المنافقون والمنافقات : أيها الذين نجوتم بإيمانكم بربكم وفزتم برضوانه حتى دخلتم فسيح جناته ، انتظروا نلحق بكم ونقتبس من نوركم حتى نخرج من ذلك الظلام الدامس ، والعذاب الأليم الذى نحن مقبلون عليه ، فيجابون بما يخيّب آمالهم ويلحق بهم الحسرة والندامة كما قال :

(قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) أى ارجعوا من حيث أتيتم ، واطلبوا لأنفسكم هنالك نورا ، فإنه لاسبيل إلى الاقتباس من نورنا الذى كان بما قدمنا لأنفسنا وادّخرنا لها من عمل صالح ، فَأَيهاتَ أَيهاتَ أن تنالوا نورا ، إذ لا ينفع المرء حينئذ إلا عمله ، ولله در القائل :

صاح هل رَيْت أو سمعت براعٍ ردَّ فى الضَّرْع ماقرى فى الحلاب

ولا يخفى ما فى هذا من التهكم بهم ، والاستهزاء بطلبهم ، كما استهزءوا بالمؤمنين فى الدنيا حين قالوا آمنا ، وما هم بمؤمنين ، وذلك ماعناه سبحانه بقوله : « اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » أى حين يقال لهم : « ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » .

ثم ذكر ما يكون بعد هذه المقالة فقال :

(فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) أى فضرب بين الفريقين حاجز جانبه الذى يلى مكان المؤمنين وهو الجنة فيه الرحمة ، وجانبه الذى يلى المنافقين وهو النار فيه العذاب .

ثم أرشد إلى ما يكون من المنافقين حينئذ فقال :

(ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولـكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) أى ينادى المنافقون المؤمنين :

أمّا كنّا معكم فى الدار الدنيا نصلى معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ فيجيبهم المؤمنون قائلين لهم : بلى كنتم معنا ، ولكنكم أهلكتم أنفسكم باللذات والمعاصى ، وأخرتم التوبة ، وشككتم فى أمر البعث بعد الموت ، وغرتكم الأمانى ، فقلتم سيُغْفَرُ لنا ، وما زلتم كذلك حتى حضركم الموت ، وغركم الشيطان فقال لكم : إن الله عفوّ كريم لا يعذبكم.

والخلاصة — إنكم كنتم معنا بأبدانكم لا بقلوبكم ، وكنتم فى حيرة من أمركم ، فلا تذكرون الله إلا قليلا.

ثم أيأسوهم من عاقبة أمرهم ، وأنهم هالكون لا محالة ولا سبيل إلى الخلاص من النار فقال :

(فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير) أى فاليوم لو جاء أحدكم بملء الأرض ذهبا ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ما قُبِل منه ، فمصيركم إلى النار ، وإليها منقلبكم ومثواكم ، وهى أولى بكم من كل منزل آخر ، لكفركم وارتيابكم ، وساءت مصيرا ومآلا.

والخلاصة — إنه لا مناص من النار ، فلا فداء ولا فكاك منها.

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧).

تفسير المفردات

ألم يأن : ألم يجىء وقت ذلك من قولهم أنَى الأمر أنْياً وأَناء وإناء إذا جاء أناه أى وقته ، والخشوع : الخشية والخوف ، وذكر الله : مواعظه ، والحق : هو القرآن ، والذين أوتوا الكتاب : هم اليهود والنصارى ، والأمد : الزمان ، وطال عليهم الأمد :

أي طال العهد بينهم و بين أنبيائهم ، فقست قلوبهم : أي صَلُبت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة ، فاسقون : أي خارجون عن حدود دينهم ، رافضون لما جاء فيه من أوامر ونواه ، والأرض الميتة : هي التي لاتنبت شيئا ، والآيات : هي البينات والحجج ، تعقلون : أي تتدبرون .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر فرق ما بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة ، وأن الأولين لهم نور يهديهم إلى طريق الجنة ، وأن الآخرين يطلبون منهم أن يأتوهم قبسا من نورهم يهديهم إلى سبيل النجاة ، فيردونهم خائبين ، ويقولون لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا — أردف هذا عتاب قوم من المؤمنين فترت هممهم عن القيام بما نُدِبوا له من الخشوع ، ورقة القلوب بسماع المواعظ وسماع القرآن ، ثم حذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب الذين طال العهد بينهم و بين أنبيائهم فقست قلوبهم وأعرضوا عن أوامر الدين ونواهيه ، ثم أبان لهم بضرب المثل أن القلوب القاسية تحيا بالذكر وتلاوة القرآن كما تحيا الأرض الميتة بالغيث والمطر .

روى عن ابن مسعود أنه قال : « لما قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأصابوا من لين العيش ماأصابوا بعد أن كانوا في جهد جهيد ، فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا فنزلت الآية » .

وعن ابن عباس أنه قال : « إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا الآية » .

الإيضاح

(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) أي أما آن للمؤمنين أن ترق قلوبهم عند سماع القرآن والمواعظ ، فتفهمه وتنقاد له ، وتطيع أوامره ، وتنتهي عن نواهيه ؟ .

وإذا كان المؤمنون قد أصابهم الوهن ولم يمض على الإسلام أكثر من ثلاث عشرة سنة كما قال ابن عباس ، فمابالهم اليوم وقد مضى عليهم أكثر من ثلاثة عشرقرنا، فتعبير الآية عن حالهم الآن بالأولى ، فالوهن الآن أضعاف مضاعفة عما كان فى تلك الحقبة ، ومن ثم أفرط الفرنجة فى إذلالهم واستعبادهم ، وصاروا غرباء فى ديارهم ، والأمر والنهى فيها لسواهم :

ويُقضى الأمر حين تغيب تَيْمٌ ولا يستأذنون وهم شهود

ثم حذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب قبلهم فقال :

(ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) أى لا يتشبهوا بالذين حُمِّلوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى حين طال الأمد بينهم وبين أنبيائهم ، فقست قلوبهم ولم تقبل موعظة ولم يؤثر فيها وعد ولا وعيد ، وبدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا فى دين دون دليل ولا برهان ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، وكثير منهم خرج عن أوامر الدين فى الأعمال والأقوال كما قال : « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » . أى فسدت قلوبهم فقست وصار سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه ، فتركوا الأعمال التى أمروا بها ، واجترحوا ما نهوا عنه .

والخلاصة — إن الله نهى المؤمنين أن يكونوا حين سماع القرآن غير متدبرين مواعظه كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم ، لما طال العهد بينهم وبين أنبيائهم .

ثم ضرب المثل لتأثير المواعظ وتلاوة القرآن فى القلوب فقال :

(اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) أى إن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدى النفوس الحيارى بعد ضلتها ،

ويفرّج الكروب بعد شدتها ، ببراهين القرآن ودلائله ، وبالمواعظ والنصائح التى تُلين الصخر الأصم ، ويحييها بعد موتها كما يحيى الأرض الهامدة الجدبة بالغيث الوابل الهتّان، وقد ضرب لكم الأمثال كى تتدبروا وتكمل عقولكم ؛ فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، وهو الفعال لما يشاء الحكم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير المتعال .

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) .

تفسير المفردات

المصدقين : أى المتصدقين بأموالهم على البائسين وذوى الحاجة ، والقرض الحسن: هو الدفع بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ، يضاعف لهم : أى يضاعف الله لهم ثواب أعمالهم ، والصدّيق : من كثر منه الصدق وصار سجية له، والشهداء من قتلوا فى سبيل الله ، واحدهم شهيد .

المعنى الجملى

بعد أن وازن بين المؤمنين والمنافقين فيما مضى ، وأبان ما يكون بينهما من فارق يوم القيامة ـ ذكر هنا التفاوت بين حال المؤمنين وحال الكافرين .

الايضاح

(إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم) أى إن المتصدقين والمتصدقات بأموالهم ابتغاء مرضاة الله، لا يريدون جزاء ولا شكورا — يضاعف لهم ربهم ثواب إنفاقهم، فيقابل الحسنة الواحدة بعشر أمثالها، ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف، ولهم ثواب جزيل، ومرجع صالح.

(والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) أى والذين أقروا بوحدانية الله وصدقوا رسله، وآمنوا بما جاءوهم به من عند ربهم، أولئك هم فى حكم الله بمنزلة الصديقين.

(والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم) أى والذين استشهدوا فى سبيل الله لهم أجر جزيل، ونور عظيم يسعى بين أيديهم، وهم يتفاوتون فى ذلك بحسب ما كانوا فى الدار الدنيا من الأعمال

والخلاصة — إن العاملين أقسام: فمنهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون كما قال تعالى: «وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ».

ولما ذكر السعداء ومآلهم أردف ذلك ذكر حال الأشقياء فقال:

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) أى والذين كفروا بالله وكذبوا بحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وصدق رسله أولئك هم أصحاب النار خالدين فيها أبدا لا يفارقونها.

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ

يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) .

تفسير المفردات

اللعب : ما لا ثمرة له كلعب الصبيان ، واللهو : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، وزينة : أى كالملابس الفاخرة ، وتفاخر : أى بالأنساب والعظام البالية ، وتكاثر فى الأموال والأولاد : أى مباهاة بكثرة العُدد والعَدد ، والغيث : المطر ، والكفار: الزراع ، يهيج : أى يبتدئ فى اليبس والجفاف بعد أن كان أخضر ناضرا ، حطاما : أى هشيما متكسرا من يبسه ، والغرور : الخديعة .

المعنى الجملى

بعد أن بشر المؤمنين بأن نورهم يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، وحثهم على بذل الجهد وترك الغفلة ، وذكر ثواب المتصدقين والمتصدقات ـ أردف ذلك وصف حال الدنيا وسرعة زوالها وتقضيها ، وضرب لذلك مثل الأرض ينزل عليها المطر فتنبت الزرع البهيج الناضر الذى يعجب الزراع لنمائه وجودة غلته ، وبينا هو على تلك الحال ، إذا به يصفرّ بعد النضرة والخضرة ويجف ثم يتكسّر ويتفتت ، وما الحياة الدنيا إلا مزرعة للآخرة ، فمن أجاد زرعه حصد وربح ، ومن توان وكسل ندم ولات ساعة مندم .

قال سعيد بن جبير : الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة ، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة .

ثم حث على عمل ما يوصل إلى مغفرة الله ورضوانه ، ويمهد إلى الدخول فى جنات عرضها السموات والأرض ، أعدها لمن آمن به وبرسله فضلا منه ورحمة وهو المنعم عظيم الفضل .

الايضاح

(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد) أى اعلموا أيها الناس أن متاع الدنيا ماهو إلا لعب ولهو تتفكهون به ، وزينة تتزينون بها، وبها يفخر بعضكم على بعض ، وتتباهون فيها بكثرة الأموال والأولاد .

ثم ضرب مثلا يبين أنها زهرة فانية ، ونعمة زائلة فقال :

(كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما) أى ما مثل هذه الحياة فى سرعة فنائها وانقضائها على عجل إلا مثل أرض أصابها مطر وابل ، فأنبتت من النبات ما أعجب الزراع وجعلهم فى غبطة وحبور ، وبهجة وسرور ، وبينا هو على تلك الحال إذا هو يصوح ويأخذ فى الجفاف واليبس ، ثم يكون هشيما تذروه الرياح .

ونحو الآية قوله : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ » .

ثم ذكر عاقبة المنهمكين فيها، الطالبين لتحصيل لذاتها ، المتهالكين فى جمع حطامها والمعرضين عنها الطالبين لرضوان ربهم فقال :

(وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان) أى وفى الآخرة إما عذاب شديد دائم لمن انهمك فى لذاتها ، وأعرض عن صالح الأعمال ، ودسّى نفسه بالشرك والآثام ، وإما مغفرة من الله ورضوان من لدنه لمن زكّى نفسه وأخبت لربه وأناب إليه :

قدّمْ لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غِرَّةٍ زَلَجا

(وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) أى وما هذه الحياة الدنيا إلا متاعٌ فان زائل خادع، من ركن إليه ، واغترّ به وأعجبه، حتى اعتقد أن لا دار سواها ، ولا معاد وراءها .

ولما أبان أن الآخرة قريبة ، وفيها العذاب الأليم ، والنعيم المقيم ـ حث على المبادرة إلى فعل الخيرات فقال :

(سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) أى سابقوا أقرانكم فى مضمار الأعمال الصالحة ، وأدّوا ما كلفتم به من أوامر الشريعة ، واتركوا نواهيها ـ يدخلكم ربكم بما قدّمتم لأنفسكم ، جنة سعتها كسعة السموات والأرض .

ثم بين المستحقين لها فقال :

(أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) أى هيئت للذين اعترفوا بوحدانية الله وصدقوا رسله

ثم بين أن هذا فضل منه ورحمة فقال :

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) أى هذا الذى أعده الله لهم هو من فضله ورحمته ومنته عليهم .

وفى الصحيح « أن فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول الله ، ذهب أهلُ الدُّثور (الأموال) بالأجور ، والدرجات العلى ، والنعيم المقيم ، قال وما ذاك ؟ قالوا يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويُعْتِقُون ولا نعتق ، قال :

أفلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُرَ كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، قال : فرجعوا فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

(والله ذو الفضل العظيم) أى والله واسع العطاء ، عظيم الفضل ، فيعطى من يشاء ما يشاء كرما منه وفضلا ، ويبسط له الرزق فى الدنيا ، ويهب لهم النعم ، ويعرّفهم مواضع الشكر ، ثم يجزيهم فى الآخرة ما أعده لهم مما وصفه قبل .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ (٢٤) .

تفسير المفردات

فى الأرض : أى كالجدب والفاقة ، واحتلال الأجانب الظالمين ، واستيلاء الحكام الفاسقين ، فى أنفسكم : أى كالمرض والفاقة ، فى كتاب : هو اللوح المحفوظ ، نبرأها : أى نخلقها ، وتأسوا : أى تحزنوا ، ما فاتكم : أى من نعيم الدنيا ، ما آتاكم : أى ما أعطاكم ، والمختال : المتكبر بسبب فضيلة تراءت له من نفسه ، والفخور : هو المباهى بالأشياء العارضة كالمال والجاه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان أن متاع هذه الدنيا زائل فانٍ ، وأن ما فيها من خير أو شر لا يدوم - أردف ذلك تهوين المصايب على المؤمنين ، فذلك يكون مصدر سعادة نفوسهم واطمئنانها ، وبدونه يكون شقاؤها وكآبتها ، وآية ذلك أن لا يحزنوا على فائت ، ولا يفرحوا بما يصل إليهم من لذاتها الفانية .

ثم بين أن المختالين الذين يبخلون بأموالهم على ذوى الحاجة والبائسين ، ويأمرون الناس بذلك ، ويعرضون عن الإنفاق لا يجنُنَّ إلا على أنفسهم ، والله غنى عنهم ، وهو المحمود على نعمه التى لا تدخل تحت حد .

الإيضاح

(ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) أى ما أصابكم أيها الناس من مصايب فى آفاق الأرض كقحط وجدب وفساد زرع ، أو فى أنفسكم من أوصاب وأسقام - إلا فى أم الكتاب من قبل أن نبرأ هذه الخليقة . .

(إن ذلك على الله يسير) أى إن علمه بالأشياء قبل وجودها ، وكتابته لها طبق ما توجد فى حينها - يسير عليه ، لأنه يعلم ما كان وما سيكون وما لا يكون .

أخرج الحاكم وصححه عن أبى حسان : أن رجلين دخلا على عائشة رضى الله عنها فقالا إن أبا هريرة يحدّث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنما الطِّيرة فى المرأة والدابة والدار ، فقالت : والذى أنزل القرآن على أبى القاسم صلى الله عليه وسلم ما هكذا كان يقول ، كان يقول « كان أهل الجاهلية يقولون : إنما الطيرة فى المرأة والدابة والدار

ثم قرأ : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » .

(لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) أى أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تحزنوا على فائت ، ولا تفرحوا بآت .

والخلاصة — إن كل شىء قُدّر فى الكتاب ، فكيف نفرح أو نحزن ؟

قال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يحزن أو يفرح ، ولكن اجعلوا الفرح شكرا ، والحزن صبرا .

وقال حكيم : الصبر مُخْرِج من الشقاء ، فلا سعادة إلا بالصبر ، ووصول النفس إلى كمالها الخُلُقى ، بحيث يمر المال والولد والقوة والعلم عليها ، فيصيبها مرة ويخطئها أخرى وهى مطمئنة ، لايدخلها زهْو ولا إعجاب بما نالت ، ولا حزن على ما فاتها اه .

وعلى الجملة فالحزن المذموم هو ما يخرج بصاحبه إلى ما يُذْهِب عنه الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء الثواب ، والفرح المنهى عنه هو الذى يطغى على صاحبه و يلهيه عن الشكر .

(والله لايحب كل مختال فخور) أى إن المختال الفخور يبغضه الله ولا يرضى عنه .

ثم بين أوصاف المختالين الفخورين فقال :

(الذين يبخلون و يأمرون الناس بالبخل) أى إن المختالين بما أوتوا من المال يضنّون به لأنهم يرون عزّتهم فى وجوده ، و يعدُهم الشيطان بالفقر إذا هم أنفقوه ، وقد يبلغ الأمر بهم أن يأمروا سواهم بالبخل و يبدوا لهم النصائح التى تجعلهم يضنون به مدعين أن ذلك إشفاق عليهم ونصح لهم .

(ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) أى ومن يعرض عن الإنفاق فلا يضرّن بذلك إلا نفسه ، فالله غنى عن ماله وعن نفقته ، محمود إلى خلقه بما أنعم به عليهم من

نعمه ، ولا يضيره الإعراض عن شكره كما قال موسى عليه السلام لقومه : «إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ» .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)

تفسير المفردات

البينات: المعجزات والحجج ، والكتاب: أى كتب التشريع ، والميزان : العدل ، والقسط : الحق ، وأنزلنا الحديد : أى خلقناه ، والبأس : القوة ، وليعلم الله : أى ليعلمه علم مشاهدة ووجود فى الخارج .

الايضاح

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) أى ولقد أرسلنا الأنبياء إلى أممهم ومعهم البراهين الدالة على صدقهم ، المؤيدة لبعثهم من عند ربهم ، ومعهم كتب الشرائع التى فيها هداية البشر وصلاحهم فى دينهم ودنياهم ، وأمرناهم بالعدل ليعملوا به فيما بينهم ، ولا يظلم بعضهم بعضا .

ولما كان الناس فريقين فريقا يقوده العلم والحكمة، وفريقا يقوده السيف والعصا، وكان ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن ، وكان العدل والقانون لابد له من حام يحميه وهو الدولة والملك وأعوانه والجند ، وهؤلاء لابد لهم من عُدّة يحمون بها القانون والعدل فى داخل البلاد وفى خارجها أعقب هذا بقوله :

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) أى وخلقنا الحديد لتكون منه السيوف والرماح والدروع والسفن البحرية وما أشبه ذلك، وفيها القوة التى ترغم أنف الظالم، وتحمى المظلوم، وفيه منافع للناس فى حاجاتهم فى معايشهم كأدوات الصناعات، وحاجات البيوت، وقطر السكك الحديدية ونحوها .

(وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) أى وإنما فعل ذلك ليرا كم ناصرى دينه باستعمال السلاح والكُراع لمجاهدة أعدائه، وناصرى رسله وهم غائبون عنكم لايبصرونكم.

روى أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يُعْبدَ الله وحده لاشريك له، وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجُعِل الذلة والصغار على من خالف أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم» .

(إن الله قوى عزيز) أى إن الله يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته، وهو غالب على أمره، لايقدر أحد على دفع العقوبة متى أحلها بأحد من خلقه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ، وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا، مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) .

تفسير المفردات

قفاه : اتبعه بعد أن مضى، والإنجيل : الكتاب الذى أنزل على عيسى وفيه شريعته، والمراد من الرأفة : دفع الشر، ومن الرحمة : جلب الخير، وبذا يكون

بينهم مودة ، والرهبانية : ترهبهم فى الجبال فارّين بدينهم من الفتنة ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، محتملين المشاق من الخلوة واللباس الخشن والاعتزال عن النساء والتعبد فى الغيران والكهوف ، وقوله ابتدعوها : استحدثوها ولم تكن فى دينهم ، ابتغاء رضوان الله : أى طلبا لرضاه ومحبته ، فما رعوها : أى ما حافظوا عليها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات ، وأنه أنزل الميزان والحديد ، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرة رسله ــ أتبع ذلك ببيان ما أنعم به على أنبيائه من النعم الجسام ، فذكر أنه شرّف نوحا و إبراهيم عليهما السلام بالرسالة ، ثم جعل فى ذريتهما النبوة والكتاب ، فما جاء أحد بعدهما بالنبوة إلا كان من سلائلهما .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) أى ولقد بعثنا نوحا إلى طائفة من خلقنا ، ثم بعثنا إبراهيم من بعده لقوم آخرين ، ولم نرسل بعدهما رسلا بشرائع إلا من ذريتهما .

ثم بين أن هذه الذرية افترقت فرقتين فقال :

(فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) أى فمن ذريتهما مهتد إلى الحق مستبصر ، وكثير منهم ضُلّال خارجون عن طاعة الله ذاهبون إلى طاعة الشيطان ، مدسّون أنفسهم باجتراح الآثام .

وفى الآية إيماء إلى أنهم خرجوا عن الطريق المستقيم بعد أن تمكنوا من الوصول إليه ، و بعد أن عرفوه حق المعرفة ، وهذا أبلغ فى الذم وأشد فى الاستهجان لعملهم .

(ثم قفينا على آثارهم برسلنا) أى ثم بعثنا بعدهم رسولا بعد رسول على توالى العصور والأيام .

ثم خص من أولئك الرسل عيسى لشهرة شريعته فى عصر التنزيل ولوجود أتباعه فى جزيرة العرب وغيرها فقال :

(وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل) أى ثم أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى الأمر إلى عيسى عليه السلام ، وأعطيناه الإنجيل الذى أوحيناه إليه ، وفيه شريعته ووصاياه ، وقد جاء مافيه مكملا لما فى التوراة ومخففا بعض أحكامها التى شرعت تغليظا على بنى إسرائيل ، لنقضهم العهد والميثاق كما جاء فى قوله : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » .

ثم بين صفات أتباع عيسى فقال :

(وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها) أى إن أتباعه الذين ساروا على نهجه وشريعته اتصفوا بما يأتى :

(١) الرأفة بين بعضهم و بعض ، فيدفعون الشر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، و يصلحون ما فسد من أمورهم .

(٢) الرحمة فيجلب بعضهم الخير لبعض كما قال فى حق أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : « رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » .

(٣) الرهبانية المبتدعة ، فقد انقطعوا عن الناس فى الفلوات والصوامع معتزلين الخلق وحرّموا على أنفسهم النساء ولبسوا الملابس الخشنة ، تبتلا إلى الله و إخباتا له .

(ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله) أى ما فرضنا عليهم هذه الرهبانية ، ولكنهم استحدثوها طلبا لمرضاة الله والزلفى إليه .

ثم ذكر أنهم ما حافظوا عليها كما قال :

(فما رعوها حق رعايتها) أى فما حافظوا على هذه الرهبانية المبتدعة ، وما قاموا

بما التزموه حق القيام ، بل ضيعوها ، وكفروا بدين عيسى بن مريم ، فضموا إليه التثليث ودخلوا فى دين الملوك الذين غيروا و بدلوا .

وفى هذا ذم لهم من وجهين :

(١) أنهم ابتدعوا فى دين الله مالم يأمر به .

(٢) أنهم لم يقوموا بما فرضوه على أنفسهم مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى ربهم، وقد كان ذلك كالنذر الذى يجب رعايته ، والعهد الذى يجب الوفاء به .

روى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يابن مسعود ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : اختلف من كان قبلنا على إحدى وسبعين فرقة ، نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم ، فرقة من الثلاث وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى بن مريم صلوات الله عليه فقتلتهم الملوك ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك فأقاموا بين ظهرانىْ قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم صلوات الله عليه ، فقتلتهم الملوك بالمناشير ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بالمقام بين ظهرانىْ قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى صلوات الله عليه ، فلحقوا بالبرارى والجبال فترهبوا فيها فهو قول الله عز وجل « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » الآية ، فمن آمن بى واتبعنى وصدقنى فقد رعاها حق رعايتها ، ومن لم يؤمن بى فأولئك هم الفاسقون » .

(فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون) أى فآتينا الذين آمنوا منهم إيمانا صحيحا طبعت آثاره فى أعمالهم ، فزكوا أنفسهم ، وأخبتوا لربهم ، وأدّوا فرائضه ـ أجورهم التى استحقوها كِفاء ما عملوا ، وكثير منهم فسقوا عن أمر الله ، واجترحوا الشرور والآثام ، وظهر فسادهم فى البر والبحر بما كسبت أيديهم ، فكبكبوا فى النار ، وباءوا بغضب من الله ، ولهم عذاب عظيم .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) .

تفسير المفردات

قال المؤرّج السدوسى : الكفل: النصيب بلغة هذيل ، وقال غيره بل بلغة الحبشة، وقال المفضل الضبى : أصل الكفل كساء يديره الراكب حول سنام البعير ليتمكن من القعود عليه ، لئلا يعلم : أى لكى يعلم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من آمنوا من أهل الكتاب إيمانا صحيحا لهم أجرهم عند ربهم - ذكر هنا أن من آمنوا منهم بعيسى أولا وبمحمد صلى الله عليه وسلم ثانيا يؤتيهم أجرهم مرتين ، لإيمانهم بنبيهم ، ثم بمحمد من بعده ، ثم ذكر أن النبوة فضل من الله ورحمة منه لا يخص به قوما دون قوم ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته ، لا كما يقول اليهود : إن الوحى والرسالة فينا لا تعدونا إلى سوانا ، فنحن شعب الله المختار ، ونحن أبناء الله وأحباؤه .

الايضاح

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله من

أهل الكتابين التوراة والإنجيل - خافوا الله بأداء طاعته واجتناب معاصيه وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم - يعطكم ضعفين من الأجر، لإيمانكم بعيسى والأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ثم بإيمانكم بمحمد بعد أن بُعث نبيا، ويجعل لكم هدى تستبصرون به من العمى والجهالة، ويغفر لكم ما أسلفتم من الذنوب وما فرطتم فى جنب الله، والله واسع المغفرة لمن يشاء، رحيم بعباده يقبل توبتهم - متى أنابوا إليه، وخشعت له قلوبهم.

والخلاصة — إنه تعالى وعد المؤمنين برسوله بعد إيمانهم بالأنبياء قبله بأمور ثلاثة:

(١) أنه يضاعف لهم الأجر والثواب.

(٢) أن يجعل لهم نورا بين أيديهم وعن شمائلهم يوم القيامة يهديهم إلى الصراط السوى ويوصلهم إلى الجنة.

(٣) أن يغفر لهم ما اجترحوا من الذنوب والآثام.

روى الشعبى عن أبى بُرْدَة عن أبيه أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ورجل أدّب أمَته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران». رواه البخارى ومسلم.

ثم رد على أهل الكتاب الذين خصوا فضل الرسالة بهم فقال:

(لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء) أى فعلنا ذلك ليعلم أهل الكتاب أنهم لا ينالون شيئا من فضل الله من الأجرين ولا يتمكنون من نيله مالم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وخلاصة ذلك — إن إيمانهم بنبيهم لاينفعهم شيئا مالم يؤمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم .

أخرج ابن أبى حاتم قال لما نزلت « أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : لنا أجران ولكم أجر ، فاشتد ذلك على أصحابه فأنزل الله « يأيها الذين آمنوا » الآية فجعل لهم أجرين وزادهم النور .

(والله ذو الفضل العظيم) أى والله واسع الفضل كثير العطاء ، يمنحه من شاء من عباده لايخص به قوما دون آخرين ولا شعبا دون آخر .

سبحانك قسمت حظوظك بين عبادك بمقتضى عدلك وفضلك ، وآتيتهم فوق ما يستحقون بجودك وكرمك . فاللهم آتنا من لدنك الرشد والتوفيق ، واهدنا لأقوم طريق .

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

(١) صفات الله وأسماؤه الحسنى ، وظهور آثاره فى بدائع خلقه .
(٢) الحض على الإنفاق .
(٣) بشرى المؤمنين بالنور يوم القيامة .
(٤) ثواب المتصدقين الذين أقرضوا الله قرضا حسنا .
(٥) ذم الدنيا وأنها لهو ولعب .
(٦) الترغيب فى الآخرة وتشمير العزيمة للعمل لها .
(٧) التسلية على المصايب .
(٨) ذم الاختيال والفخر والبخل .

(٩) الحث على العدل .

(١٠) الاعتبار بالأمم السالفة .

(١١) قصص نوح و إبراهيم .

(١٢) إن أهل الكتاب الذين آمنوا برسلهم وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم يضاعف لهم الأجر عند ربهم .

(١٣) الله يصطفى من رسله من يشاء ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية فى صبيحة يوم الجمعة لتسع بقين من رجب الأصم من سنة خمس وستين بعد الثلثمائة والألف من هجرة سيد ولد عدنان ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة المبحث

